الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

رواية

جوزيه ساراماجو

الكهف

ترجمة: صالح علماني

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb

جوزيه ساراماجو

كاتب برتغالى ولد عام ١٩٢٢ فى مدينة أريتاجا البرتغالية.
عمل فى مهن مختلفة كصانع أقفال وميكانيكى وصحفى ومترجم قبل أن يتفرغ للأدب تماماً.
أصدر روايته الأولى "أرض الخطيئة" عام ١٩٤٧ ورغم الإحتفاء النقدى بها إلا أنه توقف عن الكتابة أكثر من عشرين عاماً، أصدر بعدها نحو عشرين كتاباً جعلته واحداً من أهم الكتاب فى العالم.
صدر له منها فى سلسلة الجوائز "الطوف الحجرى"، "الآخر مثلى"، "الذكريات الصغيرة"، "البصيرة"، "ثورة الأرض"، "الكهف"، انقطاعات الموت".
حصل على جائزة نادى القلم الدولى وجائزة كاموس البرتغالية قبل أن تتوج جوائزة بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٨.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات، تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥، كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.
ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام، الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم، وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح، وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

www.ibtesamh.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يوليو 2015 **

www.ibtesamh.com

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الكهف

www.ibtesamh.com/vb

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير	دكتور: ناصر الأنصارى
نائب رئيس مجلس الإدارة	دكتور: وحيد عبدالمجيد
نائب رئيس التحرير	دكتور: سهير المصادفة
الإشراف التنفيذى	السيد أبو شادى
مدير التحرير	السماح عبدالله
سكرتير التحرير	وردة عبدالحليم
التصميم الجرافيكى	دكتور: مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبدالواحد
	على أبوالخير

ساراماجو، جوزية.

الكهف: رواية/ جوزيه ساراماجو؛ ترجمة: صالح علمانى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩

٤٧٢ ص ؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة الجوائز)

تدمك ٩ ٩٠٧ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ـ القصص البرتغالية.

أ ـ علمانى، صالح (مترجم)

ب ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٠٢٤/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 907 - 9

ديوى ٨٦٩,٣

www.ibtesamh.com/vb

الكهف

رواية

جوزيه ساراماجو

ترجمة: صالح علماني

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

مجلة الابتسامة
www.ibtesamh.com/vb

• الكتاب: الكهف A caverna,

• تأليف" جوزيه ساراماجو José Saramago

• ترجمة: صالح علمانى.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للمؤلف.

© José Saramago & Editorial caminbo,S.A., Lisboa 2000.

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

www.ibtesamh.com/vb

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

www.ibtesamh.com/vb

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

www.ibtesamh.com/vb

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

إلى بيلار

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

يا لغرابة المشهد الذي تصفه ويا لهم من سجناء مستغرَبين.

إنهم مثلنا.

أفلاطون، الجمهورية، الكتاب السابع.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الرجل الذى يقود الشاحنة الصغيرة المغلقة يدعى سيبريانو ألجور، مهنته صانع خزف، وله من العمر أربع وستون سنة، مع إن مظهره يوحى للوهلة الأولى بأنه أصغر سناً. والرجل الجالس إلى جواره هو صهره، ويدعى مرسيال جاتشو، لم يبلغ الثلاثين بعد. ومع ذلك. فإن ملامح وجهه لا تسمح لأحد بأن يقدّر أن له من العمر كل تلك السنوات. وتلتصق باسم كل منهما، مثلما لاحظنا، كنية غريبة، يجهلان أصلها ومعناها وسببها. والاحتمال الأكبر أنهما سيشعران بالاستياء إذا ما توصلا يوماً إلى معرفة أن كلمة ألجور تعنى البرودة الشديدة فى الجسد، إشعاراً مسبقاً بالحمى، وأن جاتشو هو الجزء الذى يُثبّت عليه النير فى عنق الثور. الشاب يرتدى زياً عسكرياً، لكنه غير مسلح. وأكبرهما يرتدى سترة مدنية وبنطالاً مطابقاً لها تقريباً، ويزرر قميصه حتى العنق، دون أن يضع ربطة عنق. اليدان اللتان تديران المقود كبيرتان وقويتان، إنهما يدا فلاح، ومع ذلك فإنهما تشيان بالحساسية، ربما بتأثير الملامسة اليومية لنعومة

www.ibtesamh.com/vb

الصلصال التى يضطره إليها عمله. لا وجود فى يد مرسيال جاتشو اليمنى لشىء خاص ملفت للنظر، لكن ظاهر اليد اليسرى يكشف عن ندبة لها شكل حرق، أثر مائل يبدأ من أصل الإبهام ويمتد حتى قاعدة الخنصر. الشاحنة لا تستحق هذه التسمية، فهى مجرد عربة مغلقة من الحجم المتوسط، من طراز عفا عليه الزمن، وهى محملة بالخزف. عندما خرج الرجلان من البيت، قبل عشرين كيلومتراً، كانت السماء تبدو غير مضيئة تقريباً، أما الآن فقد أضفى الصباح على العالم ما يكفى من الضوء لرؤية ندبة يد مرسيال جاتشو وملاحظة حساسية يدى سيبريانو ألجور. إنهما يمضيان بسرعة منخفضة بسبب حساسية الحمولة، وكذلك بسبب عدم انتظام رصف الطريق. تسليم البضائع التى لا تعتبر من الضروريات الأولى أو الثانية، كما هو حال الخزف العادى الرخيص، يتم عند الضحى، وفق التوقيت السائد، وإذا كان الرجلان قد بكرا كثيراً فذلك لأن على جاتشو أن يختم بطاقة حضوره قبل نصف ساعة على الأقل من فتح أبواب «المركز» للجمهور. فى الأيام التى لا يُحضر معه صهره، وتكون لديه بضاعة عليه نقلها، لا يضطر سيبريانو ألجور إلى الاستيقاظ مبكراً هكذا. ولكنه هو نفسه من يتولى على الدوام، كل عشرة أيام، الذهاب لإحضار مرسيال جاتشو من مكان عمله كى يقضى مع أسرته أربعين ساعة الاستراحة التى يستحقها، وهو أيضاً من يعيده بعد ذلك، فى الموعد الدقيق، إلى

www.ibtesamh.com/vb

مسئولياته وواجباته كحارس داخلى، سواء أكان هناك خزف فى صندوق الشاحنة أم لم يكن. ابنة سيبريانو ألجور، المدعوة مارتا، وتحمل كنية إساسكا من جهة أمها المتوفاة، وكنية ألجور من جهة أبيها، لا تحظى بحضور زوجها فى البيت، وفى الفراش، سوى ست ليال وثلاثة نهارات كل شهر. وقد حبلت فى واحدة من تلك الليالى، لكنها لم تعرف ذلك بعد.

المنطقة قاحلة، قذرة، لا تستحق أن ننظر إليها مرتين. وقد أطلق أحدهم على هذه الامتدادات التى ليس فى مظهرها أى شىء من الريف، التسمية التقنية «الحزام الزراعى» وسُميت كذلك، فى تناظر شاعرى، «الحزام الأخضر» مع أن المشهد الوحيد الذى تتمكن العينان من بلوغه على جانبى الطريق العام، مغطية دون انقطاع محسوس آلافاً كثيرة من الهكتارات، هو هياكل كبيرة ذات سقوف مسطحة، مستطيلة، مصنوعة من بلاستيك ذى لون محايد، حوّله الزمن وزوابع الغبار شيئاً فشيئاً إلى الرمادى والداكن. فى الأسفل، خارج مدى نظرات من يمر، تنمو نباتات. وعبر درب ثانوية تخرج من هنا وهناك، وتأتى لتصب فى الطريق العام، شاحنات وجرارات موصولة بمقطورات محملة بالخضراوات، مع أن عمليات الشحن الكبرى تكون قد أُنجزت خلال الليل، أما هذه الشاحنات التى تظهر الآن، فإما أن لديها تصريحاً محدداً واستثنائياً لتسليم البضاعة فى وقت متأخر، أو أن سائقيها استغرقوا فى النوم. رفع

www.ibtesamh.com/vb

مرسيال جاتشو كُمّ سترته الأيسر خفية لينظر إلى الساعة، إنه قلق لأن حركة المرور تبدأ بالكثافة تدريجياً ولأنه يعرف أن المصاعب تتزايد من هنا وإلى الأمام، عندما يدخلون الحزام الصناعى. انتبه الحمو إلى حركة الصهر، لكنه ظل صامتاً، فصهره هذا شاب لطيف دون شك، وإن يكن عصبياً، من سلالة القلقين منذ الولادة، فهو قلق على الدوام من انقضاء الوقت، حتى عندما يكون لديه فائض منه، ويبدو أنه، فى هذه الحالة، لا يعرف أبداً ما يتوجب عليه أن يضعه فيه، أعنى فى الوقت، وفكر: كيف سيصير عندما يصبح فى مثل سنى. خلّفا وراءهما الحزام الزراعى، وبدأ الطريق الذى صار الآن أكثر قذارة باختراق الحزام الصناعى ماراً بين منشآت صناعية من كل الأحجام والنشاطات والصناعات، حيث تنتصب خزانات وقود كروية وإسطوانية، ومحطات توليد كهربائية، وشبكات أقنية، وأنابيب تهوية، وجسور معلقة، ومواسير من كل الثخانات، بعضها أحمر وبعضها أسود، ومداخن تطلق فى الجو سحب دخان سامّة، ورافعات طويلة الأذرع، ومختبرات كيميائية، ومصافى تكرير بترول، وروائح نتنة، أو مُرّة أو حلوة، ودوى مثاقب صاخبة، وأزيز مناشير آلية، وضربات مطارق هرس، ومنطقة صمت بين حين وآخر. لا أحد يعرف ما الذى يجرى إنتاجه هناك. وكان أن قال سيبريانو ألجور عندئذ، لا تقلق، سنصل فى الوقت المناسب، فرد صهره، موارياً قلقه دون نجاح، لستُ قلقاً، وقال سيبريانو ألجور، أعرف

www.ibtesamh.com/vb

ذلك، ولكنها مجرد طريقة لتبادل الكلام. انحرف بالشاحنة نحو طريق موازٍ مخصص لحركة المرور المحلية، وقال، سنختصر الطريق من هنا، فإذا ما سألتنا الشرطة لماذا تركنا الطريق العام، تذكّر ما اتفقنا عليه، سندّعى بأن لدينا مسألة يجب حلّها فى أحد هذه المصانع قبل ذهابنا إلى المدينة. تنفس مرسيال جاتشو بعمق. حين تكون حركة المرور معقدة على الطريق العام، ينتهى الأمر بحَميّه، عاجلاً أو آجلاً، إلى سلوك طريق فرعى. ما كان يثير جزعه هو إمكانية أن يسهو حموه ثم يأتى قراره متأخراً. ولحسن الحظ، بالرغم من المخاوف والتحذيرات، لم توقفهما الشرطة قطُّ. وفكر مرسيال: يوماً ما سيقتنع بأننى لست صبياً صغيراً، وأنه ليس عليه أن يذكّرنى فى كل مرة بهذا الكلام عن وجود مسألة يتوجب علينا حلها فى المصانع. لم يتصور أى منهما أن زىّ حارس «المركز» الذى يرتديه مرسيال جاتشو، هو السبب فى تسامح شرطة المرور المتواصل أو عدم مبالاتها، وأن ذلك التسامح لم يكن مجرد نتيجة مصادفات متعددة أو حسن طالع دائم، كما كان من المحتمل أن يجيبا إذا ما سُئلا عن سبب عدم تعرضهما، فى اعتقادهما، لغرامة المخالفة حتى الآن. ولو عرف مرسيال جاتشو السبب، فربما كان سيتباهى أمام حميّه بأهمية السلطة التى يضفيها عليه الزى الرسمى الذى يرتديه، ولو عرفه سيبريانو ألجور، فربما كان سيتحدث إلى صهره بقدر أقل من الملاطفة الساخرة.

www.ibtesamh.com/vb

إنها حقيقة جيدة، فالشباب لا يعرف ما يمكنه تحقيقه، والشيخوخة لا تتمكن من تحقيق ما تعرفه.

بعد الحزام الصناعى تبدأ المدينة، ولكن ليس المدينة بمعنى الكلمة، فهى تُلمح هناك فى البعيد، يلامسها ضوء الشمس الأول الوردى بما يشبه المداعبة، أما ما يُرى هنا فهى تجمعات فوضوية من أكواخ مبنية من أية مواد متنوعة، معظمها مؤقت وغير ثابت، يمكن لها أن تساعد فى حماية ساكنيها سيئى التدثر، من رداءة الجو، وخصوصاً من المطر والبرد. إنها، على حد قول سكان المدينة، مكان مثير للقلق. ففى هذه المناطق، وباسم المسلَّمة البديهية الكلاسيكية القائلة إن الحاجة أيضاً تفرض المشروعية، تتعرض شاحنة محملة بالأغذية، بين حين وآخر، للسطو والتفريغ فى وقت أقصر مما تحتاجه رواية الحدث. المنهج العملياتى فى السطو، وهو فعال بصورة مثالية، جرت صياغته وتطويره بعد تأمل جماعى مُفصّل لنتائج المحاولات الأولى المحبطة بسبب الغياب الكامل للإستراتيجية، كما تبين بوضوح، وبسبب تكتيك قديم، إذا صحت تسمية تكتيك، وأخيراً بسبب قصور وخطأ فى تنسيق الجهود التى تبقى عملياً مجرد جهود وحسب. فحيث إن تدفق حركة المرور يبقى شبه متواصل فى الليل، فإن قطع الطريق من أجل إيقاف شاحنة، مثلما كانت الفكرة الأولى، كان يؤدى إلى وقوع المهاجمين فى الفخ الذى نصبوه بأنفسهم، ذلك أن شاحنات أخرى ستأتى وراء تلك الشاحنة، حاملة

www.ibtesamh.com/vb

تعزيزات ونجدة فورية للسائق الذى وقع فى المأزق. أما حل المشكلة، وهو حل عبقرى بالفعل، حسب ما اعترفت به، بصوت خافت، السلطات الشرطية نفسها، فتلخص فى انقسام المهاجمين إلى جماعتين، واحدة تكتيكية وأخرى إستراتيجية، وفى إقامة حاجزين بدلاً من حاجز واحد، إذ تبدأ الجماعة التكتيكية بقطع الطريق مباشرة بعد مرور الشاحنة التى تسير منفصلة عن الأخريات، وبعد ذلك تقوم الجماعة الإستراتيجية، على مسافة بضع مئات من الأمتار إلى الأمام، بعد إعلامها بإشارة ضوئية فى الوقت المناسب، بإقامة الحاجز الثانى بالسرعة نفسها، بحيث لا يبقى مفر أمام الشاحنة التى حَكم عليها القدر سوى التوقف والتسليم بأن تُسرق حمولتها. أما السيارات الآتية من الاتجاه المعاكس فلا حاجة لقطع الطريق عليها، فالسائقون أنفسهم يتوقفون بعد أن يكونوا قد تقدموا قليلاً، حين ينتبهون إلى ما يحدث. فتتولى جماعة ثالثة، تدعى جماعة التدخل السريع، ثنى عزيمة أى متضامن جرىء بوابل من الحجارة. تقام الحواجز بأحجار كبيرة تُحمل على محفات، ثم يقوم بعض المهاجمين أنفسهم فيما بعد، وهم يُقسمون ويرددون إنه لا علاقة لهم بما حدث، بالمساعدة فى رفعها من الطريق قائلين، هؤلاء الناس هم الذين يسيئون إلى سمعة حينا، نحن الناس الشرفاء، بينما يكتفى سائقو الشاحنات الأخرى المتلهفون لإنهاء تنظيف الطريق كيلا يصلوا متأخرين

www.ibtesamh.com/vb

إلى «المركز» بالردّ، حسن، لا بأس. وقد نجت شاحنة سيبريانو ألجور الصغيرة من مثل حوادث الطريق تلك، حتى اليوم على الأقل، لأنها تمر من هذه الأماكن على الدوام تقريباً فى وضح النهار. فهناك إدراك، عملياً، بأن الأوانى الخزفية غالباً ما تذهب إلى مائدة الفقير، وهى سهلة الكسر، وصانع الخزف ليس بمنجى من أن يخطر لامرأة من النساء الكثيرات اللواتى يعشن حياة سيئة فى تلك الأكواخ، أن تقول فى أحد الأيام لرب أسرتها، نحن بحاجة إلى أطباق جديدة، فيكون رده عليها بالتأكيد، سأتولى تدبر هذا الأمر، توجد شاحنة صغيرة تمر من هنا أحياناً وعليها من الخارج كتابة تقول مشغل خزف، ولا بد أن تكون فيها أطباق، فتضيف المرأة منتهزة المدّ المواتى، وفناجين، إننا بحاجة إلى فناجين أيضاً، لا تنسَ ذلك.

بين الأكواخ وأول عمارات المدينة، كأرض محايدة تفصل قسمين متواجهين، هناك فضاء فسيح خالٍ من الأبنية، ولكن، إذا جرى النظر إليه بقليل من الاهتمام، لا تُلحظ فيها سوى شبكة من آثار عجلات الجرارات المتقاطعة، وبعض أعمال التسوية التى لا يمكن أن تكون قد أحدثتها إلا جرافات ميكانيكية كبيرة، تلك الشفرات المقعرة التى لا تكل، والتى تحمل، بلا ألم أو شفقة، كل شىء أمامها، البيت القديم، الجذر الجديد، الجدار الذى يُؤوى من يلوذون به، مكان ظل لن يعود أبداً إلى ما كان عليه. ومع ذلك، ومثلما يحدث فى الحياة، عندما نظن أنهم قد انتزعوا منا كل شىء، ثم

www.ibtesamh.com/vb

نكشف فجأة أنه قد بقى لدينا شىء ما، تظهر هنا أيضاً أشياء مبعثرة، بعض الأسمال المتسخة، بعض بقايا الفضلات، بعض الصفائح الصدئة، بعض ألواح الخشب المنخورة، قطعة بلاستيك تأتى بها الريح وتأخذها تُذكِّرنا بأن هذه الأرض كانت تشغلها أحياء هامشية من قبل. ولن يمضى وقت طويل حتى تتقدم عمارات المدينة فى خط نار أول لتسيطر على قطعة الأرض، تاركة بين أكثرها تقدماً وأول الأكواخ مجرد شريط ضيق، أرضاً محايدة جديدة، تبقى هكذا طالما لم تحن بعد لحظة الانتقال إلى المرحلة الثالثة.

الطريق العام الرئيسى، الذى رجعا إليه الآن، صار أكثر اتساعاً، مع وجود مسرب مخصص حصراً لمرور السيارات الثقيلة، ومع أنه لا يمكن للشاحنة المغلقة الصغيرة، إلا بهذيان المخيلة، أن تُضم إلى ذلك النوع الضخم، إلا أن واقع كونها سيارة شحن دون شك، يمنح سائقها حق المنافسة على قدم المساواة مع الآليات الخرافية الضخمة والبطيئة التى تشخر، تئن، تنفث سحابات خانقة من عوادمها، وتجاوزها بسرعة، بتلويات رشيقة تجعل قطع الخزف فى الجزء الخلفى ترن. نظر مرسيال جاتشو مرة أخرى إلى الساعة وتنفس بعمق. سيصل فى الموعد. لقد صارا فى محيط المدينة، وما زال عليهما اجتياز عدد من الشوارع ذات التخطيط المضطرب، التفاف إلى اليسار، ثم الالتفاف إلى اليمين، ومرة أخرى إلى اليسار، ومرة أخرى إلى اليمين، والآن إلى اليمين، ثم

www.ibtesamh.com/vb

إلى اليمين، اليسار، اليسار، اليمين، فى خط مستقيم، والدخول أخيراً إلى ساحة حيث تنتهى المصاعب، جادة مستقيمة تقودهما إلى هدفهما، هناك حيث يُنتظر وصول الحارس الداخلى مرسيال جاتشو، وهناك سيُفرغ صانع الخزف سيبريانو ألجور حمولته. فى العمق، يوجد سور شاهق الارتفاع، قاتم، أكثر علواً من أعلى البنايات المحاذية للجادة، يقطع الطريق فجأة. إنه لا يقطعه فى الواقع، وافتراض ذلك هو نتيجة وهم بصرى، فهناك شارعان، على هذا الجانب وذاك، يتواصلان على امتداد السور، وهذا بدوره ليس سوراً، بل هو أقرب إلى جدار بناء هائل، مبنى عملاق، مربع الشكل، بلا نوافذ فى الواجهة الملساء، متماثل فى امتداده **كله**. ها قد وصلنا، قال سيبريانو ألجور، وقد وصلنا فى وقت مناسب كما ترى، مازالت لديك عشر دقائق حتى يحين موعد دخولك، أنت تعرف جيداً مثلما أعرف أنا السبب فى أننى لا أستطيع التأخر، فسوف أفقد موقعى فى قائمة المرشحين لوظيفة الحارس المقيم، **ليست** هذه بالفكرة التى تهم زوجتك كثيراً، فكرة التحول إلى حارس مقيم، **إنها** أفضل لنا، سيكون لدينا مزيد من وسائل الراحة، وشروط حياة أفضل. أوقف سيبريانو ألجور الشاحنة الصغيرة قبالة ركن المبنى، بدا كما لو أنه سيرد على صهره، ولكن ما فعله هو السؤال، **لماذا** يهدمون مجموعة المبانى تلك، **لقد** تأكد الأمر أخيراً، **ما** هو الذى تأكد، **منذ** أسابيع يدور الحديث عن عملية توسيع، أجاب

www.ibtesamh.com/vb

مرسيال جاتشو بينما هو يخرج من الشاحنة. كانا قد توقفا قبالة باب تُقرأ فوقه لافتة كتبت عليها كلمات: مدخل مخصص لموظفى الأمن. قال سيبريانو ألجور، ربما، فرد عليه، **ليس** ربما، فالدليل ظاهر للعيان، لقد بدأت أعمال الهدم، **لستُ** أعنى عملية التوسيع، وإنما ما قلته من قبل عن شروط الحياة، ولن أجادل حول وسائل الراحة، فنحن لا يمكننا التذمر على أية حال، فلسنا من أسوأ الناس حظاً، أحترم وجهة نظرك، ولكن لدى وجهة نظرى، وسترى كيف أن مارتا ستتفق معى فى الرأى عندما يحين الوقت. خطا خطوتين، توقف، ولا بد أنه فكر فى أنها ليست الطريقة الصحيحة التى يودع بها صهرٌ حماه الذى أوصله إلى العمل، فقال، **شكراً**، وأتمنى لك رحلة عودة طيبة، فقال صانع الخزف، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، وقال الحارس الداخلى، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، فى الوقت الذى كان يحيى فيه زميلاً له وصل للتو. مضيا معاً، وعندئذ أُغلق الباب.

شغّل سيبريانو ألجور المحرك، ولكنه لم ينطلق فوراً. نظر إلى المبانى التى تُهدم. فى هذه المرة، ربما بسبب انخفاض علو المبانى التى سيهدمونها، لم تُستخدم المتفجرات فى الهدم، هذه الطريقة الحديثة، السريعة، الاستعراضية التى يمكن لها فى ثلاث ثوان أن تحول بناء متيناً ومنظماً إلى كومة مختلطة من الأنقاض. ومثلما هو متوقع، كان الشارع الذى يشكل زاوية قائمة مع هذا مغلقاً أمام حركة المرور. ومن أجل

www.ibtesamh.com/vb

تسليم البضاعة، سيجد صانع الخزف نفسه مضطراً إلى المرور من وراء العقار الذى يُهدم، والدوران حوله، والمواصلة إلى الأمام بعد ذلك، فالبوابة التى سيطرقها موجودة فى الزاوية القصوى، إنها بالضبط، من النقطة التى هو فيها، فى الطرف الآخر من خط وهمى يجتاز بشكل منحرف المبنى الذى دخله مرسيال جاتشو، بخط منحرف، حدد صانع الفخار ذهنياً لكى يوجز الشرح. عندما سيرجع بعد عشرة أيام لأخذ صهره، لن يكون هناك أى أثر لهذه العقارات، وستكون قد استقرت سحب غبار الهدم التى تطفو الآن فى الهواء، بل ويمكن أن يكون قد بدأ حفر الحفرة الكبيرة حيث ستشق الأخاديد وتغرس أعمدة البناء الجديد. وبعد ذلك ستُرفع الثلاثة جدران، أحدها بمحاذاة الشارع الذى سيتعين على سيبريانو ألجور أن يلتف حوله بعد قليل، وجداران آخران يغلقان من هذا الجانب وذاك الأرض المكتسبة من الشارع الأوسط ومن هدم الأبنية، فيخفيا واجهة البناء التى مازالت مرئية الآن، وسيتبدل موقع بوابة دخول موظفى الأمن، ولن تكون ثمة حاجة إلى أيام كثيرة كيلا يعود بمقدور شخص شديد الفطنة أن يميزها حين ينظر من الخارج، وسيكون تمييزه أقل من ذلك إذا ما نظر إليها من داخل المبنى، بين البناء الجديد والبناء السابق. نظر صانع الخزف إلى ساعته، مازال الوقت مبكراً، ففى الأيام التى يُوصل فيها صهره يضطر إلى الانتظار ساعتين ريثما يفتح قسم تلقى البضاعة

www.ibtesamh.com/vb

المخصص له، والانتظار بعد ذلك طوال الوقت اللازم ريثما يصله الدور، وفكر، لكننى سأنال امتياز الحصول على موقع جيد فى صف الانتظار، بل ويمكن لى أن أكون الأول. لم يكن كذلك قطّ، فدائماً يحضر أناس مبكرين أكثر منه، لا بد أن بعض أولئك السائقين قد أمضوا شطراً من الليل فى كابينات شاحناتهم. وعندما يشعشع النهار يصعدون إلى الشارع ليتناولوا فنجان قهوة وخبزاً وشيئاً من الطعام، وكأس خمر فى الصباحات الرطبة والباردة، وبعد ذلك يبقون هناك، يتبادلون الأحاديث فيما بينهم، إلى ما قبل عشر دقائق من فتح الأبواب، وعندئذ يركض الشبان منهم، بعصبية كمتدربين، نازلين المنحدر ليأخذوا مواقعهم، أما كبار السن، لاسيما إذا كانوا فى الأماكن الأخيرة فى الصف، فينزلون وهم يتناقشون بحماس، ويعبون آخر أنفاس السيجارة، لأن التدخين غير مسموح به فى القبو، لوجود محركات دائرة. فهم يرون أن نهاية العالم لم تحن بعد، ولن يكسبوا شيئاً من الركض.

حرك سيبريانو ألجور السيارة. لقد شرد ذهنه فى هدم الأبنية، ويريد الآن تعويض الوقت الضائع، وهذه كلمات خرقاء بين أكثر الكلمات خراقة، عبارة سخيفة نظن أننا نخدع بها الواقع القاسى الذى لا يمكن فيه تعويض أى وقت ضائع، كما لو أننا نظن، خلافاً لهذه الحقيقة، أن الوقت الذى اعتبرناه ضائعاً إلى الأبد قد قرر البقاء متوقفاً وراءنا، ينتظر بصبر

www.ibtesamh.com/vb

من يملك تحت تصرفه الوقت كله، أن نشعر بفقدانه. ومدفوعاً بالتسرع المتولد من التفكير فيمن يصل أولاً ومن يصل تالياً، دار صانع الخزف بسرعة حول مجموعة الأبنية، ودخل مباشرة عبر الشارع الذى يحد واجهة المبنى الأخرى. ومثلما هى العادة الثابتة، كان هناك أناس ينتظرون أن تُفتح الأبواب المخصصة للجمهور. انتقل إلى مسرب المرور الأيسر، من أجل انعطافة الدخول إلى المنحدر الذى ينزل إلى الطابق تحت الأرضى، أظهر للحارس بطاقته كممون واحتل مكانه فى رتل السيارات، وراء شاحنة صغيرة محملة بصناديق، وبالنظر إلى الكتابة التى على التغليف، فإنها تحتوى أوانى زجاجية. خرج من شاحنته ليتأكد من عدد السيارات التى أمامه، ويقدر بذلك، بصورة تقريبية، كم من الوقت عليه أن ينتظر. إنه يحتل الرقم ثلاثة عشر. عدّ السيارات ثانية، ولم يكن هناك شك. ومع أنه ليس شخصاً متطيراً، إلا أنه لا يجهل سمعة هذا الرقم السيئة، ففى أى حديث حول المصادفة، والقدرية، والقضاء والقدر، يكون هناك دائماً من يأخذ الكلام ليروى حالات معيشة تحت التأثير السلبى، والمشئوم أحياناً، للعدد ثلاثة عشر. حاول أن يتذكر إذا ما كان قد احتل فى مناسبة أخرى هذا المكان فى الدور، ولكنه توصل إلى أحد أمرين، فإما أن ذلك لم يحدث قط، وإما أنه ببساطة لا يتذكر. تجادل مع نفسه، قال إنه كلام فارغ، ومن السخف القلق من شىء لا وجود له فى الواقع، أجل، صحيح،

www.ibtesamh.com/vb

إنه لم يفكر فى هذا الأمر من قبل، فالأرقام عملياً غير موجودة فى الواقع، والأشياء لا تعبأ بالرقم الذى يخصص لها، سيان أن يقال إنها ثلاثة عشر، أو أربعة وأربعون، أدنى ما يمكن استخلاصه هو أنها لا تعى المكان الذى كان من نصيبها أن تشغله. الأشخاص ليسوا أشياء، الأشخاص يريدون أن يحتلوا على الدوام الأماكن الأولى، هذا ما فكر فيه صانع الخزف، ودمدم: لا يريدون أن يكونوا فى الأماكن الأولى وحسب، بل يريدون كذلك أن تُذكر تلك الأماكن وأن يلحظها الآخرون. كان القبو خاوياً، باستثناء الحارسين اللذين يراقبان، كل واحد من جانب، حركة الدخول والخروج، فالسائقون يتركون سياراتهم عند مجيئهم ويصعدون إلى الشارع، إلى المقهى. إنهم مخطئون جداً إذا ما ظنوا أننى سأبقى هنا، قال سيبريانو ألجور بصوت عال. رجع القهقرى بشاحنته كما لو أنه اكتشف للتو أن ليس لديه ما يُفرغه وخرج من الرتل، وفكر: هكذا لن أكون الثالث عشر. وبعد دقائق قليلة نزلت شاحنة على المنحدر وتوقفت فى المكان الذى تركته الشاحنة الصغيرة خاوياً. قفز سائقها من الكابينة، نظر إلى ساعته، ولا بد أنه فكر، مازال لدى بعض الوقت. وعندما اختفى فى أعلى المنحدر، ناور صانع الخزف بسرعة وتوقف وراء الشاحنة. إننى الرابع عشر الآن، قال راضياً عن دهائه. استند فى المقعد، تنهد، وكان يسمع فوق رأسه دوى حركة المرور فى الشارع، لقد كان من عادته هو أيضاً أن يصعد

www.ibtesamh.com/vb

لتناول القهوة وشراء الصحيفة، ولكنه لا يجد رغبة فى الصعود اليوم. أغمض عينيه كما لو أنه يتقهقهر إلى أعماق نفسه ودخل فوراً فى إغفاءة، كان صهره هو من يشرح له أن الأمور ستتغير كما يتغير الليل إلى صباح، عندما سيُعين حارساً مقيماً، وإنه هو ومارتا سيتركان مشغل الخزف، فقد حان الوقت ليبدأ حياة مستقلة عن الأسرة، **كن** متفهماً، ما يجب أن يكون، كما يقول المثل، له قوة كبيرة، العالم لا يتوقف، وإذا كان الأشخاص الذين تعتمد عليهم يشجعونك، فما يتوجب عليك عمله هو أن ترفع يديك إلى السماء وتحمدها، وسيكون من البلاهة إدارة الظهر للحظ عندما يحالفنا، كما أننى واثق من أن رغبتك الكبرى هى أن تكون مارتا سعيدة، ولهذا عليك أن تكون سعيداً. وكان سيبريانو ألجور يسمع صهره ويبتسم فى أعماقه، إنك تقول كل هذا لأنك تظن أننى الثالث عشر، ولا تعرف أننى صرت الآن الرابع عشر. استيقظ على خبط أبواب السيارات، وهى إشارة إلى أن أعمال التفريغ ستبدأ. عندئذ، ودون أن يكون قد رجع تماماً من غفوته، فكر، **لم** أبدل رقمى، إننى الثالث عشر فى موقع الرابع عشر.

هكذا كان. بعد ساعة من ذلك تقريباً جاء دوره. نزل من الشاحنة واقترب من منضدة كونتوار التلقى مع الأوراق المعهودة، وثيقة التسليم فى ثلاث نسخ، والفاتورة الخاصة بمبيعات الدفعة الأخيرة المصدقة، ووثيقة رقابة جودة التصنيع التى ترافق كل شحنة،

www.ibtesamh.com/vb

وفيها يتعهد مشغل الخزف بتحمل المسئولية عن أى خلل فى التصنيع يضبط فى الفحص الذى ستخضع له القطع، ووثيقة تأكيد الحصرية، وهى إجبارية كذلك عند تسليم كل شحنة، وفيها يلتزم مشغل الخزف، مخضعاً نفسه لعقوبات فى حال المخالفة، بعدم إقامة علاقات تجارية مع مؤسسات تجارية أخرى لبيعها بضاعته. وكما هى العادة، اقترب موظف للمساعدة فى تفريغ البضاعة، ولكن معاون رئيس قسم الاستلام ناداه وأمره، أنزل نصف ما أحضره فقط وطابقه مع عقد التسليم. فسأله سيبريانو ألجور متفاجئاً ومذعوراً، النصف، لماذا، المبيعات انخفضت كثيراً خلال الأسابيع الماضية، وربما سنضطر إلى أن نعيد إليك ما هو فى المستودع، بسبب عدم بيعها، تعيدون ما هو موجود فى المستودع، أجل، فهذا وارد فى العقد، أعرف أنه وارد فى العقد، ولكن هناك فى العقد كذلك أنكم لا تسمحون لى بالتعامل مع زبائن آخرين، فقل لى إذاً لمن سأبيع النصف الآخر، هذا ليس من صلاحياتى، أنا أنفذ الأوامر التى أتلقاها فقط، هل يمكننى التحدث إلى رئيس القسم، لا، لن تستفيد شيئاً، فلن يستقبلك. كانت يدا سيبريانو ألجور ترتعشان، نظر فيما حوله مرتبكاً، متوسلاً المساعدة، ولكنه لم يقرأ سوى عدم مبالاة فى وجوه السائقين الثلاثة الذين قدموا بعده. ومع ذلك، حاول الاستعانة بالتضامن الطبقى، انظروا الوضع الذى أنا فيه، رجل يأتى إلى هنا بنتاج عمله، أخرجَ التراب،

www.ibtesamh.com/vb

خلطه بالماء، خفقه، عجن الخليط، صنع الأوانى التى أوصوه بصنعها، وشواها فى الفرن، والآن يقولون له إنهم سيأخذون نصف ما صنعه فقط وسيعيدون إليه ما هو لديهم فى المستودع، أريد أن أعرف إن كانت هناك عدالة فى هذا التصرف. نظر السائقون بعضهم إلى بعض، هزوا أكتافهم، لم يكونوا واثقين مما إذا كان ملائماً لهم الرد، ولا ممن سيكون الرد مفيداً له، أخرج أحدهم سيجارة ليبين أنه يتنصل من المسألة، ثم تذكر أنه لا يمكن التدخين هناك، فأدار عندئذ ظهره والتجأ إلى كابينة الشاحنة، بعيداً عن الأحداث. أدرك صانع الخزف أنه سيفقد الكثير إذا ما واصل الاحتجاج، فرغب فى إلقاء ماء على النار التى أشعلها هو نفسه، وفكر فى أن بيع النصف على أى حال هو أفضل من لا شىء، ولا بد أن يتم فى النهاية إصلاح الأمور. وتوجه بإذعان إلى نائب رئيس الاستلام، أيمكنك أن تخبرنى بما حدث حتى انخفضت المبيعات إلى هذا الحد، أظن أن السبب هو ظهور قطع بلاستيكية تقلد الخزف، تقلده بصورة جيدة تبدو معها حقيقية، مع ميزة أنها أخف وزناً وأرخص ثمناً بكثير، هذا ليس مسوغاً لعدم شراء بضاعتى، فالخزف هو الخزف دوماً، إنه حقيقى، طبيعى، قل هذا الكلام للزبائن، لا أريد أن أسبب لك الغم، ولكننى أظن أن خزفك لم يعد يهم منذ الآن سوى هواة الجمع، وهؤلاء فى تناقص مستمر. كانت عملية العدّ قد انتهت، فدون نائب الرئيس على وثيقة

www.ibtesamh.com/vb

الاستلام، تسلمت النصف، وقال، **لا** تحضر أى شىء بعد الآن إلى أن نخبرك بذلك، فسأله صانع الخزف، **أ**وتظن أننى سأتمكن من مواصلة التصنيع؟ **ا**لقرار لك، فأنا لا أتحمل مسئولية ذلك، **و**ماذا عن الإعادة، **هل** ستعيدون إلى ما هو موجود فى المستودع؟ وكانت الكلمات ترتعش من اليأس وتقال بمرارة أراد الآخر معها أن يكون مهادناً، **سوف** نرى. دخل صانع الفخار إلى الشاحنة، انطلق بفظاظة، بعض الصناديق، سيئة التثبيت بعد إفراغ نصف الحمولة، انزلقت واصطدمت بعنف بالباب الخلفى، **فـ**ليتكسر كل شىء دفعة واحدة، صرخ بغضب. كان عليه أن يتوقف عند مطلع منحدر الخروج، فالأنظمة تأمر بتقديم البطاقة أيضاً لهذا الحارس، إنها أمور بيروقراطية، لا أحد يعرف سببها، ففى البدء من يدخل مموِّناً، مموِّناً سيخرج، ولكن هناك استثناءات كما يبدو، ولدينا هنا حالة سيبريانو ألجور الذى كان كذلك لدى الدخول، أما الآن، إذا ما تحققت التهديدات، فهو فى سبيله إلى ألا يكون كذلك. من المؤكد أن الثلاثة عشر هو السبب، فالقدر لا تخدعه مناورات تأخير ما كان متقدماً. صعدت الشاحنة المنحدر، خرجت إلى ضوء النهار، ليس هناك ما يمكنه عمله، اللهم إلا الرجوع إلى البيت. ابتسم صانع الخزف بأسى، **لـ**م يكن الثلاثة عشر هو السبب، فالثلاثة عشر لا وجود له، ولو كان الأول فى المجىء فإن الحكم سيكون هو نفسه، الآن النصف، وبعد ذلك سنرى، يا لبراز الحياة.

www.ibtesamh.com/vb

امـرأة الأكـواخ، تـلك الـتى تحـتـاج إلى أطـبـاق وفناجين جديدة، سـألت زوجها، **مـ**اذا جرى، ألم تجد شـاحـنـة مـشـغل الخـزف، ويـرد عـلـيـهـا الـزوج، **بـ**لى، أجبرتها على التوقف، ولكننى تركتها تمضى فى سبيلها بعد ذلك، **لـ**ماذا تركتها، أراهن لو أنكِ رأيتِ وجه الـرجل الـذى كـان فـى داخـلـهـا، لـكـنتِ فـعـلتِ مـا فعلتُه.

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

أوقف صانع الخزف شاحنته الصغيرة، أنزل زجاج أحد الجانبين، ثم الجانب الآخر، وانتظر أن يأتى من يسطو عليه. فمن غير المستهجن أن تدفع بعض حالات اليأس الروحى، أو بعض ضربات الحياة، ضحيتها إلى قرارات بمثل هذه الدراماتيكية، إن لم يكن إلى ما هو أسوأ منها. تأتى لحظة يسمع فيها الشخص المزعزع أو المهان صوتاً يصرخ فيه من داخل رأسه، خسارة العشرة هى خسارة المائة، وعندئذ يتصرف حسب خصوصيات الوضع الذى هو فيه أو المكان الذى يجده الوضع نفسه فيه، فإما أن ينفق آخر ما لديه من نقود فى شراء بطاقة يانصيب، أو يضع على مائدة القمار الساعة الموروثة عن أبيه أو محفظة النقود الفضية التى أهدتها إليه أمه، أو يراهن بكل شىء على الأحمر بالرغم من أنه رأى هذا اللون يخسر خمس مرات متتالية، أو يقفز وحيداً من خندق القتال ويندفع راكضاً والحربّة مركَّبة على بندقيته باتجاه المدفع الرشاش المعادى، أو أنه فى حالة هذه الشاحنة الصغيرة، يُنزل الزجاج، ثم يفتح

www.ibtesamh.com/vb

الأبواب بعد ذلك، ويبقى بانتظار أن يأتى أناس الأكواخ للسطو عليه مسلحين بالهراوى المعتادة، والمُدى المعهودة، ولوازم المناسبة، وكان آخر ما فكر فيه سيبريانو ألجور، إذا لم يرغب أولئك فى البضاعة، فليأخذها هؤلاء. مرت عشر دقائق دون أن يأتى أحد لاقتراف عملية السطو التى يتلهف إليها، ربع ساعة دون أن يطلع ولو كلب متشرد إلى الطريق ليبول على إحدى العجلات ويتشمم محتويات الشاحنة، وكانت قد مضت نصف ساعة عندما اقترب أخيراً رجل متسخ وعابس الوجه سأل صانع الفخار، **هل** لديك أية مشكلة، أتحتاج إلى مساعدة، أتريد أن أدفعك، ربما يكون عطلاً فى البطارية. والآن، إذا كانت حتى أقوى العزائم تمر بلحظات ضعف عندما لا يتمكن الجسد من التصرف بالتحفظ الذى أمضت الروح سنوات فى تعليمه إياه، فليس علينا أن نستغرب أن عرض المساعدة، والأدهى أنه آت من رجل له هيئة لص السطو المعهود كاملة، قد لمس أشد أوتار سيبريانو ألجور حساسية إلى حد إطلال دمعة فى طرف عينه، فقال له، **لا**، شكراً جزيلاً، ولكنه بعد ذلك، عندما بدأ عارض المساعدة بالابتعاد، قفز من الشاحنة، وسارع إلى فتح الباب الخلفى فى الوقت الذى كان ينادى، إيه، أيها السيد، إيه.. أيها السيد، تعال إلى هنا. توقف الرجل وسأل: أتريدنى أن أساعدك، **لا**، ليس هذا ما أريده، **ماذا** تريد إذن، **تعال** هنا، اقترب من فضلك. جاء الرجل، وقال له سيبريانو ألجور، خذ نصف دستة

www.ibtesamh.com/vb

الأطباق هذه، خذها لزوجتك، إنها هدية، وخذ هذه الستة الأخرى، إنها صحون عميقة للحساء، فتردد الرجل، **ولكننى** لم أفعل شيئاً، **ليس** مهماً، اعتبر أنك فعلت، وإذا كنت تحتاج إبريقاً للماء، فخذ هذا، الحقيقة أن إبريقاً لن يكون سيئاً فى البيت، **خذه** إذن، خذه. صفَّ صانع الفخار الأطباق بعضها فوق بعض، المسطحة أولاً، ثم العميقة، ووضع بعد ذلك هذه الأخيرة فوق تلك، ووسدها على انحناءة ذراع الرجل اليسرى، وبما أن الرجل كان يحمل الإبريق فى اليد اليمنى، فإنه لم يجد الكثير من نفسه ليقدم به الشكر، اللهم إلا كلمة شكراً المبتذلة والتى يمكن لها أن تكون صادقة أو غير صادقة بالقدر نفسه، وانحناءة من الرأس مفاجئة ليس فيها أى توافق مع الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها، وهذا يعنى أننا نعرف أكثر بكثير عن تعقيدات الحياة إذا ما عكفنا بجد على دراسة تناقضاتها بدلاً من أن نضيع وقتاً طويلاً فى أوجه التماثل والتناسق التى يفترض فيها أن تعبر عن نفسها بنفسها.

عندما اختفى الرجل الذى له مظهر الساطى، مع أنه لم يكن كذلك فى نهاية المطاف، أو أنه لم يشأ بكل بساطة أن يكون كذلك فى هذه المرة، وهو نصف حائر، وتوارى بين الأكواخ، أدار سيبريانو ألجور محرك الشاحنة. من الواضح أنه لا يمكن لأشد نظرة ثاقبة أن تلحظ حدوث أى فرق فى ضغط الثقل على ممتص صدمات الشاحنة أو إطاراتها، فوزن اثنى

www.ibtesamh.com/vb

عشر طبقاً وإبريقاً واحداً من الخزف لا يعنى فى سيارة شاحنة، وإن كانت من الحجم المتوسط، أكثر مما تعنيه على رأس عروس سعيدة اثنتا عشرة بتلة ورد بيضاء وبتلة وردة حمراء واحدة. وليس من قبيل المصادفة أن ترد هنا كلمة سعيدة فى الخلف، فهذا فى الواقع هو أقل ما يمكننا أن نقوله عن ملامح سيبريانو ألجور الذى إذا نظرنا إليه الآن، فلن يصدق أحد أنهم لم يشتروا منه سوى نصف الحمولة التى نقلها إلى المركز. والسيئ فى الأمر هو أنه قد عاد فى ذاكرته، عند توغله فى الحزام الصناعى بعد كيلومترين من التقدم، إلى المحنة التجارية القاسية التى عاناها. فرؤية المداخن البغيضة التى تنفث سحباً من الدخان حثته على التساؤل، فى أى مصنع سخيف من هذه المصانع ينتجون تلك الأكاذيب البلاستيكية السخيفة، ذلك التقليد الغادر للخزف، ودمدم، هذا مستحيل، لا يمكن تشبيهها به، لا بالصوت ولا بالوزن، ثم إن هناك العلاقة بين النظر واللمس التى قرأتُ عنها لا أذكر أين، فحاسة البصر قادرة على الرؤية من خلال الأصابع التى تلمس الخزف، والأصابع قادرة، دون أن تلمس، على الإحساس بما تراه العينان. وكما لو أن هذا لم يكن تعذيباً كافياً، فقد استجوب سيبريانو ألجور نفسه أيضاً، مفكراً فى فرن مشغل الخزف القديم، وكم من الأطباق، والزبديات، والفناجين، والأباريق يمكن أن تبصقها آلات البلاستيك اللعينة فى الدقيقة الواحدة، كم من

www.ibtesamh.com/vb

الأشياء لتحل محل الأباريق والدمجانات. واكفهر وجه صانع الخزف نتيجة هذه التساؤلات، وتساؤلات غيرها لم تُسجل، وابتداء من هناك، كانت بقية الطريق، كلها، تأملاً متواصلاً حول المستقبل القاسى الذى ينتظر أسرة ألجور إذا ما ظل المركز مصراً على التقويم الجديد للمنتجات الذى ربما يكون صانع الخزف هو ضحيته الأولى. ولكن لا بد من منح الشرف لمن استحقه بجدارة، فسيبريانو ألجور لم يسمح لروحه، فى أى لحظة، بالندم على سخائه مع الرجل الذى كان يتوجب عليه أن يسرقه، إذا كان صحيحاً كل ما يقال عن ساكنى الأكواخ. كانت هناك عند مخرج الحزام الصناعى بعض الورش المتواضعة التى لا يمكن فهم كيف استطاعت مواصلة البقاء أمام شراهة المصانع الحديثة العملاقة إلى التوسع وتنوع تشكيلة منتجاتها، ولكن الواقع أنها هناك، والنظر إليها لدى المرور شكل على الدوام عزاء لسيبريانو ألجور بينما هو يستغرق متأملاً، فى بعض أكثر ساعات حياته قلقاً، حول مصائر مهنته. وفكر، لن تستمر طويلاً، وكان فى هذه المرة يعنى الورش الصغيرة، وليس مستقبل العمل الخزفى، ولكن هذا حدث لأنه لم يكلف نفسه عناء التفكير لوقت كاف، وهو ما يحدث بكثرة، إذ نعتقد أنه صار ممكناً التأكيد أن انتظار النتائج لم يعد يستحق العناء لمجرد أننا قررنا التوقف فى منتصف الطريق الذى يقودنا إليها.

www.ibtesamh.com/vb

اجتاز سيبريانو آلجور الحزام الأخضر، ولم ينظر ولو مرة واحدة إلى الحقول، وإذا كان المشهد الرتيب للامتدادات الشاسعة المغطاة بالبلاستيك، الرمادية بالطبيعة والمكفهرة بالوساخة، يسبب له على الدوام إحساساً بالغم، فلك أن تتخيل ما ستكون عليه الحال اليوم، فى الحالة المعنوية التى هو عليها، إذا ما راح يتأمل هذا القفر. ومثل ذاك الذى رفع ذات مرة عباءة تمثال إحدى القديسات على مذبح ليرى إن كان ما يسندها تحت العباءة ساقان كسيقان الناس أم زوج عيدان خشبية غير مشذبة، لم يكن صانع الخزف منذ زمن طويل بحاجة إلى مقاومة إغراء إيقاف الشاحنة والتأكد مما إذا كان صحيحاً أنه فى داخل تلك الدفيئات وتلك الهياكل توجد نباتات حقيقية، لها ثمار يمكن شمها ولمسها وقضمها، وذات أوراق ودرنات وبراعم يمكن طهوها وتتبيلها ووضعها فى طبق، أم أن الكآبة الطاغية السائدة خارجاً تنقل عدوى خدعة مؤكدة إلى ما ينمو فى الداخل، كائناً ما كان. بعد الحزام الأخضر سلك صانع الخزف طريقاً فرعية، كانت هناك بقايا هزيلة من غابة، وبعض الحقول سيئة الترتيب، وجدول مياه قاتمة ونتنة، ثم ظهرت عند منعطفٍ أطلالُ ثلاثة بيوت بلا نوافذ ولا أبواب، سقوفها نصف منهارة وفضاءاتها الداخلية تكاد تلتهمها الخضرة التى تظهر دوماً بين الأنقاض، كما لو أنها كانت هناك، بانتظار ساعتها، منذ وضعت الأساسات. القرية تبدأ على بعد نحو مئة متر إلى

www.ibtesamh.com/vb

الأمام، وهى أكثر بقليل من الطريق الذى يشقها من منتصفها، بضعة شوارع تصب فى الطريق العام، وساحة غير منتظمة تتسع فى اتجاه واحد، هناك بئر مغلقة، مع مضختها لإخراج الماء وعجلة الحديد الكبيرة، فى ظل شجرتين عاليتين. حيا سيبريانو ألجور بضعة رجال كانوا يتبادلون الحديث، ولكنه لم يتوقف، على خلاف عادته عندما يرجع من إيصال الخزف إلى «المركز» ففى مثل هذه اللحظة لا يمكن توقع ما يروقه، ولكنه ليس محادثة بكل تأكيد، حتى ولو كانت مع أشخاص معروفين. مشغل الخزف والبيت الذى يعيش فيه مع ابنته وصهره يقعان فى الجانب الآخر من القرية، متوغلين فى الريف، ومنفصلين عن بقية الأبنية. كان سيبريانو ألجور قد خفف من سرعة الشاحنة عند دخوله القرية، ولكنه يتقدم الآن ببطء أشد. لا بد أن ابنته تنهى الآن إعداد الغداء، فهذا هو موعده، **ماذا** أفعل، هل أخبرها أم أنتظر إلى ما بعد الطعام، سأل نفسه، **من** الأفضل ترك ذلك إلى ما بعد، سأترك الشاحنة فى سقيفة الحطب، وهى لن تأتى إلى هناك لترى إذا ما أحضرت معى شيئاً، فاليوم ليس يوم مشتريات، وهكذا يمكننا أن نتناول الطعام باطمئنان، أعنى أنها هى ستأكل باطمئنان، أما أنا فلا، ثم أُخبرها فى النهاية بما حدث، أو سأؤجل الأمر إلى ما بعد الظهر، عندما نكون فى العمل، سيكون سيئاً جداً أن تعرف ذلك قبل الغداء أو بعده مباشرة. الطريق ينحرف فى

www.ibtesamh.com/vb

انعطافة واسعة حيث تنتهى القرية، وبعد تجاوز آخر بيت تظهر فى البعيد شجرة توت ضخمة لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار، هناك يقوم مشغل الخزف. سيكون النبيذ مسكوباً، ولا بد من شربه، قال سيبريانو ألجور بابتسامة متعبة، وفكر فى أنه سيكون من الأفضل لو أنه يستطيع تقيؤه. أدار الشاحنة إلى اليسار، نحو طريق صاعد قليلاً يؤدى إلى المنزل، وفى منتصفه أطلق النفير ثلاث مرات رنانة معلناً عن وصوله، إنها الإشارة نفسها دوماً، وستستغرب ابنته إذا امتنع اليوم عن عمل ذلك. المسكن ومشغل الخزف شُيّدا فى هذه الأرض الفسيحة، ربما فى زمن قديم، وفى أرض مشاع، وفى يوم ناءٍ لم يبق له سجل أو ذكرى، قرر جد سيبريانو ألجور صانع الفخار، وكان له الاسم نفسه، أن يزرع فى منتصفها شجرة التوت. أما الفرن، وهو أبعد قليلاً، فإنه بناء محدث أنجزه أبو سيبريانو ألجور الذى كان يحمل الاسم نفسه أيضاً، وقد حلّ محل فرن آخر، قديم جداً، كيلا نقول مغرق فى القدم، كان له، إذا ما نُظر إليه من الخارج، شكل جذعين مخروطيين متراكبين، الفوقى منهما أصغر من السفلى، ولم تبق أيضاً أى ذكرى عن منشئهما. وعلى أساساتهما القديمة بُنى الفرن الحالى، هذا الفرن الذى شوى الحمولة التى لم يشأ «المركز» أن يتسلم سوى نصفها، وهو الآن، أى الفرن، بعد أن برد، ينتظر أن يملأه من جديد. أوقف سيبريانو ألجور الشاحنة باهتمام مبالغ فيه تحت السقيفة، بين حمولتين من

www.ibtesamh.com/vb

الحطب الجاف، وفكر بعد ذلك فى أنه ما زال بإمكانه المرور على الفرن وكسب بضع دقائق، ولكنه كان يفتقر إلى الدافع، يفتقد المبرر، فهذه المرة ليست مثل المرات الأخرى، حين كان يرجع من المدينة ويكون الفرن يعمل، فى تلك الأيام كان يذهب لينظر إلى داخل المرجل كى يقدر درجة الحرارة من لون الصلصال المتوهج، وليرى إذا ما كان الأحمر القاتم قد تحول إلى أحمر رمادى أو تحول هذا اللون إلى البرتقالى. بقى واقفاً هناك، كما لو أن الحماسة التى يحتاج إليها قد تخلت عنه فى الطريق، ولكن صوت ابنته هو الذى أجبره على التحرك، لماذا لا تدخل، الغداء جاهز. ظهرت مارتا عند الباب وقد أقلقها تأخره، هيا، هيا، سيبرد الطعام. دخل سيبريانو ألجور، قبّل ابنته ثم أغلق على نفسه الحمام، وهذه وسيلة راحة بيتية أنشئت عندما كان مراهقاً، وهى بحاجة، منذ وقت طويل، إلى توسيع وتحسينات. تفحص نفسه فى المرآة، لم يجد أى تجعيدة إضافية فى وجهه، وفكر، إنها موجودة فى داخلى بكل تأكيد، ثم أنزل الماء، غسل يديه وخرج. كانا يأكلان فى المطبخ عادة، جالسين إلى منضدة كبيرة عرفت أياماً أكثر سعادة واجتماعات أكبر عدداً. أما الآن، بعد موت الأم، جوستا إساسكا، التى قد لا نعود إلى ذكرها كثيراً فى هذه القصة، ولكننى أترك اسمها مدوناً هنا، أما كنيتها فقد عرفناها سابقاً. الاثنان يأكلان عند أحد طرفى المائدة، الأب فى الصدر، ومارتا فى

www.ibtesamh.com/vb

المكان الذى خلّفته الأم شاغراً، وقبالة مرسيال، عندما يكون موجوداً. **كـ**يف كان صباحك، سألته مارتا، **جـ**يد، كالعادة، ردّ الأب وهو يحنى رأسه فوق الطبق، لقد اتصل مرسيال هاتفياً، **آه**، صحيح، وماذا يريد، **أ**خبرنى أنه تحدث معكَ عن مسألة السكن فى «المركز» عندما يُرَقّونه إلى حارس مقيم، **أ**جل، لقد تحدثنا فى الموضوع، **كـ**ان مستاء لأنك عدت إلى القول إنك غير موافق، **لـ**قد فكرت فى هذه الأثناء بالأمر بصورة أفضل، وأظن أنه سيكون حلاً جيداً لكليكما، **مـ**اذا جرى لكَ، هكذا فجأة تغير رأيك، **لا** يمكن أن تكونى راغبة فى العمل فى مشغل الخزف طوال ما تبقى من حياتك، **لا**، مع أن ما أفعله يروقنى. **عـ**ليكِ أن ترافقى زوجك، غداً سيكون لديكِ أبناء، وثلاثة أجيال ونحن نأكل الطين أكثر من كافٍ، فسألته مارتا: **و**هل أنتَ موافق على الذهاب معنا إلى «المركز» وترك مشغل الفخار، **تـ**ركه غير ممكن، أبداً، هذا أمر خارج الموضوع، **أ**تعنى أنك ستقوم بكل شىء وحدك، تحفر الطين، وتعجنه، وتُحَضّره على منضدة العمل، وعلى الدولاب، وتملأ الفرن وتشعله، ثم تفرغه، وتفك القالب، وتنظفه، ثم يأتى تحميل كل ذلك فى الشاحنة والذهاب لبيعه، وأذكّرك بأن الأمور آخذة بالتحول إلى الأصعب على الرغم من المساعدة التى يقدمها لنا مرسيال خلال الوقت القصير الذى يقضيه هنا، **سـ**أجد من يعمل معى، فالقرية لا تفتقر إلى الشبان، أنتَ تعرف جيداً أنه ليس هناك من يرغب فى أن

www.ibtesamh.com/vb

يكون صانع خزف، فمن يملُّ الريف يذهب للعمل فى مصانع الحزام، لن يخرجوا من الأرض ليأتوا إلى الطين، وهذا سبب آخر يستدعى منكِ الذهاب، لا يدورن فى خلدك أننى سأوافق على تركِكَ هنا وحيداً، ستأتين لزيارتى بين حين وآخر، أرجوك يا أبى، إننى أتكلم بجد، وأنا أيضاً يا ابنتى.

نهضت مارتا لتستبدل الأطباق وتسكب الحساء، فمن عادة الأسرة تناول الحساء تالياً. كان الأب يلاحقها بعينيه ويفكر، إننى أتسبب فى تعقيد كل شىء بهذه المحادثة، من الأفضل أن أخبرها بالأمر. ولكنه لم يفعل، فقد تحولت الابنة فجأة إلى سن الثامنة، وهو يقول لها، انتبهى جيداً، هذا مثل ما تفعله أمك وهى تعجن الخبز. كان يدحرج كتلة الصلصال إلى الأمام وإلى الوراء، يضغطها ويطوّلها بالجزء الخلفى من راحتى يديه، يضربها بقوة على المنضدة، يكبسها، يسطحها، يعود إلى البداية، يكرر العملية كلها، مرة، ومرة أخرى، وأخرى، لماذا تفعل هذا، تسأله ابنته، كيلا تبقى فى الصلصال قُشارات، وخثرات، وفقاعات هواء، لأن ذلك سيكون سيئاً فى العمل، وفى الخبز أيضاً، الخثرات وحدها فى الخبز هى السيئة، أما فقاعات الهواء فلا أهمية لها. يضع جانباً إسطوانة الطين المصمتة التى حوّل إليها الصلصال ويبدأ بعجن قطعة أخرى، لقد حان الوقت لتبدئى التعلم، قال ذلك، ولكنه ندم فوراً، يا للحماقة، إنها فى الثامنة وحسب، ثم عدّل ما قاله،

www.ibtesamh.com/vb

اذهبى للعب خارجاً، اذهبى، فالبرد شديد هنا، ولكن الابنة ردّت عليه بأنها لا تريد الذهاب، كانت تحاول قولبة شكل دمية بقطعة صلصال تلتصق بأصابعها لأنها طرية جداً، فقال الأب، **هذه** لا تنفع، من الأفضل أن تجربى هذه، وسترين كيف ستتوصلين إلى صنعها. كانت مارتا تنظر إليه بقلق، فلم يكن من عادته أن يخفض رأسه هكذا وهو يأكل، كما لو أنه يسعى، وهو يخفى وجهه، إلى أن يخفى قلقه كذلك، ربما كان السبب هو المحادثة التى جرت بينه وبين مرسيال، ولكننا تحدثنا فى هذا الأمر ولم يكن يبدى هذا الوجه آنذاك، أيكون مريضاً، إننى أراه خامد الهمة، ذاوياً، فى ذلك اليوم قالت لى أمى، انتبهى، لا تجهدى نفسك كثيراً، وأجبتُها، **هذا** أمر لا يحتاج إلا إلى قوة الذراعين وحركة الكتفين، وبقية الجسم تراقب، **لا** تقولى هذا لى أنا التى أشعر بالألم حتى فى آخر شعرة فى رأسى بعد ساعة من العجن، **هذا** لأنكِ متعبة بعض الشىء فى هذه الفترة الأخيرة، أو لأننى بدأت أهرم، دعك من هذه الأفكار من فضلك يا أماه، فليس فيكِ شىء من الهرم، ولكن، من الذى كان بإمكانه تصور ذلك، إذ لم يمض أسبوعان على هذه المحادثة، إلا وكانت قد ماتت ودُفنت، إنها مفاجآت الموت للحياة، بماذا تفكر يا أبتِ. مسح سيبريانو ألجور فمه بالفوطة، تناول الكأس كما لو أنه سيشرب، ولكنه أعاد وضعه دون أن يقربه من شفتيه. أخبرنى، تكلم، ألحت الابنة، ولكى تفتح الطريق للفضفضة

www.ibtesamh.com/vb

سألته، أما زلت قلقاً بسبب مرسيال أم أن لديك سبباً آخر للتفكير. أعاد سيبريانو ألجور تناول الكأس، وشرب النبيذ المتبقى فى جرعة واحدة، وأجاب بسرعة، كما لو أن الكلمات تحرق لسانه، لم يقبلوا سوى نصف الحمولة، يقولون إن مشترى الخزف قد تناقصوا، وإن أوانى بلاستيكية تحاكيه قد عُرضت للبيع، وهى ما يفضله الزبائن الآن، ليس هذا بالأمر الذى لم نكن نتوقعه، فهو سيحدث عاجلاً أو آجلاً، الخزف ينشرخ، يتشقق، ينكسر لدى أقل صدمة، بينما البلاستيك يتحمل كل شىء ولا يشكو، الفرق هو فى أن الخزف مثل البشر، يجب معاملته برفق، والبلاستيك أيضاً، ولكن بقدر أقل، والأسوأ أنهم طلبوا منى ألا أحمل إليهم مزيداً من الأوانى إلى أن يوصوا هم على طلبية، سنتوقف عن العمل إذن، لن نتوقف، عندما تأتى الطلبية ستكون لدينا قطع جاهزة للتسليم فى اليوم نفسه، ولن نضطر عند تلقى الطلبية إلى أن نشعل الفرن بتسرع، ماذا سنفعل فى أثناء ذلك، فنتظر، نعتصم بالصبر، وغداً سأخرج لأقوم بجولة، فلا بد لى من أن أبيع شيئاً، تذكر أنك قمت بمثل هذه الجولة قبل شهرين، لن تجد أناساً كثيرين بحاجة إلى الشراء، لا تأتى أنتِ الآن لإحباطى، إننى أحاول أن أرى الأمور مثلما هى فى الواقع، وأنت نفسك من قلت لى قبل قليل إن ثلاثة أجيال من صانعى الفخار هى أكثر من كافية، لن تكونى الجيل الرابع، فأنتِ ستذهبين للعيش فى المركز

www.ibtesamh.com/vb

مع زوجك، يجب أن أذهب، أجل، ولكنكَ ستأتى معى، لقد قلتُ لكِ إنكِ لن ترينى أعيش فى المركز أبداً، ولكن المركز الذى أعالنا حتى الآن بشراء نتاج عملنا، سيواصل إعالتنا عندما نكون هناك ولا يعود لدينا ما نبيعه إليه، بفضل راتب مرسيال، ليس هناك أى عار فى أن يعيل الصهر حماه، هذا يعتمد على من هو الصهر، أبتِ، ليس من اللائق أن تكون متكبراً إلى هذا الحد، ليست مسألة كبرياء، مسألة ماذا إذن، لا يمكننى أن أشرح الأمر، إنه شىء أكثر تعقيداً من الكبرياء، إنه شىء آخر، نوع من الخجل، ولكن اعذرينى، أعترفُ بأنه ما كان علىّ أن أقول ما قلته، ما لا أريده أنا هو أن تعانى العوز، يمكننى أن أبدأ البيع لتجار المدينة، والمسألة هى أن يسمح لى المركز بذلك، وإذا كانوا سيشترون أقل فليس لهم الحق فى منعى من البيع لآخرين، أنت تعرف خيراً منى أن تجار المدينة يواجهون مصاعب كبيرة لكى يُبقوا رءوسهم طافية فوق سطح الماء، فالناس جميعهم يشترون من المركز، وفى كل يوم هناك مزيد من الناس الراغبين فى العيش فى المركز، أنا لا أريد ذلك، وماذا ستفعل إذا ما توقف المركز عن شراء الأوانى الخزفية وصار الناس هنا يستخدمون أوانى بلاستيكية، آمل أن أموت قبل أن يحدث ذلك، أمى ماتت قبل حدوثه، ماتت وهى تعمل على الدولاب، عسى أن أنتهى أنا بالطريقة نفسها، لا تتحدث عن الموت يا أبى، الحديث عن الموت غير ممكن إلا ونحن على قيد الحياة، أما بعد ذلك

www.ibtesamh.com/vb

فلا. سكب سيبريانو ألجور قليلاً من النبيذ، نهض، مسح فمه بظاهر كفه كما لو أن قواعد التمدن على المائدة تنتهى لدى النهوض، وقال، **عـ**لىّ أن أخرج من أجل تقطيع الصلصال، فما لدينا يوشك على النفاد، وكان قد بدأ بالخروج عندما نادته ابنته، لقد خطرت لى فـكـرة يـا أبتِ، **فـ**كـرة، أجل، سـأتـصل هـاتـفـيـاً بمرسيال لكى يتكلم مع رئيس قسم المشتريات ويحاول أن يستطلع ما هى نوايا المركز، هل سيكون هذا التقليص فى الطلبات لفترة قصيرة، أم إنه سيستمر طويلاً، أنت تعلم أن رؤساء مرسيال يقدرونه، **هـ**ذا على الأقل ما يقوله هو لنا، فاحتجت مارتا، إذا كان يقوله فلا بد أن يكون صحيحاً، ثم أردفت بنفاد صبر، ولكننى لن أتصل إذا رغبتَ، اتصلى، بلى، اتصلى، فهذه فكرة جيدة، وهى الفكرة الوحيدة التى قد تكون نافعة الآن، وإن كنتُ أشك فى أن مدير قسمٍ فى المركز سيكون مستعداً، هكذا دون سبب، لأن يقدم تفسيراً حول رئاسته لحارس من الدرجة الثانية، إننى أعرفهم خيراً منه، لا حاجة لأن يكون المرء فى الداخل لكى يعرف من أى طينة هم أولئك الناس، إنهم يظنون أنفسهم ملوك الكون، أضف إلى ذلك أن رئيس قسمٍ ليس إلا مأموراً، ينفذ أوامر تأتيه من أعلى، بل ويمكن له أن يخدعنا بتفسيرات لا أساس لها لمجرد أن يضفى على نفسه أهمية. استمعت مارتا إلى عبارته الطويلة حتى نهايتها، ولكنها لم تردّ عليها. أجل، فالأب، كما يبدو بوضوح، يسعى لأن يكون صاحب

www.ibtesamh.com/vb

الكلمة الأخيرة، ولن تكون هى من تسلبه هذه المتعة. وفكرت بعد خروجه فقط، يجب أن أكون أكثر تفهماً، يجب علىّ أن أضع نفسى فى مكانه، وأن أتصور ما الذى يعنيه البقاء فجأة دون عمل، والابتعاد عن البيت، وعن مشغل الفخار، وعن الفرن، وعن الحياة. كررت الكلمات الأخيرة بصوت عالٍ، عن الحياة، وفى هذه اللحظة غام بصرها، فقد وضعت نفسها مكان الأب وراحت تعانى مثلما يعانى هو. نظرت فيما حولها وانتبهت أول مرة إلى أن كل شىء هناك يبدو كما لو أنه مغطى بالطين، ليس طيناً متسخاً، وإنما باللون الذى للطين، بلون كل الألوان التى خرج بها من حفرة الوحل، اللون الذى راحت تخلفه ثلاثة أجيال كانت أيديها تتلوث كل يوم بتراب الطين ومائه، وكان هناك فى الخارج أيضاً، لون الرماد الحى فى الفرن، الدفء الأخير والراعش بعد أن تركوه خاوياً، مثل بيت خرج منه أصحابه وبقى ينتظر صابراً، وفى الغد، إذا لم ينته هذا كله إلى الأبد، ستحيط مرة أخرى أول شعلة من لهب الحطب، أول لفحة حارة، ستحيط مثل مداعبة بالصلصال وبعد ذلك، شيئاً فشيئاً، زغردة الهواء، وومضة جمر سريعة، بزوغ الوهج، والانطلاق المبهر للنار الكاملة. لن أعود إلى رؤية هذا أبداً عندما نذهب من هنا، قالت مارتا، واغتم قلبها كأنها تودع أحب شخص إليها، دون أن تعرف فى هذه اللحظة من هو أحب شخص إليها، أهى الأم المتوفاة، أم الأب المغموم، أم الزوج، أجل، يمكن له أن يكون

www.ibtesamh.com/vb

الزوج، وهذا هو المنطقى، بحكم كونها امرأته. كانت تسمع دوى المدقة الخشبية يهرس الطين، كما لو أنه ينطلق من تحت الأرض، ومع ذلك كان صوت الضربات يبدو لها اليوم مختلفاً، ربما لأنه لا يحرك فيها الحاجة البسيطة إلى العمل، بل الغضب العاجز لفقدانه. سـأتصل بالهاتف، دمدمت مارتا بينها وبين نفسها، لأننى إذا ما واصلت التفكير فى هذه الأمور فسوف أنتهى إلى الاكتئاب مثله. خرجت من المطبخ وتوجهت إلى غرفة الأب. وهناك، على المنضدة الصغيرة التى ينجز عليها سيبريانو ألجور حساب نفقات وإيرادات مشغل الفخار، كان يوجد هاتف من طراز قديم. أدارت أحد أرقام المقسم وطلبت أن يوصلوها بقسم الأمن، وفى اللحظة نفسها تقريباً رنّ صوت رجولى جاف، هنا خدمات الأمن، لم تفاجئها سرعة الرد، فالجميع يعلمون أنه عندما يتعلق الأمر بمسائل الأمن تؤخذ فى الحسبان حتى أتفه الثوانى، أود التحدث إلى حارس الأمن مرسيال جاتشو، قالت مارتا، من المتكلم، إننى زوجته، وأنا أتصل من البيت، حارس الأمن مرسيال جاتشو فى الخدمة الآن، ولا يمكنه مغادرة موقعه، أرجو منكَ فى هذه الحالة أن تنقل إليه رسالة، هل أنتِ زوجته، أجل، أنا زوجته، واسمى مارتا ألجور جاتشو، يمكنكَ التأكد عندك من ذلك، أنتِ لا تجهلين إذاً أننا لا نتلقى رسائل، وإنما نسجل ملاحظة عمن اتصل فقط، أريدُ أن تخبره فقط بأن يتصل بالبيت عندما يستطيع، هل الأمر مستعجل، سألها الصوت. فكرت مارتا بالأمر مرتين،

www.ibtesamh.com/vb

أيكون مستعجلاً، أيكون غير مستعجل، ليس الأمر نزيفاً لا يمكن وقفه، ولا مشكلات خطيرة فى الفرن كذلك، وليست ولادة مبكرة بأى حال من الأحوال، ولكنها انتهت إلى الرد، أجل، الأمر مستعجل إلى حدّ ما، سأدون ملاحظة، قال الرجل، وأغلق الخط. وبزفرة استسلام متعبة وضعت مارتا السماعة على الجهاز، ليس هناك ما يمكن عمله، إنه أقوى منهم، الأمن لا يمكنه العيش دون أن يدعك بسلطته وجوه الأفراد، حتى فى حالة تافهة، شديدة التفاهة، مما يحدث يومياً، مثل هذه التى جرت الآن، امرأة تتصل بالمركز لأنها بحاجة إلى التكلم مع زوجها، لم تكن هى الأولى ولن تكون بالتأكيد الأخيرة. عندما خرجت مارتا إلى الفناء توقف صوت المدقة الخشبية فجأة عن أن يبدو لها أنه يصعد من باطن الأرض، إنه يأتى من حيث يجب أن يأتى، من الركن المعتم فى مشغل الفخار حيث يُحفظ الصلصال المستخرج من الحفرة، اقتربت من الباب، ولكنها لم تجتز العتبة، وقالت، لقد اتصلتُ، وقد أخبرونى بأنهم سينقلون إليه الإشعار، فلنأمل أن يفعلوا ذلك، رد الأب، ودون أى كلمة أخرى انقض بالمدقة الخشبية على أكبر القطع التى أمامه. أدارت مارتا ظهرها لأنها تعرف أنه عليها عدم الدخول إلى حيز اختاره أبوها متعمداً ليكون وحيداً فيه، ولكنها فعلت ذلك أيضاً لأن لديها هى نفسها عملاً تنجزه، بضع عشرات من الأباريق الكبيرة والصغيرة التى تنتظر أن توضع لها مقابضها. دخلت من الباب الجانبى.

www.ibtesamh.com/vb

تلفن مرسيال جاتشو فى آخر المساء، بعد أن أنهى وردية عمله. وردّ على امرأته بكلمات مقتضبة وغير مترابطة، دون أن يبدى ما يشير إلى الأسف أو القلق أو الغضب من انعدام اللياقة التجارية التى وقع حموه ضحية لها. تكلم بصوت ساه، بصوت بدا كما لو أنه يفكر فى شىء آخر، قال نعم، آه أجل، أفهم، موافق، أعتقد أنه طبيعى، سأحضر عندما أتمكن، أحياناً لا، لا شك فى ذلك، أجل، أفهم، لستِ بحاجة إلى تكرار ذلك، وأنهى المحادثة أخيراً بجملة كاملة، وإن كانت غير مرتبطة بالقضية، اطمئنى، لن أنسى المشتريات. أدركت مارتا أن زوجها يتكلم أمام شهود، أمام زملاء فى العمل، وربما أمام مسئول يتفقد الجناح، وأنه كان يدارى ليتجنب حالات فضول مزعجة، بل ربما خطرة. لقد جرى تنظيم «المركز» وترتيبه وفق نموذج تقسيم صارم لمختلف النشاطات والوظائف، ومع أن ذلك التقسيم لم يكن، ولا يمكن له أن يكون، راكداً ومغلقاً، إلا أن التواصل بين مكوناته غير ممكن إلا عبر سبل وحيدة بعينها فقط، يصعب

www.ibtesamh.com/vb

تمييزها وتحديدها فى أغلب الأحيان. ومن الواضح أن مجرد حارس عادى من الدرجة الثانية، سواء بسبب طبيعة منصبه المحددة أو ضآلة قيمته فى سلَّم الموظفين المرءوسين، وهما أمران يتحدر أحدهما من الآخر كنتيجة حتمية لا مفر منها، لا يكون مزوداً، إذا تكلمنا بصورة عامة، بقدرة تمييز وإدراك كافيين لاكتشاف دقة وطبيعة ذلك التقسيم، وهى فى الواقع دقة وطبيعة طيارة وغير ثابتة تقريباً، ولكن مرسيال جاتشو، على الرغم من أنه ليس الأكثر فطنة وحذراً فى مرتبته، فإنه يُحسب لمصلحته شىء من خميرة الطموح، إذ إن لديه هدفاً معروفاً هو الارتقاء إلى منصب حارس مقيم ثم الترقى، فى وقت تالٍ بالطبع، إلى حارس من الدرجة الأولى، ولا نعرف إلى أين يمكنه الوصول فى مستقبل قريب، ناهيك عن المستقبل البعيد، إذا ما كان له مستقبل بعيد. ولأنه يمضى بعينين مفتوحتين جيداً ويمتلك أذنين مرهفتين منذ اليوم الذى بدأ فيه العمل فى المركز، استطاع أن يتعلم، فى وقت قصير، متى وكيف يكون من الملائم التكلم، أو الصمت، أو التظاهر مثلما فعل. وتعتقد مارتا، بعد سنتين من الزواج، أنها تعرف جيداً الزوج الذى كان من نصيبها فى لعبة المنح والانتزاع التى تُختزل إليها الحياة الزوجية على الدوام تقريباً، وهى تكرس له عاطفتها كلها كزوجة، بل إنها لن تبدو متمنعة، إذا افترضنا أن اهتمام القصة يتطلب التعمق فى حياتها الحميمة، فى استخدام الحِدة القصوى

www.ibtesamh.com/vb

حين تردُّ علينا بأنها تحبه، ولكنها ليست بالشخص الذى يخدع نفسه بنفسه، ولهذا فإنه أكثر من محتمل، إذا ما توغلنا بعيداً فى الإلحاح، أن تنتهى إلى الاعتراف بأنه يبدو لها فى بعض الأحيان مفرطاً فى الحذر، كيلا تقول إنه يبالغ فى التحسب، إذا افترضنا أننا نتجاسر على توجيه التقصى إلى منطقة بالغة السلبية من الشخصية. لقد كانت موقنة أن زوجها قد انسحب مرغماً من المحادثة، وأن القلق قد بدأ يراوده من لقاء محتمل مع رئيس قسم المشتريات، وليس بسبب خجل المرءوس أو تواضعه، فالحقيقة أن مرسيال جاتشو يفاخر على الدوام بالإعلان عن أنه يتضايق من لفت الأنظار إليه عندما لا يكون الأمر متعلقاً بأمور العمل، ويضيف من يعتقد أنه يعرفه، لاسيما إذا شاءت الظروف ألا تكون تلك الأمور مما يمكن أن تمنحه فائدة إضافية. وأخيراً، فإن الفكرة الطيبة التى اعتقدت مارتا أنها تمتلكها بدت طيبة فقط لأنها الفكرة الوحيدة الممكنة، فى تلك اللحظة، كما قال أبوها. كان سيبريانو ألجور فى المطبخ، ولم يستطع أن يسمع مقاطع الخطاب المتفرقة وغير المترابطة التى أطلقها صهره، ولكنه بدا كمن قرأ كل شىء، وملأ الثغرات الناقصة من خلال رؤية وجه ابنته القانط عندما خرجت من الغرفة بعد دقيقة طويلة. ولأنه ليس هناك ما يستحق إتعاب اللسان فى شىء ضئيل القيمة، لم يتكلف حتى إضاعة الوقت بسؤالها ماذا جرى، وكانت هى من بادرت إلى إخباره بما هو

www.ibtesamh.com/vb

جلى، سيُكلم رئيس القسم، ولم تكن مارتا بحاجة كذلك لأن تُتعب نفسها من أجل قول ذلك، لأن نظرتين كانتا كافيتين. هكذا هى الحياة، إنها مليئة بكلمات لا تستحق النطق بها، أو أنها استحقت ذلك فى وقت ما ولم تعد تستحقه، فكل كلمة نقولها تنتزع مكان كلمة أخرى أكثر جدارة منها، وتكون كذلك ليس لذاتها، وإنما للعواقب المترتبة على قولها. انقضى العشاء بصمت، وبصمت مضت الساعتان اللتان يقضيانهما بعد ذلك قبالة التلفاز غير المبالى، وفى لحظة معينة، مثلما يحدث بكثرة فى الشهور الأخيرة، نام سيبريانو ألجور. كان ما بين حاجبيه مجعداً بتقطيبة غضب، كما لو أنه، فى الوقت الذى يغفو فيه، يؤنب نفسه لأنه استسلم بتلك السهولة للنعاس، بينما يستدعى العدل والإنصاف أن يبقيه التوتر والاستياء مستيقظاً ليل نهار، الاستياء من أجل أن يعانى الإهانة بصورة كاملة، والتوتر لكى يجعل تحمله المعاناة ممكناً. وبينما هو على تلك الحال، أعزل، رأسه مائل إلى الخلف، وفمه نصف مفتوح، غافياً عن نفسه، كان يمثل صورة مؤثرة لمهجور لا خلاص له، مثل كيس مثقوب تفلت منه محتوياته فى الطريق. كانت مارتا تنظر إلى الأب بحماسة، بزخم عاطفى، وتفكر، **هذا** هو أبى العجوز، إنها مبالغات لا تُغتفر ممن لا تزال فى مطلع سن النضج، لرجل فى الرابعة والستين من عمره، وإن تكن معنوياته ذاوية بعض الشىء، مثلما هو بادٍ على هذا الرجل، لا يمكن أن يقال عنه، بمثل هذه الخفة غير

www.ibtesamh.com/vb

الواعية، إنه عجوز، فقد كان ذلك معهوداً فى الزمن الذى كانت تبدأ فيه الأسنان بالسقوط فى سن الثلاثين، وتظهر أول التجعدات فى الخامسة والعشرين، أما حالياً، فالشيخوخة الحقيقية، غير المغالط فيها، تلك التى لا رجوع عنها، ولا حتى بالتظاهر، لا تبدأ إلا منذ سن الثمانين، عملياً ودون اعتذار، باستحقاق الاسم الذى نطلقه على زمن الوداع. **ما** الذى سيحل بنا إذا ما توقف المركز عن الشراء، لمن سنصنع الخزف والفخار إذا كان ذوق المركز هو الذى يحدد ذوق الناس، كانت مارتا تتساءل، لم يكن مدير القسم هو الذى قرر تقليص الطلبيات إلى النصف، فالأمر جاءه من أعلى، من رؤسائه، من أحد لا يهمه أن يكون هناك صانع خزف آخر أو لا يكون فى العالم، ما جرى يمكن له ألا يكون إلا الخطوة الأولى، والخطوة الثانية ستكون تخليهم النهائى عن الشراء، علينا أن نكون مستعدين لهذه الكارثة، أجل، مستعدين، ولكننى أرغب فى أن أعرف كيف يمكن تهيئة شخص ليتلقى ضربة مطرقة على رأسه، وعندما يُرقُّون مرسيال إلى حارس مقيم، ماذا سأفعل بأبى، فمن المستحيل تركه وحيداً فى هذا البيت ودون عمل، مستحيل، ابنة جاحدة، سيقول عنى الجيران، والأسوأ من ذلك أننى سأقوله أنا عن نفسى، الأمور ستكون مختلفة لو أن أمى ما زالت حية، لأن اجتماع ضُعفين، على خلاف ما يقال عادة، لا يشكل ضُعفاً أكبر، وإنما يصنع قوة جديدة، ربما الأمر ليس

www.ibtesamh.com/vb

كذلك، ولم يكن كذلك قط، ولكن هناك مناسبات من الملائم أن يكون فيها الأمر كذلك، لا يا أبى، لا يا سيبريانو ألجور، عندما أخرج أنا من هنا ستأتى معى، حتى لو اضطررت إلى حملك بالقوة، لا شك لدى فى أنه يمكن لرجل أن يعيش وحده، ولكننى على قناعة من أنه سيبدأ بالموت فى اللحظة نفسها التى يغلق فيها باب بيته عليه. وكما لو أن أحداً قد هزه بفظاظة من ذراعه، أو كما لو أنه أحس بأن هناك من يتكلم عنه، فتح سيبريانو ألجور عينيه فجأة واستوى فى المقعد. مرّ بيديه على وجهه، وبمظهر نصف مشوش لطفل فوجئ فى خطأ، دمدم، لقد غلبنى النعاس. إنه يقول دوماً هذه الكلمات، لقد غلبنى النعاس، عندما يستيقظ من غفوته القصيرة قبالة التلفاز. ولكن هذه الليلة لم تكن مثل الليالى الأخرى، ولهذا كان عليه أن يضيف، كان من الأفضل بكثير لو لم توقظينى، دمدم، فقد كنتُ وأنا نائم، على الأقل، صانع خزف لديه عمل، مع فارق أن العمل الذى يصنع خلال النوم لا يخلف أعمالاً ناجزة، قالت مارتا، مثلما هى الحال فى حياة اليقظة بالضبط، يعمل أحدنا، ويعمل، ويعمل، وفى أحد الأيام يستيقظ من هذا الحلم، أو هذا الكابوس، ويقولون له إن ما فعلته لا ينفع شيئاً، بلى ينفع، بلى يا أبى، ولكن كما لو أنه لم ينفع، لقد صادفنا يوم نحس اليوم، غداً سنفكر بهدوء أكبر، وسنرى كيف نجد مخرجاً من هذه المشكلة التى أوقعونا بها، أجل، سنرى، أجل، سنفكر. اقتربت

www.ibtesamh.com/vb

مارتا من أبيها، وقبلته قبلة حانية، اذهب إلى الفراش، هيا، ونم جيداً، أرح هذا الرأس. توقف سيبريانو ألجور عند مدخل غرفة نومه، التفت إلى الوراء، بدا متردداً لحظة، ثم انتهى إلى القول كما لو أنه يحاول أن يقنع نفسه، ربما يتصل مرسيال غداً، ربما يقدم لنا خبراً طيباً، من يدرى يا أبتِ، من يدرى، ردت عليه مارتا، لقد قال لى إنه سيهتم جدياً بالأمر، كان هذا هو استعداده.

لم يتلفن مرسيال فى اليوم التالى. مرّ اليوم كله، وكان الأربعاء، ومرّ الخميس، ومر الجمعة، ومرّ يوما السبت والأحد، ويوم الإثنين فقط، بعد أسبوع تقريباً من توجيه الإهانة إلى ورشة الخزف، عاد الهاتف يرن فى بيت سيبريانو ألجور. على خلاف ما كان قد أعلنه، لم يخرج صانع الخزف للقيام بجولة فى محيط المكان بحثاً عن مشترين. شَغَل ساعاته المتجرجرة بتثاقل فى أعمال صغيرة، بعضها غير ضرورية، مثل تفحص الفرن وتنظيفه بدقة مهووسة، من أعلى إلى أسفل، من الداخل ومن الخارج، جوان فجوان(*) آجرة فآجرة، كما لو أنه يعدّه لأكبر وجبة فى حياته. عجن كتلة من الصلصال تحتاج إليها ابنته، ولكن على خلاف اهتمامه الموسوس الذى تعامل به مع الفرن، فعل ذلك بغيرة ضئيلة، حتى أن مارتا وجدت نفسها مضطرة إلى عجن الكتلة مرة أخرى، خفية عنه، لكى تقلل من الحشرات فيها. قطع حطباً، كنس

(*) junta a juntd

www.ibtesamh.com/vb

الفناء، وبعد الظهر، طوال أكثر من ثلاث ساعات، حين هطل مطر من تلك الأمطار دقيقة القطرات والغزيرة التى كانت تسمى فيما مضى رذاذاً، ظل طوال الوقت جالساً على جذعٍ تحت السقيفة، ينظر أحياناً إلى أمام بثبات أعمى يعرف أنه لن يرى إذا ما أدار رأسه فى اتجاه آخر، وفى أحيان أخرى يتأمل يديه المفتوحتين، كما لو أنه يبحث فى خطوطهما، فى تقاطعاتهما عن طريق، عن أقصر الطرق أو أطولها، فالذهاب فى هذا أو ذاك يعتمد عموماً على السرعة الكثيرة أو القليلة التى يتوجب الوصول بها، دون نسيان تلك الحالات التى يكون فيها شىء أو أحد يدفعنا من الخلف، دون أن ندرى لماذا أو إلى أين. فى هذا المساء، عندما توقف المطر، نزل سيبريانو ألجور على الدرب المؤدى إلى الطريق العام، لم ينتبه إلى أن ابنته كانت تنظر إليه من باب مشغل الفخار، ولكنه لم يكن بحاجة لأن يقول إلى أين هو ذاهب، مثلما لم تكن هى بحاجة لأن يخبرها بذلك. رجل عنيد، فكرت مارتا، كان عليه أن يذهب بالشاحنة، فقد يعود المطر إلى الهطول بين لحظة وأخرى. قلق مارتا طبيعى، وهذا ما يتوجب انتظاره من ابنةٍ، لأن السماء الحقيقة، وعلى الرغم من كل المبالغات التاريخية المخالفة، لم تكن موضع ثقة كبيرة قطّ. أما فى هذه المرة، مع ذلك، حتى لو عاد رذاذ المطر إلى الهطول من الرمادى المتماثل الذى يغطى الأرض ويحيط بها، فإن البلل لن يكون كبيراً، ومقبرة القرية قريبة جداً، هناك فى نهاية أحد هذه

www.ibtesamh.com/vb

الشوارع المتفرعة عن الطريق العام، وسيبريانو ألجور، على الرغم من السن، ما زال يحتفظ بخطواته الخفيفة والسريعة التى يستخدمها الشبان للإسراع. سواء أكان عجوزاً أم شاباً، لم يعد هناك من يحتاج إليه اليوم. ولم يكن ثمة معنى كذلك لأن تنصحه مارتا بالذهاب فى الشاحنة، لأنه علينا الذهاب دوماً إلى المقابر، لاسيما مقابر هذه القرى، الأرياف، الرعوية، مشياً على الأقدام فوق التراب، ليس بفعل أمر قاطع أو فرض سامٍ، وإنما احتراماً للأعراف الإنسانية البسيطة، فكثيرون هم فى نهاية المطاف من يذهبون فى حج على الأقدام لتوقير بقية من عظم ساق قديس، فلا يُفهم لماذا نذهب بطريقة أخرى إلى حيث نعرف مسبقاً أن بانتظارنا ذاكرتنا نفسها وربما دمعة ما. سيبقى سيبريانو ألجور بضع دقائق إلى جوار قبر امرأته، لا ليصلى بعض الصلوات التى نسيها، ولا ليطلب منها، وهى هناك فى مسكن السماء العليا، إن كانت فضائلها قد رفعتها إلى ذلك السمو، لتتوسط له أمام من يقول بعضهم إنه كلى القدرة، سيكتفى بالاحتجاج فقط بأنه من غير العدل يا جوستا، ما فعلوه بى، لقد ضحكوا من عملى ومن عمل ابنتنا، يقولون إن الأوانى الفخارية لم تعد تهم أحداً، ولا أحد يريدها، وبالتالى لم تعد هناك حاجة إلينا نحن أنفسنا كذلك، إننا جفنة مشروخة لم تعد تستحق إضاعة الوقت فى وضع مشابك تثبيت لها، لقد كنتِ أوفر حظاً وأنت حية. تشكلت فى دروب المقبرة

www.ibtesamh.com/vb

الضيقة برك ماء صغيرة، العشب ينمو فى كل الأنحاء، لن تكون ثمة حاجة إلى مئة سنة كيلا يعود أحد يعرف من هو المدفون تحت أكوام الوحل تلك، وحتى لو عُرف ذلك، فمن المشكوك فيه أن يكون لمعرفته أهمية حقيقية، فالأموات، وقد قال هذا أحدهم من قبل، هم مثل أطباق مشروخة ليس فيها ما يستحق أن تُثبت بتلك المشابك الحديدية التى لم تعد تستعمل، وكانت توحد ما كُسر وانفصل، أو مشابك الذاكرة والحنين، فى هذه الحالة وبشرح التشبيه بكلمات أخرى. اقترب سيبريانو ألجور من قبر امرأته، إنها هناك تحت منذ ثلاث سنوات، ثلاث سنوات دون أن تظهر فى أى مكان، لا فى البيت، ولا فى مشغل الفخار، ولا فى السرير، ولا فى ظل شجرة التوت، ولا تحت شمس حفرة الصلصال الحارقة، لم تعد للجلوس إلى منضدة العمل ولا إلى دولاب التدوير، لم تعد تسحب الرماد المتساقط من بين حدائد الفرن، ولا تُقلب القطع التى تجف، ولا تقشر البطاطس، ولا تعجن الصلصال، ولا تقول، هكذا هى الأمور يا سيبريانو، ليس لدى الحياة سوى يومين تمنحك إياهما، وهناك أناس كثيرون لم يعيشوا سوى يوم ونصف يوم فقط، وآخرون لم يحصلوا حتى على هذا، ها أنت ترى أنه لا يمكننا الشكوى. لم يبق سيبريانو ألجور أكثر من ثلاث دقائق، فقد كان لديه ما يكفى من الذكاء، لا يحتاج معه لأن يقال له إن المهم ليس البقاء واقفاً هناك، بصلوات أو دون صلوات، ناظراً إلى قبر، إنما المهم هو المجىء،

www.ibtesamh.com/vb

المهم هو الطريق الذى قطعه، المسافة التى مشاها، وإذا كنت واعياً أنك تطيل التأمل فلأنك تراقب نفسك، أو لأنك، وهذا أسوأ، تأمُلُ أن يراقبوك. بالمقارنة مع سرعة التفكير الخاطف الذى يمضى فى خط مستقيم حتى عندما يبدو أنه فقد الوجهة، ونؤمن به لأننا لا ننتبه إلى أنه، حين يركض فى اتجاه ما، يكون آخذاً فى التقدم فى كل الاتجاهات، وبمقارنته، كما كنا نقول، نجد أن الكلمة البائسة بحاجة دوماً إلى طلب الإذن من إحدى الساقين لكى تجعل الساق الأخرى تمشى، وحتى فى هذه الحالة تتعثر باستمرار، تتردد، تتلهى بالدوران حول نعت، حول زمن فعل يبرز دون أن يتيح للشخص الإعلان عنه، ولا بد أن هذا هو السبب فى أن الوقت لم يسمح لسيبريانو ألجور بأن يقول لامرأته كل ما جاء وهو يفكر فيه عن أنه ليس عدلاً، يا جوستا، ما فعلوه بى، ولكن ربما تكون التمتمات التى نسمعها الآن، بينما هو يمشى باتجاه مخرج المقبرة، هى بالتحديد ما جاء ليقوله لها. وكان قد بدأ المشى صامتاً عندما التقى بامرأة ترتدى السواد داخلة إلى المقبرة، هكذا كانت الأمور على الدوام، البعض يأتون، وآخرون يذهبون، قالت له، مساء الخير يا سيد سيبريانو، التعامل باحترام له ما يبرره سواء بالنظر إلى اختلاف الأجيال أو بسبب العادة الريفية، ويردّ هو، مساء الخير، وإذا لم يقل اسمها فليس جهلاً منه، وإنما للظن بأن هذه المرأة التى بملابس حداد كاملة على زوجها لن يكون

www.ibtesamh.com/vb

لها دور فى الأحداث المستقبلية القاتمة التى يُبشر بها ولا فى العلاقة التى تنتج عنها، وإن يكن من الصحيح كذلك أنها، هى على الأقل، تنوى المجىء غداً من مشغل الفخار لتشترى إبريقاً، حسب ما أعلنت، **سـ**أذهب غداً لشراء إبريق، وعسى أن يكون أفضل من الأخير الذى بقى مقبضه عالقاً فى يدى حين رفعته، وتفتت نتفاً وأغرق لى المطبخ كله، تصور كيف كان ذلك، صحيح أن للإبريق المسكين، كى نكون صريحين، عمراً محدوداً، ورد سيبريانو ألجور، لا حاجة بك للذهاب إلى مشغل الفخار، أنا سآتيك بإبريق جديد بدلاً من المكسور، وليس عليك أن تدفعى ثمنه، إنه هدية من المشغل، أتقول هذا لأنى أرملة، سألت المرأة، **لا**، يا للفكرة، إنه مجرد تقدمة وحسب، لدينا كمية من الأباريق ربما لن نتمكن من بيعها أبداً، إذا كان الأمر كذلك، فسوف أكون شاكرة جداً لك يا سيد سيبريانو، **لا** شىء يستحق الشكر، إبريق جديد هو شىء على أى حال، أجل، ولكنه ما تقولينه وحسب، مجرد شىء، إلى اللقاء غداً إذاً، سأنتظرك، وشكراً جزيلاً مرة أخرى، إلى اللقاء غداً. والآن لا بأس، بينما التفكير يركض بصورة متزامنة فى كل الاتجاهات، مثلما بيّنَّا بوضوح من قبل، وتتقدم معه فى الوقت نفسه المشاعر، يجب ألا يفاجئنا أن رضا الأرملة عن تلقى إبريق جديد دون حاجة لأن تدفع ثمنه كان السبب فى أن يخف من لحظة إلى أخرى الاستياء الذى دفعها إلى الخروج من البيت فى مساء بالغ الكآبة لكى تزور مستقر زوجها

www.ibtesamh.com/vb

الأخير. وبالرغم من أننا ما زلنا نراها متوقفة عند مدخل المقبرة، وبالرغم من أنها سعيدة فى أعماقها كربة بيت بالهدية غير المتوقعة، إلا أنها لن تتخلى طبعاً عن الذهاب إلى حيث يدعوها الحداد والواجب، ولكنها عندما تصل، ربما لن تبكى كثيراً بقدر ما فكرت فيه من قبل. بدأ الظلام يطغى على المساء ببطء، وبدأت بالظهور بعض الأنوار الباهتة داخل البيوت المجاورة للمقبرة، لكن الغسق سيستمر وقتاً كافياً تتمكن فيه المرأة من أن تردد دون خوف من النار الكاذبة أو من الأرواح الهائمة صلاة «أبانا الذى فى السماء» «ويا قديسة مريم، فليبقَ فى أمانكِ وليرقد فى سلامكِ.

حين انعطف سيبريانو ألجور عند الناصية الأخيرة فى القرية ونظر باتجاه المكان الذى يقوم فيه مشغل الفخار، رأى النور الخارجى مضاء، مصباح قديم ذو قفص معدنى معلق فوق باب المسكن، ومع أن ليلة واحدة لم تكن تمضى دون إشعاله، إلا أنه أحس هذه المرة بنشوة فى قلبه وطمأنينة فى معنوياته، كما لو أن البيت يقول له، إننى بانتظارك. لمست وجهه بضع قطرات تكاد تكون غير محسوسة، محمولة وآتية على طعم تموجات غير مرئية يحركها الهواء. مازال هناك متسع من الوقت قبل أن تبدأ طاحونة الغيوم بنخل دقيقها المائى، ولا أدرى، مع كل هذه الرطوبة، متى سنتمكن من رؤية قطع الخزف تجف. ربما بتأثير وداعة الغسق، أو الزيارة الاستحضارية القصيرة إلى

www.ibtesamh.com/vb

المقبرة، أو حتى ما سيكون تعويضاً عملياً عن كرمه حين قال للمرأة التى بملابس الحداد إنه سيهدى إليها إبريقاً جديداً، لم يكن سيبريانو ألجور يفكر، فى هذه اللحظة، فى خيبات عدم الربح ولا فى مخاوف الوصول إلى الخسارة. فى ساعة مثل هذه، عندما تطأ الأرض المبللة وتكون أول أقدام السماء قريبة من رأسك، لا يبدو ممكناً أن يقولوا لك أشياء سخيفة مثل إنه عليك أن ترجع ومعك نصف الحمولة أو إن ابنتك ستتركك وحيداً فى أحد هذه الأيام. وصل صانع الخزف إلى نهاية الطريق وتنفس بعمق. شجرة التوت التى تشق خلفية ستارة الغيوم الرمادية، تبدو شديدة السواد مثلما يستدعى اسمها نفسه. ضوء المصباح لا يصل إلى ذروتها، ولا يلامس حتى أوراق أكثر الأغصان انخفاضاً، وإنما ضوء شاحب يمتد على الأرض فقط إلى أن تلامس تقريباً جذع الشجرة الثخين. كوخ الكلب القديم موجود هناك، وهو خاوٍ منذ سنوات، مذ مات ساكنه الأخير بين ذراعى جوستا، وقالت لزوجها آنذاك، **لا** أريد واحداً من هذه الحيوانات بعد اليوم فى بيتى. تحرك فى مدخل الكوخ الصغير المظلم وميضٌ، واختفى على الفور. أراد سيبريانو ألجور أن يعرف ما ذلك الشىء، انحنى ليمعن النظر بعد أن خطا بضع خطوات إلى الأمام. كان الظلام فى الداخل دامساً. أدرك أنه يحجب بجسده نور المصباح، فانحرف جانباً بعض الشىء. كان هناك وميضان اثنان، إنهما عينان، أهو كلب، أم أنه

www.ibtesamh.com/vb

رباح(*) لكن الاحتمال الأكبر أنه كلب، فكر صانع الفخار، ولا بد أنه كان مصيباً، فمن جنس تلك الحيوانات الذئبية لم تبق ولو ذكرى فى هذه المناطق، وعيون القطط، سواء الداجنة منها أو البرية، مثلما يتوجب على أى شخص أن يعرف، هى عيون هررة على الدوام، وفى أقصى تقدير، يمكن الخلط، فى أسوأ الاحتمالات، بينها وبين عيون النمر، ولكن من الواضح أنه لا يمكن لنمر بالغ أن يحشر نفسه فى كوخ بهذا الحجم. لم يتكلم سيبريانو ألجور عن قطط ولا عن نمور عندما دخل إلى البيت، كما لم يقل كلمة واحدة عن ذهابه إلى المقبرة، أما عن الإبريق الذى سيهديه إلى المرأة ذات ملابس الحداد، فمن المفهوم أنه ليس موضوعاً مناسباً للنقاش فى هذه اللحظة، ولهذا لم يقل لابنته سوى، **هناك** كلب فى الخارج، صمت قليلاً، كما لو أنه ينتظر جواباً، وأضاف، **تحت** شجرة التوت، فى الكوخ. كانت مارتا قد انتهت من الاغتسال واستبدال ملابسها، وكانت تجلس لتستريح قليلاً قبل أن تبدأ بإعداد العشاء، ولهذا لم تكن فى أفضل حالات الاستعداد للاهتمام بالأماكن التى تمر أو تتوقف فيها الكلاب الهاربة أو المهجورة فى تشردها، فقالت، **من** الأفضل تركه، إذا كان حيواناً من تلك التى لا تحب التنقل ليلاً، فسوف يذهب فى الغد، أ لديك شىء يمكننى أخذه إليه، سألها الأب، بعض بقايا الغداء وقطع من الخبز، أما الماء فلن

(*) زُريقاء: جنس حيوانات لاحمة لها حجم النهر. (Jineta).

www.ibtesamh.com/vb

يحتاج إليه لأن الكثير منه هطل من السماء، سـأحمل الطعام إليه، مـثلما تريد يا أبى، ولكن عليك أن تضع فى الاعتبار أنه لن يبتعد عندئذ عن الباب أبداً، أفترض ذلك، ولو أننى كنتُ مكانه لفعلت الشىء نفسه. ألقت مارتا بقايا الطعام فى طبق قديم كانت تضعه تحت المصطبة الملاصقة للجدار، وفتت فوقه كسرة خبز يابس، وتبلت ذلك كله بقليل من المرق، هـا هو ذا، وسـجّل عـنـدك أن هـذه هى الـبـدايـة فـقـط. تـنـاول سـيـبـريـانـو ألجـور الـطـبـق، وكـانـت إحـدى قـدمـيـه قـد صارت خارج المطبخ عندما سألته ابنته، هـل تتذكر أن أمى قالت حين مات كونستانتى إنها لا تريد كلباً آخر فى البيت، أجل، أتذكرُ ذلك، ولكننى أراهن بأنها لو كانت على قيد الحياة، فلن يكون أبوك هو من يحمل هـذا الـطـبـق إلـى الـكـلـب الـذى لـم تـكـن تـريـده، أجـاب سـيـبـريـانـو ألجـور، وخـرج دون أن يـتـاح لـه سـمـاع دمـدمـة ابنته، ربما لن تنقصه المسوغات. كان المطر قد عاد لـلـهـطـول، وكـان الـرذاذ المخـادع نـفـسـه، غـبـار المـاء المتراقص نفسه الذى يسبب اختلاط المسافات، بما فى ذلك هيئة الفرن الضاربة إلى البياض تبدو كما لو أنها مصرّة على الذهاب فى اتجاهات أخرى، وهذه الشاحنة تبدو أشبه بعربة مأتمية منها بسيارة حديثة ذات محرك انفجارى، وإن لم تكن من طراز جديد، مثلما عرفنا من قبل. وتحت شجرة التوت، كان الماء ينزلق عن الأوراق بقطرات كبيرة ومتفرقة فى لطمات، الآن واحدة، وأخرى بعد ذلك، كما لو أن قوانين

www.ibtesamh.com/vb

هيدروليكا السوائل وديناميتها، السائدة خارج مظلة الشجرة غير المأمونة، لا تنطبق على هذا المكان. وضع سيبريانو ألجور طبق الطعام على الأرض، تراجع ثلاث خطوات، ولكن الكلب لم يخرج من الملاذ، من المستحيل ألا تكون جائعاً، قال صانع الفخار، أو ربما أنت من تلك الكلاب التى تحترم نفسها، ربما لا تريدنى أن أرى الجوع الذى تعانيه. انتظرَ دقيقة، ثم انسحب بعد ذلك ودخل إلى البيت، ولكنه لم يغلق الباب بالكامل. كانت الرؤية ضعيفة من خلال الفجوة، ولكنه استطاع مع ذلك أن يميز كتلة سوداء تخرج من الوكر وتدنو من الطبق، ورأى كذلك أن الكلب، فقد كان كلباً، وليس ذئباً ولا قطاً، قد نظر أولاً باتجاه البيت، وبعد ذلك فقط، أخفض رأسه إلى الطعام، كما لو أنه يقدر بأنه مدين بهذا الاعتراف بالجميل لمن جاء تحت المطر متحدياً سوء الطقس، ليقتل جوعه. أكمل سيبريانو ألجور إغلاق الباب وتوجه إلى المطبخ، إنه يأكل، قال، إذا كان جائعاً جداً، فلا بد أن يكون قد أكل كل شىء، ردّت مارتا باسمة، وابتسم الأب أيضاً، هذا مؤكد، إذا كانت كلاب هذه الأيام مثل الكلاب فى السابق. كان العشاء بسيطاً، وخلال وقت قصير صار على المنضدة. وعندما انتهيا، قالت مارتا، يوم آخر يمضى دون أخبار من مرسيال، لستُ أفهم لماذا لا يُتلفن، لا أحد يطلب منه خطبة مطولة، ربما لم يستطع التكلم مع المدير، فليخبرنا إذاً بأنه لم يستطع، الأمور ليست بهذه البساطة هناك، وأنتِ

www.ibtesamh.com/vb

تعرفين ذلك جيداً، قال صانع الفخار بنبرة مصالحة غير متوقعة. نظرت إليه الابنة وقد فوجئت بنبرة صوته أكثر من مفاجأتها بمعنى كلماته، ليس من عادتك الصفح عن مرسيال أو تبرير أعماله، قالت، أنا أقدره، أنت تقدره ولكنك لا تأخذه على محمل الجد، من لا أستطيع أخذه على محمل الجد هو الحارس الذى تحول إليه الفتى اللطيف والمرح الذى كنتُ أعرفه، إنه الآن رجل لطيف ومرح، ومهنة الحارس ليست طريقة فى الحياة أقل وقاراً ونزاهة من أى مهنة محترمة ونزيهة أخرى، ليست مثل أى مهنة أخرى، وأين هو الفرق، الفرق هو فى أن مرسيالكِ، مثلما نعرفه الآن، هو الحارس بالكامل، حارس من قدميه حتى رأسه، ويراودنى الشك فى أنه حارس حتى فى قلبه، أرجوك يا أبى، لا يمكن التحدث هكذا عن زوج ابنتك، معكِ حق، اعذرينى، فاليوم يجب ألا يكون يوم عتاب أو تأنيب، ولماذا اليوم، لقد ذهبتُ إلى المقبرة، وأهديت إبريقاً لإحدى الجارات، ولدينا كلب هناك فى الخارج، وجميعها أحداث بالغة الأهمية، ما هى مسألة الإبريق هذه، لقد كُسر الإبريق ولم تبق سوى قبضته فى يدها، هذه أمور تحدث، فلا شىء خالد، ولكنها كانت من اللياقة بحيث اعترفت بأنه إبريق قديم، ولهذا فكرتُ فى أنه على أن أقدم لها واحداً جديداً، فلنفترض أن الإبريق القديم كان فيه عيب من الصنعة، أو أنه لا حاجة إلى الافتراض، فالهدية هى الهدية، وهناك دائماً فائض من

www.ibtesamh.com/vb

المسوغات، ومن هى هذه الجارة، إنها إساورا إستوديوسا، تلك التى ترملت منذ شهور، إنها امرأة فتية، لستُ أفكر فى الزواج ثانية إذا كان هذا هو ما تفكرين فيه، أجل لقد فكرتُ فى الأمر، لقد لاحظتُ ذلك، وربما كان عليكَ أن تفعل، فهى الطريقة المناسبة كيلا تظل وحيداً هنا، لأنكَ مصمم على عدم الذهاب للعيش معنا فى المركز، أكرر أننى لا أنوى الزواج، وأقل من ذلك الزواج من أول امرأة تظهر، أما بالنسبة للأمر الآخر، فأرجوكِ ألا تفسدى علىّ ليلتى، المعذرة يا أبتاه، لم تكن هذه هى نيتى. نهضت مارتا، حملت الأطباق وأدوات الطعام، ثم طوت شرشف المائدة وفق خط الطى المُعَلَّم وكذلك الفوطتين. مخطئ جداً من يعتقد أن عمل صانع الفخار، حتى لو لم يكن عملاً دقيقاً كما هو فى هذه الحالة، وحتى لو كان يُمارس فى قرية صغيرة بلا جاذبية، مثلما لاحظنا عليه هذه القرية، هو عمل لا يمكن له المنافسة فى رقة الأسلوب والذوق اللذين يميزان الطبقات الراقية الحالية التى نسيت أو تجاهلت منذ الولادة فظاظة أجداد أجدادهما وبهيمية أجداد أجدادهما، فآل ألجور هؤلاء هم أناس يتعلمون جيداً ما يُعلَّم إليهم وقادرون على استخدامه فيما بعد من أجل تعلّم أفضل، ولأن مارتا هى الأخيرة فى السلالة، فقد حظيت بمساعدة على التطور، وأفادت من حسن طالعها الكبير فى الذهاب للدراسة فى المدينة، إذ لا بد للمراكز العمرانية الكبرى من أن تفيد القرية فى شىء ما.

www.ibtesamh.com/vb

وإذا كانت قد انتهت إلى التحول إلى صانعة فخار، فإنما السبب هو ميل واع وظاهر إلى أن تكون صانعة تماثيل، وإن كان قد أثر كذلك فى قرارها واقع أنه لا وجود فى الأسرة لأخوة لها يواصلون التقليد الأسرى، وهذا دون نسيان، سبب ثالث وسامٍ، الحب البَنَوى القوى الذى لم يكن ليتيح لها أبداً ترك أبويها لمشيئة ـ الرب ـ ثم ـ بعد ـ ذلك ـ نرى عندما يصيران عجوزين. أشعل سيبريانو ألجور التلفاز، ولكنه أطفأه بعد قليل، ولو أن أحداً طلب منه فى تلك اللحظة أن يخبره بما رآه وسمعه ما بين حركتى إشعال الجهاز وإطفائه، لما عرف بما يردّ، ولكنه لن يقرّ ذلك ببساطة إذا ما كان السؤال بصيغة أخرى، بماذا تفكر حتى تبدو شارد الذهن إلى هذا الحد. سوف يقول **لا** يا سيدى، يا للفكرة، فأنا لم أكن شارد الذهن، لمجرد ألا يعترف بطفولية إحساسه بالقلق على الكلب، إن كان قد أوى إلى الكوخ أم أنه، بعد أن أشبع معدته واستعاد قواه، واصل رحلته بحثاً عن طعام أفضل أو عن سيد يعيش فى مكان أقل تعرضاً للرياح الهوجاء والأمطار اللجوجة. **إننى** ذاهبة إلى غرفتى، قالت مارتا، لقد بدأت العادة تستحوذ علىّ، **وأنا** أيضاً لن أتأخر طويلاً، قال الأب، لأننى متعب دون أن أقوم بأى عمل، **لقد** عجنتَ الصلصال وتفحصتَ الفرن، إنه عمل، أنتِ تعرفين جيداً مثلما أعرفُ أنه سيكون لا بد من إعادة عجن ذلك الصلصال مرة أخرى، والفرن لم يكن بحاجة إلى عمل بنّاء، وأقل من ذلك إلى رعاية

www.ibtesamh.com/vb

مرضعة، الأيام كلها متشابهة، أما الساعات فلا، فعندما تصل الأيام إلى نهايتها تكون ساعاتها الأربع والعشرون قد اكتملت على الدوام، وإن لم يكن ضمنها أى شىء، ولكن ليست هذه هى حال ساعاتكَ ولا أيامك، مارتا فيلسوفة الزمن، قال الأب، وطبع قبلة على جبهتها. ردّت إليه الابنة إيماءته الحانية وقالت مبتسمة، لا تنس أن تذهب لترى كيف هو كلبك، إنه لا يزال مجرد كلب عابر وأعتقدُ أن الكوخ يناسبه للاحتماء من المطر، ربما يكون مريضاً أو جريحاً، وربما يحمل فى طوقه رقم هاتف الشخص الذى يجب الاتصال به، ربما هو لأحد من القرية، وقد يكون هرب لأنهم يضربونه هناك، إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون هنا غداً صباحاً، أنت تعرفين كيف هى الكلاب، فالسيد هو السيد دائماً حتى عندما يعاقب، ولهذا لا تستبقى الأمور بالقول إنه كلبى، فأنا لم أتمكن حتى من رؤيته، ولا أدرى إذا ما كان يعجبنى، أنتَ تعرف أنك تريد أن يعجبك، وهذا شىء ما، أنتِ تخرجين لى الآن فيلسوفة مشاعر، يقول الأب، إذا افترضنا أنكَ ستحتفظ بالكلب، فأى اسم ستطلقه عليه، سألت مارتا، مازال الوقت مبكراً للتفكير بهذا، إذا ما بقى هنا حتى الصباح، يجب أن تكون هذه هى أول كلمة يسمعها من فمك، لن أسميه كونستانتى، فقد كان اسم كلب لن يرجع إلى صاحبته، ولن يجدها إذا ما رجع، ربما سأسميه «ضائع» الاسم يناسبه تماماً، وهناك اسم يناسبه أفضل، ما هو، «لقية» ولكن

www.ibtesamh.com/vb

لقية ليس اسم كلب، ولا ضائع كذلك، أجل، أرى أنها فكرة جيدة، كان ضائعاً ثم عُثر عليه، هذا سيكون اسمه، طـابت ليلتك يا أبتاه، وأرجو لكَ نوماً هادئاً، طـابت ليلتكِ، لا تظلى تخيطين حتى وقت متأخر، عليك أن تنتبهى إلى عينيك. بعد أن انسحبت الابنة، فتح سيبريانو ألجور الباب المؤدى إلى الخارج، نظر باتجاه شجرة التوت. كان المطر اللجوج يواصل الهطول ولم تكن تُلمح إشارة حياة داخل الكوخ. أما زال هناك، تساءل صانع الفخار. وقدم لنفسه سبباً زائفاً لعدم الذهاب للنظر، هـذا ما كان ينقصنى، أن أبلل نفسى من أجل كلب متشرد، يكفى مرة واحدة. انزوى فى حجرته، واضطجع، ومع ذلك ظل يقرأ نصف ساعة أخرى، ولكنه نام أخيراً. وفى منتصف الليل، استيقظ، أشعل النور، كانت ساعة الكوميدينو تشير إلى الرابعة والنصف. نهض، تناول مصباح بطارية يحتفظ به فى درجه، وفتح النافذة. كان المطر قد توقف، وكانت تظهر بعض النجوم فى السماء القاتمة. أضاء سيبريانو ألجور المصباح اليدوى ووجه بؤرته نحو الكوخ. لم يكن الضوء قوياً بما يكفى لرؤية ما فى الداخل، لكن سيبريانو ألجور لم يكن بحاجة إلى كل ذلك، كان يكفيه رؤية نقطتين متلألئتين، عينين، وقد كانتا هناك.

www.ibtesamh.com/vb

منذ أن أعادوه إلى البيت مع نصف الحمولة التى ما زالت، نقول ذلك بين معترضتين، حتى الآن فى الشاحنة، تحول سيبريانو ألجور بين لحظة وأخرى، إلى شخص غير جدير بسمعة الصانع المبكر التى اكتسبها على امتداد حياةٍ من العمل الكثير والإجازات القليلة. لقد صار ينهض والشمس طالعة، يغتسل ويحلق ذقنه ببطء أكبر من اللازم لوجه حليق وجسم معتاد على النظافة، يتناول قليلاً من الطعام على الفطور ولكن بصورة متقطعة وأخيراً، دون إضافة ظاهرة إلى قلة الحماسة التى يغادر بها السرير، يذهب إلى العمل. أما اليوم مع ذلك، وبعد قضاء بقية الليلة وهو يحلم بنمر يأتى ليأكل من يده، غادر الملاءات عندما بدأت الشمس تلون السماء. لم يفتح النافذة، وإنما اكتفى بفتح الستارة قليلاً ليرى كيف هو الطقس، كان هذا ما فكر فيه، أو أراد التفكير فى أنه يفكر فيه، مع أنه لم يكن معتاداً على عمل ذلك، فهذا الرجل قد عاش أكثر مما يكفى ليعرف أن الطقس دوماً، سواء أكان مشمساً مثلما يعد اليوم، أم ماطراً

www.ibtesamh.com/vb

مثلما كان البارحة، فإننا فى الواقع عندما نفتح نافذة ونرفع أنفنا نحو الفضاءات العليا فإنما نفعل ذلك للتأكد فقط من أن الطقس سيكون مثلما نرغب فيه. وعندما تفحص سيبريانو ألجور الخارج كان يريد، دون ديباجات منه أو من سواه، أن يعرف إذا ما كان الكلب لا يزال ينتظر منحه اسماً آخر، أم أنه تعب من الانتظار المحبط، وانصرف للبحث عن سيد أكثر اهتماماً. لم يكن يظهر منه تقريباً سوى مقدمة وجهه القابع فوق القائمتين الأماميتين المتقاطعتين وأذنيه المتهدلتين، إنما لم يكن هناك مكان للخشية من ألا تكون بقية جسمه هناك داخل الكوخ الصغير. إنه أسود، قال سيبريانو ألجور. وكان قد بدا له، عندما حمل الطعام للحيوان، أن هذا هو لونه، أو هكذا خيل إليه مثلما يؤكد كثيرون، وإذا كانت حتى القطط البيضاء تبدو رمادية فى الليل، فإن الشىء نفسه، أو أكثر قتامة، يمكن أن يقال عن كلب يُرى أول مرة تحت شجرة توت بينما مطر مُلِّح وليلى يحلل الخط الفاصل بين الكائنات والأشياء، ويقربها، أى الكائنات، من الأشياء التى ستتحول إليها عاجلاً أو آجلاً. الكلب ليس أسود فى الواقع، بل يكاد يصل إلى هذا اللون فى مقدمة وجهه وأذنيه، أما بقية ما يظهر منه فيشير إلى لون رمادى عام، مع خصلات تتدرج فى تلون يزداد قتامة حتى بلوغ الأسود الفاحم. وصانع خزف فى الرابعة والستين من عمره يعانى مشاكل النظر التى يسببها التقدم فى السن على الدوام، واضطر إلى التخلى عن استخدام نظارة بسبب حرارة الفرن، لا

www.ibtesamh.com/vb

يمكن لومه لأنه قال، إنه أسود، لاسيما وأن الوقت كان ليلاً وماطراً، وبُعد المسافة الآن يجعل شفق الصباح ضبابياً. عندما اقترب سيبريانو ألجور أخيراً من الكلب رأى أنه لا يمكنه أن يكرر أبداً القول إنه أسود، ولكنه سيخطئ خطأ جسيماً كذلك إذا ما أكد أنه رمادى، وسيكون خطؤه أكبر كثيراً عندما يكتشف أن لطخة طويلة بيضاء، مثل ربطة عنق دقيقة تمتد على صدر الكلب نزولاً حتى بداية البطن، استيقظ يا أبتاه، الكلب ينتظر، إننى مستيقظ، سأذهب حالاً، أجابها سيبريانو ألجور، ولكنه ندم على الفور لخروج الكلمتين الأخيرتين منه، بدا له صبيانياً وشبه مضحك، أن يبتهج رجل فى سنه مثل طفل جاءوا له بلعبة حلم بها، بينما جميعنا نعرف أن أى كلب فى أمكنة مثل هذا المكان يكون محل تقدير أكبر كلما أثبت فائدته العملية، وهى فضيلة لا تحتاج إليها الدمى، وأما بالنسبة للأحلام، إذا كان الأمر يتعلق بتحققها، فلن يكون الكلب كافياً لمن أمضى الليل يحلم بنمر. وبالرغم من أنه سيؤنب نفسه بعد ذلك على تسرعه، فإن سيبريانو ألجور لن يضيع الوقت هذا الصباح فى نظافته وهندامه، إذ ارتدى ملابسه بسرعة وخرج من الحجرة. سألته مارتا، هل تريد أن أجهز له شيئاً يأكله، فيما بعد، لأن الطعام سيشغله الآن، هيا اذهب إذن لترويض الضارى، إنه ليس ضارياً بأى حال، مجرد حيوان مسكين، كنت أراقبه من النافذة، وأنا أيضاً رأيته، وكيف بدا لك، لا أظن أنه لأحد من الجوار، هناك كلاب لا تخرج أبداً من فناء بيوت

www.ibtesamh.com/vb

أصحابها، تعيش وتموت فيها، إلا فى حالات إخراجها إلى البرية لشنقها على غصن شجرة أو الإجهاز عليها بشحنة رصاص فى الرأس، سماع هذا الكلام ليس بالطريقة المناسبة لبدء نهار جديد، إنها غير مناسبة بالفعل، فلنبدأه إذاً بطريقة أقل إنسانية، لكنها أكثر رحمة، قال سيبريانو ألجور وهو يخرج إلى الفناء الخارجى. لم تلحق به ابنته، بل ظلت بين البابين، إنها حفلته، فكرت. تقدم صانع الخزف بضع خطوات، وبصوت واضح، قوى، ولكنه غير صارخ، نطق الاسم المختار، لقية. كان الكلب قد رفع رأسه حين رآه، والآن، سمع أخيراً الاسم الذى كان ينتظره، خرج من الكوخ بكامل جسده، ليس كلباً كبيراً ولا صغيراً، إنه حيوان فتى، رشيق، وبره أجعد، رمادى حقاً، ومائل إلى السواد حقاً، مع اللطخة الرفيعة البيضاء التى تقسم الصدر إلى نصفين وتبدو مثل ربطة عنق. لقية، كرر الخزاف وهو يتقدم خطوتين أخريين، لقية، تعال إلىّ. ظل الكلب فى مكانه، محتفظاً برأسه عالياً وهو يهز ذيله ببطء، ولكنه لم يتحرك. عندئذ انحنى الخزاف لتصبح عيناه فى مستوى عينى الحيوان، وعاد يقول، هذه المرة بنبرة تهديدية، قوية كما لو أنها تعبير عن حاجة شخصية خاصة به، لقية. تقدم الكلب خطوة، وخطوة أخرى، ثم أخرى، دون أن يتوقف إلى أن صار فى متناول ذراع من يناديه. مدّ سيبريانو ألجور يده اليمنى حتى كادت تلامس أنفه. شمها الكلب عدة مرات، وبعد ذلك مطّ عنقه، ولمس أنفه البارد الأصابع التى تستدعيه. تقدمت يد الخزاف ببطء حتى الأذن

www.ibtesamh.com/vb

الأقرب وداعبتها. تقدم الكلب الخطوة المتبقية، لقية، لقية، قال سيبريانو ألجور، لا أعرف أى اسم كان لك من قبل، ومنذ الآن صار اسمك لقية. وفى هذه اللحظة انتبه إلى أن الحيوان بلا قلادة وأن شعره ليس رمادياً فقط، بل ومُتسخا بالوحل وبفضلات نباتية، وخاصة على القوائم والبطن، وهى إشارة أكثر من محتملة إلى اجتيازه مناطقَ زراعية قاسية وأراضى خلاء موحلة، وأنه لم يتنقل براحة عبر طرق معبدة. كانت مارتا تقترب حاملة طبقاً فيه قليل من الطعام للكلب، لا شىء من المبالغة، وإنما ما يكفى لتأكيد اللقاء والاحتفال بالتعميد، قدميه أنت له، قال أبوها. ولكنها أجابت، قدمه له أنت، ستتوافر لى فرص كثيرة لإطعامه. وضع سيبريانو ألجور الطبق على الأرض، ونهض بعد ذلك بصعوبة، آى، ركبتاى، كم أقدم مقابل العودة ولو إلى ما قبل السنتين الماضيتين، وهل الفرق كبير إلى هذا الحدّ، فى هذا المستوى من الحياة يُلاحَظ الفرق حتى فى يوم واحد، وما ينجينا هو أن الفرق يبدو أحياناً نحو الأفضل. أما الكلب لقية، وقد صار له الآن اسم ولا يتوجب علينا استخدام أى تسمية أخرى له، سواء تسمية كلب التى قدمناها على الاسم بحكم العادة، أو تسمية حيوان أو كائن التى تنفع لكل شىء لا يشكل جزءاً من مملكة النبات أو الجماد، وإن كنا لا نتمكن أحياناً من الهروب من هذه التنويعات، لتجنب التكرار الممل، وهو السبب الوحيد الذى جعلنا نكتب تسميات الخزَّاف، والرجل، والعجوز، وأبى مارتا بدلاً من اسم سيبريانو ألجور.

www.ibtesamh.com/vb

والآن، ومثلما كنا نقول، أجهز الكلب لقية، بعد لحستين سريعتين، على الطعام الذى فى الطبق، مما يدل على أنه لم يُشبع تماماً جوع الأمس، رفع رأسه كمن ينتظر وجبة جديدة، أو هذا على الأقل ما فسرته إيماءة مارتا، ولهذا قالت، اصبر، الغداء يأتى فيما بعد، وحتى يحين الوقت ألهى معدتك بما حصلت عليه، لقد كان حكمها متسرعاً، مثلما يحدث بكثرة فى أدمغة البشر، فعلى الرغم من الشهية المتبقية، والتى لا يمكن إنكارها، لم يكن الطعام هو ما يهم لقية فى تلك اللحظة، فما يريده هو أن يشيروا إليه بما عليه أن يفعله فيما بعد. كان ظمآن، وكان يمكن له بكل وضوح أن يروى ظمأه من أى واحدة من برك الماء الكثيرة التى خلّفها المطر حول البيت، ولكن كان يكبحه شىء، لو كنا نتكلم عن مشاعر البشر، لما ترددنا فى تسميته التحرج أو أساليب التهذب. فإذا كانوا قد وضعوا له الطعام فى طبق، وإذا كانوا لا يريدون له أن يتناوله بفظاظة عن وحل الأرض، فلأن الماء أيضاً يجب تناوله من إناء مناسب. **لابد** أنه ظمآن، قالت مارتا، فالكلاب تحتاج إلى ماء كثير، **لديه** برك الماء هذه، أجاب أبوها، وهو لا يشرب منها لأنه لا يريد الشرب، إذا كنا سنستبقيه عندنا فلا أدرى لماذا عليه أن يشرب ماء مستنقعات كمن ليس له مكان أو بيت، الواجبات واجبات. وبينما كان سيبريانو ألجور منهمكاً فى نطق عبارات متفرقة، لا معنى لها تقريباً، والهدف الوحيد منها تعويد الكلب على وقع صوته، ولكنه يتعمد فيها ذكر كلمة **لقية** وتكرارها بإلحاح، أحضرت مارتا

www.ibtesamh.com/vb

إناء من فخار مملوءاً بماء نظيف، ووضعته إلى جانب الكوخ الصغير. وبتحدٍ للشعوذات المسوغة تماماً بعد مئات القصص المقروءة أو المسموعة عن الحياة المثالية للكلاب ومعجزاتها، يتوجب علينا أن نقول إن لقية قد فاجأ صاحبيه الجديدين مرة أخرى ببقائه حيث هو، وجهاً لوجه مع سيبريانو ألجور، منتظراً حسب كل المؤشرات، أن يصل هذا إلى نهاية ما يريد قوله له. وعندما صمت الخزاف فقط وأومأ له مودعاً، استدار الكلب وذهب ليشرب. **لم** أر فى حياتى كلباً يتصرف بهذه الطريقة، أبدت مارتا ملاحظتها، فأجاب أبوها، السيئ فى الأمر، بعد هذا كله، أن يأتى من يقول لنا إن الكلب له، **لا** أظن أن ذلك سيحدث، بل إننى مستعدة لأن أقسم إن لقية ليس من هنا، فكلاب القطعان وكلاب الحراسة لا تفعل ما فعله هذا الكلب، **بعد** تناول الفطور سأقوم بجولة للسؤال، **وأنتهز** الفرصة لتأخذ الإبريق للجارة إساورا، قالت مارتا، دون أن تزعج نفسها بموارة ابتسامتها، **هذا** ما فكرتُ فيه، مثلما كان يقول جدى، لا تؤجل إلى المساء ما يمكنك عمله فى الصباح، أجابها سيبريانو ألجور بينما هو ينظر إلى الجهة الأخرى. انتهى لقية من شرب الماء، ولأن أياً من ذينك الشخصين لم يبد ما يشير إلى الاهتمام به، فقد ربض عند مدخل الكوخ الصغير حيث الأرض أقل تبللاً.

بعد تناول الفطور، اختار سيبريانو ألجور إبريقاً من مخزن الأعمال الجاهزة، ووضعه بعناية فى الشاحنة، مثبتاً إياه بين صناديق الأطباق كيلا

www.ibtesamh.com/vb

يتدحرج، ثم دخل بعد ذلك، وجلس وشغّل المحرك. رفع لقية رأسه، وكانت إشارة إلى أنه لا يجهل أن ضجة مثل هذه يتلوها على الدوام ابتعاد، يليه بعد ذلك اختفاء، غير أن تجاربه السابقة فى الحياة تذكّره دون ريب بأن هناك طريقة تحول، فى بعض الأحيان، دون حدوث تلك المصائب. انتصب على قوائمه الطويلة، حرك ذيله بقوة كما لو أنه يهز عصا، ولأول مرة منذ جاء طالباً ملجأ، نبح لقية. قاد سيبريانو ألجور الشاحنة ببطء باتجاه شجرة التوت وتوقف على مسافة قصيرة من الكوخ الصغير. اعتقد أنه فهم ما الذى يأمل به لقية. فتح باب الجانب الآخر وأبقاه مفتوحاً، وقبل أن يُتاح له الوقت لدعوته إلى نزهة، كان الكلب قد صار فى الداخل. لم يكن قد فكر فى أخذه معه، بل كان سيبريانو ألجور ينوى التنقل من جار إلى آخر ليسألهم إن كانوا يعرفون كلباً صفاته كذا وكذا، بهذا الشعر وهذه الهيئة، بربطة العنق هذه، وهذه الفضائل الأخلاقية، وبينما هو يصف مختلف المواصفات يتوسل إلى كل قديسى السماء وكل شياطين الأرض، راجياً أن يجبروا جميع من يسألهم، بالحسنى أو بالسوء، أن يجيبوا بأنه لم يكن لديهم فى حياتهم قط مثل ذلك الحيوان، وليس لديهم أى خبر عنه. وبوجود لقية مرئياً فى الشاحنة سيتفادى رتابة الوصف ويوفر على نفسه التكرار، وسيكتفى بالسؤال، **هل** هذا الكلب لحضرتكم، أو لك، حسب حميمية العلاقة بمحدثه، وسماع الجواب، **لا**، أو **نعم**، فإذا كان الجواب هو الأول، فسوف ينتقل دون تأخير إلى

www.ibtesamh.com/vb

الجار التالى كيلا يفسح المجال للتعديل وتبديل الرأى، أما فى الحالة الثانية، فسوف يراقب بدقة ردود فعل لقية، ولم يكن كلباً يسمح بأن يؤخذ بمطالب خدع كاذبة من مالك مزيف. وقد ظهرت مارتا، على ضجة محرك السيارة، عند باب ورشة الخزف ويداها ملطختان بالصلصال، وأرادت أن تعرف إن كان الكلب سيذهب أيضاً. فردّ عليها أبوها، **سيأتى**، سيأتى، وبعد دقيقة من ذلك كان الفناء خاوياً تماماً، ومارتا وحيدة كما لو أن ذلك بالنسبة إليه وإليها يحدث أول مرة.

قبل أن يصل إلى الشارع الذى تسكن فيه إساورا إستوديوسا، وهذا لقب، مثل لقبى جاتشو وألجور، لا يُعرف أيضاً سببه ومنشؤه، كان الخزَّاف قد طرق أبواب اثنى عشر مقيماً فى الجوار وأسعده أن يسمع منهم جميعاً الأجوبة نفسها، **إنه** ليس لى، **لا** أدرى لمن يكون. وقد أعجبت زوجة أحد التجار بلقية إلى حدّ تقديمها عرضاً سخياً لشرائه، وقد رفض سيبريانو ألجور العرض فوراً، وبعد طرق أبواب ثلاثة بيوت حيث لم يستجب أحد للنداء، سُمع النباح القوى لكلاب الحراسة، مما أتاح للخزّاف أن يحكم بصورة ملتوية أن لقية ليس من هناك، كما لو أنه مكتوب فى قانون كونى للحيوانات الداجنة أنه حيث يوجد كلب لا يمكن وجود كلب آخر. أوقف سيبريانو ألجور أخيراً شاحنته أمام باب المرأة التى فى حداد، وطرقه، وعندما ظهرت مرتدية بلوزة وتنورة سوداوين، طرح عليها صباح خيرٍ رنانة أكثر بكثير مما هو طبيعى،

www.ibtesamh.com/vb

والذنب فى هذا الاضطراب الصوتى المفاجئ يقع على عاتق مارتا، لأنها صاحبة الفكرة غير المعقولة فى زواج أرملين منتهيى الصلاحية، وهو وصف يستحق لوماً صارماً، ولابد من قول ذلك، لاسيما فيما يعنى إساورا إستوديوسا التى لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الخامسة والأربعين من العمر، وإن كان الحساب الدقيق يتطلب إضافة بعض السنوات، غير أن ذلك لا يظهر عليها فى الحقيقة. آه، صباح الخير يا سيد سيبريانو، قالت. جئتُ تنفيذاً للوعد بإحضار إبريق لك، شكراً جزيلاً، ولكن ما كان عليك أن تزعج نفسك، وقد فكرتُ بعد حديثنا فى المقبرة أنه لا يوجد فرق كبير بين الأشياء والبشر، لكل منها حياته، يستمرون لوقت معين، وبعد قليل ينتهون، مثل كل ما فى الدنيا، ومع ذلك يمكن استبدال إبريق بإبريق آخر، دون الحاجة إلى التفكير فى الأمر أكثر من الوقت الذى يحتاجه جمع فتات القديم وملء الجديد بالماء، وهو ما لا يحدث بشأن البشر، كما لو أنه عند ولادة كل واحد منهم يُكسر القالب الذى خرج منه، ولهذا لا يتكرر الأشخاص، الأشخاص لا يخرجون من قالب، ولكننى أظن أنى فهمت ما تعنيه، إنها كلمات خزّاف، فلا توليها أهمية، إليكِ الإبريق، وأرجو ألا تفلت ذراعه سريعاً. مدت المرأة كلتا يديها لتتلقى الإبريق من بطنه، أسندته إلى صدرها وشكرت مرة أخرى، شكراً جزيلاً يا سيد سيبريانو، وفى هذه اللحظة رأت الكلب فى الشاحنة، فقالت، هذا الكلب. أحس سيبريانو ألجور بصدمة، فلم يكن قد خطر لبّاله احتمال أن

www.ibtesamh.com/vb

تكون إساورا إستوديوسا بالتحديد هى صاحبة لقية، وها هى تقول الآن هذا الكلب كما لو أنها قد تعرفت عليه، بنبرة مفاجئة يمكن لها أن تكون صادرة عمن عثر أخيراً عما كان يبحث عنه، ولكَ أن تصور بكم من عدم الرغبة فى ألا يكون مصيباً سألها سيبريانو ألجور، أهو لك، وتصور كذلك مقدار الإحساس بالراحة الذى سمع به الجواب، لا، ليس لى، ولكننى أتذكر أنى رأيته يمشى هنا قبل يومين أو ثلاثة أيام، حتى إننى ناديته، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعنى، إنه حيوان جميل، عندما وصلتُ إلى البيت أمس، لدى عودتى من المقبرة، وجدته شبه مختبئ فى الكوخ الصغير الذى تحت شجرة التوت، كوخ كلب آخر كان لدينا من قبل، كونستانتى، ولم يكن يلمع فيه سوى عينيه فى الظلام، إنه يبحث عن صاحب يناسبه، لستُ أدرى إذا ما كنت أنا من يناسبه، بل يمكن أن يكون له صاحب، وهذا ما أقوم بالتقصى عنه، أين، هنا، سألت إساورا إستوديوسا، وأضافت دون أن تنتظر جواباً، لو كنت مكانك لما أتعبت نفسى، هذا الكلب ليس من هنا، إنه آت من بعيد، من مكان آخر، من عالم آخر، ولماذا تقولين من عالم آخر، لستُ أدرى، ربما لأنه يبدو لى مختلفاً جداً عن كلاب هذه الأيام، ولكن لم يكد يُتاح لك الوقت لترينه، ما رأيته كان كافياً، وإذا كنت لا تريده فإننى أعرض عليك تركه لى، ربما كنت سأتركه لو كان كلباً آخر، أما هذا فقد قررتُ الاحتفاظ به، إذا لم يظهر أصحابه بالطبع، أى أنكم تريدونه، حتى إننا أطلقنا عليه

www.ibtesamh.com/vb

اسماً، وما اسمه، أسميناه لقية، هـذا هو أفضل اسم يناسب كلباً ضالاً، وهذا ما قالته ابنتى أيضاً، إذا كنت تريده لنفسك، فلا حاجة بك إلى مزيد من القلق، مـن واجبى إعادته إلى صاحبه، لأننى أحب إذا ما أضعتُ كلباً أن يعيدوه إلىّ، إذا ما فعلت ذلك فإنك تتصرف ضد مشيئة الحيوان، فكر فى أنه رغب فى اختيار بيت آخر يعيش فيه، بـالنظر إلى الأمر من هذا الجانب، لن أقول إنكِ غير محقة، ولكن القانون يحكم، العادات تحكم، دعكَ من التفكير فى القانون وفى العادات يا سيد سيبريانو، خذ لنفسك ما صار لك، هـذا يعنى الكثير من الثقة، لابد فى بعض الأحيان من استغلال الثقة، أنتِ تعتقدين إذاً، أجل، هذا ما أعتقده، لـقد سعدت جداً بالتحدث أليكِ، وأنا أيضاً يا سيد سيبريانو، إلى اللقاء فى مرة قادمة، إلى اللقاء. وبينما هى تشد الإبريق إلى صدرها، نظرت إساورا ستوديوس من الباب إلى الشاحنة وهى تستدير لتعود من الطريق نفسه، ونظرت إلى الكلب وإلى الرجل الذى يقوده، أومأ الرجل بيده اليسرى مودعاً، ولابد أن الكلب كان يفكر فى بيته وفى شجرة التوت التى تشكل سماءه.

وهكذا رجع سيبريانو ألجور إلى ورشة الفخار قبل وقت طويل مما قدره. نصيحة الجارة إساورا إستوديوسا، أو إساورا دون مزيد، من أجل الاختصار، كانت سديدة، عقلانية، ومناسبة بجلاء كبير للموقف، وإذا ما طُبقت على شئون العالم العامة، لما كان ثمة صعوبة فى مستوى نظام الأمور التى لا تحتاج إلا إلى

www.ibtesamh.com/vb

القليل لتبلغ الكمال. والجانب المعتبر فى ذلك كله، دون ريب، هو أنها عبَّرت عنه بأقصى قدر من التلقائية، دون أى تقليب للأمر فى الرأس، كمن يقول إن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة دون أن يحتاج إلى وقت للتفكير أولاً فى أن فى أن اثنين زائد واحد تساوى ثلاثة، وبعد ذلك، ثلاثة زائد واحد آخر تساوى أربعة، إساورا على حق، فلا بد قبل كل شىء من احترام رغبة الحيوان والمشيئة التى حولت تلك الرغبة إلى فعل. فأياً يكن المالك، أو أياً كان المالك، وهذا تصويب حذر، لم يعد يتمتع بحق المجىء والمطالبة، هذا الكلب لى، لأن كل المظاهر والوقائع الجلية تُثبت أنه إذا ما كان لقية يتمتع بالقدرة البشرية على التكلم، فلن يكون لديه سوى جواب واحد يقدمه، أنا لا أريد ذلك السيد. وبالتالى، فليتبارك الإبريق المكسور ألف مرة، ولتتبارك فكرة إهداء إبريق جديد للمرأة التى بثياب الحداد، ونضيف مستبقين ما سيأتى فيما بعد، فليتبارك اللقاء الذى جرى فى أمسية الرطوبة والشجن تلك التى كانت تقطر ماء، وكانت كلها إزعاجاً على المستويين المادى والروحى، عندما نعرف جيداً أنه لولا حالات الفقدان الحديثة، لما كان ذاك هو الوقت الذى يميل فيه المحزونون إلى الذهاب إلى المقبرة للبكاء على موتاهم. لا شك فى الأمر، فكل شىء فى مصلحة الكلب لقية، ويمكنه البقاء حيث يشاء طوال الوقت الذى يرغب فيه. وهناك سبب آخر يضاعف من راحة سيبريانو ألجور وسعادته، وهو أنه غير مضطر إلى طرق باب بيت أبوى مرسيال، وهما من الجيران فى البلدة أيضاً،

www.ibtesamh.com/vb

وعلاقاته بهما ليست على ما يرام، ولا بد أن هذه العلاقات ستمضى إلى الأسوأ إذا ما مرّ من أمام باب بيتهم دون أن يبدى اهتماماً بهم. أضف إلى ذلك أنه مقتنع من أن لقية ليس لهم، لأن مشاعر آل جاتشو، مذ عرفهم، تميل على الدوام إلى كلاب المولوس الضخمة وكلاب أخرى من هذا النوع. **لقد** كان صباحنا جيداً، قال سيبريانو ألجور للكلب.

بعد دقائق قليلة كانا فى البيت. وعند توقف الشاحنة، نظر لقية بإمعان إلى سيده، وعرف أنه قد أُعفى حالياً من واجباته كملاح فابتعد جانباً، ليس باتجاه الكوخ الصغير، وإنما بالمزاج الواضح لمن قرر للتو أن الوقت قد حان للتعرف على الأمكنة. **أأ**ضع له حزاماً، تساءل صانع الفخار، وبعد ذلك، حين لاحظ حركات الكلب الذى كان يشمّ الأرض ويعلّم الأماكن ببول، مرة هنا، ومرة هناك، **لا**، لا أظن أن تقييده ضرورى، فلو أراد الهرب لكان فعل. دخل إلى البيت وسمع صوت ابنته تتكلم فى الهاتف، انتظر، انتظر، لقد وصل أبى. تناول سيبريانو ألجور سماعة الهاتف، وسأل دون مقدمات، **هل** من جديد. وفى الجانب الآخر من الخط، بعد برهة صمت، بادر مرسيال غاتشو كمن قدّر أن تلك ليست الطريقة الملائمة لبدء حديث بين شخصين، صهر وحميه، مضى عليهما أسبوع من الأسابيع القديمة دون أخبار من أحدهما عن الآخر، ولهذا بادر بتحية الصباح، وسؤاله كيف هى الحال يا أبتاه، فرد عليه سيبريانو ألجور بتحية صباح أكثر جفاء، وأضاف دون توقف أو أى نوع آخر من

www.ibtesamh.com/vb

المقدمات، لقد كنت أنتظر، أسبوع كامل من الانتظار، أود أن أعرف ما الذى كنت ستشعر به لو أنك مكانى، المعذرة، فأنا لم أتمكن من التحدث مع مدير القسم إلا هذا الصباح، أوضح مرسيال متنازلاً عن جعل حميه يلحظ، ولو بطريقة غير مباشرة، عدم استحقاقه الفظاظة التى يعامله بها، وماذا قال لك، إنهم لم يتخذوا القرار بعد، ولكن حالتك ليست الوحيدة، فالبضائع التى تتبدل وتفقد أهميتها روتين شبه يومى، وأنت، ما الفكرة التى خرجتَ بها، الفكرة التى خرجتُ بها، أجل، هل بدا لك من نبرة صوته وطريقته فى النظر أنه يريد أن يبدو لطيفاً، لا بد أنك تعرف، من تجربتك، أنهم يعطون الانطباع دوماً بأنهم يفكرون فى شىء آخر، أجل، هذا صحيح، وإذا ما سمحتَ لى بأن أكلمك بصراحة كاملة، أظن أنهم لن يعودوا إلى شراء أوان خزفية، هذه الأشياء فى نظرهم تافهة جداً، فإما أن تكون البضاعة محل اهتمام أو لا تكون البضاعة محط اهتمام، وما سوى ذلك لا يهمهم ولا وجود لأمر وسط عندهم، وماذا بشأنى، بشأننا، هل الأمر تافه أيضاً، ألا يهمنا أيضاً، ألا وجود لأمر وسط كذلك، سأل سيبريانو ألجور، لقد فعلت ما باستطاعتى، وأنا لستُ سوى مجرد حارس، ما كان بمقدورك فعل أكثر مما فعلت، قال صانع الفخار بصوت انكسر مع الكلمة الأخيرة. أحس مرسيال جاتشو بالحزن على حميه حين لاحظ تحول اللهجة، وحاول ترقيع نبوءته القاتمة، على كل حال، لم يغلق مدير القسم الباب نهائياً، قال لى إنه يدرس الموضوع،

www.ibtesamh.com/vb

ولا بد لنا فى أثناء ذلك من الاحتفاظ بالأمل، لم أعد فى سن تسمح لى بانتظار الآمال يا مرسيال، أريد أموراً يقينية، وأن تكون يقينية فورية، لا تنتظر إلى غدٍ قد لا يكون لى، أفهمك يا أبتاه، فالحياة صعود وهبوطٌ دائمان، كل شىء يتبدل، ولكن لا تيأس فنحن معك، مارتا وأنا، سواء بوجود مشغل الخزف أو من دونه. وكان من السهل إدراك ما الذى يريد مرسيال الوصول إليه بخطاب التضامن الأسرى هذا، فكل المشاكل فى رأسه، سواء مشاكل اليوم، أو المشاكل التى ستبرز فى المستقبل، ستجد حلها يوم يستقر الثلاثة فى المركز. لو كانت المناسبة مختلفة، وكان سيبريانو ألجور فى حالة معنوية أخرى، لرد عليه بجفاء، أما الآن، إما لأن الاستسلام لامسه بجناح كآبته، أو لأنه لم يفقد نهائياً الكلب لقية، أو ربما، ومن يدرى، بسبب حديث بين شخصين يفصل بينهما موضوعياً إبريقٌ فخارى، تكلم صانع الخزف بعذوبة، سأهب يوم الخميس فى الموعد المعهود لإحضارك، وإذا حصلتَ على أى خبر قبل ذلك الحين، فاتصل هاتفياً، ودون أن يمنح مرسيال الوقت للرد، أنهى الحوار، سأحوّلك إلى زوجتك. تبادلت مارتا معه بضع كلمات، وقالت، سنرى كيف سينتهى هذا كله، ثم ودعته على أمل اللقاء يوم الخميس وأغلقت الهاتف. كان سيبريانو ألجور قد خرج، وكان يجلس إلى أحد الدولابين خافضاً رأسه. هناك، على ذلك الدولاب، قطعت سكتة قلبية صاعقة حياة جوستا إساسكا. جلست مارتا على مقعد الدولاب الآخر وانتظرت. وبعد أكثر من دقيقة

www.ibtesamh.com/vb

نظر إليها آبوها، ثم حرف نظره عنها. قالت مارتا، لم تتأخر كثيراً فى القرية، لا، لم أتأخر، وهل سألتَ فى كل البيوت إن كانوا يعرفون الكلب وإن كان أحدهم هو صاحبه، سألتُ فى عدد من البيوت، وفكرتُ بعد ذلك فى أنه لا جدوى من مواصلة السؤال، ولماذا، هل هذا استجواب، لا يا أبى، مجرد محاولة لإلهائك، لا أتحمل رؤيتكَ حزيناً، لستُ حزيناً، أنت خامد الهمة إذاً، ولستُ خامد الهمة أيضاً، لا بأس، أنتَ مثلما أنت، ولكن أخبرنى لماذا رأيتَ أنه لا جدوى من مواصلة السؤال، فكرتُ فى أنه إذا ما كان للكلب مالك فى القرية وهرب منه دون أن يرجع، مع أنه يستطيع الرجوع، فلأنه يرغب فى أن يكون حرًا ليجد صاحباً آخر، ولهذا لا حق لى فى أن ألوى مشيئته، إذا كنتَ تنظر إلى الأمور من هذا الجانب، فأنت على حق، هذا بالضبط ما قلته أنا، وبهذه الكلمات نفسها، ولمن قلته. لم يجب سيبريانو ألجور. وبعد ذلك، حين لم تفعل الابنة شيئاً سوى النظر إليه بهدوء، حسم أمره، قلته للجارة، أى جارة، الجارة التى طلبت الإبريق، آه، أجل، هل أخذت الإبريق إليها، نعم، وضعته فى الشاحنة وذهبت لإيصاله، طبعاً، هذا كل شىء، إذا كنتُ قد فهمتُ جيداً، فإنها هى من قالت لكَ إنه لا جدوى من مواصلة البحث عن صاحب لقية، أجل، إنها هى، لا شك فى أنها امرأة ذكية، هكذا تبدو، وأخذت الإبريقَ منك، أتستائين من ذلك، لا تغضب يا أبى، فنحن نتحدث فقط، كيف سأستاء من أمر بسيط مثل إهداء إبريق، صحيح، ولكن لدينا

www.ibtesamh.com/vb

مسائل أشد خطورة من هذا، وأنتِ تحاولين التظاهر بأن الحياة تهب مواتية لشراعنا، **هذه** هى بالضبط المسائل التى أود الحديث معك عنها، **لستُ** أفهم إذاً سبب كل هذا اللف والدوران، **لأنى** أحب التحدث إليك كما لو أنكَ لستَ أبى، أحب أن ألحظ أننا شخصان متحابان جداً، أب وابنته متحابان لأنهما أب وابنته، ولكنهما متحابان أيضاً كصديقين لو لم يكونا أباً وابنته، **ستجعلينني** أبكى، تذكرى أن الدموع فى مثل سنى هذه تصبح غادرة، **أنتَ** تعلم أننى مستعدة لعمل أى شىء كى أراك سعيداً، **ولكنك** تحاولين إقناعى بالذهاب إلى المركز وأنتِ تعلمين أن ذلك هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى، **كنتُ** أظن أن أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو الابتعاد عن ابنتك، **هذا** ليس وفاء منك، عليكِ تقديم اعتذار، **إننى** أعتذر، فما قلته ليس صادقاً حقاً، اعذرنى. نهضت مارتا وعانقت أباها، **سامحنى**، فرد صانع الخزف، **لا** أهمية للأمر، لو أننا أقل كآبة لما تحدثنا بهذه الطريقة. قرّبت مارتا مقعداً صغيراً من مقعد أبيها وجلست عليه، ثم أمسكت بيد أبيها وبدأت تقول، **لقد** خطرت لى فكرة بينما أنت تقوم بجولتك مع الكلب، **أوضحى**، **سنترك** جانباً الآن موضوع المركز، أعنى قرارك بالمجىء أو عدم المجىء معنا، **يبدو** لى هذا جيداً، **موضوع** المركز لن يكون غداً ولا فى الشهر القادم، وعندما يحين الوقت ستقرر بنفسك إن كنت ستذهب أو ستبقى، فحياتك ملكك أنت، **شكراً** لأنك تسمحين لى بالتنفس أخيراً، **لن** أسمح لكَ، **ماذا** لديكِ سوى

www.ibtesamh.com/vb

ذلك، بعد خروجكَ مع الكلب، جئتُ للعمل هنا، ذهبتُ أولاً لألقى نظرة على المستودع ولاحظتُ أنه لا وجود لزهريات صغيرة، فجئتُ متأهبة لصنع بعضها، وفجأة، حين صارت قطعة الصلصال فوق الدولاب، فكرتُ بمدى عبثية مواصلة هذا العمل فى العماء، فى العماء، لماذا، لأن أحداً لم يوصى على زهريات صغيرة أو كبيرة، لأنه ليس هناك من ينتظر بفارغ الصبر أن أنهى صنعها ليأتى راكضاً لشرائها، وعندما أقول زهريات فإننى أعنى أى نوع من القطع التى نصنعها، كبيرة كانت أم صغيرة، ذات منفعة استخدامية أو من دونها، أفهم كلامك، ولكن علينا أن نكون جاهزين مع ذلك، جاهزين لأى شىء، لتلبية الطلبيات حين تأتى، وما الذى سنفعله إذا لم تأتِ الطلبيات، ما الذى سنفعله إذا توقف المركز عن الشراء، كيف سنعيش، ومم، هل سننتظر إلى أن ينضج التوت، وأن يتمكن لقية من اصطياد أرنب مشلول، أنت ومرسيال لن تعانيا من هذه المشكلة يا أبى، ولنتذكر أننا لن نتحدث عن المركز، موافق، واصلى كلامك، حسن، حتى لو افترضنا أن معجزة ستجعل المركز يبدل ما قاله، وهو أمر لا أظنه سيحدث، وأنتَ أيضاً لا تظن ذلك إذا كنت لا تريد خداع نفسك، كم من الوقت يمكننا البقاء هنا مكتوفى الأيدى أو منهمكين فى صنع خزف لا ندرى سبب صنعه أو لمن نصنعه، فى الوضع الذى نحن فيه لا أرى أنه يمكننا عمل شىء آخر، لدى رأى مختلف، وما هو هذا الرأى المختلف، أية فكرة عجيبة خطرت

www.ibtesamh.com/vb

لكِ، أن نصنع أشياء أخرى، إذا كان المركز قد تخلى عن شراء أشياء، فمن المشكوك فيه أن يكون راغباً فى شراء أشياء أخرى، ربما لا يكون الأمر كذلك، ربما ربما، ما الذى تتكلمين عنه يا امرأة، أتكلم عن أنه علينا أن نبدأ بصنع دمى، فهتف سيبريانو ألجور بنبرة استنكار مفاجئة، دمى، دمى، لم أسمع قطّ مثل هذه الفكرة غير المعقولة، أجل، أيها السيد أبى، دمى، تماثيل صغيرة، أراجوزات، أشكال رخيصة، زينات لها أقدام ورءوس، سمها ما شئت، ولكن لا تبدأ بالقول إنها سخافة دون أن تنتظر النتيجة، تتكلمين كما لو كنتِ واثقة من أن المركز سيشترى هذه الدمى، لستُ متأكدة من أى شىء، اللهم إلا من أنه لا يمكن لنا البقاء متوقفين بانتظار أن يهوى العالم على رءوسنا، لقد سقط على رأسى وانتهى، كل ما يسقط عليكَ يسقط علىّ، ساعدنى على أن أساعدك، بعد كل هذا العمر فى صنع الأوانى، لابد أن يدى فقدت مهارة صنع القوالب، وهذا ما أقوله أنا أيضاً، ولكن إذا كان كلبنا قد أضاع نفسه كى يتمكن من أن يصير لقية، مثلما أوضحت إساورا إستوديوسا بذكاء، فإنه يمكن لمهارتنا اليدوية المفقودة، مهارات يديكَ ويدىّ، أن تجد نفسها فى الصلصال، من يدرى، إنها مغامرة ستنتهى نهاية سيئة، وما لم يكن مغامرة انتهى نهاية سيئة أيضاً. نظر سيبريانو ألجور بصمت إلى ابنته، ثم تناول قليلاً من الصلصال ومنحه الشكل الأولى لهيئة بشرية. من أين نبدأ، سألها، من حيث يجب البدء دائماً، من البداية، أجابته مارتا.

www.ibtesamh.com/vb

إنها متسلطة، شالّة، دائرية، وأهليجية أحياناً، عبارات التودد تلك التى يسمونها أيضاً، بتبجح، شذرات الذهب، إنها جائحة خبيثة من أسوأ ما يمكن أن يجتاح العالم من أوبئة. نقول للمضطربين، اعرف نفسك، وكأن معرفة المرء نفسه ليست عملية حسابية خامسة وأكثر صعوبة بين العمليات الحسابية البشرية، نقول لفاقدى الإرادة، من أراد استطاع، وكأن وقائع العالم المريعة لا تتلهى كل فى يوم عكس دلالة الأفعال النسبية وقلبها رأساً على عقب، نقول للمترددين، ابدأ من البداية، وكأن تلك البداية هى الطرف المرئى دوماً من خيط سيئ التشابك يكفى سحبه ومواصلة سحبه من أجل الوصول إلى طرفه الآخر، طرف النهاية، وكما لو أن بين أيدينا، بين الطرف الأول والثانى، خيطاً ناعماً متواصلاً لم يكن علينا حلّ عقدٍ فيه وفكّ تشابكات، وهو أمر مستحيل فى حياة كُبّة الخيوط، وكما لو أن جملة تودد أخرى مسموح بها فى كُبّة خيوط الحياة. مارتا قالت لأبيها، فلنبدأ من البداية، وكأنه لا ينقصهما إلا أن يجلس

www.ibtesamh.com/vb

كل منهما إلى المنضدة كى يقولبا دمى بأصابع تصير فجأة رشيقة ودقيقة، وبالمهارة القديمة المستردة من سبات طويل. محض خداع لسذَّج وغافلين، فالبداية لم تكن قط الطرف الواضح والمحدد من خيط، البداية هى سيرورة شديدة البطء، شديدة التأخر، تتطلب وقتاً وصبراً من أجل إدراك الاتجاه الذى تريد المضى فيه، تتلمس الطريق كأعمى، البداية هى البداية وحسب، وما هو منجز لم يعد يساوى شيئاً. ومن هنا كان ما تذكرته مارتا بعد ذلك أشد حسماً، لدينا ثلاثة أيام فقط من أجل الإعداد لتقديم المشروع، فهكذا يقال فى لغة الصفقات والتنفيذيين، على ما أعتقد، أوضحى، فليس لدى رأس لمجاراتك، قال أبوها، اليوم هو الإثنين، وأنت ستُحضر مرسيال يوم الخميس مساء، وسيكون عليك بعد ذلك أن تحمل فى ذلك اليوم بالذات، إلى رئيس قسم المشتريات، اقتراحنا بتصنيع دمى، مع تصميمات، ونماذج، وأسعار، وباختصار كل ما يقودهم إلى الشراء ويؤهلهم لاتخاذ قرار لا يتأخر حتى العام القادم. فسألها سيبريانو ألجور دون أن ينتبه إلى أنه يكرر الكلمات، من أين سنبدأ، لكن جواب مارتا لم يكن نفسه، علينا أن نركز اهتمامنا على نصف دستة من النماذج، أو حتى أقل، كيلا نُعقّد العمل كثيراً، وأن نقدّر كم من الدمى يمكننا صنعها فى اليوم، وهذا يعتمد على طريقة تصورنا لها، إذا كنا سنقولب الصلصال كمن ينحت مباشرة فى كتلة الطين أو سنصنع دمى متشابهة لرجال ونساء ثم نُلبسها بعد

www.ibtesamh.com/vb

ذلك حسب مهنها، وستكون بالطبع دمى منتصبة القامة، وأنا أرى أنها يجب أن تكون جميعها هكذا، فهى أسهل صنعاً، **مـا** الذى تعنينه أنت بإلباسها، الإلباس هو **الإلباس**، أن نلصق على جسد الدمى العارية الملابس، الاكسسوارات التى تميزها وتمنحها التفرد، وأظن أن شخصين يعملان بهذه الطريقة سيتصرفان بصورة أفضل، وبعد ذلك سيكون من الواجب فقط توخى الحذر بشأن الطلاء كيلا تتلطخ الدمى، **أ**رى أنكِ قد فكرتِ كثيراً، قال سيبريانو ألجور، **لا** تظن ذلك، ولكننى فكرتُ بسرعة فعلاً، **و**فكرتِ جيداً، **لا** تجعلنى أحمر خجلاً، **و**فكرتِ كثيراً، حتى لو أنك قلت غير ذلك، **لا**حظ كم احمر وجهى، **مـ**ن حسن حظى أنكِ قادرة على التفكير بسرعة، والتفكير كثيراً، والتفكير جيداً، وكل ذلك فى وقت واحد، **عـ**ينا أب، محبة أب، أخطاء أب، **و**أى شخوص ترين أن نصنع، **يـ**جب ألا تكون قديمة جداً، هناك مهن كثيرة اختفت، ولم يعد هناك اليوم من يعرف ما الذى كان يفعله أولئك الأشخاص، وما كانت فائدتهم، وأظن كذلك أنها يجب ألا تكون لشخوص موجودة الآن، فدمى البلاستيك تغطى هذا الجانب، بأبطاله، ورامبواته، ورواد فضائه، ومتحوليه، ومسوخه، ورجال شرطته الخارقين، وقطاع طرقه الخارقين، وأسلحته، وخاصة أسلحته، إننى أفكر، ومن حين إلى آخر أتوصل أيضاً إلى الإعراب عن بعض الأفكار، مع أنها ليست جيدة كأفكارك، **د**عكِ من حركات التواضع الزائفة، فهى لا تناسبك أبداً، **كـ**نت أفكر بإلقاء نظرة

www.ibtesamh.com/vb

على الكتب المصورة التى لدينا، مثل تلك الموسوعة القديمة التى اشتراها جدك، فإذا ما وجدنا فيها نماذج تنفع مباشرة لصنع الدمى، نكون قد حللنا فى الوقت نفسه مسألة التصاميم التى سآخذها، ولن ينتبه رئيس القسم إلى أننا نستنسخ، وحتى لو انتبه فلن يعتبر الأمر مهماً، أجل يا سيدتى، إنها فكرة تستحق عشر درجات، أنا أرضى بست درجات، فهذا أقل لفتاً للأنظار، فلنبدأ العمل.

ومثلما يسهل التصور، فإن مكتبة أسرة ألجور ليست واسعة الكم ولا رفيعة النوع. فلدى أناس شعبيين، وفى مكان كهذا، معزول عن الحضارة، لا يؤمل وجود إفراط فى المعرفة، ولكن، على الرغم من ذلك، يمكن أن يصل إلى مئاتين أو ثلاثمائة عدد الكتب المنضدة فى الخزانة ذات الرفوف، عدد منها قديم، وأخرى فى منتصف عمرها، وهذه هى الأكثرية، وما تبقى حديث إلى هذا الحد أو ذاك، وإن يكن عدد محدود منها فقط هو الحديث جداً. لا وجود فى القرية لمحل يمكن أن يطلق عليه بعد اسم مكتبة، فهناك ما يمكن اعتباره محل قرطاسية يتولى طلب كتب الدراسة الضرورية من دور النشر فى المدينة، وقد يطلب فى أوقات متباعدة عملاً أدبياً جرى الحديث عنه بإلحاح فى الإذاعة وفى التلفاز، ويكون مضمونه، وأسلوبه ومقاصده متوافقة بصورة مرضية مع اهتمامات الأهالى. ليس مرسيال جاتشو بالشخص كثير القراءات والمدقق فيها، إلا أنه لا بد

www.ibtesamh.com/vb

من الاعتراف بأنه قادر، حين يأتى إلى مشغل الخزف ومعه كتاب يهديه إلى مارتا، على التوصل إلى ملاحظة الفرق بين ما هو جيد وما لا يتعدى أن يكون متوسط الجودة، وإن كان صحيحاً أنه حول مفاهيم الجودة والوسطية الزلقة هذه لن تنقصنا أبداً الأسباب بشأن ما يدعو إلى التأمل وما يسبب الاختلاف. الموسوعة التى فتحها الأب وابنته للتو على منضدة المطبخ كانت تعتبر الأفضل فى زمن نشرها، ولكن لا يمكن لها اليوم أن تنفع إلا فى التقصى عن معارف مهجورة أو أنها، فى ذلك الزمن، كانت لا تزال تركب أولى المفردات المشكوك فيها. إن وضع موسوعات اليوم والأمس وأول أمس فى صف، واحدة وراء الأخرى، يقدم صوراً متتالية لعوالم معطلة، إيماءات مبتورة فى حركتها، كلمات تبحث عن دلالتها الأخيرة أو ما قبل الأخيرة. فالموسوعات هى مثل سيكلوراما ثابتة، أجهزة عرض عجيبة ظلت أشرطتها متجمدة تعرض بنوع من الهوس الثابت منظراً محكوماً عليه أن يكون، إلى الأبد، ما كان عليه، ويأخذ بالتحول فى الوقت نفسه ليصير قديماً أكثر، وغابراً أكثر، ولا لزوم له أكثر فأكثر. الموسوعة التى اشتراها أبو سيبريانو ألجور عظيمة جداً وغير مجدية، مثل بيت شعر لا نتوصل إلى تذكره. ومع ذلك، يجب ألا نكون متعجرفين أو جاحدين، وأن نستحضر فى ذاكرتنا توصية أسلافنا المتعقلة عندما كانوا ينصحوننا بحفظ ما لا نحتاج إليه، لأننا سنجد لدينا، عاجلاً أو آجلاً، ما نحن بحاجة إليه، وكنا لا ندرى آنذاك أننا

www.ibtesamh.com/vb

سنحتاجه. وبينما هما منحنيان على الصفحات القديمة الصفراء، يتنفسان رائحة الرطوبة الحبيسة طوال سنوات، دون لمسة هواء أو نَفَس ضوء، فى أجمة الأوراق البيضاء، وقد استفاد الأب والابنة اليوم من الدرس، فهما يبحثان عما يحتاجان إليه فى ذلك الشىء الذى ظنا أنه لن يكون ذا نفع على الإطلاق. لقد وجدا فى بحثهما أكاديمياً يضع قبعة بقرنين من الريش، وسيفاً صغيراً وصداراً للقميص، وجدا مهرجاً وبهلولاً، وجدا هيكلاً عظمياً يحمل منجلاً طويلاً ولكنهما واصلا قُدماً، وجدا أمازونية على جواد وأميرالاً بلا سفينة، وجدا مصارع ثيران ورجلاً بجبة، وجدا ملاكماً وخصمه، وجدا دركياً وكردينالاً، وجدا صياداً وكلبه، وجدا بحاراً متقاعداً ومأموراً قضائياً، ومهرجاً رومانياً بالرداء الرومانى، وجدا درويشاً وخفيراً مسلحاً برمح، وجدا حارساً قضائياً وكاتباً عمومياً جالساً، وجدا ساعى بريد وفقيراً هندياً، ووجدا كذلك مصارعاً رومانياً وجندى مشاة إغريقياً، ممرضة وبهلواناً، لورداً وعاملاً، وجدا معلم مبارزة ونَحَّالاً، عامل منجم وصياد أسماك، رجل مطافئ وعازف ناى، وجدا دميتين متحركتين، وجدا مراكبياً، وجدا مزارعاً، وجدا قديساً وقديسة، وجدا شيطاناً، وجدا الثالوث المقدس، وجدا جنوداً وعسكريين من كل المراتب، وجدا غواصاً ومتزلجاً، رأيا حارساً وحطاباً، رأيا إسكافياً بنظارة، وجدا شخصاً يقرع طبلاً وآخر يعزف بوقاً، وجدا امرأة مسنّةً بطرحة ومنديل، وجدا رجلاً مسناً بغليون، وجدا فينوساً وأبولو، وجدا فارساً

www.ibtesamh.com/vb

بقبعة عالية، وجدا مطراناً متوجاً، وجدا تمثالاً يسند قنطرة وتمثال عملاق على شكل عمود، وجدا رماحاً راكباً وآخر راجلاً، وجدا عربياً بعمامة، وجدا موظف مندرين صينياً، وجدا طياراً، وجدا قائد مرتزقة وخبازاً، وجدا فارساً شهماً، وجدا خادمة بمريلة ورجل اسكيمو، وجدا أشورياً ملتحياً، وجدا عامل تحويلة سكة حديد، وجدا بستانياً، وجدا رجلاً عارياً عضلاته بارزة وكذلك خريطة جهازه العصبى والدورانى، ووجدا أيضاً امرأة عارية، ولكنها تغطى عانتها بيدها اليمنى ونهديها باليسرى، وجدا آخرين كثيرين لا يناسبون أهدافهم المأمولة، إما لأن صنع تماثيلهم من الصلصال سيكون معقداً جداً، أو لأن استغلالاً غير موفق لشخصيات مشهورين قدماء أو معاصرين تتزين الموسوعة برسومهم الصحيحة، أو المحتملة، أو المتخيلة، يمكن أن يفسر بسوء نية على أنه إساءة احترام، بل وتوفير الفرصة، فى حالة المشهورين الأحياء، أو الميتين المشهورين الذين لهم ورثة مصلحون ومتيقظون، لمحاكمات قضائية مدمرة بدعوى التشهير، والضرر الأخلاقى، وإساءة استغلال الصور. من سنختار من بين جميع هؤلاء، سأل سيبريانو ألجور، وفكرى فى أنه بثلاثة أو أربعة دمى لن نقدم الكفاية، دون حساب أنه حتى ذلك الحين، ريثما يقرر المركز إذا ما كان سيشترى أم لا، سيكون علينا أن نتدرب كثيراً إذا كنا نريد التقدم بعمل نظيف، لائق، فى كل الأحوال يا أبى، أظن أن الأفضل هو أن نقترح عليهم ستة، قالت مارتا، فإما أن يوافقوا

www.ibtesamh.com/vb

ونقسم نحن الإنتاج إلى مرحلتين، إنها مسألة تحديد مواعيد التسليم، أو أنهم، وهذا سيكون الأكثر احتمالاً، سيبدءون هم بتحديد دميتين أو ثلاث من أجل سبر فضول الزبائن وتقدير رد فعلهم المحتمل، ويمكن لهم عندئذ أن يتوقفوا عند ذلك الحد، صحيح، ولكننى أظن أنه ستكون لدينا فرصة أكبر فى إقناعهم إذا ما حملنا إليهم ستة تصاميم، فالعدد يؤخذ فى الحسبان، العدد يؤثر، إنها مسألة نفسية، علم النفس لم يكن ميدانى المفضل قط، ولا أنا، غير أنه يمكن أن يكون للجهل نفسه حدساً نبوياً، لا تُدخلى هذه النبوءات الحدسية فى مستقبل أبيكِ، فهو يفضل دوماً أن يعرف فى كل يوم ما يقرر كل يوم أن يجيئه به، خيراً أو شراً، ما يجىء به اليوم هو أمر، وأمر آخر هو ما نضيفه نحن بأنفسنا، اليوم السابق، لست أفهم ما تعنيه، اليوم هو ما نضيفه إلى كل يوم نعيش فيه، فالحياة هى حمل أيام سابقة مثل من يحمل أحجاراً، وعندما لا نعود قادرين على الحمولة ينتهى النقل، واليوم الأخير هو الوحيد الذى لا يمكن تسميته اليوم السابق. لا تحزنى، لا يا بنيتى، ولكن ربما تكونين أنت المذنبة، المذنبة بماذا، مذنبة بى، الأمر ينتهى بى معك دوماً إلى الحديث عن أمور جديّة، فلنتحدث إذن فيما هو أكثر جدية بكثير، فلنختر دمانا. سيبريانو الجور ليس رجل ضحك، وحتى الابتسامات الخفيفة نادرة على فمه، ولكنه لمح للتو أن له فى هذا اليوم ضحكة محفوظة لم تستطع الظهور بعد. فلنبدأ، قال، أنا أختار واحدة، وأنت تختارين أخرى،

www.ibtesamh.com/vb

على أن نحصل على ست، ولكن انتبهى إلى أنه لا بد من الأخذ فى الاعتبار دوماً سهولة العمل وذوق الناس المعروف أو المستتر، موافقة، ابدأ أنتَ من فضلك، البهلول، قال الأب، المهرج، قالت الابنة، المرضة، قال الأب، رجل الاسكيمو، قالت الابنة، المندرين الصينى، قال الأب، الرجل العارى، قالت الابنة، الرجل العارى لا، غير ممكن، عليكِ أن تختارى آخر، فالرجل العارى لن يقبلوه فى المركز، لماذا، لهذا السبب بالذات، لأنه عارٍ، فلتكن المرأة العارية إذن، هذا أسوأ، ولكنها تغطى نفسها، تغطيتها نفسها بهذه الطريقة هى أكثر من إظهارها كل شىء، إننى متفاجئة من معارفك حول هذه الأمور، لقد عشتُ، رأيت، قرأت، أحسست، وما دور القراءة هنا، من يقرأ ينتهى إلى معرفة كل شىء تقريباً، أنا أقرأ أيضاً، وبالتالى لا بد أنكِ تعرفين شيئاً، لستُ واثقة تماماً من ذلك الآن، عليكِ إذن أن تقرئى بطريقة أخرى، كيف، لا وجود لطريقة نافعة للجميع، فكل شخص يخترع طريقته، طريقته الخاصة، هناك من يقضى حياته كلها فى القراءة دون أن يمضى إلى ما هو أبعد من القراءة، هؤلاء يبقون ملتصقين بالصفحات، لا يدركون أن الكلمات ليست سوى أحجار مصفوفة تعترض تيار النهر، وإذا كانت هناك فإنها موجودة لكى نتمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى، الضفة الأخرى هى المهمة، إلا إذا، إلا إذا ماذا؟ إلا إذا لم تكن لهذه الأنهار ضفتان وإنما ضفاف كثيرة، وكل شخص يقرأ تكون تلك هى ضفته الخاصة، وتكون له وله

www.ibtesamh.com/vb

وحده الضفة التى سيصل إليها، مـلاحظة جيدة، قال سيبريانو ألجور، وهى تؤكد مرة أخرى أنه من غير المناسب للمسنين أن يتجادلوا مع الأجيال الجديدة، لأنهم سينتهون دوماً إلى الخسارة، ومع ذلك، يجب الاعتراف بأنهم يتعلمون شيئاً ما أيضاً، إننى شاكرة جداً فى الجزء الذى يخصنى، فـلنعد إلى الدمية السادسة، لا يمكن أن يكون الرجل العارى، لا، ولا المرأة العارية كذلك، ولا هذه، فـليكن إذن الفقير الهندى، الفقراء الهنود يكونون جالسين عموماً، مثل الكتبة العموميين وصانعى الفخار، ففقير واقف هو رجل مثل غيره، وجالس يكون أصغر من الآخرين، فـى هذه الحالة نختار الفارس، الفارس لن يكون سيئاً، غير أنه سيكون علينا أن نحل مشكلة السيف ورباش القبعة، بالنسبة للرباش يمكننا عمل شىء، أما السيف فلا حل إلا بإلصاقه إلى الساق، وسيف ملتصق بالساق سيبدو أشبة بخشبة، فلنختر إذن الأشورى ذا اللحية، إنه سهل، متماسك، لقد وصلت إلى التفكير فى الصياد ومعه الكلب، ولكن الكلب سيجلب لنا تعقيدات أكبر من سيف الفارس، والبندقية أيضاً، أكد سيبريانو ألجور، وبما أننا نتكلم عن كلب، ما الذى يفعله لقية يا ترى، لقد نسيناه تماماً، أيكون قد نام. نهض صانع الفخار، أزاح ستارة النافذة وقال، لا أراه فى الكوخ، لابد أنه يجول فى المكان، يقوم بواجبه كحارس للبيت، يحرس محيط المكان، هذا إذا لم يكن قد ذهب، كل شىء ممكن الحدوث فى الحياة، ولكننى لا أظن أنه قد ذهب. وبقلق، وبارتياب، فتح

www.ibtesamh.com/vb

سيبريانو ألجور الباب فجأة، وكاد أن يصطدم بالكلب. كان لقية ممدداً على ممسحة الأقدام، معترضاً العتبة، ووجهه متجه نحو المدخل. نهض حين رأى ظهور السيد، وانتظر. **إنه** هنا، أعلن صانع الفخار، **أرى** ذلك، ردّت مارتا من الداخل. بدأ سيبريانو ألجور بإغلاق الباب وقال، **إنه** ينظر إليّ، **لن** تكون المرة الوحيدة، **ماذا** أفعل، **إما** أن تغلق الباب وتتركه خارجاً، وإما أن تومئ له لكى يدخل، وتغلق الباب، **ألا** تمزحين، **لست** أمزح، عليك أن تحسم اليوم أمر إذا كنت ستتقبل لقية فى البيت أم لا، وأنتَ تعرف أنه إذا دخل، فسوف يدخل إلى الأبد، **كونستانتى** أيضاً كان يدخل عندما يشاء، **أجل**، كان يفضل استقلالية كوخه، أما هذا، إذا لم أكن مخطئة، فإنه بحاجة إلى الرفقة، بقدر ما هو بحاجة إلى خبز لفمه، فقال صانع الفخار، أظن أن هذا السبب جيد. فتح الباب على اتساعه، وأومأ قائلاً، **أدخل**. ودون أن يرفع بصره عن السيد، خطا لقية خطوة مترددة، ثم توقف بعد ذلك كما لو أنه يريد أن يبين أنه غير موقن من أنه قد فهم الأمر. فألح صانع الفخار، **أدخل**. تقدم الكلب ببطء وتوقف فى منتصف المطبخ. **أهلاً** بك فى البيت، قالت مارتا، ولكننى أنبهك إلى أنه من الأفضل لك أن تبدأ بمعرفة أنظمة المنزل، حاجات الكلب العضوية، سواء الصلبة أو السائلة، تُقضى فى الخارج، والأكل أيضاً، ويمكنك خلال النهار الدخول والخروج مثلما تشاء، أما فى الليل فتأوى إلى كوخك كى تحرس البيت، ومع هذا لا تظن أننى سأحبك أقل من سيدك،

www.ibtesamh.com/vb

والدليل أننى أنا من قلت له إنك كلب بحاجة إلى رفقة. لم يحرف لقية بصره عنها طوال الوقت الذى استمرت فيه بإعطاء التعليمات. لم يكن بمقدوره فهم ما تعنيه مارتا، ولكن دماغه الصغير، ككلب، أدرك أنه لا بد له من النظر والاستماع لكى يعرف. انتظر بضع لحظات أخرى بعد أن توقفت مارتا عن الكلام، وبعد ذلك مضى ليتكور على نفسه فى أحد أركان المطبخ، ولكنه لم يتوصل إلى تدفئة المكان، فما إن جلس سيبريانو ألجور، حتى انتقل من مكانه ليقعى إلى جوار الكرسى. ولكى لا تبقى أية شكوك فى روح صاحبى البيت، حول اتضاح معنى واجباته ومسئولياته لديه، لم يكن قد انقضى ربع ساعة عندما نهض من هناك لكى يقعى إلى جانب مارتا، فالكلب يعرف جيداً عندما يكون هناك من هو بحاجة إلى رفقته.

كانت ثلاثة أيام من العمل المكثف، من الانفعال المفرط، من التشكيل والتخريب على الورق وبالصلصال. لم يكن أى منهما يريد أن يتقبل أن حصيلة الفكرة، والعمل الذى يقومان به من أجل منحها التماسك، يمكن أن تكون تمنعاً فظاً، دون أى تفسير آخر سوى، زمن هذه الدمى قد انقضى. كانا ناجيين من الغرق يجدفان نحو جزيرة، دون أن يدريا إذا كانت جزيرة حقيقية أم مجرد طيف. كانت مارتا هى الأبرع فى الرسم، ولهذا تولت هى مهمة نقل النماذج الستة المختارة إلى الورق، مع تكبيرها بطريقة المربعات التقليدية، إلى الحجم المضبوط الذى ستُصنع

www.ibtesamh.com/vb

به الدمى بعد أن تقولب، بمقدار شبر كبير إلى حدّ ما، ليس شبرها هى التى يدها صغيرة، وإنما شبر أبيها. واصلت عملية تلوين الرسوم، وهى عملية معقدة، ليس بسبب المبالغة فى مخاوف الدقة والإتقان فى التنفيذ، وإنما لأنه لا بد من الاختيار والمواءمة بين ألوان لا تدرى إذا ما كانت تتفق مع طبيعة الشخوص، ذلك أن الموسوعات المصورة وفق تقنيات الطباعة فى زمنها لا تتضمن إلا رسوماً ذات قامة حلوة، تدقق فى التفاصيل دون تأثيرات لونية أخرى سوى تنويعات رمادى ظاهرى ينتج عن طباعة الخطوط السوداء على خلفية الورق الثابتة. ومن بين تلك النماذج كلها، كانت الممرضة دون ريب هى الأسهل فى الرسم. قلنسوة بيضاء، بلوزة بيضاء، تنورة بيضاء، حذاء أبيض، كل شىء أبيض أبيض أبيض، كل شىء بياض ناصع لا تشوبه شائبة، كما لو أنها ملاك رحمة ينزل إلى الأرض مكلفاً بالتخفيف من الهموم وتسكين الآلام بينما لا يُستدعى، قبل أو بعد، ملاك آخر بملابس مماثلة لتهدئة آلامها وتسكين كروبها. ورجل الاسكيمو لا يقدم كذلك مصاعب تذكر، فالجلود التى تغطيه يمكن تلوينها بلون بين الرمادى والشاحب، تتخلله بضع بقع شديدة البياض، لتظهر كجلد دب مقلوب على قفاه، والمهم هو أن يكون لرجل الاسكيمو وجه رجل اسكيمو، لأن هذا هو سبب مجيئه إلى الدنيا. أما مع المهرج، فالمشاكل ستصبح أكثر جدية بكثير، للسبب البسيط فى أنه فقير. /هنا/فلو أن،

www.ibtesamh.com/vb

بدلاً من الأسمال الباثسة التى هى عليه، كان مهرجاً غنياً، فسوف يحل المشكلة أى لون حيوى، براق، يوشم ببقع صغيرة لامعة توزع بضربات فرشاة على القلنسوة، على القميص، على السروال. ولكن المهرج فقير، أفقر من الفقر، يرتدى أسمالاً بلا ذوق ولا تجانس، مرقعة من أعلى إلى أسفل، سترة تصل حتى ركبتيه، وسروالاً فضفاضاً ينتهى عند ربلتى الساقين، وقميصاً يمكن لثلاثة أعناق أن تدخل فيه بكل راحة، وربطة عنق تبدو مثل مروحة، وصداراً هذيانياً، وحذاء كأنه زورقان. كل هذا يمكن أن يُرسم باطمئنان، فكون الأمر متعلق بمهرج فقير، لن يضيع أحد وقته فى الشراء إذا ما كان لألوان ذلك المسخ المصنوع من صلصال وقار الألوان التى يُقدم بها واقع الفقير، حتى عندما لا يعمل مهرجاً. والسيئ هو، إذا ما أُلبست الدمى جيداً، فإن هذا الخليط لن يكون أسهل فى القولبة من الصياد والفارس اللذين أثارا الكثير من الشكوك. والانتقال من هنا إلى البهلول سيكون انتقالاً من التشابه إلى التطابق، من التماثل إلى التوحد، من التناظر إلى الصِنو. تطبيق ألوان أحدها بصورة مختلفة يمكن أن يخدم الآخر، وتبديل اثنين فى اللباس، تحوّل البهلول بسرعة إلى مهرج والمهرج إلى بهلول. وهما، إذا ما أمعنا النظر، شكلان يبدو أحدهما نسخة عن الآخر، سواء بلباسهما أو بوظيفتهما، والفارق الوحيد الذى يُلحظ بينهما، من وجهة نظر اجتماعية، هو أنه ليس من المعهود أن يذهب المهرج إلى قصر الملك. أما المندرين الصينى

www.ibtesamh.com/vb

بجلبابه والأشورى بعباءته فلا يتطلبان كذلك اهتماماً خاصاً، فبلمستين صغيرتين فى العينين، يصير وجه الاسكيمو نافعاً للصينى، ولحية الأشورى الكثة والمتموجة تجعل العمل أسهل فى الجزء السفلى من الوجه. أعدت مارتا ثلاث مجموعات من التصاميم، الأولى وفيّة تماماً للأصول، والثانية مثقلة بالاكسسوارات، والثالثة خالية من التفاصيل الزائدة، بهذه الطريقة يسهل التفحص الخاص الذى ستكون الكلمة الأخيرة فيه للمركز، حول مصير الاقتراح، وفى حالة الموافقة عليه، ربما تختزل، هذا ما يؤمل على الأقل، إمكانية ظهور مزاعم مستقبلية حول الفروقات بين ما يظهر فى الرسم وما سينفذ بالصلصال. وبينما لم تكن مارتا قد انتقلت إلى المرحلة الثالثة، اكتفى سيبريانو ألجور بمتابعة سير العمليات فاقداً الصبر لأنه لا يستطيع المساعدة، بل وأكثر من ذلك، لأنه يعى بأن أى تدخل من جانبه لن ينفع إلا فى تصعيب وتأخير العمل. ومع ذلك، عندما وضعت مارتا أمامها الورقة التى ستبدأ عليها مجموعة الرسوم الأخيرة، جمع بسرعة النسخ الأولية، ومضى إلى مشغل الفخار. وقد أتيح للابنة الوقت مع ذلك لأن تقول له، **لا** تغضب إذا لم تخرج معك جيدة من المرة الأولى. وساعة بعد ساعة، خلال بقية ذلك النهار، وشطراً من اليوم التالى، حتى اللحظة التى يتوجب عليه فيها الذهاب إلى المركز لإحضار مرسيال، صنع الخزّاف وأتلف دمى لها هيئة ممرضات ومندرينات صينيين، بهاليل وأشورين، رجال

www.ibtesamh.com/vb

اسكيمو ومهرجين، يكاد يكون من غير الممكن التعرف إليهم فى المحاولات الأولى، مع أنها راحت تكتسب شكلاً ومعنى كلما أخذت الأصابع تفسر من تلقاء نفسها ووفق قوانينها الخاصة، التعليمات التى تصلها من الدماغ، هذا الدماغ الذى نأتى به إلى الدنيا، هذا الذى نحمله داخل الجمجمة والذى يحملنا لكى نحمله، لم يتوصل قط إلى إنتاج شىء اللهم إلا نوايا ملتبسة، عامة، مشتتة، وقبل كل شىء، قليلة التنوع، حول ما يتوجب على اليدين والأصابع أن تفعله. فعلى سبيل المثال، إذا ما خطرت لدماغ الرأس فكرة رسم أو موسيقى، أو نحت، أو أدب، أو دمى من الصلصال، فإن ما يفعله هو إبداء الرغبة، ويظل ينتظر بعد ذلك، ليرى ما الذى سيحدث. فلمجرد أنه أصدر أمراً إلى اليدين وإلى الأصابع، يعتقد، أو يتظاهر بأنه يعتقد، بأن ذلك هو كل ما هو مطلوب لكى يتم إنجاز العمل، بعد بعض العمليات التى تنفذ بأطراف الذراعين. لم يراوده الفضول قط فى التساؤل عن السبب فى أن الناتج النهائى لتلك المعالجات اليدوية المعقدة دوماً، حتى فى أبسط ملامحها، لا يشبه ولو قليلاً ما كان قد تصوره قبل أن يعطى التعليمات إلى اليدين. لاحظ أن أصابعنا، حين نولد، لا تكون لها أدمغة بعد، تأخذ بالتشكل شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وبمساعدة ما تراه العينين. ومساعدة العينين مهمة، بقدر أهمية المساعدة التى يوفرها ما ترياه. ولهذا فإن أفضل ما فعلته اليدان على الدوام، هو كشف المستور تحديداً. فما يمكن إدراكه بالدماغ كمعرفة موحية، سحرية، أو

www.ibtesamh.com/vb

خارقة للطبيعة، أياً كان ما يعنيه خارق للطبعية، سحرى، موحى، فإن الأصابع وأدمغتها الصغيرة هى التى تُعلّمه. فلكى يعرف دماغ الرأس ما هو الحجر، كان لا بد للأصابع من أن تلمسه، وأن تحس بخشونته، بوزنه، بكثافته، كان لا بد لها من أن تُجرح به. وبعد وقت طويل فقط أدرك العقل أنه يمكن، من قطعة الصخر تلك، صنع شىء سيسميه خنجراً، وشىء آخر سيسميه إلهاً. لقد كان دماغ الرأس، طوال الحياة، متخلفاً بالمقارنة مع اليدين، وحتى فى هذه الأزمنة، عندما يبدو أنه قد تقدم، لا تزال الأصابع هى التى عليها أن تفسر تحريات اللمس، فشعريرة البشرة للمس الصلصال، تفتيت الإزميل الحاد، نهش الحمض لصفيحة المعدن، الرعشة الخفيفة أمام صفحة ورق مبسوطة، وصف النسج، تركيب الألياف، الأبجدية المنقوشة. والألوان. الحقيقة تستدعى القول إن الدماغ أقل فهماً بكثير للألوان مما يُعتقد. صحيح أنه يستطيع أن يرى، بهذا القدر أو ذاك من الوضوح، ما تعرضه له العينان، ولكنه يعانى فى معظم الحالات ما يمكننا تصنيفه على أنه مشكلات فى التوجه عندما يحين موعد تحويل ما يُرى إلى معرفة. وبفضل الثقة اللاشعورية التى زوده بها مرور الحياة، ينطق أسماء الألوان التى يدعوها أساسية(أولية) وتكميلية، ولكنه يقف حائراً ومتشككاً على الفور، عندما يحاول تشكيل كلمات يمكن لها أن تنفع كتسميات، أو المعنى التفسيرى المطابق لشىء يلامس ما لا يمكن تقديم وصف له، هذا اللون الذى لم يولد تماماً بعد والذى،

www.ibtesamh.com/vb

بالموافقة، بالتواطؤ، وأحياناً بالمفاجئة من العينين نفسيهما، من اليدين والأصابع الآخذة بخلقه، وربما لا يتوصل أبداً إلى تلقى تسميته المضبوطة. أو ربما يكون قد امتلكها، ولكن اليدين وحدهما تعرفانها، لأنهما ركبتا الحبر كما لو أنهما تفككان الأجزاء المكونة لنوتة موسيقية، لأنها تلوثت برائحته واحتفظت باللطخة فى عمق البشرة، ولأنه بهذه المعرفة الخفية للأصابع فقط، قد يصير بالإمكان ذات يوم رسم لوحة الأحلام اللامتناهية. وبثقة مما تظن العينان أنهما رأيتاه، يؤكد دماغ الرأس أنه، حسب الضوء والظل، الريح والسكون،الرطوبة والجفاف، فإن الشاطئ أبيض، أو أصفر، أو ذهبى، أو رمادى، أو بنفسجى، أو أى شىء بين هذه أو تلك، ولكن الأصابع تأتى بعد ذلك، بحركة جامعة، كما لو أنها تحصد المحصول، وترفع من الأرض كل الألوان التى فى العالم. ما يبدو فريداً يكون جمعياً، وما هو جمعى يكون أكثر من ذلك. وليس أقل حقيقية، مع ذلك، أنه فى الوهج الهائج للون واحد، أو فى صياغته الموسيقية، تكون حاضرة وحية التلونات الأخرى كلها، سواء الخاصة بالألوان التى لها أسماء، أو تلك التى مازالت تنتظر، بالطريقة نفسها التى يمكن بها لتمدد مظهر أملس، أن يغطى، وأن يكشف فى آن واحد، آثار كل ما عِيش وحدث فى تاريخ العالم. كل أركيولوجيا مكونة من المواد هى أركيولوجيا بشرية. ما يخفيه هذا الطين ويكشفه هو عبور الكائن فى الزمان ومروره فى الأمكنة، إشارات الأصابع، خرمشة الأظفار، الرماد وفحم المواقد

www.ibtesamh.com/vb

المطفأة، العظام الذاتية والعظام الغريبة، الدروب التى تفترق بصورة أبدية وتأخذ بالتنائى إلى أن يضيع بعضها عن بعض. هذه الحبة التى تزهر على السطح هى ذاكرة، هذا الانحطاط، هذه العلامة المتبقية من جسد مدفون. الدماغ سأل وطلب، واليد أجابت وفعلت. مارتا قالت ذلك بطريقة أخرى، لقد توصلت إلى الإمساك بالحيلة.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

إننى ذاهب إلى عمل للرجال، وستبقى أنت هذه المرة فى البيت، قال سيبريانو ألجور للكلب الذى جاء راكضاً عندما رآه يقترب من الشاحنة. من الواضح أن لقية لا يحتاج إلى أن يأمروه بالصعود، يكفى أن يتركوا باب السيارة مفتوحاً ما يكفى من الوقت كى يفهم أنهم لن يطردوه فيما بعد، ولكن السبب الحقيقى لركضه القلق، مهما بدا ذلك غريباً، هو افتراضه، فى جزعه ككلب، أنهم سيتركونه وحيداً. فمارتا التى خرجت إلى الفناء وهى تتبادل الحديث مع أبيها وترافقه حتى الشاحنة، كانت تحمل فى يدها مغلفاً يضم رسوم الاقتراح، ومع أنه لم تكن لدى الكلب لقية أفكار واضحة حول ما هى المغلفات والمقترحات والرسوم، أو ما هى فائدتها، إلا أنه كان يعرف من الحياة أكثر مما هو فائض عن الحاجة، فهو يعرف أن الأشخاص الذين يتأهبون للصعود إلى سيارة، يحملون أشياء معهم عادة، بل ويعرف أنهم يلقون بها إلى المقعد الخلفى بصورة عامة، حتى قبل أن يصعدوا. وباستناد إلى هذه الخبرات، يمكن فهم أن ذاكرة لقية

www.ibtesamh.com/vb

جعلته يفكر فى أن مارتا سترافق أباها فى هذا الخروج الجديد فى الشاحنة. وعلى الرغم من قلة الأيام المنصرمة منذ مجيئه، لم تكن لديه شكوك فى أن بيت أسياده هؤلاء هو بيته، ولكن حس الملكية لديه، بسبب حداثة عهده، لا يتيح له بعد أن يقول وهو يتلفت فيما حوله، هذا كله لى. أضف إلى ذلك أن كلباً، أياً يكن حجمه، أو سلالته، أو طبعه، لا يتجرأ أبداً على نطق كلمات تشير إلى التملك بهذا القدر من فظاعة التملك، بل يمكن له أن يقول، فى أقصى الحدود، هذا كله لنا، وحتى فى هذه الحالة، وبالنظر إلى وضع هذين الخزافين الخاص وأملاكهما المنقولة وغير المنقولة، فإن الكلب لقية لن يكون بمقدوره، من الآن وإلى ما بعد عشر سنوات، أن يعتبر نفسه مالكاً ثالثاً. ربما يكون أقصى ما يمكنه التوصل إليه، عندما يصير كلباً عجوزاً، هو الإحساس الغامض والملتبس بالمشاركة فى شىء معقد بصورة تنطوى على مجازفة، شىء متفلت المعانى إذا صح القول، شىء هو كلٌّ مكوّن من أجزاء وكل جزء منها هو الجزء الذى هو عليه، وفى الوقت نفسه، الكلّ الذى هو جزء منه. أفكار مغامِرة مثل هذه الفكرة يمكن للعقل البشرى، دون تفصيل، أن يتصورها إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنه يجد صعوبة هائلة فى تفحصها عن قرب، هى خبزنا كفاف يومنا فى مختلف الأمم الكلبية، سواء من وجهة نظر نظرية محضة أو فيما يتعلق بنتائجها العملية. ولا يفكرن أحد، بالرغم من كل شىء، أن روح الكلاب هى سحابة صفاء تمر بهدوء، أو فجر ربيعى ناعم

www.ibtesamh.com/vb

النور، أو بركة حديقة فيها بجع أبيض ينزلق، فلو كان الأمر كذلك لما راح لقية يئن فجأة بصورة تدعو إلى الأسى، كان يقول، وأنا، وأنا. وللرد على تمزق تلك الروح المغمومة، لم يجد سيبريانو ألجور، وهو خائف من مسئولية المهمة التى تحمله إلى المركز، كلمات أفضل من ستبقى أنت هذه المرة فى البيت. لحسن الحظ أن الحيوان المكروب رأى ماراتا تخطو خطوتين إلى الوراء بعد أن سلّمت المغلف لأبيها، وهكذا فهم لقية أنهما لن يتركاه دون صحبة. والحقيقة أنه على الرغم من أن كل جزء يشكل، بذاته، الكلَّ الذى ينتمى إليه، مثلما نعتقد أننا أثبتناه فى ـ a + b إلا أن اجتماع جزأين معاً يعطى على الدوام حصيلة مختلفة. أشارت مارتا بإيماءة وداع تعبة وعادت إلى البيت. لم يلحق بها الكلب فوراً، انتظر إلى أن اختفت الشاحنة وراء أول بيت فى القرية، بعد أن نزلت المنحدر حتى الطريق العام. وعندما دخل بعد قليل إلى المطبخ، رأى سيدته تجلس على الكرسى نفسه الذى كانت تشتغل عليه خلال تلك الأيام. كانت تمر بأصابعها على عينيها مرة بعد أخرى كما لو أنها تحتاج إلى تهدئتهما من ظل أو من ألم. مؤكد أن السبب هو كونها فى طراوة الشباب الغض. لم يجد لقية الوقت بعد لتكوين آراء واضحة وحاسمة حول ضرورة الدموع ومعناها عند الكائن البشرى، ومع ذلك، وبتقدير أن هذه الخلائط السائلة التى تلح على الظهور فى مرق المشاعر الغريب، هى العقل والقسوة اللذان يتكون منهما الكائن البشرى المذكور، فقد فكرّ فى أنه ربما

www.ibtesamh.com/vb

لا يكون من الخطأ الفاحش الاقتراب من سيدته الباكية ووضع رأسه بعذوبة على ركبتيها. لو كان هناك كلب أكبر سناً، ولأنه أكبر سناً بالتحديد، باعتبار أن التقدم فى السن يستدعى تحمل ذنوب مضاعفة، لكان سيعلق بسخرية على حركة التودد، ولكن السبب فى ذلك يجب أن يكون فى أن خواء الشيخوخة يجعله ينسى أن الكثير أفضل من القليل دوماً فيما يتعلق بشئون القلب والمشاعر. مرّت مارتا المتأثرة بيدها على رأسه مداعبة، ولأنه لم ينسحب وواصل النظر إليها بثبات، فقد تناولت قطعة فحم وبدأت ترسم على الورق أول خطوط رسمها الأولى. فى البدء حالت الدموع دون أن ترى جيداً، ولكنها شيئاً فشيئاً، ومع اكتساب يدها الثقة، راحت عيناها تصفوان، وكما لو أن رأس الكلب قد برز من أعماق مياه عكرة، بدا لها بكامل جماله وقوته. ومن ذلك اليوم صارت تحب لقية بقدر ما نعرف أن سيبريانو يحبه.

كان صانع الخزف قد خلّف وراءه القرية، والبيوت الثلاثة المعزولة التى لن يأتى أحد لرفعها من الخراب، وهو يحاذى الآن الضفة المخنوقة بالنتانة، ويجتاز الحقول المكشوفة، والغابة المهجورة، لقد ذرع هذا الطريق مرات كثيرة إلى حدّ أنه لم يعد ينتبه إلى الكآبة التى تحيط به، ولكن لديه اليوم سببين للقلق يبرران ذهوله، أحدهما المسعى التجارى الذى يقوده إلى المركز، وهو لا يحتاج إلى تنويه خاص بكل تأكيد، أما السبب الثانى، والذى لن يُعرف كم من الوقت

www.ibtesamh.com/vb

سيواصل التأثير فيه، فهو ما يبث القلق أكثر فى روحه، إذ إنه عند مروره بجانب مدخل الشارع الذى تعيش فيه إساورا إستوديوسا، يشعر بدافع غير متوقع ولا يجد له تفسيراً يدفعه إلى الاقتراب لمعرفة أخبار الإبريق، هل كشف الاستعمال عيوباً خفية فيه، وهل يقطر الماء منه، وهل كان يحتفظ بالماء بارداً. وسيبريانو ألجور لا يعرف بالفعل هذه الجارة منذ اليوم ولا منذ الأمس، فمن المستحيل أن يكون هناك من يعيش فى القرية دون أن يعرفه، لأسباب تتعلق بمهنته، ومع أنه لم يكن هناك ما يمكن تسميته علاقة صداقة مع تلك الأسرة، إلا أن آل ألجور، الأب والابنة، قد رافقا إلى المقبرة موكب جنازة جواكين إستوديوسو الذى أخذت إساورا هذا الاسم الثانى منه، وكانت قد جاءت من قرية نائية لتتزوج هنا، وصارت معروفة مثلما هو شائع فى القرى. وسيبريانو ألجور يتذكر أنه قدم لها تعازيه عند مخرج المقبرة، فى المكان نفسه الذى عادا للقاء فيه وتبادل الانطباعات والوعود بشأن إبريق مكسور. لقد كانت مجرد أرملة أخرى فى القرية، امرأة أخرى تمضى بملابس الحداد الصارمة خلال ستة شهور، تليها ستة شهور حداد خفيف أخرى، وبعد ذلك هى وحظها، فقد كانت هناك أزمنة، بين حداد صارم وخفيف، يمر كل منهما على جسد المرأة، وربما على روحها،طوال سنة كاملة بأيامها ولياليها، دون التكلم عن أولئك النسوة اللواتى يضطرهن قانون العادات، لتقدمهن فى السن، إلى العيش متسربلات بالسواد حتى اليوم الأخير من

www.ibtesamh.com/vb

حياتهن. يتساءل سيبريانو ألجور إن كان، ما بين اللقاءين فى المقبرة، قد تحدث ذات مرة مع أساورا إستوديوسا، ويفاجئه الجواب، ولكنك لم ترها مجرد رؤية خلال هذا الوقت، هذا صحيح، ويجب ألا نستغرب فرادة هذا الوضع الظاهرية، ففى الشئون التى تتحكم فيها المصادفة لا يكون هناك فرق بين العيش فى مدينة تضم عشرة ملايين نسمة أو ضيعة تضم مئات قليلة من الجيران، إذ لا يحدث إلا ما يتوجب حدوثه. فى هذه اللحظة أراد تفكير سيبريانو ألجور أن يتحول نحو مارتا، وكان على وشك أن يُحمّلها مرة أخرى مسئولية التخيلات التى تدور فى رأسه، غير أن حياديته ونزاهة تعقله الحاميتين تمكنتا من التغلب، **لا** تتهرب ودع ابنتك بسلام، فهى لم تقل إلا الكلمات التى ترغب أنت فى سماعها، والمسألة الآن هى فى أن تعرف إذا كان لديكَ ما تقدمه إلى إساورا إستوديوسا أكثر من إبريق، وإذا ما كانت هى أيضاً مستعدة لتلقى ما تتصور أنك تستطيع تقديمه إليها، إن كنتَ قادراً على تخيل شىء. توقفت مناجاته لنفسه أمام حاجز هذه الممانعة التى لا يمكن تجاوزها حالياً، وكان هذا التوقف المفاجئ مناسبة استغلها سبب قلقه الآخر، والذى يتفرع إلى ثلاثة أسباب، دمى الصلصال، والمركز، ومدير قسم المشتريات، **سنرى** إلى أين سينتهى هذا الأمر، دمدم صانع الخزف، وهى جملة ملتوية دلالياً يمكن لها، إذا ما نُظر إليها بإمعان، أن تفيد بالقدر نفسه فى أن تزين بلُبوس سهو وإضمار متواطئة مسألة إساورا إستوديوسا المهيجة.

www.ibtesamh.com/vb

لقد فات الأوان، فها نحن نجتاز الحزام الزراعى، أو الأخضر كما يواصل تسميته من يروقهم تجميل الواقع الفظ بالكلمات، فهذا اللون الشبيه بلون ثلج متسخ يغطى الأرض، وهذا البحر غير المتناهى من البلاستيك حيث تبدو الدفيئات المتماثلة كأنها جبال جليد متحجرة. هناك فى الداخل لا توجد برودة، بل على العكس، فالرجال الذين يعملون هناك يختنقون من الحر، يُطبخون بعرقهم بالذات، يُغمى عليهم، إنهم أشبه بخرق مبللة وملوية بأيد قوية. إذا لم يكن هذا القول كله هو نفسه فإنه كله التفكير نفسه. الشاحنة تمضى اليوم فارغة، وسيبريانو ألجور لم يعد ينتمى إلى جمعية البائعين للمركز لسبب مسلَّم به هو أن ما يصنعه فَقَدَ أهميته، وهو يحمل الآن ستة تصاميم فى المقعد المجاور، حيث وضعتها مارتا، وليس فى المقعد الخلفى مثلما تصور لقية، وهذه التصاميم هى البوصلة الوحيدة والهشة لهذه الرحلة. يقال إن المنظر الطبيعى هو جزء من الروح، وإننا نرى المشهد الخارجى بعينى الداخل، أيكون أن أعضاء الرؤية الداخلية الاستثنائية تلك لم تستطع رؤية هذه المصانع وهذه الهنكارات، هذا الدخان الذى يلتهم السماء، هذا الغبار الخانق، هذه الوحول الأبدية، هذه الضفاف المغطاة بالسناج، قمامة الأمس مكنوسة فوق قمامة كل الأيام، وقمامة الغد مكنوسة فوق قمامة اليوم، وفى هذه الحالة تكفى عينا الوجه العاديتان لتُعلِّما أشد الأرواح رضى على التشكك بالسعادة التى تفترض أنها تنعم بها.

www.ibtesamh.com/vb

بعد أن اجتاز الحزام الصناعى، على الطريق العام، وصار فى الأراضى البور التى تشغلها الأكواخ، ظهرت شاحنة كبيرة محترقة. لا وجود لما يشير إلى البضاعة التى كانت تحملها، باستثناء بقايا صناديق متفرقة ومسودة بلا لصاقات حول محتوياتها ومصدرها. إما أن الحمولة قد احترقت مع الشاحنة، وإما أنهم استطاعوا إنزالها قبل أن تشتد النار. الأرض مبللة حولها، وهذا يثبت أن رجال المطافئ قد هرعوا إلى الحدث المشئوم، ولكنهم وصلوا متأخرين كما يبدو، إذ إن الشاحنة قد احترقت بالكامل. كانت سيارتا شرطة تقفان أمامها، وفى الجانب الآخر من الطريق توجد ناقلة جند عسكرية. خفف صانع الخزف السرعة ليرى بصورة أفضل ما جرى، غير أن رجال شرطة المرور المستائين والعابسين أمروه بأن يواصل التقدم فوراً، فلم يُتح له الوقت لأكثر من سؤالهم عما إذا كان قد مات أحد، ولكنهم لم يهتموا بسؤاله، وصرخوا به، **تابع**، تابع طريقك، وكانوا يومئون بحركات نشطة من أذرعهم. عندئذ نظر سيبريانو ألجور إلى الجانب ورأى أن هناك جنوداً يتحركون بين الأكواخ. وبسبب السرعة لم يتمكن من رؤية أكثر من ذلك، باستثناء أنهم كانوا يجبرون قاطنى تلك البيوت على الخروج منها. من المؤكد أن المهاجمين فى هذه المرة لم يكتفوا بالسلب. ولسبب مجهول، لم يحدث مثل هذا من قبل، أضرموا النار فى الشاحنة، ربما يكون السائق قد قاوم عنف السرقة بالمثل، أو أن جماعات الأكواخ المنظمة هى التى قررت تغيير

www.ibtesamh.com/vb

الإستراتيجية، بالرغم من أنه يصعب فهم أية شياطين من المنفعة ينتظرون الحصول عليها مع عمل عنيف كهذا، لن يكون إلا وسيلة لتبرير أعمال عنف مماثلة من السلطات، وفكر صانع الخزف، إنها المرة الأولى على حدّ علمى التى يدخل فيها الجيش إلى أحياء الأكواخ، فالمداهمات كانت حتى الآن من اختصاص الشرطة، بل إن الأحياء كانت تضع ذلك فى حسابها، فالشرطيون يأتون، يوجهون بعض الأسئلة أحياناً، وفى أحيان أخرى لا يفعلون ذلك، ويعتقلون رجلين أو ثلاثة رجال، ثم تتواصل الحياة كما لو أن شيئاً لم يحدث، وعاجلاً أو آجلاً يعود المعتقلون إلى الظهور. راح صانع الخزف سيبريانو ألجور ينسى الجارة إساورا إستوديوسا، تلك التى قدم لها إبريقاً من الفخار، ومدير قسم المشتريات فى المركز، ذاك الذى لا يعرف إن كان سيتمكن من إقناعه بجاذبية الدمى الجمالية، فكل تفكيره مركَّز على شاحنة فحمتها ألسنة اللهب إلى حد لم يبق معه أى أثر للحمولة التى كانت تحملها، إذا كانت تحمل شيئاً. أجل، أجل. كرر الكلمة مثل من يتراجع بعد تعثره بحجر، ليتعثر به ثانية، كما لو أنه يضربه مرة بعد أخرى بانتظار أن يطفر منها شرارة، ولكن الشرارة لا تحزم أمرها بالظهور، وكان سيبريانو ألجور قد استهلك وهو فى هذه الأفكار أكثر من ثلاثة كيلومترات وبدأ يتخلى عنها، وها هى إساورا إستوديوسا تستعد لتنازع مدير قسم المشتريات الميدان، عندما طفرت الشرارة فجأة، وحدث الضوء، فالشاحنة لم يحرقها أناس الأكواخ، بل

www.ibtesamh.com/vb

الشرطة نفسها، وقد كانت ذريعة لدفع الجيش إلى التدخل، أراهن على رأسى بأن هذا هو ما حدث، دمدم صانع الخزف، وعندئذ أحس بأنه متعب جداً، ليس لأنه أجهد دماغه كثيراً، وإنما لتأكده من أن العالم هكذا، وأن الأكاذيب كثيرة والحقائق غير موجودة أو قليلة إلى حد لا يتاح لنا الوقت للتفكير فيها على أنها حقيقة محتملة، لأنه علينا أن نتحرى أولاً إذا لم تكن كذبة محتملة. نظر سيبريانو ألجور بطرف عينه إلى الساعة، وما كانت الحركة ستفيده فى شىء لو أن ما أراد معرفته الوقت، لأنه فعل ذلك على الفور بعد المناظرة بين احتمالات الأكاذيب واحتمالات الصدق، فبدا كما لو أنه يريد أن يجد النتيجة فى الوضع الذى يكون عليه عقربا الساعة، فزاوية قائمة تعنى نعم، وزاوية حادة ربما تؤثر الحذر، وزاوية منفرجة تقول لا بحزم، وزاوية مستقيمة من الأفضل ألا تفكر فى هذا. وعندما عاد بعد ذلك للنظر إلى ميناء الساعة، كانت العقارب تشير فقط إلى ساعات، ودقائق، وثوان، فقد تحولت مجدداً إلى عقارب، عقارب ساعة حقيقية ومنصاعة، قال، إننى ضمن الوقت المناسب، وكان محقاً، فهو ضمن الوقت، وهذا فى نهاية المطاف هو ما نكون عليه دائماً، ضمن الوقت، فى الوقت، على الوقت، وليس خارج الوقت أبداً، مهما يكلفنا ذلك. إنه الآن فى المدينة، يمضى فى الجادة التى تقوده إلى هدفه، وإلى الأمام، أسرع من الشاحنة، يمضى تفكيره: مدير قسم المشتريات، إساورا إستوديوسا، المسكينة، لقد ظلت فى الخلف.

www.ibtesamh.com/vb

وفى الواجهة، على أعلى الجدار القاتم الذى يقطع الطريق، يظهر حاجز أبيض ضخم، مستطيل، خُطت عليه حروف زرقاء لامعة وكثيفة تُقرأ من جانب إلى آخر هذه الكلمات، **عش بأمان، عش فى المركز.** ويظهر تحتها سطر مقتضب أيضاً، كلمتان فقط، بالأسود، لا تتمكن عينا سيبريانو ألجور حسيرتا البصر تمييزهما عن هذا البعد، وإن كانتا لا تستحقان اهتماماً أقل من رسالة الحروف الكبيرة، ويمكن لنا إذا شئنا تحديدهما تماماً، فما تنصحان به، اطلب المعلومات. الحاجز يظهر بين حين وآخر مكرراً الكلمات نفسها، وما يتبدل هو اللون فقط، وفى بعض الأحيان يعرض صور أُسر سعيدة، من زوج فى الخامسة والثلاثين، وزوجة فى الثالثة والثلاثين، وابن فى الحادية عشرة، وابنة فى التاسعة، وهناك أيضاً، وإن يكن ليس دائماً، جد وجدة بشعر أبيض تجاعيد قليلة وسن غير ممكنة التحديد، وجميعهم مجبرون على الابتسام ليُظهر كل منهم أسنانه، وهى كاملة، ناصعة، متلألئة. بدت تلك الدعوة لسيبريانو ألجور نذير شؤم، فها هو يسمع صهره يخبره، للمرة المئة، بأنهم سيعيشون فى المركز عندما تأتى ترقيته إلى حارس مقيم، وفكر، سوف ننتهى نحن الثلاثة أيضاً إلى ملصق إعلان من هذه الإعلانات، فلديهم مارتا وزوجها كزوجين شابين، وأنا سأكون الجد إذا ما تمكنوا من إقناعى، والجدة لا وجود لها، لقد ماتت منذ ثلاث سنوات، وما ينقص الآن هم الأحفاد، ولكنهم يستطيعون أن يضعوا لقية فى الصورة،

www.ibtesamh.com/vb

فصورة كلب تكون مناسبة على الدوام فى إعلانات العائلات السعيدة، ومهما بدا ذلك غريباً، لأن الأمر يتعلق بكائن غير عاقل، فإنه يضفى لمسة إنسانية سامية ولطيفة يسهل التعرف عليها. استدار سيبريانو ألجور بالشاحنة نحو الشارع الأيمن، الموازى للمركز، بينما هو يفكر أن لا، ليس ممكناً، فهم لا يتقبلون فى المركز وجود كلاب ولا قطط، ربما يقبلون عصافير فى أقفاص، ببغاوات، كناريات، حساسين، ويتقبلون دون شك أسماكاً فى أحواض، وخاصة إذا كانت أسماكاً تروبيكالية، من تلك التى لها زعانف كثيرة، أما القطط فلا، وأقل منها الكلاب، هذا هو ما ينقصنا، أن نتخلى عن لقية مرة أخرى، تركه مهجوراً مرة واحدة كان كافياً، وفى هذه اللحظة تسللت إلى تفكير سيبريانو ألجور صورة إساورا إستوديوسا وهى إلى جانب جدار المقبرة، وبعد ذلك وهى تشد الإبريق إلى صدرها، وبعد ذلك وهى تقول وداعاً عند الباب، غير أنه كان لا بد لها أن تختفى مثلما ظهرت، فقد رأى أمامه مدخل القبو حيث تُسلّم البضائع وحيث يراجع مدير قسم المشتريات وثائق التسليم والفواتير ويقرر بشأن ما يدخل وما لا يدخل.

لم تكن هناك، فضلاً عن الشاحنة التى يجرى تفريغها، سوى شاحنتين أخريين تنتظران دورهما. وقدّر الخزاف، بمنطق سليم، أنه لم يأت لتسليم بضاعة، وأنه معفى بالتالى من الوقوف فى صف الشاحنات. المسألة التى جاء من أجلها هى من

www.ibtesamh.com/vb

اختصاص رئيس القسم حصراً، وليس للتفاوض بشأنها مع موظفين مرءوسين ومتحفظين منذ البدء، وما عليه بالتالى إلا أن يقدم نفسه عند منضدة الكونتوار، ويعلن عن سبب مجيئه. أوقف الشاحنة الصغيرة، وحمل الأوراق، وبخطوات تبدو ثابتة، غير أنه يمكن لمراقب منتبه أن يلحظ أثر ارتجاف الساقين فى توازن الجسم، اجتاز الرصيف الملوث بلطخات زيت قديمة وحديثة، حتى بلغ منضدة الاستقبال، حيّا من يقف هناك بمساء خير مهذبة وطلب التحدث إلى رئيس القسم. حمل الموظف ذلك الطلب الشفوى، ورجع فى الحال ليقول: هـا هو آت. وقد انقضت عشر دقائق قبل أن يظهر، ليس الرئيس المطلوب، وإنما أحد مساعديه. لم يرق لسيبريانو ألجور أن يروى القصة لشخص ليست له، على العموم، من فائدة فى التسلسل الوظيفى العملى سوى أن يكون متراساً أمامياً لمن هو أعلى منه مرتبة. ما أنقذه أن معاون الرئيس نفسه أدرك، فى منتصف الحديث، أن اهتمامه بالموضوع حتى نهايته سيكلفه المشقة وحسب، وأن من سيتخذ القرار فى نهاية المطاف، بطريقة أو بأخرى، هو المدير المسئول، وبالتالى ما شأنه هو. ومن تصرف معاون المدير هذا، يمكن لنا الاستنتاج بكل سهولة أنه مستاء اجتماعياً. لقد قطع كلام الخزَّاف بجفاء، وتناول الاقتراح والتصاميم ومضى. تأخر بضع دقائق فى الخروج من الباب الذى دخل منه، وأشار من هناك إلى سيبريانو ألجور كى يتقدم، ولا حاجة

www.ibtesamh.com/vb

إلى التذكير مرة أخرى بأن ساقيه تميلان، فى هذه الحالات، إلى زيادة الارتعاش الذى هما فيه أصلاً، وبعد أن أفسح له الطريق، عاد إلى مهماته الخاصة. كان رئيس القسم يمسك المقترح بيده اليمنى، وكانت التصاميم مصفوفة أمامه على المنضدة، مثل أوراق لعبة سوليتير. أومأ إلى سيبريانو ألجور بأن يجلس، وهذه لفتة عناية إلهية أتاحت لصانع الخزف التوقف عن التفكير فى ساقيه والانطلاق فى عرض قضيته. مساء الخير يا سيدى، وعذراً لمجيئى لإزعاجك فى عملك، ولكنها فكرة خطرت لنا، أنا وابنتى، ولأكون أكثر صراحة، إنها فكرتها أكثر مما هى فكرتى. فقاطعه المدير، قبل أن تواصل، يا سيد ألجور، من واجبى أن أخبرك بأن المركز قد قرر التوقف عن شراء منتجات ورشتك، وأعنى تلك المنتجات التى كنت تزودنا بها إلى أن أوقفنا الشراء، الأمر الآن نهائى ولا رجعة عنه. أخفض سيبريانو ألجور رأسه، عليه أن يكون حذراً جداً فى اختيار الكلمات، فمهما حدث، لا يمكنه أن يقول أو يفعل شيئاً يعرضه للمجازفة بإمكانية سدّ الطريق أمام صفقة الدمى، ولهذا اكتفى بالدمدمة، لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل يا سيدى، ولكن اسمح لى بفضفضة عن النفس، فسماع مثل هذه الكلمات من فمك، بعد سنوات طويلة من تموين المركز، هو أمر قاس، هكذا هى الحياة، كثيراً ما تتكون من أشياء تنتهى، وتتكون من أشياء تبدأ أيضاً، لكنها ليست الأشياء نفسها على الإطلاق.

www.ibtesamh.com/vb

صمت مدير القسم قليلاً، حرك الرسوم بتثاقل، كما لو أنه ساه، ثم قال، لـقد جاء صهرك للتحدث معى، أنا طلبت منه ذلك، من أجل الخروج من حالة التردد التى كنتُ فيها، دون أن أعرف إذا ما كان بإمكانى مواصلة صنع منتجاتى أم لا، أنت تعرف ذلك الآن، أجل يا سيدى، أعرف ذلك، ويجب أن يكون واضحاً لديك أيضاً أن هناك قاعدة ثابتة فى المركز، وهى موضع افتخار، بأنه لا يقبل ضغوطاً أو تدخلاً من أطراف ثالثة فى نشاطاته التجارية، وخاصة أن تأتى من موظف فى الدار، لـم تكن ضغوطاً يا سيدى، ولكنها كانت تدخلاً، أنا آسف. صمت آخر، وفكر الخزاف مغموماً: ما الذى مازال علىّ أن أسمعه. ولم يتأخر طويلاً فى معرفة ذلك، فقد فتح الرئيس الآن سجلاً، وراح يتصفحه، تفحص صفحة، وأخرى، ثم جمع بعد ذلك كميات فى آلة حاسبة صغيرة، وقال أخيراً: لـدينا فى المستودع، دون إمكانية لتصريفها ولو بسعر التصفية، أو حتى بأقل مما كلفتنا، كمية كبيرة من منتجات مشغلك، بضاعة متنوعة تشغل حيزاً أنا بحاجة إليه، لهذا السبب أجد نفسى مضطراً للطلب منك بأن تبادر إلى سحبها من المستودع خلال أسبوعين كحد أقصى، كنت أنوى أن الاتصال بك تلفونياً فى الغد لأخبرك بذلك، لـست أدرى كم من السفرات علىّ القيام بها، فشاحنتى صغيرة، بـحمولة واحدة كل يوم تنهى المسألة، ولمن سأبيع خزفى الآن، سأله الخزّاف المغموم، هـذه مشكلتك وليست

www.ibtesamh.com/vb

مشكلتى، لدى الآن على الأقل صلاحية التفاوض مع تجار المدينة، لقد صار عقدك معنا لاغياً، ويمكنك التفاوض مع من تشاء، إذا كان هناك ما يستحق عناء التفاوض، أجل، إذا كان هناك ما يستحق عناء التفاوض، فالأزمة خارجاً حرجة، أضف إلى ذلك، وصمت مدير القسم، تناول التصاميم وجمعها معاً، ثم راح يستعرضها واحداً فواحداً، وينظر إليها باهتمام يبدو صريحاً، كما لو أنه يراها أول مرة. ولم يكن بإمكان سيبريانو ألجور أن يسأل: وماذا بعد، بل كان عليه أن ينتظر، يتظاهر بالقلق، فمدير القسم فى نهاية المطاف، أو فى بدايته، هو من يقرر على الدوام قواعد اللعبة، واللعبة التى تجرى الآن هى لعبة غير متكافئة، كل الانتصارات فيها سقطت فى الجانب نفسه، بل إن قيمة أوراق اللعب تتبدل وفق مشيئة من يملك اليد العليا، وهو وضع يمكن للملك فيه أن يكون أعلى قيمة من الآس أو أقل من الملكة، أو أن تكون قيمة الشاب مساوية لقيمة الفارس، أو أن يكون هذا الأخير أكبر قيمة من الأسرة المالكة بأسرها، مع أنه لا بد من الاعتراف، حيث إن الدمى المعروضة هى ست، بأن الميزة العددية، وإن يكن بفارق ضئيل، هى لصالح صانع الخزف. أعاد رئيس القسم جمع التصاميم، ووضعها جانباً بحركة غير مبالية، وبعد أن نظر مرة أخرى إلى السجل، أنهى جملته: وفضلاً عن ذلك، أعنى، فضلاً عن الوضع الكارثى الذى تجد التجارة التقليدية نفسها فيه، ليس هناك ما يحمى البضاعة

www.ibtesamh.com/vb

التى أفقدها الزمن وتبدل الذوق الاعتبار، يحظر على مشغل الخزف عقد صفقات فى الخارج إذا ما طلب منه المركز المنتجات التى تُقترح عليه فى هذه اللحظة، أظن أننى فهمت يا سيدى أنه لا يمكننا بيع الدمى إلى تجار المدينة، لقد فهمتنى جيداً، ولكنك لم تفهم كل ما عنيته، لم أصل إلى ما أردت حضرتك بلوغه، ليس الدمى وحدها هى ما لا يمكن لكم بيعه، وإنما لن تكونوا مخولين كذلك ببيع أية منتجات أخرى ينتجها مشغل الخزف، حتى عندما تتلقون طلبيات، رغم عدم معقولية ذلك، أفهم أنه منذ اللحظة التى تعودون إلى قبولى كممون للمركز، لا يمكننى أن أكون ممولاً لأحد سواه، بالضبط، ولكن المسألة ليست سبباً للمفاجأة، فالقاعدة كانت هكذا على الدوام، على أى حال يا سيدى، فى وضع كالوضع الراهن، عندما لم تعد بعض المنتجات المحددة تهم المركز، يكون من العدل منح الممون حرية البحث عن مشترين آخرين، إننا فى ميدان الوقائع التجارية يا سيد ألجور، والنظريات التى ليست فى خدمة الوقائع ولا تعززها لا يأخذها المركز فى الاعتبار، واعلم منذ الآن أننا منافسون أيضاً فى صياغة النظريات، وقد أطلقنا بعضها هناك، أعنى فى السوق، ولكنها من تلك التى تفيد فى الإثبات، وإن اقتضت الحاجة، لحل الوقائع إذا ما أساءت إحداها التصرف يوماً. فقال سيبريانو ألجور لنفسه إنه عليه ألا يرد على التحدى. الوقوع فى إغراء قلت أنت ـ أقول أنا مع رئيس

www.ibtesamh.com/vb

القسم، أنا أؤكد وأنت تنفى، أنا أعترض وأنت ترد، سيؤدى إلى عواقب وخيمة، لا يُعرف أبداً متى يمكن لكلمة يساء فهمها أن تكون ذات نتيجة كارثية تطيح بأدق وأبرع جدليات الإقناع، وهو ما قالته الحكمة القديمة، لا تلعب مع سيدك لعبة الكمثرى، لأنه سيأكل الناضجة ويترك لك الفجة. نظر إليه الرئيس بنصف ابتسامة وأضاف، **لا** أدرى فى الحقيقة لماذا أقول لك هذه الأشياء، **وبصراحة** يا سيدى، أنا أستغرب ذلك أيضاً، فلستُ سوى خزَّاف عادى، والقليل الذى يمكننى أن أبيعه لكم ليس ثميناً إلى حدّ يسوغ أن تهدر معى صبرك وتميزنى بتأملاتك، أجابه سيبريانو ألجور، ثم عض لسانه فوراً، فقد عاهد نفسه للتو بألا يلقى حطباً فى نار محادثة متوترة بذاتها، وهاهو يطلق مرة أخرى استفزازاً، ليس مباشراً وحسب، وإنما فى غير محله أيضاً. فنهض معتقداً أنه يتجنب بهذه الطريقة الجواب الفظ الذى يتوجس منه خيفة، وقال، المعذرة على الوقت الذى سلبتك إياه يا سيدى، أترك لك التصاميم لتدرسها، اللهم إلا إذا، **إلا إذا ماذا؟، إلا إذا** كنتَ قد اتخذت قراراً، أى قرار، **لست** أدرى يا سيدى، **فأنا** لست فى ذهنك، **القرار** فى عدم شراء دُماك مثلاً، سأله مدير القسم، أجل يا سيدى، أجاب صانع الخزف دون أن يحرف بصره، بينما هو يتهم نفسه فى ذهنه بأنه أبله وغير فطن، **حتى** الآن لم أتخذ أى قرار، أيمكننى السؤال عما إذا كان ذلك سيتأخر كثيراً، فأنت تعرف الوضع الذى نحن فيه، **سـ**أكون سريعاً، قاطعه الرئيس وأضاف: ربما تتلقى

www.ibtesamh.com/vb

أخباراً يوم غد بالذات، **غـداً**، أجل، غداً، فأنا لا أريد أن تمضى لتشيع بأن المركز لم يمنحك فرصة أخيرة، أظن أننى أستنتج مما تقوله لى أن القرار سيكون إيجابياً، يمكن له أن يكون إيجابياً، وهذا هو كل ما **يـ**مكننى قوله لك الآن، **شـكراً** يا سيدى، **لـ**يس هناك حتى الآن مبرر لأن تشكرنى على شىء، **شـكراً** من أجل **الأمل** الذى سأحمله معى، فهذا شىء أيضاً، الأمل أمر لا يمكن الثقة به أبداً، **هـ**ذا ما أفكر فيه، ولكن ماذا نفعل، علينا التمسك بشىء ما فى ساعات النحس، **طـ**اب مساؤك يا سيد ألجور، **طـ**اب مساؤك يا سيدى. مد الخزّاف يده إلى قبضة الباب، وكان على وشك الخروج، غير أنه كان لا يزال لدى رئيس القسم ما يقوله، رتب مع معاون المدير الذى أدخلك خطةَ سحب أشيائك الخزفية، وتذكر أن لديك أسبوعين فقط كى تُخرج من هناك آخر طبق منها، أجل يا سيدى. هذا التعبير خطة سحب لا يبدو لائقاً على لسان شخص مدنى، فوقعه أقرب إلى عملية عسكرية منه إلى إعادة عادية لبضاعة، وإذا ما طبقنا التعبير بحذافيره فى الأوضاع المتعلقة بوحدة المركز ووحدة الخزاف، فإنه قد يشير إلى إجراء انسحاب تكتيكى لتجميع القوى المشتتة من أجل التهيؤ بعد ذلك، فى اللحظة المناسبة، أى بعد الموافقة على تصنيع الدمى، للعودة إلى الهجوم، كما يمكن له أن يعنى، فى حال عدم الموافقة، نهاية كل شىء، والهزيمة على طول الخط، والتشتت، ولينجُ من يستطيع النجاة. وكان على سيبريانو ألجور أن يسمع معاون المدير وهو

www.ibtesamh.com/vb

يقول له دون توقف ودون أن ينظر إلى وجهه، سيكون عليك أن تأتى كل يوم، فى الرابعة بعد الظهر، وحدك أو بإحضار من يساعدك، لأن العاملين هنا لا يمكنهم الانشغال بمساعدتك حتى لو دُفع لهم أجر جانبى. وكان يتساءل عما إذا كان ثمة ما يستحق عناء البقاء هناك ومعاناة ذلك العار، وأن يعامل كأبله، وكما لو أنه السيد نكرة، والأدهى من ذلك كله أنه عليه أن يعترف بأنهم على حق، فالمركز لا تهمه بعض أطباق الفخار المزجج الفجة أو بعض الدمى المضحكة التى تحاكى ممرضات، ورجال اسكيمو، وأشوريين ملتحين، ليس لها أية أهمية، لا شىء، صفر. هذا ما نمثله فى نظرهم، صفر. جلس أخيراً فى شاحنته، نظر إلى الساعة، مازال عليه أن ينتظر قرابة الساعة كى يذهب لإحضار صهره، وخطرت له فكرة الدخول إلى المركز، فمنذ زمن طويل لم يدخل من مدخل الجمهور، سواء للتفرج أو الشراء، فالمشتريات يقوم بها دائماً مرسيال بسبب الحسم الذى يتمتع به كموظف، والدخول للتفرج فقط، مع الاعتذار عن الإسهاب، لا ينظر إليه باستحسان، فوجود شخص هناك فى الداخل يجول بيدين خاويتين، سرعان ما سيكون بكل تأكيد موضع اهتمام خاص من جانب الحراس، بل ويمكن أن يحدث الوضع الكوميدى بأن يكون صهره بالذات هو من يستجوبه، ما الذى تفعله هنا يا أبتاه، إذا كنت لا تشترى شيئاً، فيرد عليه هو، إننى ذاهب إلى قسم الأوانى الخزفية لأرى إذا كانوا لا يزالون يعرضون قطعة ما من إنتاج مشغل ألجور، ومعرفة كم يساوى

www.ibtesamh.com/vb

ذلك الإبريق المرصع بقطع صغيرة من الكوارتز، والقول أجل يا سيدى، إنه إبريق جميل، وقليلة هى الآن المشغولات الخزفية القادرة على تنفيذ عمل مثل هذا، وبكل هذا الإتقان فى التفاصيل، ربما سيبث هذا التقرير المتخصص الحماسة فى مسئول هذا القطاع ويدفعه إلى الطلب من قسم المشتريات شراء مئة إبريق بصورة مستعجلة، من تلك التى فيها قطع من الكوارتز، ولا يكون علينا فى هذه الحالة أن نجازف فى مغامرة المهرجين، والبهاليل والمندرينات الصينيين الذين لا نعرف كيف سينتهى بهم الأمر. لم يكن سيبريانو ألجور بحاجة لأن يقول لنفسه لن أذهب، فمنذ أسابيع وهو يقول لابنته وصهره، الذهاب مرة واحدة يكفى. كان غارقاً فى هذه التأملات غير المجدية، ورأسه مستند إلى المقود، عندما اقترب الحارس الذى يراقب مخرج القبو وقال، إذا كنت قد انتهيت من حل المسألة التى جئت من أجلها، فاعمل معروفاً بالانصراف، فهذا المكان ليس موقف سيارات. أعرف ذلك، قال صانع الخزف، وشغّل المحرك وخرج دون مزيد من الكلام. دوّن الحارس رقم الشاحنة على ورقة، لم يكن بحاجة لعمل ذلك، فهو يعرفه منذ اليوم الأول تقريباً الذى بدأ العمل فيه حارساً فى هذا القبو، وإذا كان قد دوّن الملاحظة بتفخيم فلأن ذلك الجواب الجاف: أعرف ذلك لم يعجبه، فالأشخاص، وخاصة إذا كانوا حراساً، يجب أن يُعاملوا باحترام وتقدير، فلا يُرد عليهم أعرف ذلك وحسب، بل كان على العجوز أن يقول أجل يا سيدى، فهذه كلمات

www.ibtesamh.com/vb

لطيفة ومنصاعة، تنفع فى كل شىء، والحقيقة أن الحارس كان حائراً أكثر من كونه مستاء، ولهذا فكر فى أنه ما كان عليه هو أيضاً أن يقول هذا المكان ليس موقف سيارات، وخاصة بالنبرة المستخفة التى خرجت منه، كما لو أنه ملك العالم، بينما هو ليس فى الحقيقة ملكاً ولو على القبو الذى يقضى فيه أيامه. شطب الرقم، ورجع إلى موقعه.

بحث سيبريانو ألجور عن شارع هادئ لقضاء الوقت ريثما يحين موعد إحضار صهره من أمام بوابة خدمة أمن المركز. أوقف الشاحنة عند ناصية يرى منها، عن بعد ثلاث كتل أبنية كبيرة، جزءاً من إحدى واجهات المركز الضخمة، وتحديداً الواجهة الخاصة بالمنطقة السكنية. ففى الواجهات الأخرى لا وجود لأية فتحات باستثناء الأبواب المؤدية إلى الخارج، إنها أجزاء أسوار حيث اللوحات الإعلانية الضخمة المعلقة التى تعد بالأمان، ولا يمكن أن تكون مسئولة عن حجب الضوء ومنع الهواء عمن يعيشون فى الداخل. وخلافاً لتلك الواجهات المسطحة، فإن الواجهة من هذا الجانب مثقوبة بنوافذ، مئات ومئات النوافذ، آلاف النوافذ، مغلقة دائماً بسبب تكييف الجو الداخلى. من المعروف أننا عندما نجهل الارتفاع الدقيق لمبنى، ولكننا نريد إعطاء فكرة تقريبية عن حجمه، نقول إنه مؤلف من عدد معين من الطوابق، يمكن أن تكون طابقين، أو خمسة طوابق، أو خمسة عشر، أو عشرين، أو ثلاثين طابقاً، أو أى عدد آخر يزيد أو ينقص عن هذه الأعداد، من واحد حتى

www.ibtesamh.com/vb

اللانهاية. مبنى المركز ليس صغيراً جداً ولا كبيراً جداً، إنه يكتفى بإظهار ثمانية وأربعين طابقاً فوق مستوى الشارع وإخفاء عشرة طوابق تحته. وبما إن سيبريانو ألجور قد أوقف شاحنته فى هذا المكان، وبما أننا بدأنا فى موازنة بعض الأرقام التى تحدد حجم المركز، فيمكننا أن نقول إن عرض الواجهتين الصغريين يقارب المئة والخمسين متراً، والجانبين الكبيرين يزيد قليلاً على الثلاثمائة وخمسين، وهذا بالطبع دون حساب التوسع الذى ذكرناه بالتفصيل فى بداية هذه القصة. فإذا ما تقدمنا الآن فى الحسابات أكثر قليلاً، واعتبرنا أن متوسط الارتفاع هو ثلاثة أمتار لكل طابق، بما فى ذلك سماكة السقوف الفاصلة بينها، ومع الأخذ فى الاعتبار كذلك الطوابق العشرة تحت الأرضية، فإن الارتفاع الإجمالى سيكون مئة وأربعة وسبعين متراً. وإذا ما ضربنا هذا الرقم بمئة وخمسين متراً العرض وبثلاثمائة وخمسين متراً الطول، سنجد فى النتيجة، بغض النظر عن خطأ ما، بسبب إهمال أو التباس، أن الحجم هو تسعة ملايين ومئة وخمسة وثلاثون ألف متر مربع، بزيادة شبر أو نقصان شبر، وبزيادة نقطة أو نقصان فاصلة. المركز، وليس هناك من لا يعترف بذلك مندهشاً، كبير حقاً. وهناك قال سيبريانو ألجور من بين أسنانه، **صهرى** العزيز يريدنى أن آتى لأعيش هنا، وراء واحدة من هذه النوافذ التى لا يمكن فتحها، وهم يقولون إن السبب فى ذلك هو عدم تشويش استقرار حرارة

www.ibtesamh.com/vb

التكييف الهوائى، ولكن الحقيقة هى شىء آخر؛ فالأشخاص يمكنهم الانتحار، إذا أرادوا ذلك، ولكن ليس بإلقاء أنفسهم من ارتفاع مئة متر إلى الشارع، فهذا يأس بالغ الظهور ويستثير فضولاً مرضياً لدى المارة الذين يريدون أن يعرفوا السبب فى الحال. سيبريانو ألجور لم يقل مرة واحدة وإنما مرات كثيرة، إنه لن يتقبل مطلقاً العيش فى المركز، ولن يتخلى أبداً عن مشغل الخزف الذى كان لأبيه ولجده، وحتى مارتا نفسها، ابنته الوحيدة التى لن تجد، يا للمسكينة، مفراً من مرافقة زوجها عند ترقيته إلى حارس مقيم، أدركت منذ يومين أو ثلاثة أيام، وبصراحة مشكورة، أن القرار النهائى يمكن للأب وحده أن يتخذه، دون إكراه بالإلحاح أو الضغوط من طرف ثالث، حتى ولو كان المسوغ هو الحب البنوى أو تلك الشفقة الباكية التى يستثيرها المسنون، حتى وهم يرفضونها، فى أرواح الأشخاص حسنى التكوين. لن أذهب، لن أذهب، ولن أذهب، حتى لو قتلونى، علك الخزاف الكلمات، مدركاً بالرغم من ذلك أن هذه الكلمات، لأنها تبدو قاطعة، شديدة الحزم تحديداً، يمكن لها أن تتصنع قناعات لا تشعر بها فى العمق، وتخفى ألفاظاً داخلية، كشرخ لا يزال غير مرئى فى أرقِّ جدران إبريق. من الواضح أن هذا هو أفضل سبب، وقد عادَ للحديث عن إبريق، كى تعود إساورا إستوديوسا إلى ذهن سيبريانو ألجور، وهذا ما حدث، ولكن السبيل المتخذ لهذا التفكير، أو هذا التأمل العقلانى، إذا كان ثمة عقلانية، وإذا لم يكن مجرد وميض عابر، دفعه نحو نتيجة محرجة،

www.ibtesamh.com/vb

مصاغة فى دمدمة حالمة، وهكذا لن أضطر إلى المجىء إلى المركز. حركة سيبريانو ألجور المعاكسة، بعد أن نطق هذه الكلمات مباشرة، لا تتيح لنا إدارة الظهر لجلاء أن صانع الخزف، بالرغم من ملامح الإعجاب التى بدت عليه لدى التفكير فى إساورا إستوديوسا، لا يمكنه تفادى حركة مزاجية تبديه رافضاً. إضاعة الوقت فى توضيح سبب إعجابه بها سيكون أقل بقليل من غير مجدٍ، فهناك أشياء فى الحياة تتحدد بذاتها، رجل ما، امرأة ما، كلمة ما، لحظة ما، يكفى أن نكون قد ذكرناها على هذا النحو كى يدرك الجميع ما هو المقصود، غير أن هناك أشياء أخرى، ويمكن لها أن تكون الرجل نفسه والمرأة نفسها، الكلمة نفسها واللحظة نفسها، إذا ما نُظر إليها من زاوية أخرى مختلفة، بضوء مختلف، تتحول إلى تحديد شكوك وحيرة، إلى إشارات قلقة، خفقة فريدة، لهذا فقد سيبريانو ألجور فجأة الإعجاب فى التفكير فى إساورا إستوديوسا، والسبب فى ذلك هو تلك الجملة، وهكذا لن أضطر للمجىء إلى المركز، لأنها كمن يقول، بزواجى منها سيكون لدى من تعنى بى، فيثبت مرة أخرى ما هو غير محتاج إلى الإثبات، أى ذاك الذى يكلف الرجل كثيراً فى معرفة نقاط ضعفه والاعتراف بها. لاسيما عندما تتبدى نقاط الضعف هذه خارج المرحلة المناسبة، مثل ثمرة يحملها الغصن باستياء لأنها ولدت متأخرة عن موسمها. تنهد سيبريانو ألجور، ثم نظر إلى الساعة. إنه موعد الذهاب لأخذ صهره من أمام باب خدمة الأمن.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

الكلب لقية لم يستلطف مرسيال. كان هناك كثير مما يتوجب قوله، المستجدات كثيرة، وكثيرة هى نوبات ارتفاع الأمل والمعنويات وهبوطهما فى هذه الأيام، بحيث لم يخطر لسبيريانو ألجور، خلال الطريق من المركز إلى مشغل الخزف، أن يكلم صهره عن الظهور الغريب للحيوان وتصرفاته الفريدة التالية. ومع ذلك، وحباً بالحقيقة التى تنعشها وساوس المؤلف، لا يمكن عدم التنويه بخاطر سريع وعابر مرّ فى ذهن صانع الخزف الغافل عن الواقعة المفاجئة، ولم يستطع تطويرها لأن مرسيال، قاطع كلام حميه بغم أكثر من مسوغ، ليسأله عن السبب الشيطانى الذى منعه هو ومارتا من إخباره بما كان يحدث فى البيت، فكرة الدمى، التصاميم، تجارب القولبة. وعلق بمرارة، يبدو كما لو أنه لا وجود لى فى نظركما. وبضبطه متلبساً بهذا الخطأ، نسج سيبريانو الغور تفسيراً يشارك فيه توتر الأعصاب والتركيز اللذان يرافقان كل إبداع فنى، وانعدام أى نوع من اللطف لدى المناوب فى مقسم الهاتف الذى يرد عادة على مكالمات أقارب

www.ibtesamh.com/vb

الحراس الذين يعيشون خارج المركز، وأخيراً بضع كلمات تزينية، شبه متعثرة، من أجل ملء فجوات المحادثة وإنهائها. لحسن الحظ أن رؤية الشاحنة المحترقة أسهمت فى حرف الانتباه عن اختلاف يمكن له أن يتحول إلى خصام عائلى، ونستبق ذلك بالقول إنه لن يتجاوز التهديد، حتى لو حاول مرسيال جاتشو إعادة فتح الموضوع عندما ينفرد بزوجته، فى حجرة النوم، ووراء باب مغلق. وبفضفضة ملحوظة، أزاح سيبريانو ألجور الدمى الخزفية جانباً كى يُظهر الشكوك التى ولّدها الحريق فى نفسه، وهو موقف ردّ عليه مرسيال - وكان لا يزال مستاءً من الإهانة التى كان ضحية لها - بشىء من الجفاء مدافعاً باسم الواجب المهنى عن الوعى الأخلاقى، والنظافة التى تتميز بها عمليات القوات المسلحة عموماً، والسلطات الإدارية والشرطية بصورة خاصة. هز سيبريانو ألجور كتفيه، **أنت** تقول هذا لأنك حارس فى المركز، لو أنك مدنى عادى مثلى لرأيت الأمور بطريقة أخرى، **واقع** كونى حارساً فى المركز لا يجعل منى شرطياً أو عسكرياً، رد عليه مرسيال بجفاء، **لا** يجعلك كذلك، لكنه يقرّبك، يضعك على الحدود، **أنت** مجبر الآن على إخبارى إن كنت تشعر بالخجل لأن حارساً من المركز يجلس هنا بجانبك، فى شاحنتك، يتنفس الهواء نفسه. لم يجب الخزّاف على الفور، وندم لانسياقه مرة أخرى للرغبة البلهاء والمجانية فى استفزاز صهره، **لماذا** أفعل هذا، سأل نفسه كما لو أنه لا

www.ibtesamh.com/vb

يعرف الجواب جيداً، فهذا الرجل، هذا المدعو مرسيال جاتشو يريد انتزاع ابنته منه، والحقيقة أنه قد انتزعها عندما تزوجها، لقد انتزعها دون مفر ولا رجعة، وفكر، ومهما تعبت من الرد بلا، فسوف أنتهى إلى الذهاب للعيش معهما فى المركز. بعد ذلك، قال متكلماً ببطء، كما لو أنه يسحب كل كلمة، اعذرنى، فأنا لا أريد إغضابك ولا أن أكون مزعجاً معك، لكننى لا أستطيع تجنب ذلك أحياناً، فالأمر يبدو كما لو أنه أقوى منى، وليس ثمة ما يستحق أن تسألنى عن السبب، فأنا لن أجيبك، أو سأقول لك أكاذيب، ولكن هناك أسباب، إذا ما بحثنا عنها سنجدها دوماً، لن نعدم أسباباً لتبرير أى شىء، حتى لو لم تكن حقيقية، إنه تبدل الأزمنة، إنهم المسنون الذين يهرمون يوماً مع كل ساعة تنقضى، إنه العمل الذى يتخلى عن أن يكون ما كان عليه، ونحن الذين لا نستطيع أن نكون إلا ما كناه، وفجأة نكتشف أننا لم نعد ضروريين فى هذا العالم، هذا إذا كنا ضروريين فيه يوماً، ولكن الاعتقاد بأننا كنا ضروريين كاف، أو يبدو كافياً، وكان أبدياً بطريقة ما، خلال الوقت الذى تدومه الحياة، لأن هذه هى الأبدية، ولا شىء سوى هذا. لم يقل مرسيال شيئاً، اكتفى بوضع يده اليسرى على يد حميه اليمنى التى تمسك بالمقود. ابتلع سيبريانو ألجور جفافاً، نظر إلى اليد الناعمة، إنما القوية، التى بدت كأنها تريد حماية يده، الندبة المتعرجة والمائلة التى تمزق الجلد من جانب إلى آخر، هى الأثر الأخير المتبقى من حرق قاس لا يُعرف بسبب أية ظروف غامضة لم يصل إلى

www.ibtesamh.com/vb

الأوردة التى تحت الجلد. فمرسيال غير الخبير، وغير المؤهل، أراد أن يمد يد المساعدة فى إشعال الفرن، ليبدو أفضل فى عينى الشابة التى كانت قد صارت خطيبته منذ بضعة أسابيع، وربما أراد أن يبدو أكثر من ذلك أمام أبيها، ليريه أنه رجل مكتمل الرجولة، مع أنه لم يكد يخرج فى الواقع من سن المراهقة، والشىء الوحيد من الحياة والعالم الذى يعتقد أنه يعرف عنه كل ما يجب معرفته هو أنه يحب ابنة صانع الخزف. ومن مر بمثل هذه الحالة يوماً لن يجد صعوبة فى تخيل إحساسه بالحماسة وهو يسحب الحطب، غصناً فغصناً، من المستودع، ثم يدفعه داخل الفرن، وأى مكافأة بالنسبة له فى تلك اللحظات أعظم من رؤية ملامح المفاجأة الفاتنة على وجه مارتا، وابتسامة أمها الحانية، ونظرة أبيها الجدية والمؤيدة بحزم. وفجأة، ودون معرفة السبب، لأنه لم يحدث لأسرة صانع الخزف مثل ذلك من قبل، اندفع من أوار الفرن لسان لهب نحيل، سريع ومتلو، كأنه لسان كوبرا، ولسع بضراوة يد الفتى القريبة، والبريئة، والغافلة. ومن هنا تولد الجفاء الذى بدأت أسرة جاتشو تشعر به تجاه أسرة ألجور، ليس لعدم إحساسهم بالمسئولية وإهمالهم الذى لا يُغتفر فحسب، حسب رأى آل جاتشو الراسخ، وإنما كذلك لأنهم مستغِلون وقحون، استغلوا مشاعر فتى ساذج لجعله يعمل مجاناً. ليس فى القرى النائية عن الحضارة وحدها يمكن للزوائد الدماغية البشرية أن تولد أفكاراً من هذا القبيل. عالجت مارتا مرات كثيرة يد مرسيال، وخففت عنها

www.ibtesamh.com/vb

وبردتها بالنفخ عليها مرات كثيرة، وقد ثابرا كليهما على إرادتهما حتى تمكنا من الزواج بعد بضعة سنوات، غير أن الأسرتين لم تجتمعا. والحب بين هذين يبدو الآن هاجعاً، وماذا يمكننا أن نفعل لهما، لابد أنه التأثير الطبيعى للوقت وقلق العيش، ولو كانت الحكمة القديمة لا تزال نافعة فى شىء، لو كانت لا تزال لها فائدة فى الجهل الحديث، فإننا نتذكر منها، بتكتم، كيلا يسخروا منا، أنه مادامت هناك حياة، فثمة أمل. أجل، هذا صحيح، فمهما كانت الغيوم ملبدة وسوداء فوق رءوسنا، فإن السماء فوق الغيوم تظل زرقاء على الدوام، أما المطر والبَرَد والصواعق فتسقط دوماً على من هم تحت، والحقيقة أن الفرد منا لا يعرف فى ماذا عليه أن يفكر عندما يتوجب عليه أن يفهم بالعلم هذه الأمور. كانت يد مرسيال قد تراجعت، فالعادة هى هكذا بين الرجال، لابد لمظاهر العاطفة، كى تكون رجولية، من أن تكون سريعة، خاطفة، هناك من يؤكد أن السبب فى ذلك هو الحياء الذكورى، ربما كان كذلك، غير أنه لا بد من الاعتراف بأنه كان سيبدو من الأكثر رجولة، بالمعنى الكامل للكلمة، وليس أقل فحولة بالطبع، أن يوقف سيبريانو ألجور الشاحنة ليعانق هناك بالذات صهره ويشكره على مسعاه بالكلمات الوحيدة المناسبة، أشكرك لأنك وضعت يدك فوق يدى، هذا ما كان يتوجب عليه أن يقوله، لا أن يستغل الآن جدية اللحظة ليشكو من الإنذار الذى فرضه عليه مدير قسم المشتريات، تصور، يمنحوننى خمسة عشر يوماً لأسحب الخزف،

www.ibtesamh.com/vb

خمسة عشر يوماً، أجل، خمسة عشر يوماً، ودون أن يكون لدى من يساعدنى، يؤسفنى أننى لا أستطيع مساعدتك، طبعاً لا تستطيع، فأنت لا وقت لديك، ولن يكون مناسباً لوظيفتك أن يروك تعمل حمالاً، ولكن الأسوأ أننى لا أعرف كيف سأتخلص من أوانٍ خزفية لا يرغب أحد فى شرائها، مازال بإمكانك بيع بعض القطع، من أجل هذا الأمر لدينا ما يكفى فى المشغل، الوضع يبدو معقداً حقاً، سوف نرى، ربما سألقى بها فى مكان ما على الطريق، لن تسمح لك الشرطة بفعل ذلك، لو أن هذه العربة، بدل أن تكون شاحنة صغيرة، كانت شاحنة كبيرة من تلك التى ترفع صندوقها، لكان الأمر بسيطاً جداً، الضغط على زر كهربائى وينتهى الأمر، خلال أقل من دقيقة يكون كل شىء خارجاً، ستفلتُ مرة أو مرتين من شرطة الطرق العامة، ولكنهم سيمسكون بك بعد ذلك متلبساً، حلّ آخر هو العثور على مغارة فى الريف، ولا داعى لأن تكون عميقة، وإلقاء كل شىء فيها، ولكَ أن تتخيل طرافة الموقف إذا ما استطعنا بعد ألف عام أو ألفى عام أن نشهد جدل علماء الآثار والأنثروبولوجيين حول منشأ وسبب وجود هذه الكمية من الأطباق والفناجين والقدور الخزفية، وإشكالية فائدتها فى مكان غير مأهول مثل هذا، إنه غير مأهول الآن، أما بعد ألف أو ألفى عام، فليس مستحيلاً أن تكون المدينة قد وصلت حتى المكان الذى نحن فيه الآن، قال مرسيال. توقف عن الكلام، كما لو أن الكلمات التى انتهى من النطق بها تستدعى أن يعود إلى التفكير فيها، وبالنبرة

www.ibtesamh.com/vb

المترددة لمن توصل إلى نتيجة منطقية مؤكدة، دون أن يدرك كيف توصل إليها، أضاف، أو المركز. والآن، ونحن نعلم أن مسألة المركز النكدة كانت فى حياة هذا الحمى وهذا الصهر مسألة غير صحية بأى حال، فإنه من المستغرب أن تتوقف إشارة الحارس الداخلى مرسيال جاتشو عند ذلك الحد، وألا تُطلق عبارة «أو المركز» جدلاً جديداً غير متوقع على الفور، وتتكرر كل الخلافات المعروفة وتكر السبحة نفسها من تبادل المهاترات والتهم المبطنة أو الصريحة. والسبب الذى جعل كليهما يظلان صامتين، مع افتراض أنه يمكن لمن يراقب الوضع من الخارج مثلنا، ويكشف ستر ما هو غير واضح بالتأكيد لهما، أقول إن السبب هو واقع أن خروج هذه العبارة، من فم مرسيال، وخاصة فى السياق الذى نُطقت فيه، تشكل أمراً جديداً بالمطلق. ويمكن لنا القول إن الأمر لم يكن كذلك أيضاً، بل على العكس، فعند تقبل احتمال أن يتوصل المركز فى يوم مستقبلى، بالتهامه المتواصل للأراضى، إلى إخفاء الحقول التى تجتازها الشاحنة الآن، فإن الحارس الداخلى مرسيال جاتشو يؤكد، فى ما يخصه، ومصفقاً لنفسه فى دخيلته، على القدرة التوسعية، سواء فى المكان أم الزمان، للمؤسسة التى تدفع له مقابل خدماته المتواضعة. وكان يمكن لهذا التفسير أن يكون صالحاً وأن يصفى المسألة نهائياً لو لم يحدث ذلك التوقف غير المحسوس تقريباً عن الكلام، ولو لم تتوافق لحظة ذهول التفكير الظاهرية تلك، واسمحوا لى بهذا الاقتراح الجرىء، مع ظهور من هو قادر

www.ibtesamh.com/vb

ببساطة على التفكير بطريقة أخرى. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فمن السهل إدراك أن مرسيال جاتشو لم يستطع التقدم فى الطريق الذى انفتح أمامه، لأن ذلك الطريق مخصص لشخص غيره. أما صانع الخزف، فقد عاش سنوات أكثر من كافية كى يعرف أن أفضل طريقة لجعل زهرة تموت هى فى إجبارها على التفتح بالقوة وهى لا تتعدى كونها وعداً بزهرة. وقد احتفظ بالتالى بكلمات صهره فى ذاكرته وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى مغزاها الحقيقى. لم يعودا إلى تبادل الحديث إلا حين دخلا القرية. وكعادته كلما جاء بصهره من المركز، توقف سيبريانو ألجور أمام باب حموى ابنته غير المستلطفين، لمدة تكفى بالضبط لأن يدخل مرسيال، ويقبل أمه، وأباه إن كان فى البيت، ويستعلم عن أحوال صحتهما منذ المرة الأخيرة، ويخرج بعد أن يقول، **غداً** سأحضر لوقت أطول. وقد كانت خمس دقائق، على العموم، أكثر من كافية لإنجاز روتين مشاعر البنوة، أما الاستفاضة والتوسع فى الحديث حول الأمور الجوهرية فتؤجل حتى اليوم التالى، وتناول الغداء مع الأبوين أحياناً، وعدم تناوله فى أحيان أخرى، ولكن دون أن ترافقه مارتا فى كل الأحيان تقريباً. أما اليوم، فلم تكن الدقائق الخمس كافية، ولا الدقائق العشر، وكان لا بد من انقضاء حوالى عشرين دقيقة قبل أن يعود مرسيال للظهور. دخل إلى الشاحنة بجفاء وأغلق الباب بقوة. كان وجهه صارماً، شبه مكفهر، ملامح متقدم فى السن متصلبة لم تتهيأ لها بعد تقاطيعه الشبابية. **لقد** تأخرتَ كثيراً

www.ibtesamh.com/vb

اليوم، أهناك من هو مريض، هل ثمة مشكلة فى الأسرة، سأله الحمو فقط، لا، لا يوجد شىء خطير، واعذرنى لأنى جعلتك تنتظر طويلاً، تبدو غاضباً، قلت لك إنه لا يوجد شىء خطير، فلا تقلق. إنهما يوشكان على الوصول، الشاحنة تلتف إلى اليسار لتبدأ صعود السفح الصغير المؤدى إلى مشغل الخزف، وعند تبديل السرعة يتذكر سيبريانو ألجور أنه قد مرّ أمام بيت إساورا أستوديوسا دون أن يفكر فيها، وفى هذه اللحظة بالذات ينزل كلب راكضاً على السفح وهو ينبح، وهى المفاجأة الثانية لمرسيال فى هذا اليوم، أو الثالثة، إذا ما تبين لنا أن زيارته لأبويه كانت الثانية. من أين جاء هذا الكلب، سأل، لقد ظهر هنا فجأة قبل أيام وسمحنا له بالبقاء، إنه حيوان لطيف، واخترنا له اسم «لقية» مع أننا إذا ما فكرنا جيداً لوجدنا أننا نحن اللقية وليس هو. حين وصلت الشاحنة إلى نهاية الفناء وتوقفت، حدثت عدة أمور فى وقت واحد، أو بفوارق زمنية ضئيلة، ظهرت مارتا عند باب المطبخ، خرج صانع الخزف والحارس الداخلى من السيارة، زمجر لقية تقدمت مارتا باتجاه مرسيال، وتوجه مرسيال نحو مارتا، أطلق الكلب زمجرة عميقة، عانق الزوج امرأته، وعانقت المرأة زوجها، ثم تبادلا قبلة، توقف الكلب عن الزمجرة وهاجم إحدى فردتى جزمة مرسيال، هز مارسال ساقه، لم يفلت الكلب طريدته، صرخت به مارتا، لقية، وصرخ الأب الشىء نفسه، ترك الكلب الجزمة وحاول أن يعض الكاحل، وجه إليه مرسيال رفسة

www.ibtesamh.com/vb

متعمدة ولكنها ليست قوية جداً، فقالت مارتا، **لا** تضربه، واحتج مرسيال، لقد عضنى، **لأنه** لا يعرفك، **حتى** الكلاب لا تعرفنى هنا، خرجت هذه الكلمات الرهيبة من فم مرسيال كأنها بكاء، كل كلمة منها ألم وشكوى لا يطاقان، طوقت مارتا بيديها كتفى زوجها، **لا** تكرر هذا القول، لم يكرره طبعاً، لا حاجة لذلك، فهناك أمور تقال مرة واحدة ولا تعاد أبداً، ومارتا ستسمع هذه الكلمات فى رأسها حتى آخر يوم من حياتها، أما سيبريانو ألجور، إذا ما أردنا أن نعرف ما الذى يفعله فى هذه اللحظة، فالجواب سيكون سهلاً، **لا** شىء، لولا الوضع ذو المغزى بحرفه السريع لعينيه عند سماعه ما قاله مرسيال، أى أنه فعل شيئاً. كان الكلب قد ابتعد باتجاه كوخه، لكنه توقف فى منتصف الطريق، رجع وراح يراقب. وبين حين وآخر كان يطلق زمجرة من حلقه. قالت مارتا، **لا** يعرف ما هى المعانقات، لا بد أنه ظن أنك تسبب لى أذى، ولكن سيبريانو ألجور، من أجل تنقية الجو، خرج بفكرة أشد ابتذالاً، **يمكن** أن يكون لديه أيضاً نفور من الزى الرسمى، توجد حالات من هذا النوع. لم يجب مرسيال بشىء، كان يتحرك بين وعيين حميمين، الندم لأنه نطق الكلمات التى ستظل إلى الأبد كاعتراف علنى بألم مخبأ حتى هذه اللحظة فى أعمق أعماقه، والحدس الغريزى بأن إفلات الكلمات بتلك الطريقة يمكن له أن يعنى أنه على وشك مغادرة طريق ليسلك طريقاً آخر، وإن كان الوقت لا يزال مبكراً لمعرفة فى أى اتجاه سيقوده. قبَّل مارتا من جبهتها وقال،

www.ibtesamh.com/vb

سـأذهب لأستبدل ثيابى. كان المساء يتقدم بسرعة، وسيحل الليل قبل أقل من نصف ساعة. قال سيبريانو ألجور لابنته، لقد تحدثتُ مع رجل المشتريات، بسبب مشكلة الكلب نسيتُ أن أسألكَ كيف كان الحديث معه، يقول إننى ربما أحصل فى الغد على جواب، بهذه السرعة، يصعب تصديق ذلك، وما هو أصعب على التصديق أن القرار قد يكون بالموافقة، أو هذا ما بدا أننى فهمته على الأقل، عسى ألا تكون مخطئاً، الجميلة الوحيدة التى أعرفها من دون ولكن، هى أنتِ، ما الذى تعنيه، ولأى هدف يأتى الحديث الآن عنَ الجميلات ودون الوَلَكنات، المسألة هى أنه بعد الخبر الطيب، يأتى دوماً خبر سيئ، وما هو الخبر الآن، علىّ أن أسحب خلال أسبوعين كل الخزف الذى يحتفظون به فى المستودع، سأذهب معكَ لمساعدتك، ولا فى الأحلام، لأنه إذا ما كلفنا المركز بطلبية، فإن الوقت كله سيكون قليلاً هنا، يتوجب قولبة التماثيل النهائية، وصنع القوالب، والعمل على صب الدمى فى القوالب، والطلاء، وملء الفرن وإفراغه، أرغبُ فى تسليم الطلبية الأولى قبل أن أُفرغ رفوف المستودع، حتى لا يغير الرجل رأيه، وما الذى سنفعله بذلك الخزف، لا تقلقى، فقد اتفقت مع مرسيال، سأتركه فى البرية، فى أى حفرة، كى يستفيد منها أى شخص، بعد كل هذه التنقلات سيتكسر معظمها، هذا مؤكد. جاء الكلب ولمس بأنفه يد مارتا، بدا كما لو أنه يطلب منها أن توضح له التكوين الجديد لمجمل الأسرة، مثلما درجت العادة

www.ibtesamh.com/vb

على القول فى إحدى الفترات. عنفته مارتا، **فلنر** كيف ستتصرف من الآن فصاعداً، ويجب عليكَ أن تعرف أننى إذا خُيرت بينك وبين زوجى، فسأختار زوجى. كان ظل شجرة التوت الأخير يتراجع شيئاً فشيئاً ليغرق فى ظلال أشد عمقاً ينشرها الليل الذى يقترب. دمدم سيبريانو ألجور، **لا** بد من التعامل بحذر مع مرسيال، فما قاله كان أشبه بطعنة خنجر، وردّت مارتا مدمدمة أيضاً، لقد كانت طعنة، وهى تؤلم كثيراً. أُضىء المصباح الذى فوق الباب، وظهر مرسيال جاتشو عند العتبة، كان قد استبدل زىّ العمل النظامى بملابس عادية، الملابس البيتية. تطلع إليه لقية بانتباه، وتقدم برأس مرفوع بضع خطوات باتجاهه، ثم توقف مترقباً. اقترب مرسيال، **أنتصالح**، سأله. لامس الأنف البارد الندبة التى فى اليد اليسرى، **فلنتصالح**. وقال صانع الخزف، انظر كيف أننى كنت على حق، لقيتنا لا يحب الزىّ الرسمى، الملابس كلها زىّ رسمى فى الحياة، والجسد لا يكون مدنياً حقاً إلا وهو عارٍ، ردّ عليه مرسيال، ولكن لم تعد المرارة تُلمح فى صوته.

خلال تناول العشاء دار حديث طويل حول كيف خطرت لمارتا فكرة صنع الدمى، وكذلك حول الشكوك، والمخاوف، والآمال التى شغلت البيت والورشة فى تلك الأيام الأخيرة، وبالانتقال إلى مسائل عملية، قُدرت الفترات اللازمة لكل مرحلة من مراحل الإنتاج وعوامل الأمان المناسبة لكل مرحلة، وهى

www.ibtesamh.com/vb

مختلفة عن المصنوعات التى اعتادوا عليها، كل شىء مرتبط بالكمية التى سيطلبونها منا، من الملائم لنا ألا تكون كبيرة ولا صغيرة، شىء مثل طلب الشمس لحصاد القمح وطلب المطر للبستنة، كما كان يقال فى الأزمنة السابقة على وجود الدفيئات البلاستيكية، علق سيبريانو ألجور. وبعد رفع شرشف المائدة، عرضت مارتا على زوجها الرسوم الأولية التى أنجزاها، والتجارب، واختبارات الألوان، والموسوعة القديمة التى استنسخا منها النماذج، بدا لأول وهلة أنه عمل ضئيل بالمقارنة مع اللهفة الكبيرة، غير أنه لا بد من الفهم أنه يمكن للتحول المبهج فى ظروف الإبحار فى الحياة أن يكون لآخرين عاصفة قاتلة، كل شىء يعتمد على غاطس السفينة وحالة أشرعتها. وفى غرفة النوم، وراء الباب المغلق، فكر مرسيال فى أنه لا يليق به أن يطلب توضيحات من مارتا لأنها لم تخبره بفكرة الدمى، لأن هذه المياه، فى المقام الأول، قد مرت منذ ساعات تحت الجسر، وجرفت معها بالتالى الاستياء وتعكر المزاج، ولأن مخاوف أخرى، فى المقام الثانى، كانت تقلقه، وهى أكثر جدية بكثير من شعوره أو تخيله أنه لا يلقى اعتباراً. مخاوف أكثر جدية وليست أقل إلحاحاً. فعندما يرجع رجل إلى بيته وإلى امرأته بعد امتناع عشرة أيام، ويكون شاباً مثلما هو مرسيال، أو إذا كان متقدماً فى السن، ولم يستطع تقدمه فى السن بعد كبح حماسته الغرامية، فإن الطبيعى أن يرغب فى إشباع فورى لهزة الحواس، وترك الحديث إلى ما بعد. والنساء، عموماً، لا يتفقن

www.ibtesamh.com/vb

فى ذلك. وخاصة إذا كان الوقت لا يستدعى الاستعجال، بل العكس، فالليل بطوله لنا، ومن يقول الليل يقول المساء أو الصباح، والمؤكد هو أن المرأة تفضل أن تبدأ الممارسة الغرامية بحديث متقطع، دون تسرع، ومن الأفضل أن يكون الحديث بعيداً قدر الإمكان عن هذه الفكرة الثابتة التى تدور فى رأس الرجل كأنها دوامة طنانة. فالمرأة مثل جرّة آخذة بالامتلاء ببطء، تأخذ بالاقتراب من الرجل شيئاً فشيئاً، أو أنها بكلمة أدق تأخذ بتقريبه منها، إلى أن يتوافق تسرع أحدهما ولهفة الآخر، وقد صارا معلنين، متوافقين، لا يقبلان التأجل، ليجعلا الذروة الموحدة تتعالى مزغردة. هناك استثناءات مع ذلك، مثلما هى حال مرسيال، فعلى الرغم من رغبته الشديدة فى دفع مارتا نحو الفراش، إلا أنه لا يستطيع عمل ذلك طالما لم يُفرغ كيس القلق الثقيل الذى يحمله على كاهله، ليس من المركز، ولا من الحديث الذى دار مع حميه خلال الطريق، وإنما من بيت أبويه. وقد كانت الكلمة الأولى فى هذه المرة أيضاً لمارتا، من المحتمل أن الكلاب لا تعرفك يا مرسيال، ولكن زوجتك تعرفك، لا أريد التحدث فى هذا الأمر، علينا أن نتحدث عما يؤلم، لقد كنتُ غبياً وظالماً، فلنترك جانباً كونك غبياً، لأنكَ لست كذلك، ولنُبقِ على كونك ظالماً، وقد اعترفتُ لكِ بذلك، لم تكن ظالماً أيضاً، دعينا من تعقيد الأمور يا مارتا، أرجوكِ، ما مضى قد مضى، الأمور التى قد انقضت هى الوحيدة التى لا تمضى أبداً، فالظالمون نحن، من تعنين بنحن، أنا وأبى،

www.ibtesamh.com/vb

وخاصة أنا، فأبى لديه ابنة متزوجة ويخشى فقدانها، ولا يحتاج إلى تبرير آخر، وأنتِ، أنا التى لا عذر لها، لماذا، لأنى أحبك، وأحياناً، بل فى أحيان كثيرة، أُعطى الانطباع بنسيان، أو أننى أنسى فعلاً، أنك شخص قائم بذاته، مكتمل فى الكائن الذى هو أنت، وأننى مدينة بهذا الحب لشخص عليه أن يرضى بمشاعر شبه مبهمة، يأخذ بالاستسلام شيئاً فشيئاً كما لو أن الأمر قدر لا يمكن تجنبه، هكذا هو الزواج، فالناس يعيشون هكذا، انتبهى إلى حال أبوىَّ، لدى خطيئة أخرى، أرجوكِ ألا تواصلى، فلنمض حتى النهاية يا مرسيال، علينا الوصول إلى النهاية، أرجوكِ يا مارتا، أنتَ لا تريدنى أن أواصل لأنك تدرك ما الذى سأقوله، أرجوكِ، عندما قلتَ إن الكلاب لا تعرفك، كنت تقول ذلك لامرأتك التى لم تعرفك فقط، بل إنها لم تفعل شيئاً لتعرفك، حسن، فلنقل إنها لم تفعل شيئاً تقريباً، هذا الذى تقولينه غير صحيح، أنتِ تعرفيننى، ليس هناك من يعرفنى خيراً منكِ، أعرفكَ فقط بما يكفى لأن أفهم مغزى كلماتك، ولكننى لم أكن أكثر ذكاء من أبى الذى فهم كلماتك بالسرعة نفسها التى فهمتها بها، عند الحديث عنا نحن الاثنين، فإنكِ أنت الناضجة، أما أنا فلستُ سوى طفل، ربما كنتَ على حق، وأنتَ تجعلنى على صواب فيما أقوله، ولكن هذه الناضجة الرائعة التى هى أنا، وامرأة مرسيال جاتشو الحصيفة والعاقلة جداً، لم تكونا قادرتين على أن تفهما، فى الوقت المناسب، ما الذى يمثله شخص قادر على امتلاك البساطة

www.ibtesamh.com/vb

والنزاهة ليقول عن نفسه إنه طفل، لن أكون هكذا دوماً، لن تكون دوماً هكذا، ولهذا علىّ فى أثناء ذلك أن أفعل كل ما هو فى متناول يدى كى أفهمك مثلما أنت، وربما أتوصل إلى النتيجة فى أن كونك طفلاً هى طريقة مختلفة، فى نهاية المطاف، لأن تكون ناضجاً، إذا ما واصلنا على هذا النحو فلن أعود أعرف من أنا، سيقول لك أبى إن هذا أحد الأمور التى تحدث لنا بكثرة فى الحياة، يبدو لى أننى بدأت التفاهم مع أبيك، لا تتخيل ذلك، بل تخيله، أجل، ويا للسعادة التى سيسببها لى ذلك. أمسكت مارتا يدى مرسيال وقبّلتهما، ثم ضغطتهما إلى صدرها وقالت، لا بد لنا أحياناً من العودة إلى حركات الحنان القديمة، وما أدراكِ أنت بذلك، فأنت لم تعيشى أزمنة انحناءات التوقير وتقبيل الأيدى، أقرأ ما ترويه الكتب، وهذا كما لو أننى كنت هناك، ولكن ما كنت أفكر فيه على أى حال ليس انحناءات التوقير وتقبيل الأيدى، كانت عادات مختلفة، أساليب شعور وتواصل لم تعد أساليبنا، الإيماءات فى نظرى هى أكثر من كونها إيماءات، حتى لو بدت لكَ المقارنة غريبة، إنها رسوم تُصنع بجسد شخص فى جسد شخص آخر. كانت الدعوة واضحة، ولكن مرسيال تظاهر بأنه لم يفهم، بالرغم من أنه فهم أن لحظة جذب جسد مارتا إليه قد حانت، وأن عليه أن يداعب شعرها، وأن يقبل وجهها ببطء، ورموشها بنعومة، وكأنه لا يشعر بالرغبة، كما لو أنه ساه وحسب، سيكون هذا الظن خطأ كبيراً، فما يحدث فى مثل هذه الحالات هو أن

www.ibtesamh.com/vb

الرغبة سيطرت سيطرة مطلقة على الجسد كى تستخدمه، وعذراً للتشبيه المادى والاستعمالى، كما تُستخدم أداة متعددة الاستعمالات، نافعة فى الصقل كنفعها فى الحرث، قادرة على البث كما على التلقى، دقيقة فى الحساب كما فى القياس، فعالة للصعود كما للنزول. **مـ**اذا جرى لك، سألته مارتا وقد شُلّت فجأة، **لا** شىء مهم، مجرد منغصات صغيرة، أهى مشاكل عمل، **لا**، **مـا** المسألة إذاً، الوقت الذى نقضيه معاً قصير جداً، والأدهى أنهم يأتون للتدخل فى حياتنا، نحن لا نعيش معزولين فى دورق، لقد مررتُ ببيت أبوى، **هـل** وقع حادث أو أى تعقيد. هز مرسيال رأسه نافياً وتابع الكلام، **بـدأ** بإظهار اهتمام كبير فى معرفة إذا ما كانت لدى أخبار عن موعد ترقيتى إلى حارس مقيم، وقد أجبت بأنه لا أخبار لدى، بل إنه لا وجود لما يؤكد أن ذلك سيحدث، **ول**كنه أمر مؤكد تقريباً، أجل، مؤكد تقريباً، ولكن ليس قبل أن يصبح العصفور فى اليد، **يـ**ظل طائراً، وماذا بعد ذلك، **قـ**اما ببعض اللف والدوران، دون أن أعرف إلى أين يريدان الوصول، إلى أن أخبرانى أخيراً بفكرتهما العظيمة، **وما** هى تلك الفكرة العظيمة، **إن**هما يفكران فى بيع البيت والمجىء للعيش معنا لا أكثر ولا أقل، **الـ**عيش معنا، أين، **فـى** المركز، **هـل** أسمعُ جيداً، أبواكَ يريدان الذهاب للعيش فى المركز معنا، **هـ**كذا بالضبط، **وأنت**، ماذا قلتَ لهما، **بـدأتُ** بلفت انتباههما إلى أن الوقت مازال مبكراً للتفكير فى ذلك، ولكنهما أجابانى بأن بيع البيت أيضاً ليس

www.ibtesamh.com/vb

بالأمر الذى يمكن إنجازه بين عشية وضحاها، ولا يمكن أن ينتظرا إلى أن نستقر أنا وأنت كى يبدأ البحث عن مشترٍ. وماذا قلتَ لهما أنت، ظننتُ أننى سأضع حداً للأمر، وأخبرتهما بأننا ننوى أن نأخذ أباك معنا عندما ننتقل، كيلا يبقى وحيداً هنا، لاسيما الآن حيث يمر مشغل الخزف بوقت عصيب، هل أخبرتهما بذلك، أجل، ولكنهما لم يهتما بالأمر، ولم يبق سوى قليل ليأخذا بالصراخ، والبكاء، وأنا أتحدث عن أمى بالطبع، لأن أبى ليس رجل مشاعر، فما فعله هو الاعتراض وإطلاق عبارات مسيئة، أى نوع من الأبناء أنا الذى أضع مصلحة أشخاص ليسوا من دمى فوق حاجة كبيريه نفسيهما، هذا ما قالاه بالضبط، كبيريه، لا أعرف من أين خرجا بالكلمة، وإنهما ما كانا يتصوران أبداً أن يسمعا من فمى يوماً إنكارى لمن أدين لهما بالحياة، من ربيانى وعلَّمانى، وأنه صحيح ما يقال عن أن الزواج فراق، ولكنهما غير مستعدين لتقبل الازدراء، وأنه علىّ ألا أنزعج، لأنهما غير محتاجين حتى الآن للخروج إلى الشوارع وطلب صدقة، ولكن علىّ ألا أنسى أن تأنيب الضمير سيأتى فى نهاية الأمر، وإذا لم يأت فى الحياة، فإنه يأتى بعد الممات، ويكون عندئذ أسوأ، وعسى ألا أنجب أبناء يعاقبوننى على انعدام الحس الإنسانى الذى تعاملت به اليوم مع أبوى، أكانت هذه هى الجملة الأخيرة، لا أدرى إذا ما كانت الجملة الأخيرة، فقد نسيت بعض العبارات المفصلة من المقاس نفسه، كان عليك أن توضح لهما أنه ليس هناك ما يستحق القلق، فأنت

www.ibtesamh.com/vb

تعرف جيداً أن أبى لا يريد العيش فى المركز، أجل، ولكننى فضلتُ عدم فعل ذلك، لماذا، لأننى سأوفر لهما بذلك موطئ قدم للتفكير فى أنهما الوحيدان فى الميدان، إذا ما أصرا لن يكون لديك مخرج آخر، سيكفى ألا أقبل الترقية، ما علىّ إلا أن أجد سبباً أستطيع إقناع المركز به، أشكُ فى أنك ستجده. كانا جالسين على السرير، يمكنهما التلامس، لكن وقت المداعبات كان قد انقضى، وهو يمضى فى الظاهر بعيداً جداً مثله مثل أزمنة تقبيل الأيدى وانحناءات التوقير، أو بعيداً حتى عن تلك اللحظة الأخرى التى جرى فيها تقبيل كلتا يدى الرجل، وضُمتا بعد ذلك إلى صدر المرأة. قال مرسيال، أعرف أنه من غير اللائق أن يصرح ابن بمثل هذه الأقوال، ولكننى لا أرغب فى الحقيقة أن أعيش مع أبوى، لماذا، لأننا لن نتفاهم أبداً، لن أفهمهم ولن يفهمونى، إنهما أبواك، أجل، إنهما أبواى، فى تلك الليلة ذهبا إلى الفراش وراودتهما الرغبة، ومنها ولدتُ أنا، وأتذكر عندما كنتُ صغيراً أننى سمعتهما يعلقان، كمن يتسلى برواية نكتة جيدة، بأن أبى كان فى تلك الليلة مخموراً، هكذا نولد جميعنا، سواء أكان هناك نبيذ أم لم يكن، أعترف بأننى أبالغ، لكننى أشمئز حين أفكر فى أن أبى كان مخموراً عندما زرع بذرتى، يبدو لى ذلك كما لو أننى ابن رجل آخر، كما لو أن ذاك الذى كان عليه أن يكون أبى لم يستطع أن يكونه، كما لو أن مكانه قد شغله رجل آخر هو هذا الذى سمعته يقول عسى أن يعاقبنى أبنائى، لم يكن هذا التعبير

www.ibtesamh.com/vb

بالضبط هو ما قاله، ولكنه كان ما فكر فيه بالضبط. أمسكت مارتا بيد مرسيال اليسرى، وشدّت عليها بين يديها، وهمست، **جميع** الآباء كانوا أبناء، وأبناءٌ كثيرون يصيرون آباء، لكن بعضهم ينسون أنهم كانوا كذلك، والآخرون لا يستطيع أحد أن يوضح لهم ما سيكونونه، **ليس** من السهل فهم ما تقولين، **وأنا** نفسى لا أفهمه، لقد خرج معى هكذا، فلا تهتم بما قلته، **فلننم** إذاً، **هيا** بنا. تعريا واندسا فى الفراش. عادت لحظة المداعبات إلى الدخول إلى حجرة النوم، اعتذرت لأنها تأخرت هناك فى الخارج، لأنها لم تجد الطريق، بررت نفسها، وفى الحال، صارت أبدية، مثلما يحدث للحظات أحياناً. بعد ربع ساعة من ذلك، وكان الجسدان لا يزالان ملتحمين، همست مارتا، **مرسيال**، **ماذا** هناك، سألها حالماً، **لقد** تأخرت دورتى الشهرية يومين.

www.ibtesamh.com/vb

فى كنف صمت غرفة النوم الحامى، بين الملاءات المنفوشة والمجعدة من الهياج الغرامى الذى لم يمض عليه بعد سوى وقت قصير، سمع الرجل امرأته تخبره أن دورتها الشهرية تأخرت يومين عن موعدها، وبدا له الخبر كشىء رهيب ومذهل بصورة حاسمة، بدا له نوعاً من fiat lux (*) فى عصر لم تعد اللغة اللاتينية تُستخدم وتُمارس فيه، يظهر ذاهباً وآتياً فى مجاله دون أن تكون لديه فكرة إلى أين يمضى، ولهذا يخيف. ومرسيال جاتشو الذى اعترف قبل ساعة أو أقل، فى نوبة تخلٍ مؤثر عن النفس نادراً ما تحدث لجنس الذكور، بأنه طفل، إنما كان فى النهاية، دون أن يتخيل ذلك، أباً جنينياً منذ أسابيع، مما يثبت مرة أخرى أنه علينا ألا نشعر أبداً بالثقة مما نظن أننا عليه، لأنه قد يحدث، فى اللحظة نفسها، أن نكون قد صرنا شيئاً آخر مختلفاً. كل ما قاله مرسيال ومارتا أحدهما للآخر مع تقدم الليل، قبل أن يناما من محض الإنهاك، يرد بالطريقة نفسها تقريباً فى ألف قصة

(*) fiat lux : باللاتينية فى الأصل، وتعنى: فليكن ضياء.

www.ibtesamh.com/vb

وقصة عن أزواج لهم أبناء، غير أن الوضع المحدد الذى كان فيه هذان الزوجان لا يسمح بالمرور دون تفحص بعض المسائل الخاصة بهما، مثل الإمكانية المسكوت عنها حول قدرة مارتا على مواصلة تحمل قسوة العمل فى مشغل الفخار، وهى مسألة بلا حل حالياً؛ لأنها مرتبطة بالترقية المنتظرة، والشك فى ما إذا كان الطفل سيولد قبل أو بعد الانتقال إلى المركز. وحول المسألة الأولى، تعللت مارتا بأنها لا تعتقد أن أمها، جوستا إساسكا المتوفاة، والتى عملت من دون راحة حتى اليوم الأخير من حياتها، تتقبل الاستمتاع ببطالة كاملة لمجرد أنها حبلى، وأنا نفسى يمكننى تقديم شهادة على ذلك لو استعدت ذاكرة الشهور التسعة التى عشتها فى داخلها، محال أن تتمكن مخلوقة فى بطن أمها من معرفة ما يحدث فى الخارج، رد عليها مرسيال متثائباً، أفترض أن الأمر كذلك، ولكن عليك أن تعترف على الأقل بأنه سيكون من الطبيعى تماماً أن يتعرف الطفل بحميمية على ما يحدث فى جسم أمه، والمشكلة فى رأيى تكمن فى الذاكرة، ولكننا لا نتذكر حتى ما نعانية خلال عملية الولادة، ومن المحتمل أننا هناك، فى أثناء الولادة، ننسى أولى ذكرياتنا، إنكِ تتخيلين، أعطنى قبلة. قبل هذه المحادثة الحساسة وهذه القبلة، أعرب مرسيال باندفاع عن تمنيه بأن يتم الانتقال إلى المركز قبل الولادة، ستتوفر لكِ أفضل رعاية طبية وصيدلية يمكنك تصورها، لا وجود لمثيل لها، لا من بعيد ولا من

www.ibtesamh.com/vb

قريب، سواء فى الأدوية أو فى الجراحة، وكيف تعرف هذا كله وأنت لم تذهب إلى مستشفى المركز، وربما لم تدخله قط، أعرف شخصاً أُدخل للعلاج، إنه رئيسى فى العمل، وقد أُدخل هو يشرف على الموت، وخرج كأنه إنسان جديد، بل هناك أناس من خارج المركز يسعون لوساطات كى يعالجوا هناك، لكن الأنظمة صارمة، من يسمعك يظن أن أحداً لا يموت فى المركز، هناك من يموت بالطبع، ولكن الموت يُلحظ أقل، هذه ميزة دون شك، سوف ترين عندما نصبح هناك، ماذا تريدنى أن أرى، أن الموت يُلحظ أقل، أهذا ما تريد قوله، لم أكن أتكلم عن الموت، بل كنتَ... الموت لا يهمنى فى شىء، كنتُ أتكلم عنكِ أنتِ وعن ابننا، عن المستشفى الذى ستضعينه فيه، إذا لم تتأخر ترقيتك كثيراً، إذا لم تأت ترقيتى خلال تسعة أشهر فلن تأتى أبداً، أعطنى قبلة أيها الحارس الداخلى، ودعنا ننام، إليكِ القبلة، ولكن هناك مسألة مازال علينا أن نتحدث فيها، أى مسألة تعنى، اعتباراً من هذا اليوم عليك أن تقللى من العمل فى مشغل الفخار وخلال شهرين أو ثلاثة شهور تتوقفين نهائياً عن العمل، وهل تظن أن أبى سيتمكن من إنجاز العمل وحده، وخاصة إذا ما كلفنا المركز بطلبية الدمى؟ سيتعاقد مع من يساعده، أنت تعرف جيداً أنها ستكون خطى ضائعة، فليس هناك من يرغب فى العمل فى مشغل الخزف، إنها حالتكِ، وماذا تعنى حالتى، أمى كانت تواظب على العمل وهى حبلى بى، وكيف تعرفين؟ إننى أتذكر ذلك. ضحكا معاً، ثم

www.ibtesamh.com/vb

اقترحت مارتا، **فـ**لنمتنع حالياً عن إخبار أبى، **لا** شك أنه سيفرح كثيرًا، ولكن من الأفضل ألا نخبره، **لـ**ماذا، **لا** أدرى، هناك أشياء كثيرة تدور فى ذلك الرأس، **مـ**شغل الخزف، مشغل الخزف هو شىء واحد منها، **المـ**ركز، والمركز أيضاً، والطلبية التى قد يطلبونها أو لا يطلبونها، والخزف الذى يجب سحبة، ولكن هناك مسائل أخرى، قصة إبريق الفخار الذى انفصلت يده مثلاً، وسأُخبركَ فى ما بعد بهذه القصة. مارتا هى التى نامت أولاً. ولم يعد مرسيال مذعورًا جداً، فهو يعرف إلى هذا الحد أو ذاك أى طريق عليه أن يسلك بعد الولادة، وبعد مرور نصف ساعة تقريباً، لمسه النعاس بأصابعه الدخانية، واستسلم له بنفس آمنة، دون مقاومة. وكان تفكيره الواعى الأخير هو التساؤل عما إذا كانت مارتا قد حدثته فعلاً عن يد إبريق، وفكر، يا للبلاهة، لابد أننى كنت أحلم. وكان هو من نام أقل، ولكنه من استيقظ أولاً. كان ضوء الفجر يتسرب من خلال شقوق ستائر النوافذ الخشبية. **سـ**يكون لك ابن، قال لنفسه، وكرر، ابن، ابن، ابن. ومتأثراً بعد ذلك بفضول لا رغبة فيه، فضول برىء تقريباً، إذا كان لا يزال ثمة براءة فى هذا المكان من العالم الذى نسميه فراش، رفع الأغطية ليرى جسد مارتا. كانت تستدير باتجاهه، بركبتين منحنيتين قليلاً. وكان الجزء السفلى من قميص النوم يلتف عند خصرها، ولا يكاد بياض البطن يظهر فى العتمة، ويختفى تماماً عند منطقة العانة القاتمة. أفلت مرسيال الأغطية وتركها تسقط، وأدرك أن لحظة

www.ibtesamh.com/vb

المداعبات لم تنسحب بعد، فقد ظلت متوقفة بثبات فى حجرة النوم طيلة الليل، ومازالت هناك تنتظر. تنهدت مارتا وبدّلت وضعها، ربما لملامسة الهواء البارد، الذى انسل إليها مع حركة أغطية الفراش. ومثل عصفور يتلمس بنعومة مكان عشه الأول، كانت يد مرسيال اليسرى، خفيفة، تلامس بطنها برفق. فتحت مارتا عينيها وتنهدت، ثم قالت بصوت لعوب، صباح الخير أيها السيد الأب، غير أن ملامحها تبدلت على الفور، فقد انتبهت للتو إلى أنهما ليسا وحدهما فى حجرة النوم. فقد كانت لحظة المداعبة تتسلل بينهما، تندس بين الملاءات، لا تعرف أن تقول بوضوح ما الذى تريده، غير أن إرادتها تسعدهما.

كان سيبريانو ألجور قد صار خارج البيت. لقد نام نوماً سيئاً وهو يفكر فى ما إذا كان سيتلقى اليوم ردّ رئيس قسم المشتريات، وأى ردّ سيكون، أيكون إيجابياً، سلبياً، متكتماً، مماطلاً، لكن ما أفقده النعاس تماماً لبضع ساعات هى الفكرة التى انبثقت فى رأسه فى منتصف الليل، ومثل كل الأفكار التى تداهمنا فى ساعات الأرق الميتة، ظن أنها فكرة استثنائية، عظيمة، بل إنها، فى الحالة التى تعنينا، خبطة موهبة تفاوضية تستحق التصفيق كله. وعند استيقاظه من إغفاءة قلقة لأقل من ساعتين استطاع الجسد القانط اختلاسهما من إرهاقه، رأى أن الفكرة لا تساوى شيئاً فى نهاية المطاف، وأن الحذر يستدعى عدم تغذية الأوهام حول طبيعة وطبع من يحرك عصا

www.ibtesamh.com/vb

القيادة، وأن أى أمر صادر عمن يملك سلطة أعلى من المعتاد يجب اعتباره قراراً من القدر لا سبيل إلى نقضه. الحقيقة أنه إذا كانت البساطة فضيلة، فإنه لا يمكن لأية فكرة أن تكون فاضلة أكثر من هذه، وهو ما سندركه فى الحال، سيدى رئيس قسم المشتريات، سيقول سيبريانو ألغور، كنتُ أفكر فى ما قلته لى حول الأسبوعين، اللذين يتوجب علىّ خلالهما سحب الخزف الذى يشغل مساحة فى المستودع، ففى تلك اللحظة لم أفكر ملياً فى الأمر، وربما السبب هو التأثر الذى شعرتُ به حين عرفت أن هناك أملاً ضعيفاً فى بقائى واحداً من ممونى المركز، ولكننى رحت بعد ذلك أفكر وأفكر، ورأيت أنه ليس من السهل، بل من المحال إنجاز واجبين اثنين فى الوقت نفسه، وأعنى سحب الخزف وصنع التماثيل الصغيرة، أجل، أعرف جيداً أنك لم تقل بعد إنك ستوصى على الدمى، ولكن على افتراض أنك ستفعل، خطر لى بتبصر روحى محض، أن أقترح خياراً يتمثل فى ترك الحرية لى فى الأسبوع الأول من أجل التمكن من التقدم فى صنع الدمى، وسحب نصف كمية الخزف فى الأسبوع الثانى، والعودة إلى الدمى فى الأسبوع الثالث، وإنهاء نقل الخزف فى الرابع، أعرف، أعرف ذلك، ولا حاجة لأن تخبرنى به، فأنا لا أجهل أن هناك خياراً آخر، خيار البدء بسحب الخزف فى الأسبوع الأول، ثم مواصلة التعاقب بعد ذلك، باتباع التسلسل، مرة الدمى، ومرة الخزف، ثم الدمى مرة أخرى، ولكننى أظن أنه لا بد لكم فى هذه الحالة الخاصة من

www.ibtesamh.com/vb

أن تأخذوا العوامل النفسية فى الاعتبار، فمن المعروف للجميع أن روح المبدع ليست هى نفسها روح المدمر، روح ذاك الذى يحطم، فإذا ما استطعتُ البدء بالدمى، أى بالإبداع، وبالتالى بالاستعداد النفسى الرائع الذى سأجد نفسى فيه، فإننى سأتقبل بشجاعة أخرى المهمة القاسية فى اضطرارى إلى تحطيم ثمرة عملى، لأن عدم وجود من يشتريها منى يعادل تحطيمها، والأسوأ من ذلك عدم العثور على من يريدها ولو قُدمت إليه مجاناً. هذا الخطاب الذى بدا لصاحبه فى الساعة الثالثة فجراً أنه يتضمن منطقاً لا يمكن دحضه، تحول إلى خطاب سخيف مع شعاع الصباح الأول، وصار مضحكاً تماماً تحت ضوء الشمس الواشى. أخيراً، سيحدث ما لا بد من حدوثه، قال صانع الخزف للكلب لقية، فالشيطان لا يقبع متربصاً وراء الباب دائماً. وبسبب الاختلاف الواضح فى المفاهيم واختلاف طبيعة مفردات أحدهما عن الآخر، لم يكن بمقدور لقية التطلع ولو لمجرد فهم أولى لما يرمى صاحبه إيصاله إليه، ولحسن الحظ من جهة أخرى أن الأمر ظل على هذا النحو، لأن الشرط الذى لا مفر منه للانتقال إلى الدرجة الثانية من الفهم، يجب أن يكون سؤاله عما هو الشيطان، أهو صورة، أم هيئة، أم شخص، ولعدم وجوده، كما يُفترض، فى العالم الروحى الكلبى منذ بدء الأزمنة، فإنه يرى منذ الآن، بتوجيهه سؤالاً من هذا النوع، أنه لن يكون للجدل نهاية. وبظهور مارتا ومرسيال، ناعسين بصورة غير معهودة، كما لو أن الليل قد

www.ibtesamh.com/vb

كافأهما فى هذه المرة بشىء أكثر من إطلاق العنان المعتاد للرغبات المتراكمة خلال عشرة أيام من البعاد، ودّع سيبريانو ألغور آخر بقايا تعكر المزاج، وفور ذلك، بفضل جولات ذهنية قابلة للتخيل بسهولة لدى من يعرف المقدمة والنتائج، وجد نفسه يفكر فى إساورا إستوديوسا، فيها شخصياً، ولكن بالاسم الذى تستخدمه كذلك، إذ من غير المفهوم لماذا علينا مواصلة تسميتها استوديوسا، مادامت استوديوسا هذه قد جاءتها من زوجها، وهو ميت الآن. وفكر صانع الخزف، فى أول فرصة تتاح لى، لن أنسى سؤالها عما هى كنيتها، كنيتها الخاصة، الأصلية، اسم أسرتها. وبينما هو مستغرق فى القرار الخطير الذى توصل إلى اتخاذه، وهو من أشد المساعى رهبة فى الميدان الخاص بالاسم، فالواقع أنها ليست المرة الأولى التى تبدأ فيها قصة حب، على سبيل المثال، وللتحدث فى هذا الأمر فقط، بالسؤال الحتمى، ما اسمك، سألته هى، ولم ينتبه سيبريانو ألجور فوراً إلى أن مرسيال والكلب كانا يتآخيان ويلعبان كصديقين قديمين لم يلتقيا منذ زمن طويل، لقد كان الزى الرسمى هو السبب، يقول الصهر، وتكرر مارتا، إنه الزى الرسمى. نظر إليهم الخزاف باستغراب، كما لو أن أمور الدنيا كلها قد بدّلت اتجاهها فجأة، ربما لأنه فكر فى الاسم الذى تحمله الجارة إساورا أكثر من تفكيره فيها كامرأة، والواقع أنه ليس من الشائع، حتى عند شرود الذهن، استبدال شىء بآخر، اللهم إلا إذا كان ذلك نتيجة عيش المرء طويلاً، وربما هناك أمور لا

www.ibtesamh.com/vb

نبدأ فى فهمها إلا عندما نصل إلى هناك، نصل إلى هناك، إلى أين، إلى التقدم فى السن. ابتعد سيبريانو ألجور باتجاه الفرن، وكان يدمدم ترنيمة دون معنى، مارتا، مرسيال، إساورا، لقية، ثم بترتيب مختلف، مرسيال، إساورا، لقية، مارتا، ثم ترتيب آخر، إساورا، مارتا، لقية، مرسيال، وأخرى، لقية، مرسيال، مارتا، إساورا، وأخيراً وحدّهم جميعهم اسمه، سيبريانو، سيبريانو، سيبريانو، كرره إلى أن فقد عدد المرات، إلى أن أحس بأن دواراً يرميه خارج نفسه، إلى أن لم يعد يفهم معنى ما يقوله، حينئذ نطق كلمة فرن، كلمة سقيفة، كلمة صلصال، كلمة شجرة التوت، كلمة حطب، كلمة باب، كلمة سرير، كلمة مقبرة، كلمة يد، كلمة إبريق، كلمة شاحنة، كلمة ماء، كلمة مشغل، كلمة عشب، كلمة بيت، كلمة نار، كلمة كلب، كلمة امرأة، كلمة رجل، كلمة، كلمة، وكل أشياء هذا العالم، المسماة وغير المسماة، المعروفة والسرية، المرئية والخفية، مثل سرب طيور يتعب من الطيران وينزل من الغيوم. وجلس سيبريانو ألجور على مقعد حجرى قديم كان جده قد أمر بوضعه إلى جانب الفرن، أسند مرفقيه إلى ركبتيه، ووجهه إلى يديه المجتمعتين والمفتوحتين، لم يكن ينظر إلى البيت ولا إلى مشغل الفخار، ولا إلى الحقول التى تمتد فى ما وراء الطريق العام، ولا إلى سطوح بيوت القرية إلى يمينه، كان ينظر فقط إلى الأرض المزروعة بقطع صغيرة جداً من الصلصال المشوى، وإلى التراب الضارب إلى البياض والحبيبى الذى يظهر تحتها، نملة ضالة ترفع بين فكيها القويين

www.ibtesamh.com/vb

حبةً أكبر منها مرتين، وحافة حجر يطل من تحتها رأسُ سحلية دقيق، ليختفى بعد ذلك. ليس هناك أفكار ولا أحاسيس، وإنما قطعة كبيرة من ذلك الفتات وحسب، كتلة تراب متيبسة يكفى الضغط عليها بالأصابع لتتفتت، وحبة أفلتت من سنبلة تحملها نملة دون وجهة، وحجر يختبئ تحته بين حين وآخر كائن حى، جدجد، أو سحلية، أو وهم. بدا كما لو أن لقية قد خرج من العدم، لم يكن هناك وفجأة صار موجوداً، وضع قائمتين بفظاظة على ركبتى سيده، مفسداً عليه وضعية تأمل أباطيل العالم حيث يضيع وقته، أو يظن أنه يكسبه، بسؤاله عن النمل، عن الجداجد، عن السحالى. مرّ سيبريانو ألجور بيده على رأس الكلب ووجه إليه سؤالاً آخر، **ماذا تريد**، لكن لقية لم يجب، كان يلهث فقط ويفتح فمه كأنه يبتسم حيال تفاهة المسألة. وفى هذه اللحظة بالذات سمع صوت مرسيال يناديه، **تعال** يا أبتاه، الفطور جاهز. كانت المرة الأولى التى يقدم فيها الصهر على هذا الأمر، لابد أن شيئاً غير طبيعى يحدث فى البيت وفى حياة هذين الاثنين، ولم يتوصل هو إلى فهم ما هو ذلك الشىء، تخيل ابنته تقول، **قادِ** أنت، بل ربما كان مرسيال، وهذا حدث أكثر استثنائية، هو من بادر، **سأناديه** أنا، ولابد من تفسير لذلك. نهض عن المقعد، داعب رأس الكلب مرة أخرى، وانطلقا معاً. لم يعبأ سيبريانو ألجور بأن النملة لن تعود أبداً إلى ذرع طريق عودتها إلى جحر النمل، إنها لا تزال تمسك

www.ibtesamh.com/vb

الحبة بقوة بين فكيها، ولكن عملها انتهى هناك، والسبب هو خراقة لقية الذى لا ينتبه أين يضع قوائمه.

وبينما هم يتناولون الفطور، أخبرهما مرسيال، كما لو أنه يجيب على سؤال، بأنه اتصل هاتفياً بوالديه ليقول لهما إن عملاً مستعجلاً يمنعه من الغداء معهما، ورأت مارتا بدورها أن نقل الخزف يجب ألا يبدأ اليوم، وهكذا نقضى اليوم معاً، على افتراض أن لدينا أسبوعين لعمل ذلك وفارق يوم واحد لن يكون مسألة خطرة، وقال سيبريانو ألجور إنه كان قد فكر فى ذلك أيضاً، لاسيما وأن مدير القسم قد يتصل فى أى وقت، ومن الضرورى أن أكون هنا لأرد عليه. تبادلت مارتا ومرسيال نظرات الشك، وقال مرسيال بحذر، لو أننى كنت مكانك، مع معرفتى كيف يعمل المركز، لما كنتُ واثقاً إلى هذا الحد، تذكر أنه هو نفسه من عرض احتمال أن يقدم لى الجواب اليوم، وحتى فى هذه الحالة، يمكن أن تكون مجرد كلمات تقال، من تلك التى لا تعار أهمية كبيرة، ليست المسألة مسألة وثوق أو عدم وثوق، عندما تكون سلطة الحسم بين يدى أشخاص آخرين، وعندما لا يكون فى متناول يدنا تحريهم باتجاه أو آخر، فإن الشىء الوحيد المتبقى هو الانتظار. ولم يكن عليهم الانتظار طويلاً، فقد رنّ الهاتف فى الوقت الذى كانت فيه مارتا تنظف المنضدة. سارع سيبريانو ألجور وأمسك السماعة بيد مرتجفة، وقال، مشغل خزف

www.ibtesamh.com/vb

ألجور، ومن الجانب الآخر سأله أحدهم، ربما هى سكرتيرة أو موظفة قسم الهاتف، **أأنت** السيد سيبريانو ألجور، **هو** نفسه، فقالت، **لـ**حظة واحدة، سأحوّلك إلى السيد رئيس القسم، وخلال دقيقة متجرجرة فى الطول، كان على صانع الخزف أن يستمع إلى موسيقى الكمانات التى يُملأ بها، بإلحاح مهووس، هذا النوع من الانتظار، وكان ينظر إلى ابنته، ولكنه بدا كمن لا يراها، وفجأة انقطعت الموسيقى، لقد تم الاتصال، **صـ**باح الخير يا سيد ألجور، قال مدير قسم المشتريات، **صـ**باح الخير سيدى، الآن بالذات كنت أقول لابنتى وصهرى، وهذا يوم عطلته، إن حضرتك قد وعدتنى، وأنك لن تتخلف عن الاتصال اليوم، **مـ**ن الملائم الحديث كثيراً عن المواعيد التى يوفى بها من أجل نسيان المرات التى تخلف فيها المواعيد، **أ**جل يا سيدى، **كـ**نتُ أدرس اقتراحك، وقد أخذتُ فى الاعتبار مختلف العوامل، سواء الإيجابية منها أم السلبية، أعذرنى للمقاطعة، أظن أننى سمعتُ كلاماً عن عوامل سلبية، **لـيـ**ست سلبية بالمعنى الدقيق للكلمة، من الأفضل القول إنها عوامل، قد تكون فى البدء حيادية، ويمكن لها أن تصل إلى ممارسة تأثير سلبى، **أ**جدُ شيئاً من الصعوبة فى الفهم، إذا كان لا يضايقك قولى هذا، إننى أشير إلى واقع أن مشغلك لا يمتلك أية خبرة معروفة فى صناعة المنتجات التى اقترحتها، **هـ**ذا صحيح يا سيدى، ولكن ابنتى وأنا نتقن إعداد القوالب، ويمكننى القول لك دون غرور إننا ماهران جداً فى صنع القوالب، وإذا كان صحيحاً

www.ibtesamh.com/vb

أننا لم نلتفت صناعياً إلى هذا العمل، فإن السبب هو أن المشغل كان يتوجه إلى تصنيع الأوانى الخزفية منذ البدء، أفهم ذلك، غير أنه لن يكون من السهل فى هذه الظروف الدفاع عن الاقتراح، **هل** تعنى، واسمح لى بالسؤال والتفسير، أنكَ دافعت عن الاقتراح، **أجل**، دافعتُ عنه، **وماذا** عن **الـ**قرار، القرار المتخذ كان إيجابياً بالنسبة للمرحلة الأولى، آه، شكراً جزيلاً يا سيدى، ولكن لا بد لى من الطلب إليك أن تشرح لى ما تعنيه المرحلة الأولى، **هـ**ذا يعنى أننا سنوصيك على طلبية تجريبية من مئتى دمية من كل نوع مع احتمال التوصية على طلبيات جديدة، وهذا يعتمد بوضوح على الطريقة التى سيتلقى بها الجمهور البضاعة، **لا** أدرى كيف أشكرك، بالنسبة إلى المركز يا سيد ألجور، أفضل شكر يتمثل فى إرضاء زبائننا، فإذا كانوا راضين، هذا يعنى إذا اشتروا وواصلوا الشراء، فإننا سنكون راضين أيضاً، أنظر ما الذى حدث للأوانى الخزفية، لم يعد الزبائن يهتمون بها، وبما أن المُنتَج، خلافاً لما حدث فى مناسبات أخرى، لا يستحق الجهد ولا الاستثمار فى إقناع الزبائن بأنهم مخطئون، اعتبرنا علاقتنا التجارية منتهية، الأمر بسيط جداً كما ترى، أجل يا سيدى، إنه بسيط جداً، وعسى ألا تلقى هذه الدمى الآن المصير نفسه، بل ستلقى المصير نفسه عاجلاً أو آجلاً، مثل كل شىء فى الحياة، فما لم يعد له نفع فى الاستخدام يرمى، **بـ**من فى ذلك الأشخاص، أجل بالضبط، بمن فى ذلك الأشخاص، فأنا أيضاً سيرمونى عندما لا أعود أنفع، أنت مدير،

www.ibtesamh.com/vb

أنا مدير، طبعاً، ولكننى مدير فقط بالنسبة لمن هم تحتى، وفوقى هناك قضاة آخرون، المركز ليس محكمة، إنك مخطئ، إنه محكمة، ولا أعرف محكمة أشد منه صرامة، الحقيقة يا سيدى أننى لا أعرف لماذا تضيع وقتك الثمين فى التحدث فى هذه الشئون مع صانع فخار لا أهمية له، ألاحظُ أنك تكرر كلمات سمعتها منى البارحة، أظن أننى أتذكر ذلك بهذا القدر أو ذاك، السبب هو أن هناك أشياء لا يمكن أن تقال إلا لمن هم تحت، وأنا تحت، لستُ أنا من وضعك تحت، ولكنك كذلك حقاً، مازالت لى على الأقل هذه الفائدة، أما إذا تواصل تقدم مسيرتكَ المهنية، وهو ما سيحدث دون شك، فإن كثيرين آخرين سيصيرون تحت حضرتك، إذا ما حدث ذلك يا سيد سيبريانو ألجور، فلن تعود مرئياً لى، هكذا هى الحياة، كما قلت حضرتك منذ قليل، هكذا هى الحياة، ولكننى مازلتُ أنا من يوقّع على الطلبيات حتى الآن، لدى يا سيدى مسألة أريد أخذ رأيك فيها، أى مسألة هى، إننى أعنى موضوع سحب الخزف، هذا أمر حُسم وانتهى، وقد منحتك مهلة خمسة عشر يوماً، ولكنَّ فكرة خطرت لى، أية فكرة، بما أن مصلحتنا، أعنى مصلحتنا ومصلحة المركز، هى فى إنجاز الطلبية فى أسرع وقت ممكن، فسيكون من المفيد لنا كثيراً أن نتمكن من التناوب فى الأمرين، تناوب، أعنى أن نخصص أسبوعاً لسحب الخزف من هناك، وأسبوعاً آخر للعمل فى التماثيل الصغيرة، وهكذا على التوالى، ولكنّ هذا يعنى التأخر شهراً فى تنظيف المستودع،

www.ibtesamh.com/vb

بدلاً من خمسة عشر يوماً، صحيح ، ولكننا سنكسب وقتاً فى التقدم فى العمل، هل قلتَ أسبوعاً للخزف وأسبوعاً للتماثيل الصغيرة، أجل يا سيدى، فلنفعل ذلك إذاً معكوساً، الأسبوع الأول سيكون للدمى، والأسبوع التالى للخزف، إنها فى العمق مسألة علم نفس تطبيقى، فالبناء مُشجع على الدوام أكثر من التدمير، ما كنتُ لأتجرأ على طلب هذا كله منك يا سيدى، إنها طيبة كبيرة منك، فقاطعه رئيس قسم المشتريات أنا لستُ طيباً، إننى عملى، ودمدم سيبريانو ألجور، ربما كانت الطيبة أيضاً مسألة عملية، كرر ما قلته، فأنا لم أسمعه جيداً، لا تعبأ بما أقول يا سيدى، فهو غير مهم، كرره مهما يكن، قلتُ إنه ربما تكون الطيبة مسألة عملية أيضاً، هذا رأى صانع فخار، أجل يا سيدى، ولكن ليس جميع صانعى الفخار لهم الرأى نفسه، صانعو الفخار آخذون بالانقراض يا سيد ألجور، ومثل هذه الأفكار أيضاً. لم يرد رئيس القسم فوراً، لابد أنه يفكر فى ما إذا كان من الملائم مواصلة التلهى بهذا النوع من ألعاب القط والفأر، غير أن موقعه على الخريطة العضوية للمركز ذكّره بأن التشكيلات التراتبية تتحدد ويُحافظ عليها من خلال ومن أجل احترامها بدقة، وليس بتخطيها أو تحريفها بأى حال، دون نسيان أن التعامل مع المرءوسين أو من هم أدنى مرتبة بإفراط فى الثقة يؤدى إلى تقويض الاحترام وينتهى إلى التجاوزات، أو أنه ينتهى، إذا ما أردنا استخدام كلمات واضحة، دون غموض، إلى ضياع التراتبية، وفقدان الانضباط والفوضى. كانت

www.ibtesamh.com/vb

مارتا تصر منذ لحظات على جذب انتباه أبيها المستغرق فى الجدل اللفظى دون أن تتوصل إلى مرادها، فخربشت بسرعة على ورقة سؤالين بحروف كبيرة ووضعتهما الآن أمام أنفه، أى دمى، وكم منها؟ عندما قرأهما سيبريانو ألجور رفع يده غير المشغولة إلى رأسه، لا يوجد عذر لسهوه، كثير من الكلام من أجل الكلام، كثير من الحجج والحجج المضادة، بينما ما يهمه أن يعرفه حقاً لم يعرفه إلا جزئياً، لأن رئيس القسم كان قد أخبره، كما نعلم، أن الطلبية ستضم مئتى دمية من كل نوع. الصمت لم يدم طويلاً مثلما من المحتمل أن يكون قد بدا، ولكن لابد من العودة إلى التذكر أنه فى لحظة صمت، حتى لو كانت أقصر من هذه، يمكن أن تحدث أشياء كثيرة، وعندما يتطلب الأمر، كما فى هذه الحالة، تعدادها، وصفها، شرحها من أجل التوصل إلى فهم شىء يستحق الذكر من المغزى الذى يتضمنه كل منها وجميعها معاً، يظهر على الفور من يتذرع بأن ذلك محال، وأنه لا يمكن لثقب إبرة أن يتسع للعالم، مع أنه يمكن فى الحقيقة أن يتسع لكون بكامله، بل أكثر بكثير، كونين مثلاً. وباستخدام نبرة محترسة، كيلا يكون إيقاظ التنين مفاجئاً جداً، حان الوقت لأن يتلعثم سيبريانو ألجور، سيدى، وهو الوقت الذى يضع فيه رئيس قسم المشتريات أيضاً نقطة نهائية وينهى محادثة ربما سيندم عليها فى الغد، للأسباب المعروضة أعلاه، ويتمنى لو أنها لم تحدث، حسن، لقد اتفقنا ويمكنكم البدء فى العمل، أوراق الطلبية ستخرج اليوم بالذات،

www.ibtesamh.com/vb

وأخيراً، قال سيبريانو ألجور إنه مازال هناك تفصيل يجب حله، وأى تفصيل هو هذا، أى منها يا سيدى، أى منها، لقد تحدثتَ عن تفصيل واحد، وليس عدة تفاصيل، أعنى أى الدمى ألست تريد شراءها، هذا هو التفصيل الذى أود معرفته، جميعها، أجاب مدير المشتريات، جميعها، كرر سيبريانو ألجور مذهولاً، لكنّ الآخر لم يعد يسمعه، إذ كان قد أغلق الخط. نظر صانع الخزف بذهول إلى ابنته، ثم إلى صهره، لم أتصور ذلك قط، سمعتُ ما سمعتُه ولا أصدقه، يقول إنه يوصى على مئتين من كل منها جميعها، من الست، سألت مارتا، أظن ذلك، هذا ما قاله: جميعها. ركضت مارتا نحو أبيها وعانقته بقوة، دون أن تقول شيئاً. واقترب مرسيال أيضاً من حميه وقال، الأمور تكون سيئة أحياناً، ولكن يأتى فى نهاية المطاف يوم لا يحمل إلا الأخبار الطيبة. ولو كان سيبريانو ألجور مهتماً مقدار شعرة بما يقال، ولو لم يشغل تفكيره الابتهاج بالعمل الذى صار مضموناً الآن، فما كان سيتخلف عن الرغبة فى معرفة ما هو الخبر الآخر أو الأخبار الأخرى الطيبة التى حملها معه ذلك النهار. ومن جهة أخرى، كان ميثاق الصمت المتفق عليه منذ ساعات قليلة بين الأبوين المستقبليين على وشك أن يتمزق هناك، وقد انتبهت مارتا إلى ذلك عندما حركت شفتيها كأنها تريد أن تقول، يبدو لى أننى حامل يا أبتاه، ولكنها تمكنت مع ذلك من كبح الكلمات. ولم يلحظ ذلك مرسيال المتمسك بالوعد المتفق عليه، ولا سيبريانو خالى الذهن من أية شكوك.

www.ibtesamh.com/vb

صحيح أن مثل ذلك الكشف لا يمكن إلا أن يكون قادراً عليه إلا من يستطيع، فضلاً عن معرفة قراءة الشفتين، وهى مهارة شائعة نسبياً، أن يحدس مسبقاً ما ستقولانه أيضاً فور بدء الفم بالانفتاح. غريبة هى هذه الموهبة السحرية مثل تلك الأخرى، والحديث هنا فى أمر آخر، فى رؤية ما فى داخل الأبدان من خلال كيس الجلد الذى يلفها. على الرغم من العمق المغرى فى كلا الموضوعين المناسبين لأغنى التأملات، إلا أنه علينا أن نتخلى عنهما فوراً كى نولى اهتماماً لما انتهت مارتا من قوله، **فلنحسب** يا أبتاه، مئتان مكررة ست مرات تساوى ألفاً ومئتين، سيكون علينا أن نسلم ألفاً ومئتى دمية، إنه عمل كثير لشخصين ووقت قصير لإنجازه. المبالغة فى الرقم أضفت شحوباً على الخبر الطيب الآخر لهذا اليوم، احتمال قدوم ابن لمرسيال ومارتا، وهو خبر كان يعتبر مؤكداً، ففقد قوته، وتحوّل إلى مجرد احتمال يمكن أن يحدث فى أى يوم، نتيجة عرضية أو متعمدة للقاء جنسى بين رجل وامرأة، عبر السبل المسماة طبيعية ودون اتخاذ تدابير احتياطية. وقال الحارس الداخلى مرسيال جاتشو بين الجدّ والمزاح، أرى أننى سأختفى من المشهد من الآن فصاعداً، وآمل ألا تنسوا وجودى على الأقل،فقالت له مارتا، **لم** توجد قط بقدر ما أنت موجود الآن، وتوقف سيبريانو ألجور للحظة عن التفكير فى الألف ومئتى دمية ليسأل نفسه عما تعنيه بقولها ذاك.

www.ibtesamh.com/vb

مـن يعيشون فى المركز يموتون أيضاً إذاً، قال سيبريانو ألجور وهو يدخل إلى البيت والكلب وراءه بعد أن أوصل صهره إلى واجباته، **لا** أظن أن أحداً تصور عكس ذلك يوماً، ردّت مارتا، فجميعنا نعرف أن لديهم مقبرة فى الداخل، المقبرة لا تُرى من الشارع، أما الدخان فيُرى، أى دخان، **د**خان محرقة الجثث، لا توجد محرقة جثث فى المركز، لم تكن موجودة من قبل، أما الآن فموجودة، **مـن** قال ذلك، **مـ**رسيالكِ أخبرنى، فعندما دخلنا الجادة رأيتُ دخاناً يتصاعد من السطح، وكان دخان المحرقة التى أتحدثُ عنها، لقد أُنجزت، وقال لى مرسيال إنهم بدءوا يواجهون مشكلة ضيق المكان، ما أستغربه هو الدخان، أكاد أراهن أن التكنولوجية الحالية قد ألغته، **إنـ**هم يُجرون تجارب بإحراق أشياء أخرى، ربما بعض البضائع التافهة التى لم تعد رائجة، مثل أطباقنا، **د**عكَ من التفكير فى الأطباق، فلدينا عمل كثير ينتظرنا، **لـ**قد رجعتُ بأسرع ما يمكن، أوصلتُ مرسيال إلى الباب ورجعت، أجابها سيبريانو ألجور. إنه يستبعد

www.ibtesamh.com/vb

الانحراف البسيط عن الطريق الذى سمح له بالمرور من أمام بيت إساورا إستوديوسا ولم ينتبه إلى أن لكلماته رنة تبرير مرتجلة، أو ربما معرفته بذلك لم تتح له تجنب الأمر. صحيح أنه لم يجد الجرأة لإيقاف الشاحنة وطرق باب أرملة جواكين إستوديوسو، ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد الذى جعله يتذكر، حتى باستخدامه نبرة قوية، أن ما خشى منه أساساً هو أن يبدو مضحكاً بوقوفه أمام المرأة دون أن يدرى ما يقول لها وينتهى به الأمر إلى سؤالها، كخشبة خلاص، عن الإبريق. غير أن شكاً مهماً سيبقى بلا توضيح إلى الأبد، فلو استطاع سيبريانو ألجور أن يتبادل الحديث ولو لدقيقتين مع إساورا إستوديوسا، هل كان سيدخل إلى البيت متحدثاً عن الموتى والدخان ومحارق الجثث، أم أن بهجة الحديث الممتع أمام الباب ستورد إلى روحه موضوعاً أكثر لطفاً، مثل عودة طيور السنونو أو وفرة الزهور التى تُلحظ فى الحقول. وضعت مارتا على منضدة المطبخ تصاميم المرحلة التحضرية الأخيرة للدمى الست، وفق ترتيب اختيارها، البهلول، المهرج، الممرضة، رجل الإسكيمو، المندرين الصينى، والآشورى الملتحى، متماثلة فى كل شىء مع تلك التى اقتيدت إلى محكمة مدير قسم المشتريات، مع اختلاف أو آخر صغير جداً، بسيط جداً، لا يمكن له أن يكون كافياً لاعتبارها نسخة مختلفة عن تلك التى قُدمت إليه فى الاقتراح. دفعت مارتا كرسياً كى يجلس عليه أبوها، ولكنه ظل واقفاً. كان يسند يديه إلى سطح المنضدة، وينظر إلى الدمى واحدة فواحدة، وأخيراً قال، من المحزن أنه ليس لدينا رسم جانبى

www.ibtesamh.com/vb

لها، لـماذا، لأنه يوفر لنا رؤية أكثر دقة للطريقة التى يتوجب علينا صنعها بها، تذكر أن فكرتى هى فى صنع قوالبهم عراة، ثم إلباسهم بعد ذلك، لا أظن أنه سيكون حلاً جيداً، لـماذا، إنكِ تنسين أن عددها سيكون ألفاً ومئتى دمية، أجل، أعرف ذلك، إنها ألف ومئتان، صـنع ألف ومئتى دمية عارية وإلباسها بعد ذلك واحدة فواحدة سيعنى صنعها وإعادة صنعها، وهذا يعنى عملاً مضاعفاً، مـعكَ حق، فقد كنت غبية بعدم التفكير فى ذلك، إذا انسقنا فى هذا، فأنا لا أقل عنكِ غباء، كنا نظن أن المركز لن يختار أكثر من ثلاث أو أربع دمى، ولم يخطر لنا أن الطلبية الأولى ستكون بهذه الضخامة، وبـالتالى، لم يبق أمامنا سوى طريقة واحدة، قالت مارتا، أجل، بالضبط، عـلينا إعداد الدمى الست التى ستُستخدم فى صنع القوالب، وشيّها، وصنع العلب، وحسم أمر إذا ما كنا سنعمل الدمى بطريقة الصبّ فى القوالب أم بحشوها بالصلصال، لا أظن أن لدينا خبرة كافية بطريقة الصب، ومعرفة ذلك نظرياً غير كافٍ، فنحن نعمل هنا دائما بالأصابع، قال سيبريانو ألجور، فليكن بالأصابع إذاً، أما العلب فسنوصى على صنعها عند نجار، لا بد من رسم الهيكل العام بدقة، قالت مارتا، وكذلك الظهر طبعاً، سـيكون عليكِ أن تبتكرى، لـن يكون الأمر معقداً، تكفى بعض الخطوط البسيطة التى توجه ما هو جوهرى فى النموذج. كانا جنرالين مسالمين يدرسان خريطة العمليات، ويصوغان الاستراتيجية والتكتيك، ويحسبان التكاليف، ويقدران

www.ibtesamh.com/vb

التضحيات. الأعداء الذين سيصرعونهم هم هذه الدمى الست، نصف الجدية ونصف الفجة، المصنوعة من ورق ملون، ولا بد من إجبارها على الخضوع بأسلحة الصلصال والماء، الخشب والجبس، الأصباغ والنار، وكذلك بمداعبة لا تكل بالأيدى، وهى ليست ضرورية للحب فقط. عندئذ قال سيبريانو ألجور، هناك أمر يجب أن نوليه اهتمامنا، أن يكون القالب مكوّناً من قطعتين فقط، لأن قطعة أخرى ستجعل عملنا معقداً، فقالت مارتا، أظن أن قطعتين تكفيان، فهذه الدمى بسيطة، صدر وظهر وكفى، ولا أريد أن أتصور المصاعب إذا ما اضطررنا إلى التجرؤ على دميةِ حامل الرمح أو معلم المبارزة، أو الفلاح أو عازف المزمار، أو الرماح الراكب على حصان، أو الفارس ذى القبعة المزينة بالريش، فقال سيبريانو ألجور، أو الهيكل العظمى ذى الجناحين والمنجل الطويل، أو الثالوث المقدس، وهل له أجنحة، أى منهما تعنين، الهيكل العظمى، له أجنحة، وإن كنت لا أفهم لماذا يمثلونه مجنحاً ما دام موجوداً فى كل مكان، بما فى ذلك المركز، مثلما بدا هذا اليوم، فأشارت مارتا، أظن أنه يعود إلى زمانك القول الشائع إن من يتحدث عن السفن إنما يرغب فى الإبحار، هذا ليس من زمنى، بل يرجع إلى زمن جد أبيك الذى لم ير البحر قط، وإذا كان الحفيد يكثر من الحديث عن السفينة فإنما يفعل ذلك كيلا ينسى أنه لا يريد السفر فيها، هدنة أيها السيد أبى، لستُ أرى الراية البيضاء، هاهى ذى، قالت مارتا وقبّلته. جمع سيبريانو ألجور

www.ibtesamh.com/vb

التصاميم، لقد صارت خطة المعركة موضوعة، ولم يبق سوى عزف البوق وإعطاء الأمر بالهجوم، إلى الأمام، فليبدأ العمل، ولكنه انتبه فى اللحظة الأخيرة إلى نقص مسمار فى نعل أحد أحصنة هيئة الأركان العامة، ويمكن أن يكون حسم مصير الحرب مرتبطاً بذلك الحصان، وذلك النعل، وذلك المسمار، فمن المعروف أن حصاناً أعرج لا يمكنه حمل رسائل، وإذا ما حملها، تظل هناك المجازفة بأن يبقيها فى منتصف الطريق. مازالت هناك مسألة أخرى، وأرجو أن تكون الأخيرة، قال سيبريانو ألجور، ما الذى خطر لبالك الآن، القوالب، ولكننا تكلمنا عن القوالب، تكلمنا عن أمهات القوالب، عن القوالب الأمهات وحدها، وهذه للحفظ، أما ما أعنيه فهى قوالب الاستخدام، لا يمكن التفكير فى صنع مئتى دمية باستخدام قالب واحد، لأنه لن يتحمل طويلاً، سنبدأ بدمية مهرج بلا لحية وننتهى بممرضة ملتحية. انحرفت مارتا بنظرها حين سمعت كلمات أبيها الأولى، أحست بأن الدم يصعد إلى وجهها وأنه لا يمكنها فعل شىء لإجباره على العودة إلى كثافته فى كنف الأوردة والشرايين، هناك حيث يتنكر الحياء بتلقائية وخفة، والسبب هو تلك الكلمة التى قالها أبوها، أمهات، والكلمات الأخرى التى تتولد منها، أمومة، أمىّ، أمومى، الذنب هو ذنب صمتها، لن نخبر أبى بالأمر حالياً، ستقول، والآن لا يمكنها الاحتفاظ بالصمت، صحيح أن تأخر الدورة يومين أو ثلاثة أيام، إذا أضفنا هذا اليوم، لا يعنى شيئاً لمعظم

www.ibtesamh.com/vb

النساء، أما هى فكانت دقيقة دوماً، بالغة الانتظام، بندولاً بيولوجياً، إذا صح هذا التعبير، ولو كان فى روحها أدنى قدر من الشك لما كانت أخبرت مرسيال فوراً، وما العمل الآن، فأبوها ينتظر جواباً، أبوها ينظر إليها مستغرباً، حتى أنها لم تبتسم لنكتته عن الممرضة الملتحية، لأنها ببساطة لم تسمعها، **لماذا** تورد لونكِ خجلاً، من المستحيل أن ترد بأن ذلك غير صحيح، وأن لون وجهها لم يحمر خجلاً، بعد قليل، أجل، سيكون بمقدورها قول ذلك، لأن لونها سيشحب فجأة، وفى مواجهة هذا الدم الواشى لم يعد أمامها من مفر سوى تقديم اعتراف كامل، **أبتاه**، أظن أننى حامل، قالت وأخفضت عينيها. انتصب حاجبا سيبريانو ألجور دفعة واحدة، وتبدلت ملامح الوجه من الاستغراب إلى حيرة مفاجئة، إلى اضطراب، وبدا بعد ذلك كما لو أنه يبحث عن أكثر الكلمات ملاءمة للحالة، ولكنه لم يجد سوى هذه، **لماذا** تخبريننى بذلك الآن، ولماذا تخبريننى بهذه الطريقة، ولن تجيبه هى بالطبع **لقد** تذكرتُ ذلك فجأة، فلا لزوم لمزيد من التصنع، **لأنكَ** قلتَ كلمة أُمّ، **هل** قلتُ هذه الكلمة، أجل، قلتها وأنتَ تتحدث عن القوالب، **صحيح**، معك حق. وسرعان ما انحرف الحوار نحو اللامعقول، نحو الكوميديا، وأحست مارتا برغبة مجنونة فى الضحك، غير أن الدموع طفرت من عينيها فجأة، وعاد التلون إلى وجهها، فليس من غير المعهود أن تتبدى هزتان متناقضتان، وبالغتا التضاد مثل هاتين، بطريقة متماثلة، أجل يا أبتى، أظن أننى حبلى، أمازلتِ غير

www.ibtesamh.com/vb

متأكدة بعد، بلى، إننى متأكدة، ولماذا تقولين إنكِ تظنين، ما أدرانى أنا، الارتباك، العصبية، فهى أول مرة يحدث لى هذا، مرسيال يعرف ذلك، أخبرتُه عندما جاء، لهذا كنتما مختلفين صباح أمس عما أنتما عليه عادة، يا لما يخطر لكَ، إنه مجرد انطباع لديك، فقد كنا مثلما نكون دائما، إذا كنت تتصورين أننى أنا وأمك ظللنا مثلما نكون دائماً فى يومك الأول، بالطبع لا، أعذرنى. الاستجواب الذى كانت مارتا ترى اقترابه منذ بدء الحديث، وصل أخيراً، ولماذا لم تخبرينى من قبل؟ لديك من الهموم يا أبتاه ما يكفى ويزيد، وهل ترين همّاً فى وجهى الآن بعد أن علمتُ بالخبر، سألها سيبريانو ألجور، ولكنك لا تبدو سعيداً كذلك، قالت مارتا محاولة حرف مسار القدر، إننى سعيد من الداخل، وسعيد جداً، ولكن لا تنتظرى منى بالتأكيد أن أبدأ الرقص، لأنه ليس أسلوبى، هل أسأتُ إليكَ، لقد أسأتِ إلىّ، أجل، ولو أننى لم أستخدم كلمة أُم، فكم من الوقت كنت سأظل جاهلاً أن ابنتى حامل؟ كم من الوقت كنت سأظل أنظر إليكِ دون أن أعلم أنكِ، أبتاه، أرجوك، ربما كنتُ سأنتظر إلى أن يظهر ذلك عليكِ، إلى أن تبدأ نوبات غثيانكِ، وسأكون أنا عندئذ من سأسألكِ إن كنتِ مريضة وإن كان بطنك منتفخاً، وعندئذ ستردين يا للبلاهة يا أبى إننى حبلى ولم أخبرك لأنى نسيت، أبتاه، أرجوك، كررت مارتا وهى تبكى وأضافت، هذا اليوم يجب ألا يكون يوم دموع، معكِ حق، إننى أتحول أنانياً، ليس الأمر كذلك، بل إننى أتحول

www.ibtesamh.com/vb

أنانياً، ولكننى مهما أجهدت نفسى فى التفكير لا أتوصل إلى فهم سبب امتناعكِ عن إخبارى، تكلمتِ عن الهموم، وهمومى هى مثل همومك، الخزف، الدمى، المستقبل، ومن يشاطرك شيئاً يمكنه مشاطرتك أمراً آخر. مرت مارتا بأصابعها بسرعة على خديها المبللين وقالت، كان هناك سبب، ولكنها كانت صبيانية منى أن أتصور مشاعر لا وجود لها فى الغالب، وإذا كانت موجودة ما كان علىّ أن أتدخل حيث لم يستدعنى أحد، أى قصة هى هذه، وما الذى تعنينه، سألها سيبريانو ألجور، لكن نبرة صوته كانت قد تبدلت، فالإشارة إلى مشاعر غير محددة، وجودها محل شك حيناً ويقينى فى حين آخر، سبب له الإرباك، إننى أتحدث عن إساورا إستوديوسا، تقدمت مارتا كما لو أنها تدفع نفسها إلى حمام ماء بارد، ماذا، هتف الأب، فكرتُ فى أنكَ إذا كنتَ مهتماً بها، مثلما يخيل إلىّ أحياناً، فإن ذهابكَ لتقول لها إنك تنتظر حفيداً يمكن له، وأنا أعرف أنه مجرد هاجس سخيف، لكننى لم أستطع تجنبه، يمكن له ماذا، لست أدرى، ربما جعلها تدرك، جعلها تنتبه.. إلى أننى أبله ومضحك، هذه كلماتكَ أنت وليست كلماتى، وهذا يعنى بكلمات أخرى أن الأرمل العجوز يستعرض نفسه، ويوجه نظرات تودد إلى امرأة أرملة مثله، ولكنها أرملة شابة، وفجأة تظهر ابنة العجوز لتخبره بأنه سيصير جداً، وهذا سينهى كل شىء، لأن زمنك أيها العجوز لا يسمح بالمزيد، عليكَ أن تكتفى بالتنزه مع الحفيد، ورفع يديك إلى السماء شاكراً أنك

www.ibtesamh.com/vb

عشت كل هذا الوقت الطويل، آوه، أبتاه، سيكون من الصعب أن تقنعينى بأنه لم يكن هناك شىء مشابه لهذا وراء قرارك بإخفاء ما كان يتوجب عليك أن تخبرينى به فوراً، لم تكن لدى نوايا خبيثة على الأقل، ما كان ينقص إلا أن تكون لديكِ نوايا خبيثة، أطلب منكَ المعذرة، تلعثمت مارتا غارقة، وعاد البكاء للانفجار. مرّ الأب بيديه ببطء على شعرها، وقال، دعى الأمر، فالزمن مُعلم مجاملات وهو ينتهى دائماً إلى وضعنا فى المكان الذى يناسبنا، ونحن نتقدم، نتوقف، نتقهقر حسب مشيئته، وخطؤنا هو أن نتصور أننا قادرون على إيجاد التفافات عليه. أمسكت مارتا اليد الآخذة بالانسحاب وقبلتها ضاغطة إياها بشدة إلى شفتيها، سامحنى، سامحنى، راحت تكرر، أراد سيبريانو ألجور مواساتها، لكن الكلمات لم تخرج منه، انس الأمر، فليس هناك ما يستحق الاهتمام، ولم تكن هذه الكلمات بالتأكيد هى الأكثر ملاءمة لما يريده. خرج إلى الفناء مشوشاً بفكرة أنه كان جائراً دون شك مع ابنته، بل أكثر من ذلك، كان يعى أنه قال للتو عن نفسه ما كان ينكر تقبله حتى اليوم من أن زمنه كرجل قد بلغ نهايته، وأن المرأة المدعوة إساورا إستوديوسا لم تكن خلال تلك الأيام سوى مجرد وهم فى رأسه، خدعة تقبلها إرادياً، اختلاق أخير من الروح لإلهاء الجسد الحزين، تأثير متعسف من ضوء الغروب الخامد، نفحة عابرة تمر دون أن تخلف أثراً، قطرة مطر صغيرة تسقط وتجف فوراً. لاحظ الكلب لقية أن صاحبه ليس فى أحسن حال مرة أخرى،

www.ibtesamh.com/vb

فيوم أمس أيضاً، حين ذهب بحثاً عنه فى الفرن، استغرب ملامح الشرود لمن يفكر فى أمور يصعب فهمها. لمس يده بأنفه البارد والرطب، لابد أن هناك من علّم هذا الحيوان البدائى رفع قائمته الأمامية مثلما تفعل عادة بتلقائية الكلاب المدربة على التعاليم الاجتماعية، فضلاً عن أنه لا وجود لطريقة أخرى معروفة لتجنب هرب يد السيد المحبوبة فجأة لدى الملامسة، وهذا دليل نهائى على عدم حلّ كل الأمور فى العلاقة بين الأشخاص البشريين والأشخاص الكلبيين، وربما كانت هذه الملامسة الرطبة، وهذه البرودة، توقظ مخاوف قديمة فى أعمق أجزاء أدمغتنا وأكثرها قِدماً، اللزوجة الثابتة لريالة هائلة، الانسلال المتجلد لأفعى متلوية، النَفس الجليدى لمغارة مأهولة بكائنات من عالم آخر. وقد كان الأمر كذلك إلى حدّ سحب معه سيبريانو ألجور يده بسرعة، وإن كان واقع أنه داعب بعد ذلك فوراً رأس لقية، فى رغبة واضحة فى الاعتذار، لا بد أن يُفسر كإشارة إلى أنه ربما يتخلى ذات يوم عن ردة الفعل تلك، هذا إذا افترضنا بالطبع أن زمن الحياة المشتركة الذى سيقضيانه معاً سيكون فسيحاً يمكن معه للحركة التى تتبدى الآن كنفور غريزى أن تتحول إلى عادة مألوفة. الكلب لقية غير مؤهل لفهم هذه الملاطفات، واستخدامه لأنفه هو عمل غريزى، يأتيه من الطبيعة، وهو بعد ذلك أكثر صحية حقيقية من مصافحة الأيدى بين البشر، مهما بدت شدة حميميتها فى النظر واللمس. ما كان الكلب لقية راغباً فى معرفته

www.ibtesamh.com/vb

هو إلى أين سيذهب سيده حين يقرر الخروج من جموده شبه الساهم الذى يراه فيه. ولكى يجعله يدرك أنه ينتظر قراره، كرر ملامسة الأنف، ولأن سيبريانو ألجور بدأ، فور ذلك، المشى باتجاه الفرن، فإن روح الحيوان وهى، مهما اشتد الاعتراض، أكثر منطقية من كل ما فى العالم من أرواح، جعلت لقية يستخلص أن مرة واحدة غير كافية فى حياة البشر. وبينما كان سيبريانو ألجور يجلس بتثاقل على المقعد الحجرى، راح الكلب يتشمم الحجر السميك الذى ظهرت من تحته السحلية، غير أن هموم السيد الشفافة كانت أقوى فى روحه من إغواء اصطياد طريدة مشكوك فيها، ولهذا لم يتأخر طويلاً فى الإقعاء أمامه، متأهباً لمحادثة شائقة. أول كلمة تلفظ بها صانع الخزف، انتهى الأمر، دقيقة ومقتضبة مثل حُكم بلا حيثيات، لا يبدو أنه يتضمن أية حلول لاحقة، ومع ذلك، فإن ما هو أكثر جدوى فى مثل هذه الحالات بنظر أى كلب، هو الحفاظ على الصمت طوال الوقت اللازم إلى أن يتعب صمتُ السادة، فالكلاب تعرف تماماً أن الطبيعة البشرية ثرثارة فى التعريف، متهورة وغير رصينة، مهذارة وعاجزة عن إغلاق فمها وإبقائه مطبقاً. والواقع أننا لا نستطيع أن نتصور أبداً العمق السحيق، الذى يمكن أن يبلغه التأمل الباطنى لأحد هذه الحيوانات حين يأخذ بالنظر إلينا، ونظن أنه لا يفعل بكل بساطة سوى النظر إلينا، ولا ندرك أنه يبدو فقط أنه ينظر إلينا، بينما هو فى الحقيقة قد رآنا وبعد أن رآنا ورحل

www.ibtesamh.com/vb

مخلفاً إيانا نحرك أذرعنا كحمقى على سطح ذواتنا الخارجى، ونلطخ العالم بتفسيرات عقيمة ومخيبة للآمال. صمت الكلب وصمت الكون المشهور ذاك الذى أُشير إليه فى مناسبة أخرى إشارة لاهوتية، على الرغم من أن المقارنة بينهما تبدو مستحيلة لكون الأبعاد المادية والموضوعية لأحدهما شديدة الاختلاف وغير متكافئة مع الآخر، فإنهما فى نهاية المطاف متماثلان فى الكثافة والوزن النوعى لدمعتين، والفرق يكمن فى الألم الذى جعل الدمعتين تطفران وتنزلقان وتسقطان. لقد انتهى الأمر، أعاد سيبريانو ألجور القول، ولم يرف جفن للقية، لأنه يعرف أن الذى انتهى أمره ليس تموين المركز بالأوانى، فهذا أمر صار من التاريخ، والمسألة الآن مرتبطة بالتنانير، ولا يمكن أن تكون سوى تنورة المدعوة إساورا إستوديوسا التى رآها من الشاحنة عندما حمل إليها سيده الإبريق الفخارى، وهى امرأة جميلة الوجه والقوام على السواء، مع أنه لا بد من ملاحظة أن هذا الرأى لم يصُغه لقية، فمسألة الجمال والقبح هذه هى من أفكار البشر، ولو تكلم لقية، لقال لسيده، حتى لو كنتَ الأقبح بين البشر، فلن يكون لقبحك فى نظرى أى معنى، فأنا لن أفتقدك إلا إذا صارت لك رائحة أخرى، أو مررت بيدك على رأسى بطريقة أخرى. غير المناسب فى الشرود هو السهولة التى يمكن أن يسهو بها الشارد فى دروب تحرفه عن المسار، مما يفقده خيط تسلسل الكلمات والأحداث، مثلما حدث للتو مع لقية، الذى انتبه لجملة سيبريانو ألجور التالية حين صارت فى

www.ibtesamh.com/vb

منتصفها، وكونها فى منتصفها هو السبب، مثلما يُلاحظ، لغياب الحرف الكبير منها، فقد أنهى الخزاف جملته بالقول، لن أسعى إليها أكثر، وهو لا يشير بالطبع إلى ذلك الحرف الكبير الاستهلالى، لأنه لا يستخدمه وهو يتكلم، بل يشير إلى المرأة المدعوة إساورا إستوديوسا التى تخلى، منذ هذه اللحظة، عن إقامة أى نوع من التعامل معها، **كنتُ** أتصرف مثل طفل أحمق، ومنذ الآن لن أسعى إليها أكثر، هكذا كانت الجملة كاملة، غير أن الكلب لقية، دون أن يجرؤ على الشك فى القليل الذى سمعه، لا يمكنه عدم إدراك أن كآبة وجه السيد تتناقض بصورة سافرة مع قرار الكلمات، وإن كنا نعرف بدورنا أن قرار سيبريانو ألجور حاسم قاطع، فسيبريانو ألجور لن يسعى أكثر إلى إساورا إستوديوسا، وسيبريانو ألجور يشعر بالامتنان تجاه ابنته؛ لأنها جعلته يرى نور العقل، وسيبريانو ألجور رجل كامل ومكتمل وهو لم يتلف بعد، وليس واحداً من أولئك المراهقين الحمقى الذين، لكونهم فى سن الحماسة الجامحة، يُمضون الوقت فى الجرى وراء الأوهام، والضباب، والتخيلات، ولا ينصرفون عنها حتى عندما تصطدم رءوسهم ومشاعرهم التى يظنون أنهم يشعرون بها بجدار المستحيلات. نهض سيبريانو ألجور عن المقعد الحجرى، بدا أنه يتكلف مشقة فى رفع جسده من هناك، وهذا غير مستغرب، فالوزن الذى يشعر الإنسان به ليس هو نفسه الذى تسجله آلية الميزان، ففى بعض الأحيان يكون أكثر، وفى أحيان أخرى

www.ibtesamh.com/vb

يكون أقل. سيبريانو ألجور يتوجه للدخول إلى البيت، ولكنه خلافاً لما أعلن من قبل، لن يشكر ابنته؛ لأنها جعلته يرى نور العقل، لا يمكن طلب ذلك كله من رجل تخلى للتو عن حلم، حتى لو كان حلماً قصير المدى مثلما كان حلمه هذا، إنها مجرد جارة أرملة، سيقول، آجل، وليذهب ليوصى النجار على الصناديق، مع أنها ليست المهمة المستعجلة التى يجب إنجازها، ولكن فى ذلك كسبًا لبعض الوقت، ففى موضوع المواعيد لم تكن مواعيد النجارين، وكذلك الخياطين، محط ثقة قط، هكذا كانت الأمور فى الزمن القديم على الأقل، فمع الملابس الجاهزة ومبدأ اصنع بنفسك تبدل العالم كثيراً. **أما**زلتَ غاضباً منى، سألته مارتا، **لـ**م أغضب، كانت مجرد خيبة أمل صغيرة وحسب، ولكننا لن نواصل التحدث فى الموضوع بقية حياتنا، أنتِ ومرسيال سيكون لكما ابن، وأنا سيكون لى حفيد، وسيجرى كل شىء على ما يرام، كل شىء فى مكانه، وقد حان الوقت لأن يوضع حدّ للأوهام، عندما أرجع سنجلس لنضع مخططاً للعمل، علينا أن نستغل هذا الأسبوع إلى أقصى الحدود، ففى الأسبوع القادم سأكون مشغولاً بنقل الخزف، خلال شطر لا بأس به من النهار على الأقل، اذهب بالشاحنة وتجنب الإرهاق، قالت مارتا، **المـ**شوار لا يستحق ذلك، فورشة النجارة غير بعيدة. نادى سيبريانو ألجور الكلب، **هـ**لم بنا أيها الحيوان، ومضى لقية فى أثره وهو يفكر، **قد** يلتقى بها. فالكلاب هى هكذا، تفكر بدلاً عن أصحابها عندما تريد.

www.ibtesamh.com/vb

أسباب شكوى سيبريانو ألجور الصادقة ضد سياسة المركز التجارية عديمة الرحمة، والمعروضة بإسهاب فى هذه القصة من وجهة نظر تعاطف طبقى معلن، لا تبتعد مع ذلك فى أية لحظة، حسب اعتقادنا، عن أشد أشكال الحيادية فى الحكم، ولا يمكن لها أن تُنسينا، وإن كانت تجازف فى تأجيج غير موات لموقد علاقات الخصومة التاريخية الخامد بين رأس المال والعمل، لا يمكن أن تنسينا، كما قلنا، أن سيبريانو ألجور المذكور مسئول عن بعض الأخطاء فى ذلك كله، وأول تلك الأخطاء ساذج، برىء، ولكن السذاجة والبراءة، مثلما حدث فى مرات كثيرة، كانتا الجذر الخبيث للأخطاء الأخرى، وكان خطؤه الأول هو التفكير فى أن أذواق معاصرى جده المؤسس وحاجتهم ستظل غير قابلة إلى التبدل، فى موضوع المنتجات الخزفية، إلى أبد الآبدين، أو مدى حياته على الأقل، وهو الأمر ذاته إذا ما أمعنا النظر. لقد رأينا كيف يجرى عجن الصلصال هنا بأشد الطرق الحِرَفية اليدوية، وقد رأينا كيف أن هذين الدولابين

www.ibtesamh.com/vb

متخلفان وشبه بدائيين، ورأينا كيف أن الفرن من الخارج يحتفظ بآثار قِدم غير مقبولة فى عصر حديث، بالرغم من العيوب المستنكرة وغير القابلة للتسامح التى تميزه، ومع ذلك فقد توفرت حتى الآن أريحية تقبل وجود مشغل خزف مثل هذا فى الوقت الذى يوجد فيه «مركز» مثل ذاك. سيبريانو ألجور يشكو ويتذمر، ولكنه يدرك كما يبدو أن الصلصال المعجون لم يعد يخزن بهذه الطريقة، وأن مصانع الخزف الأساسية اليوم لا ينقصها إلا القليل لتتحول إلى مختبرات بموظفين يرتدون أروباً بيضاء يدونون ملاحظات، وروبوتات ناصعة تنكب على العمل. المكان هنا يفتقر، على سبيل المثال، إلى أجهزة قياس درجة الرطوبة المقبولة، وأجهزة إلكترونية عالية الكفاءة تحافظ على ثباتها، تضبطها كلما زادت أو نقصت، لم يعد ممكناً العمل بالاستعانة بالعين وراحة اليد، باللمس أو الشم، وفق أساليب سيبريانو ألجور التكنولوجية المتخلفة، والذى قال لابنته للتو، بأشد تلقائية فى الدنيا، عجينة الصلصال جيدة، رطبة ولدنة، إنها جاهزة، سلسة فى العمل. ولكننا نتساءل الآن، كيف يمكن له أن يكون واثقاً إلى هذا الحد مما يقوله إذا كان لم يفعل أكثر من وضع راحة يده عليها، وضغطها قليلاً ودعك قطعة صغيرة من العجينة بين إصبعه الإبهام وإصبعيه السبابة والوسطى، كما لو أنه، بعينين مغمضتين، وبافتتان كامل بمغزى الملمس المستفسر، لا يختبر فى تلمسه خليطاً متجانساً من

www.ibtesamh.com/vb

الطين الأحمر، والصلصال الصينى، والسيليس الصوانى، والماء، وإنما سَدَى حرير ولحمته. الاحتمال الأكبر، مثلما أتيحت لنا الفرصة فى أحد هذه الأيام الأخيرة أن نلاحظ ونضع فى الاعتبار، هو أن أصابعه تعرف ذلك، وليس هو نفسه. وعلى أى حال، لا بد أن حكم سيبريانو ألجور يتوافق مع واقع الصلصال المادى، ذلك أن مارتا، وهى أصغر سناً بكثير، وأكثر حداثة بكثير، وأكثر من هذا الزمان بكثير، وليست، كما نعلم، قليلة الخبرة بأى حال فى هذه الفنون، انتقلت دون اعتراض إلى موضوع آخر، فسألت أباها، هل تظن أن الكمية ستكون كافية لصنع ألف ومئتى دمية، أظن ذلك، ولكننى سأحاول تعزيزها. انتقلا إلى قسم من المشغل تُحفظ فيه الأكاسيد ومواد أخرى للعمليات النهائية، تفحصا الموجود منها، وسجلا قائمة بالنواقص، سنحتاج إلى ألوان أكثر من هذه التى لدينا، قالت مارتا، فلا بد للدمى من أن تكون زاهية وجذابة للنظر، ونحتاج إلى جبس للقوالب وصابون خزفى، ونفط للأصباغ، أضاف سيبريانو ألجور، ولابد أن نُحضر كل ما نحتاج إليه دفعة واحدة، كيلا نضطر إلى قطع العمل فى الذهاب مسرعين والركض للشراء. اتخذت مارتا فجأة هيئة مفكرة، ماذا جرى؟ سألها الأب، لدينا مشكلة جدية، ما هى، كنا قد قررنا إنجاز حشوة القوالب بالإصبع، أجل، صحيح، ولكننا لم نتحدث عن تصنيع الدمى نفسها، فمن المحال إنجاز ألف ومئتى دمية

www.ibtesamh.com/vb

بالإصبع، ثم إن القوالب لن تتحمل، ولن يكون العمل مجزياً، سيكون ذلك كمن يريد إفراغ البحر بدلو، معكِ حق، وهذا يعنى أنه سيكون علينا اللجوء إلى حشوة معجون الباربوتين، ليست لدينا خبرة كبيرة، ولكننا ما زلنا فى السن التى يمكننا فيها التعلُّم، المشكلة الأسوأ ليست هذه يا أبى، ما هى إذًا؟ أذكر أننى قرأت، ولابد أن الكتاب عندنا فى مكان ما، أنه عند استخدام الباربوتين فى الحشوة، من غير المناسب استخدام عجينة ضاربة إلى الحمرة فيها صلصال صينى أبيض، وعجينتنا تحتويه بنسبة ثلاثين بالمئة على الأقل، رأسى هذا لم يعد ينفع كثيراً، كيف لم أفكر فى ذلك من قبل، لا تلم نفسك، فنحن لم نعتد على العمل بالباربوتين، صحيح، ولكنها معارف أولية بسيطة لدى الخزَّافين، إنها ألف باء المهنة. نظر كل منهما إلى الآخر بحيرة، لم يكونا أباً ولا ابنة، ولا جداً مستقبلياً ولا أماً مستقبلية، بل مجرد خزافين فى مأزق حرج حيال المهمة المهولة فى اضطرارهما إلى أن يسحبا الصلصال الأبيض الصينى من عجينة الطين ثم تقليص لزوجة قوامها بعد ذلك بإضافة طين أحمر ناعم ومطبوخ. ومثل هذه العملية الكيميائية غير ممكنة، بكل بساطة. ماذا سنفعل، سألت مارتا، فلنرجع إلى الكتاب، ربما نجد...، لا جدوى من ذلك، فليس بالإمكان استخراج الصلصال الصينى الأبيض من العجينة ولا يمكن تحييده، وما أقوله ليس له أى معنى، فكيف يمكن استخراج الصلصال الصينى أو

www.ibtesamh.com/vb

تحييده، والحل الوحيد هو فى إعداد وجبة أخرى من الطين بالمكونات الدقيقة، **لا** وقت لدينا يا أبتاه، أجل، معكِ حق، لا وقت لدينا. خرجا من مشغل الخزف، هيئتان محبطتان وخامدتان، حتى أن لقية لم يحاول الاقتراب منهما وهما يجلسان الآن فى المطبخ، ينظران إلى التصاميم التى تنظر إليهما، ولا يجدان الطريقة لحل لب المسألة، فهما يعرفان من خلال التجربة أن أنواع الصلصال القوية تميل إلى الانكماش كثيراً، وتتشقق، وتتشوه، فهى لدنة بإفراط، طرية، سهلة القولبة، ولكنهما يجهلان النتائج التى يمكن التوصل إليها مع الباربوتين، وخاصة ماهية النتائج السلبية التى ستظهر فى العمل الناجز. بحثت مارتا ووجدت الكتاب، ووجدت فيه أنه من أجل تحضير الباربوتين لا يكفى حل الصلصال بالماء، بل يتوجب استخدام مواد مذيبة، مثل سيليكات الصوديوم، أو كربونات الصوديوم، أو سيليكات البوتاسيوم، وكذلك الصودا الكاوية ما لم يكن هناك خطر من العمل بها، الخزف هو الفن الذى من المحال حقاً فصل الكيمياء فيه عن التأثيرات الفيزيائية والحركية، ولكن الكتاب لا يخبر بما يمكن أن يحدث للدمى إذا ما صنعتها بالصلصال الوحيد المتوافر لدىّ، المشكلة هى الكمية، إذا كانت الدمى قليلة تُملأ القوالب بالأصابع، أما ألف ومئتا دمية، أيتها العذراء المقدسة. إذا كنتُ قد فهمت جيداً، قال سيبريانو ألجور، فإن المطلبين الأساسيين الواجب توافرهما فى الباربوتين هما الكثافة والميوعة،

www.ibtesamh.com/vb

هـذا مـا هـو مـوضـح هـنـا، قـالـت مـارتـا، اقـرئـيه إذاً، بشأن الكثافة، الحالة المثالية هى واحد فاصلة سبعة، هـذا يـعـنـى، لـتـر من الـبـاربـوتـين يـجـب أن يـزن ألـفـاً وسبعمئة جرام، وإذا أردت معرفة كثافة ما لديك من الباربوتين، دون أن يكون لديك مقياس كثافة مناسب، فاستخدم عينة وميزاناً، ولا بد بالطبع من حسم وزن العينة، وماذا عن الميوعة، من أجل قياس الميوعة استخدم مقياس لزوجة، وتوجد منه عدة أنواع، وهنالك نوع منها يقدم قراءة مستقرة فى تدرجات تستند إلى احتمالات نظر مختلفة، هـذا الكتاب لا يساعد كثيراً، بلى إنه يساعد، ركزى اهتمامك، إننى أركزه، أحد أكثر الاستخدامات تواتراً هو مقياس لزوجة الفتل الذى يُقرأ وفق درجات جالينكامب، ومن هو هذا السيد، لا ذكر لذلك هنا، تابعى إذاً، وحسب هذا التدرج، فإن الميوعة المثالية تستقر ما بين المئتين والستين والثلاثمئة وستين درجة، ألا يوجد هنا ما هو فى متناول قدرتى على الفهم، سأل سيبريانو ألجور، سيأتى ذلك الآن، قالت مارتا وقرأت، فى حالتنا سنستخدم منهجاً حِرَفياً، تجريبياً وغير دقيق، ولكنه قادر على أن يقدم، فى الممارسة، مؤشراً تقريبياً، وأى منهج هو هذا، دسّ اليد عميقاً فى الباربوتين ثم إخراجها، وترك الباربوتين يقطر من اليد المفتوحة، وتعتبر الميوعة جيدة إذا تشكل بين الأصابع، بعد أن تقطر الباربوتين، غشاء مثل غشاء قوائم البط، مثل غشاء البط، أجل، مثل البط. تركت مارتا الكتاب جانباً

www.ibtesamh.com/vb

وقالت، لم نتقدم كثيراً، بل تقدمنا بعض الشيء، فنحن نعرف الآن أنه لا يمكننا العمل دون مادة مذيبة، وأننا ما لم نتوصل إلى أغشية بط لن يكون لدينا باربوتين نافع للحشوة، من حسن الحظ أنك فى مزاج رائق، المزاج مثل المدّ، يعلو لحظة، وينخفض أخرى، ومزاجى فى حالة صعود الآن، فلنر كم من الوقت سيدوم ذلك، لا بد له أن يدوم، فمصير هذا البيت بين يديك، البيت أجل، ولكن ليس الحياة، أبهذه السرعة بدأ المدّ ينخفض، سألته مارتا، إنه فى هذه اللحظة يتشكك، يتردد، لا يعرف جيداً إذا ما كان عليه أن يملأ أم يُفرغ، ابق معى إذاً، فأنا أشعر بأننى أطفو، كما لو أننى غير موقنة بكونى من أظن أنى أكونه، فى بعض الأحيان أفكر فى أنه ربما من الأفضل ألا نعرف من نكون، قال سيبريانو ألجور، مثل لقية، أجل، يخيل إلىّ أن الكلب يعرف عن نفسه أقل مما يعرفه عن صاحبه الذى يملكه، حتى أنه غير قادر على التعرف على نفسه فى مرآة، ربما كانت مرآة الكلب هى سيده، ربما من خلاله فقط يستطيع التعرف على نفسه، ألمحت مارتا، فكرة جميلة، حتى الأفكار الخاطئة، كما ترى، يمكن لها أن تكون جميلة، سنربى كلاباً إذا تخلى الحظ عن عملنا فى مشغل الخزف، لا توجد كلاب فى المركز، يا للمركز التعيس، حتى الكلاب لا تحبه، المركز هو الذى لا يريد الكلاب، هذه المشكلة لا يمكن أن تهم إلا من يعيش هناك، قطع سيبريانو ألجور الكلام فى الموضوع

www.ibtesamh.com/vb

بصوت متشنج. لم تجب مارتا، فهى تدرك أن أية كلمة تقولها قد تفتح المجال لجدل جديد. وفكرت بينما هى ترتب مرة أخرى التصاميم المتعبُة، إذا ما جاء مرسيال غداً إلى البيت وقال إنه صار حارساً مقيماً، وإنه علينا أن ننتقل، فإن ما نفعله هنا يصير بلا معنى، وسيكون سيان إذا ما رافقنا أبى أم لا، فمشغل الخزف فى هذه الحالة أو تلك محكوم عليها بالتوقف، وحتى لو أصر هو على البقاء فإنه لن يستطيع العمل بمفرده، وهو نفسه يعرف ذلك. وما الأفكار التى جالت فى أثناء ذلك فى ذهن سيبريانو ألجور، إنه أمر مجهول، ولا يجدر بنا أن نختلق له أفكاراً قد تتفق مع أفكاره الحقيقية والفعلية، بالرغم من أنه، على افتراض أن الكلمة، فى نهاية المطاف، لم تُمنح للإنسان من أجل إخفاء ما يفكر فيه، فإنه سيكون من المشروع أن نستنتج شيئاً قريباً مما قاله الخزاف بعد صمته المتأخر، ليس الوهم هو السيئ، وإنما السيئ هو إيهام النفس، ومن المحتمل أنه كان يفكر فى الشىء نفسه الذى فكرت فيه ابنته، وحصيلة ما توصل إليه أحدهما لا بد أن تكون، بصورة منطقية صرفة، حصيلة ما توصل إليه الآخر. وعلى كل حال، أضاف سيبريانو ألجور دون أن ينتبه، أو ربما انتبه، ربما فى اللحظة نفسها التى نطق بها الكلمات الأولى لاحظَ التلونات التنبوئية لتلك الكلمات، وعلى كل حال، السفينة المتوقفة لا تسافر، فمهما يكن ما سيحدث فى الغد لا بد من العمل اليوم، ومن يزرع شجرة لا

www.ibtesamh.com/vb

يعرف أيضاً إذا ما كان سينتهى مشنوقاً عليها، مع موجة سوداء مثل هذه لا يمكن لزورقنا أن يُبحر، قالت مارتا، ولكنكَ على حق، فالوقت ليس جالساً فى الانتظار، علينا أن نبدأ العمل، ومهمتى حالياً هى رسم جانبىّ الدمى وظهورها، وتلوينها، وأقدر أننى سأنجزها قبل حلول الليل إذا لم يشغلنى شىء آخر، لسنا بانتظار زائرين، قال سيبريانو ألجور، وأنا سأتولى أمر إعداد الغداء، فقالت مارتا، إنه بحاجة إلى التسخين فقط، وإعداد طبق سلطة. ذهبت بحثاً عن أوراق الرسم والألوان المائية والرياش، وخرقة قديمة للتجفيف، ووضعت كل شىء فى ترتيب جيد، بمنهجية، على المنضدة، ثم جلست وتناولت الآشورى ذا اللحية، سأبدأ بهذا، قالت، بَسِّطى قدر ما تستطيعين كيلا تظهر بروزات وثغرات عند نزع القالب، قالب من قطعتين وكفى، لأن قطعة ثالثة ستكون خارج إمكاناتنا، لن أنسى ذلك. ظل سيبريانو ألجور لدقائق يرى كيف ترسم ابنته، ثم خرج إلى مشغل الخزف. إنه ذاهب لتأمل الصلصال،ليصلح اليد الملتوية، ليقولب بعض الدمى التجريبية حتى لا تبدو، بصورة سافرة، غير شبيهة ببهاليل أو مهرجين، برجال إسكيمو أو ممرضات، بآشوريين أو موظفى مندرين صينيين، وإنما دمى يمكن لأى شخص، رجل أو امرأة، شاب أو عجوز، أن يقول حين ينظر إليها، إنها تشبهنى. وربما يأتى أحد هؤلاء الأشخاص، امرأة أو رجل، عجوز أو شاب، ليأخذ إلى بيته بدافع

www.ibtesamh.com/vb

الإعجاب، أو ربما الزهو، تشخيصاً شديد الوفاء للصورة التى يرى نفسه بها، يأتى إلى مشغل الخزف ويسأل سيبريانو ألجور عن ثمن تلك الدمية التى هناك، ويجيبه سيبريانو ألجور بأنها ليست للبيع، فيسأله الشخص لماذا، ويرد هو، **لأنها** كذلك. حلّ المساء، ولم يعد هناك الكثير للغروب عندما دخلت مارتا إلى مشغل الخزف وقالت، لقد انتهيت، وقد تركتها تجف على منضدة المطبخ. بعد ذلك، وكانت قد رأت العمل الذى أنجزه أبوها، دميتين غير مكتملتين بطول شبرين تقريباً، منتصبتين، إحداهما ذكورية، والأخرى أنثوية، كلتاهما عاريتان، يبرز من كتف إحداهما طرف سلك، فعلقت، **ليست** سيئة يا أبتِ، ليست سيئة، ولكن دمانا لا تحتاج لأن تكون كبيرة هكذا، تذكر أننا فكرنا فى أن يكون طولها شبرًا بقياس يدك، **من** المناسب أن تكون أطول قليلاً، كى تُرى بوضوح فى واجهات المركز، كما أنه يجب التفكير فى تقلص الحجم فى الفرن نتيجة فقدان الرطوبة المتبقية، وما هذه حالياً إلا تجارب، **إنها** تروقنى على هذه الحال، تعجبنى كثيراً، وهى لا تشبه شيئاً رأيته من قبل، مع أن المرأة تذكّرنى بأحد ما، **يجب** الاستقرار على رأى، قال سيبريانو ألجور، تقولين إنها لا تشبه أى شىء رأيتِه ثم تضيفين إن المرأة تذكّرك بأحد ما، إنه انطباع مزدوج، استغراب وتآلف، ربما لن أضطر إلى تربية كلاب، قد أتفرغ للنحت، فهو أحد أكثر الفنون مردودية كما سمعت، **عائلة** فنانين

www.ibtesamh.com/vb

مثالية، علقت مارتا بابتسامة نصف ساخرة، لحسن الحظ أن مرسيال قد نجا كيلا يضيع منا كل شيء، ردّ سيبريانو ألجور، ولكنه لم يبتسم.

كان هذا هو أول أيام الخلق. وفى اليوم الثانى سافر الخزَّاف إلى المدينة ليشترى الجبس الخزفى المخصص للقوالب، إضافة إلى كربونات الصوديوم، وهو ما وجده لاستخدامه كمذيب، والأصباغ، وعدة دلاء بلاستيكية، وملاعق جديدة من الخشب والأسلاك، وموالج، ومصبات لصب الصلصال فى القوالب المفرِّغة. وقد كانت مسألة الأصباغ موضع جدال حى خلال عشاء اليوم الأول المذكور وبعده، وتركزت نقطة الجدل حول إذا ما كان يتوجب تزجيج الدمى، وبالتالى إدخالها إلى الفرن بعد طلائها، أم عكس من ذلك، أى طليها على البارد بعد شيّها وعدم إعادتها بعد ذلك إلى الفرن. ففى الحالة الأولى يجب أن يكون الصباغ من نوع، وفى الحالة الثانية يجب أن يكون من نوع آخر، وكان لابد من اتخاذ القرار فوراً، لا يمكن تأخيره حتى اللحظة الأخيرة، بعد إمساك الفرشاة باليد، إنها مسألة جمالية، دافعت مارتا عن رأيها، بل هى مسألة وقت، كان رأى سيبريانو ألجور، الطلاء والتزجيج فى الفرن يرفع من النوعية والبريق، ألحت هى، ولكننا إذا ما طليناها على البارد فسنتجنب حدوث مفاجآت مزعجة، فاللون الذى نستخدمه هو الذى يبقى، ولا نكون مرتهنين لتأثير الحرارة على الغراء، لاسيما عندما تتبدل نزوات نار

www.ibtesamh.com/vb

الفرن. تغلب رأى سيبريانو ألجور، الأصباغ التى سيشتريها هى المعروفة فى السوق المتخصص باسم أصباغ الخزف، وهى سهلة الاستخدام، وسريعة الجفاف، وتوجد منها تشكيلة ألوان واسعة، أما بالنسبة للمذيب، وهو لا غنى عنه لأن سماكة الطلاء الأصلى تكون كبيرة فى العادة، وإذا لم تكن هناك رغبة فى استخدام مذيب اصطناعى فيمكن استخدام الكيروسين. عادت مارتا لفتح كتاب الفن، بحثت عن الفصل الخاص بالطلاء على البارد وقرأت، يطبق على القطع المشوية مسبقاً، يجرى حف القطعة بورق زجاج ناعم، بحيث يزال أى نتوء أو عيب فى الدمية الناجزة، فيصبح سطحها أكثر تناسقاً ويتيح ذلك التصاقاً أفضل للطلاء فى الأجزاء التى تعرضت لإفراط فى الشىّ، حفّ ألف ومئتى دمية بورق الزجاج سيكون ذروة الصبر، وبانتهاء هذه العملية، واصلت مارتا القراءة، يتوجب إزالة كل أثر للغبار الناتج عن الحف باستخدام آلة هواء مضغوط، فقاطعها سيبريانو ألجور، **لا** توجد لدينا ضاغطة هواء، وتابعت مارتا، **أو** باستخدام فرشاة قاسية، وهى عملية أبطأ ولكنها أفضل، **مازال** للأساليب القديمة فائدتها، **ليس** دائماً، صححت مارتا ثم واصلت القراءة، **ومثلما** يحدث مع كافة أنواع الطلاء تقريباً، فإن طلاء الخزف لا يظل متجانساً فى العلب لوقت طويل، ولهذا يتوجب تحريكه قبل استخدامه، **مسألة** أولية، الجميع يعرفونها، واصلى، يمكن استخدام الألوان مباشرة

www.ibtesamh.com/vb

على القطعة، غير أن ثباتها يتحسن إذا ما بُدئ بطلاء طبقة تحتية تكون عادة باللون الأبيض غير اللامع، لم نفكر فى هذا الأمر، من الصعب التفكير فى أمر غير معروف، لا أتفق معك فى الرأى، فالمرء يفكر تحديداً لأنه لا يعرف، دع هذه المسألة المؤثرة إلى وقت آخر، واستمع إلىّ، أنا لا أفعل شيئاً آخر، طبقة الأساس التحتية يمكن إنجازها بالفرشاة، غير أنه قد تكون هناك فائدة فى استخدام مسدس البخ للحصول على طبقة أساس أكثر نعومة، لا يوجد لدينا مسدس بخ، أو بطريقة التغطيس، هذه هى الطريقة التقليدية، الطريقة المستخدمة منذ الأزل، وبالتالى سنلجأ إلى التغطيس، العملية كلها ستجرى على البارد، حسن جداً، وبعد طلاء القطعة وجفافها، لا يجب ولا يمكن إخضاعها لأى نوع من الشىّ، هذا ما كنت أقوله لكِ، ففيه توفير للوقت، مازالت هناك توصيات أخرى، لكن أهمها هو وجوب أن يجف اللون تماماً قبل استخدام اللون التالى، إلا فى حالة السعى على تأثيرات تركيب أو مزج، لا نريد تأثيرات ولا شفافيات، نريد سرعة، فهذه ليست لوحات زيتية، ولكن جلباب موظف المندرين الصينى يستحق على أى حال معالجة أكثر دقة، ذكّرته ماريا، وانظر كيف أن التصميم نفسه يجبرنا على تنويع الألوان وزيادة غناها، فلنبسّط. أقفلت هذه الكلمة الجدال، ولكنها ظلت ماثلة فى روح سيبريانو ألجور وهو يقوم بالمشتريات، والدليل على ذلك أنه اقتنى فى اللحظة

www.ibtesamh.com/vb

الأخيرة مسدساً للبخ. بالنظر على حجم الدمى، فإن سماكة طبقة الأساس لن تؤثر عليها، أوضح فيما بعد لابنته، وأظن أن المسدس سيكون أكثر نفعاً، رشه فى ما حول الدمية وينتهى الأمر، **سنحتاج** إلى أقنعة، قالت مارتا، الأقنعة غالية الثمن، وليس لدينا نقود لمثل هذا الترف، ليس ترفاً، بل احتياطًا، لأننا سنتنفس وسط سحابة من الأكاسيد، **يوجد** علاج لهذه الصعوبة، **ما** هو، **سأنجز** هذا الجزء من العمل فى الخارج، فى الهواء الطلق، فالطقس الآن مستقر، **لماذا** تقول «سأنجز» وليس سننجز، سألته مارتا، أنتِ حامل، وأنا لست كذلك، فليكن هذا معلوماً لديك، **لقد** عاد إليك طيب المزاج أيها السيد الوالد، أفعلُ ما أستطيعه، أدرك أن هناك أموراً فلتت من اليدين، وأموراً أخرى تهدد بأن تفلت، ومشكلتى هى فى تمييز تلك من أجل هذه التى مازال ثمة ما يستحق النضال فى سبيلها قبل أن تغادرنى دون أسى، **أو** بأسى، أسوأ أسى يا بنتى ليس ما نشعر به فى لحظته، وإنما ما نشعر به فيما بعد، عندما لا يكون ثمة علاج، **يقال** إن الزمن يشفى كل شىء، **نحن** لا نعيش طويلاً للتأكد من ذلك، قال سيبريانو ألجور، وانتبه فى اللحظة نفسها إلى أنه يعمل على الدولاب الذى ماتت عليه زوجته عندما صعقتها السكتة القلبية. عندئذ سأل نفسه مدفوعاً بنزاهته الأخلاقية، إذا ما كانت ضمن الأحزان العامة التى يتكلم عنها توجد كذلك تلك المِيتة، أم أن الزمن قد أنجز، فى هذه الحالة

www.ibtesamh.com/vb

الخاصة، مهمته كمعالج متقاعد، أم أن الحزن المذكور، فوق ذلك، ليس حزن الموت بقدر ما هو حزن الحياة، حزن الحياة، حياتك، حياتى، حياتنا، حياة أى شخص. كان سيبريانو ألجور يقولب دمية الممرضة، وكانت مارتا مشغولة بدمية المهرج، ولكن أياً منهما لم يكن راضياً عن المحاولات، ربما لأن الاستنساخ فى نهاية المطاف أصعب من الخلق الحر، هذا ما يمكن أن يقوله على الأقل سيبريانو ألجور الذى كان، بكثير من الهمة والتلقائية فى الحركات، قد صاغ تصوره لشكلى الرجل والمرأة اللذين هناك، ملفوفين بقماش رطب كيلا تجففهما وتشققهما الروح التى تبقيهما منتصبين، ساكنين، ولكنهما حيان مع ذلك. لن ينتهى جهد مارتا وسيبريانو ألجور هذا بسرعة، فجزء من الصلصال الذى يقولبون منه الآن دمية يأتى من دمى أخرى كان عليهما إهمالها وإعادة عجنها، وهذا ما يحدث لكل الأشياء فى الدنيا، حتى الكلمات نفسها، وهى ليست أشياء، وإنما تُحدّد الأشياء على أحسن وجه تستطيعه، وبينما هى تحددها تقوم بقولبتها، وحتى تلك الكلمات التى أفادت بصورة مثالية، على افتراض أن ذلك يمكن له أن يحدث فى مناسبة ما، إنما استُخدمت ملايين المرات واستبعدت مثلها من المرات، وأخيراً يكون علينا نحن، بمذلة، وذيلنا بين ساقينا، مثل الكلب لقية عندما يجعله الخجل يتكور على نفسه، أن نذهب للبحث عنها من جديد، إنها هى أيضاً طين مداس بالأقدام، معجون ومعلوك، مبتلع

www.ibtesamh.com/vb

ومعاد ترميمه، فالعود الأبدى موجود، أجل يا سيدى، ولكنه ليس ثابتاً، بل متحولاً. المهرج الذى قولبته مارتا ربما يكون نافعاً، والبلهول أيضاً قريب جداً من البهاليل الحقيقيين، ولكن الممرضة التى تبدو بسيطة جداً، شديدة الصرامة، بالغة الترتيب، تقاوم السماح بإظهار حجم نهديها تحت الصلصال، كما لو أنها هى أيضاً ملفوفة بقطعة قماش مبللة تكبح بها بقوة بروز الرءوس المدببة. حين كان أسبوع الخلق الأول على وشك الانتهاء، وحين انتقل سيبريانو ألجور إلى أسبوع التدمير الأول بحمل الخزف من مستودعات المركز وتركه فى العراء كزبالة بلا نفع، كانت أصابع صانعىّ الخزف، وهى أصابع حرة ومنضبطة فى الآن ذاته، قد بدأت أخيراً بابتكار السبيل ورسمِ الطريق المستقيم الذى سيقودهما إلى الحجم المناسب، إلى الخط المضبوط، إلى المخطط المتناسق. اللحظات لا تصل متأخرة أو متقدمة أبداً، إنها تصل فى موعدها، وليس فى موعدنا، ولا يتوجب أن نشكرها على التوافق، عندما يحدث، بين ما تنويه وما نحتاج إليه. خلال نصف النهار الذى يقضيه الأب فى المهمة العبثية بإفراغ بضاعة بلا فائدة كان قد حمّلها باعتبارها مرفوضة. تكون مارتا وحدها فى مشغل الخزف مع نصف دزينتها من الدمى الناجزة عملياً، مشغولة الآن فى إضفاء حيوية على زاوية وتدوير انحناءة ما أضفت عليها لمسة غير إرادية شيئاً من الانحطاط، وتساوى ارتفاع القامات، وتعزز القواعد،

www.ibtesamh.com/vb

وتقدر فى الموقع المناسب فى كل دمية لخط تقسيم قطعتى قالبها. لم يكن النجار قد سلّم العلب بعد، والجبس ينتظر فى أكياسه الكبيرة التى من ورق سميك مشمع، غير أن موعد التكاثر كان يقترب.

عندما رجع سيبريانو ألجور إلى البيت فى اليوم الأول من أسبوع التدمير، وهو ساخط من سخرية الوضع أكثر من استنفاد قواه فى الجهد، جاء ليروى لابنته المغامرة المضحكة لرجل يجوب البرارى بحثاً عن مكان مقفر يمكنه أن يتخلص فيه من الأوانى الخزفية غير النافعة التى ينقلها، كما لو أنه يريد التخلص من برازه، **كـ**من يمسك بنطاله بيده، قال، هذا ما كنت أشعر به، وقد فاجأنى أشخاص مرتين ليسألونى عما أفعله هناك، فى أرض خاصة، بشاحنة محملة بالخزف، وكان علىّ أن أولف تفسيراً بلا معنى، فقلت إننى كنت بحاجة إلى الوصول إلى طريق فى الجهة الأخرى وفكرت فى أنه يمكن لى الوصول إليه من هناك، وأن يعذرونى، رجاء، وبما أننا التقينا فإننى سأكون سعيداً جداً، إذا ما أعجبهما شىء من حمولة الشاحنة، بأن أهديهما إياه، لم يرغب أحدهما فى أى شىء، وأجاب بعجرفة أنه لا يريد فى بيته مثل هذه الأشياء حتى للكلاب، أما الآخر فأعجبه إناء حساء وأخذه، وأين تركت الخزف فى النهاية، بالقرب من النهر، أين بالضبط، كنتُ قد فكرت فى أن حفرة طبيعية ستكون أكثر الأمكنة ملاءمة، ولكن حتى فى هذه الحالة ستكون موجودة هناك تحت أنظار من

www.ibtesamh.com/vb

يمر، مكشوفة، وسيعرفون على الفور المُنتَج وصانعه، ومن أجل العار والسخرية لدينا ما هو كافٍ، أنا شخصياً لا أشعر بأننى محط أى تهكم أو عار، ربما كنت ستشعرين بذلك لو أنكِ كنت مكانى منذ البداية، هذا محتمل، أجل، وما الذى وجدته أخيراً، لقد وجدتُ المغارة المثالية بالضبط، وهل توجد مغارات مثالية، سألته مارتا، ذلك يعتمد على الدوام على ما سيوضع فيها، وتخيلى فى هذه الحالة حفرة كبيرة، شبه دائرية، عمقها حوالى ثلاثة أمتار، ويمكن النزول إليها من منحدر سهل المسلك، مع وجود أشجار وشجيرات فيها، تبدو للناظر من الخارج مثل جزيرة خضراء وسط البريّة، وفى الشتاء تمتلئ بالماء، ومازالت فيها بركة راكدة فى قاعها، إنها على بُعد حوالى مئة متر عن النهر، أنتِ تعرفينها أيضاً؟ سأل الأب، أعرفها، اكتشفتها عندما كنت فى العاشرة، وقد كانت المغارة المثالية بالفعل، ففى كل مرة كنت أدخل هناك، كان يبدو لى أننى أجتاز بوابة إلى العالم الآخر، لقد ذهبتُ إليها حين كنت فى مثل سنك تلك، وعندما كان جدى فى هذه السن، وجدى أنا أيضاً، كل شىء ينتهى إلى الضياع يا أبتاه، فطوال سنوات كانت تلك المغارة مجرد مغارة، وكانت كذلك بوابة سحرية فى نظر بعض الأطفال الحالمين، والآن، مع تراكم الأنقاض فيها، لم تعد لا هذا ولا ذاك، ليس الحطام كبيراً إلى هذا الحد يا امرأة، وخلال وقت قصير سيغطيه العُلَّيق البرىّ، ولن يلحظه أحد، وهل

www.ibtesamh.com/vb

تركتَ الكمية كلها هناك، أجل، تركتها هناك، إنها قريبة من القرية على الأقل، وإذا كان الأطفال لا يزالون يترددون على المغارة المثالية، فسيأتى أحدهم ذات يوم إلى بيته ومعه طبق مشروخ، وسيسألونه أين عثر عليه، وسينطلق الجميع عندئذ راكضين للحصول على ما لا يريدونه الآن، إننا مخلوقون هكذا، ولن أستغرب ذلك. أنهى سيبريانو ألجور فنجان القهوة الذى وضعته ابنته أمامه عند وصوله، وسأل، **هل** جاء أى شىء من النجار، **لا**، أجابت ابنته، **لا** بد أن أذهب للإلحاح عليه، أظن الأمر كذلك، لأنها أفضل طريقة. نهض الخزاف واقفاً، **سـ**أذهب للاغتسال، قال ذلك ومشى خطوتين ثم توقف وسأل، **مـا** هذا، أى شىء تعنى، **هـذا**، قال مشيراً إلىَ طبق مغطى بفوطة مطرزة، **هـذا** كعك، وهل صنعتِ كعكاً، **لـم** أصنعه أنا، بل جاءونا به، إنه هدية، **هـدية** ممن، احزر، **لـستُ** فى مزاج مناسب للأحاجى، **ولكنها** واحدة من أسهل الأحاجى. هز سيبريانو ألجور كتفيه كأنه يؤكد أنه تجاهل الموضوع، وقال مرة أخرى إنه ذاهب للاغتسال، ولكنه لم يحسم أمره، لم يخطُ الخطوة التى تجعله يخرج من المطبخ، وكانت تدور فى رأسه مناظرة بين خزافين اثنين، أحدهما يحتج بأنه من واجبنا التصرف بعفوية فى ظروف الحياة كلها، فإذا كان هناك شخص لطيف إلى حدّ إحضار كعك مغطى بفوطة مطرزة إلى البيت، فإنه من المناسب والطبيعى السؤال عمن يكون صاحب ذلك الكرم غير

www.ibtesamh.com/vb

المتوقع، وإذا ما جاءنا الرد على شكل أحجية، فإن تظاهرنا بعدم السماع سيكون أكثر من مريب، ومثل هذه الألعاب الصغيرة فى الأسرة والمجتمع ليست كبيرة الأهمية، لأن أحداً لن يستغرق فى استخلاص استنتاجات متسرعة من واقع أننا أصبنا فى معرفة الجواب، لاسيما أن الأشخاص الذين لديهم الدافع لإرضائنا ببعض الكعك لا يمكن أن يكونوا كثيرين، وقد يكونون شخصاً واحداً فى بعض الأحيان، هذا ما كان يقوله أحد الخزافين، ولكن الآخر يردّ بأنه ليس مستعداً لتولى دور المتواطئ فى أحجيات تهريج زائفة، وأن الإصابة فى معرفة اسم الشخص الذى جاء بالكعك هو السبب بالضبط فى عدم النطق به، ثم إن أسوأ الاستنتاجات، فى بعض الحالات على الأقل، ليس فى كونها متسرعة ، وإنما فى كونها، بكل بساطة، استنتاجات وحسب. أنتَ لا تريد أن تحزر إذاً، ألحت مارتا مبتسمة، وسيبريانو ألجور المستاء قليلاً من ابنته وكثيراً من نفسه، إنما المدرك أن الطريقة الوحيدة للهرب من الحفرة التى أدخل نفسه بنفسه فيها هى فى الاعتراف بالفشل والقيام بالتراجع، قال بجفاء خالطاً الاسم بكلمات، إنها الأرملة، الجارة إساورا إستوديوسا، لتشكرنا على الإبريق. نفت ذلك مارتا بحركة بطيئة من رأسها، اسمها ليس إساورا إستوديوسا، قالت مصححة، بل إساورا مادروجا، آه، حسن، قال سيبريانو ألجور، وفكر فى أنه لن يحتاج إلى سؤال صاحبة الشأن، هذا هو إذاً اسمها وهى

www.ibtesamh.com/vb

عازبة، ولكنه ذكّر نفسه على الفور بأنه كان، وهو جالس على المقعد الحجرى بجانب الفرن، وبحضور الكلب لقية كشاهد، قد اتخذ القرار بأن يعتبر خاطئة وباطلة كل الأقوال والأحداث التى قيلت وجرت بينه وبين الأرملة إستوديوسا، ويجب ألا ننسى أن الكلمات التى نطق بها بالضبط هى لقد انتهى الأمر، ومن غير المعقول الإجهاز بمثل هذه الطريقة الجازمة على واقعة من الحياة العاطفية والعودة بعد يومين إلى اعتبار أن ما قيل لم يُقل. وكان التأثير المباشر لهذه التأملات أن اتخذ سيبريانو ألجور هيئة الترفع، وتمكن بهذه القناعة من الاقتراب، ورفع الفوطة دون أن ترتعش يده، مظهره يبدو جيداً، قال. وفى تلك اللحظة أدركت مارتا أن الفرصة مواتية لأن تضيف، إنه ذكرى وداع بطريقة ما. نزلت اليد ببطء، وتركت الفوطة تهوى برفق فوق الكعك على شكل تاج دائرى، وسمعته مارتا يقول، وداع، فأجابت، أجل، إذا هى لم تجد عملاً هنا، عمل، قال، إنكَ تردد كلماتى نفسها يا أبتى، لستُ صدى لأى كان، ولست أكرر كلماتك. لم تولِ مارتا اهتماماً لجوابه وقالت، تناولنا القهوة معاً، وأردتُ أن أقسم الكعك لكنها لم تسمح بذلك، ظلت هنا أكثر من ساعة تتحدث إلىّ، أخبرتنى شيئاً عن حياتها، عن قصة زواجها، لم يُتح لها الوقت لتعرف إذا ما كانت تلك سعادة أم أنها لم تعد كذلك، هذه الكلمات لها وليست كلماتى، وباختصار، إذا هى لم تجد عملاً فسوف تعود إلى المكان الذى جاءت منه

www.ibtesamh.com/vb

حيث أسرتها، **هنا** لا يوجد عمل لأحد، قال سيبريانو ألجور بجفاء، **هذا** هو أيضاً ما تعتقده هى، ولهذا فإن الكعك هو أشبه بالنصف الأول من وداع، آمل ألا أكون فى البيت عندما يحين موعد النصف الثانى، **لماذا**، سألته مارتا. لم يجب سيبريانو ألجور على السؤال. خرج من المطبخ باتجاه غرفة النوم، تعرى بسرعة، وألقى بطرف عينه نظرة إلى مرآة الخزانة التى تُظهر جسده كاملاً واندس فى الحمام. فتح الصنبور. اختلط قليل من الماء المالح بالماء العذب الذى ينزل من الدُش.

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

بإجماعٍ يستحق التقدير ويبعث على الطمأنينة حول معنى الكلمة، تُعَرِّف المعاجمُ كلها المضحكَ بأنه كل ما يبدو جديراً بالضحك والهزل، كل ما يستثير السخرية، كل ما هو استهزائى، كل ما يرتبط بما هو كوميدى. ويبدو أن الظروف المحيطة لا وجود لها فى نظر المعاجم، وإن كانت مطالبة إجبارياً بتوضيح ما كنهها، فتسمى تلك الظروف بالحالة أو الخصوصية التى ترافق حدثاً ما، وهذا يوجهنا بوضوح، نقول ذلك بين قوسين، إلى عدم فصل الأحداث عن ظروفها وعدم الحكم على أحدهما دون الموازنة مع الآخر. فليكن إذاً مضحكاً بتفوق هذا السيبريانو ألجور الذى يُنهك نفسه بنزول منحدر المغارة حاملاً بين ذراعيه الخزف غير المرغوب بدل أن يلقى به بسرعة من فوق بكل بساطة، محولاً إياه إلى كومة من الحطام، مثلما صنفها بازدراء وهو يصف لابنته إجراءات ووقائع عملية النقل المنهكة. ومع ذلك، ليس هناك حدود لما هو مضحك. فإذا ما حدث، مثلما افترضت مارتا، وتمكن أحد صبية الضيعة من إنقاذ طبق مشروخ من

www.ibtesamh.com/vb

الكومة وأخذه إلى البيت، فبإمكاننا القول بثقة إن ذلك العطب قد حدث فى المستودع، أو ربما يكون قد حدث من اصطدام قطع الفخار بعضها ببعض، وهو أمر لا يمكن تجنبه خلال النقل من المركز إلى المغارة، بسبب عدم استواء الطريق. تكفى رؤية الحذر الذى ينزل به سيبريانو ألجور المنحدر، وبأى اهتمام يضع على الأرض مختلف قطع الخزف، وكيف ينضدها كل واحدة إلى جانب أختها، وكيف يشابك بينها عندما يكون ذلك ممكناً ونافعاً، تكفى رؤية المشهد الاستهزائى الذى يظهر أمام عيوننا للتأكد من أنه لم ينكسر هنا طبق واحد، ولم يفقد فنجان واحد يده، ولم يفقد أى إبريق منقاره، الخزف المنضد يغطى فى صفوف منتظمة المنعطف المختار من الأرض، ويحيط بجذوع الأشجار، ويلمع تحت النباتات القصيرة، كما لو أنه مكتوب فى أحد الكتب العظيمة أنه بهذه الطريقة وحدها يجب أن تبقى مرتبة حتى استنفاد الزمان والانبعاث غير المحتمل للرفات. قد يقال إن تصرف سيبريانو ألجور مضحك بالمطلق، ولكن سيكون من المستحسن، حتى فى هذه الحالة، ألا ننسى الأهمية الحاسمة لوجهة النظر، ونحن نشير فى هذه المرة إلى مرسيال جاتشو، خلال زيارته إلى البيت فى يوم عطلته، وتنفيذاً لما يُعتبر عادة واجبات أساسية فى التضامن الأسرى، لم يكتف بمساعدة حميه فى تفريغ الخزف، بل عمد أيضاً، دون أن يبدى أى استغراب أو حيرة متشككة، ودون أسئلة مباشرة أو مداورة، ودون نظرات ساخرة أو مشفقة، عمد إلى مجاراة حميه

www.ibtesamh.com/vb

باطمئنان، وبلغ به الأمر، بمبادرة خاصة منه، حدّ ضبط عدم توازن خطر، وتصويب عيب فى أحد صفوف الأوانى، وتقليص ارتفاعها المفرط. وبالتالى فإنه من الطبيعى أن ننتظر، إذا ما كررت مارتا تلك الكلمة المزدرية وغير الموفقة التى استخدمتها فى الحديث مع أبيها، أن يقوم زوجها بالتصحيح لها، مستنداً إلى السلطة غير القابلة للطعن لمن رأى بعينيه ما يجب رؤيته، إنها ليست أنقاضاً، وإذا ما ألحت هى، وقد صرنا نعرفها كشخصية تحتاج فى كل أمر إلى تفسير ووضوح، وأصرت على القول بلى يا سيدى إنها أنقاض، فهذه هى التسمية التى تُطلق منذ الأزل على الفضلات والمواد غير النافعة التى يُلقى بها فى المنخفضات حتى ملئها، تستثنى من هذا التخصيص الفضلات البشرية التى لها تسمية أخرى، فالمؤكد أن مرسيال سيقول لها بصوته الجدّىّ، ليست فضلات، أنا كنتُ هناك. ولسوف يضيف، إذا ما حدث ذلك، وليست مضحكة.

عندما دخلوا إلى البيت كان هناك أمران جديدان. فقد سلّم النجار العلب أخيراً، وقرأت مارتا فى كتابها أنه، فى حالة ملء القوالب بوسيلة السكب السائل، فلن يكون بالإمكان إنجاز أكثر من أربعين نسخة مقبولة من كل قالب، فقال سيبريانو ألجور، هذا يعنى أننا نحتاج إلى ثلاثين قالباً على الأقل، خمسة قوالب لكل مئتى دمية، سيكون لدينا عمل كثير سابق وعمل كثير تال، ولستُ واثقاً من أن القوالب ستكون

www.ibtesamh.com/vb

متقنة، بسبب عدم خبرتنا فى هذا الشأن، متى ستنتهى حسب تقديرك من سحب الخزف كله من مستودع المركز، سألته مارتا، أظن أننى لن أحتاج إلى الأسبوع الثانى كله، ربما سيكون يومان أو ثلاثة أيام كافية، هذا الذى نحن فيه هو الأسبوع الثانى، صحح مرسيال، أجل، إنه الأسبوع الثانى من الأسابيع الأربعة، ولكنه الأول فى نقل الخزف، والأسبوع الثالث سيكون الثانى فى صنع الدمى، أوضحت مارتا، بكل هذا الاختلاط فى أسابيع نعم وأسابيع لا، لن أستغرب رؤيتكما، أنتِ وأباك مشوشان بعض الشىء، لكل منا أسبابه، فأنا مثلاً حبلى ولم أعتد على الفكرة حتى الآن، وماذا عن الأب، يمكن للأب أن يتكلم عن نفسه إذا شاء، فقاطعها سيبريانو ألجور، لستُ أعانى تشوشاً أسوأ من اضطرارى إلى صنع ألف ومئتى دمية من الصلصال دون أن أدرى إذا ما كنت سأتمكن من إنجازها. كانت الدمى الست فى مشغل الخزف تبدو وهى مصفوفة على اللوح الخشبى مثلما هى عليه من دراماتيكية بالفعل، ستة أشياء تافهة، بعضها أكثر فظاظة من بعض فى ما تمثله، ولكنها جميعها متشابهة فى عدم جدواها المؤلمة. وكيما يتمكن الزوج من رؤيتها، كانت مارتا قد نزعت عنها قطع القماش المبللة التى تلفها، ولكنها أحست بما يشبه الندم لإقدامها على ذلك، فقد بدا أن تلك الكركوزات البليدة لا تستحق الجهد الذى بُذل فيها، ذلك التشكيل وإعادة التشكيل، الصنع والإتلاف، وتلك الإرادة وعدم القدرة، وذلك التجريب والترقيع، ليس

www.ibtesamh.com/vb

صحيحاً أن الأعمال الفنية الكبرى وحدها هى التى تولد من المعاناة والشك، بل إن جسداً بسيطاً أيضاً وأعضاء بسيطة من الصلصال يمكن لها أن تقاوم الانقياد للأصابع التى تقولبها، والعيون التى تستجوبها، والمشيئة التى تطلبها. **سـ**أطلب فى مناسبة أخرى أن يمنحونى إجازة، ويمكن لى أن أساعد فى شىء ما، قال مرسيال. وبالرغم من أن الجملة بدت كاملة فى صياغتها، إلا أنها كانت تتضمن استطالات إشكالية لا يحتاج سيبريانو ألجور إلى ذكرها كى يدركها. فما أراد مرسيال قوله، وانتهى إلى قوله دون النطق به، هو أنه فى حالة انتظار ترقية متوقعة إلى هذا الحد أو ذاك إلى مرتبة حارس مقيم، ولن يكون رؤساؤه راضين عن غيابه فى إجازة، وبالتحديد فى مثل هذا الوقت، كما لو أن الخبر الشائع عن إمكانية ترقيته فى الوظيفة لا يعدو كونه حدثاً تافهاً، وعادى الأهمية. ومع ذلك، فقد كانت هذه الاستطالة، بصورة جلية ومؤكدة، هى الأقل إشكالية بين بقية الاستطالات الأخرى الموجودة. فالمسألة الأساسية، والكامنة بصورة لا إرادية وراء الكلمات التى قالها مرسيال، مازالت تتمثل بالقلق على مستقبل مشغل الخزف، والعمل الذى يقوم به والأشخاص الذين ينجزونه وعاشوا منه، حياة أفضل أو أسوأ، حتى الآن. فتلك الدمى الست أشبه بست إشارات استفهام ساخرة ولجوجة، كل منها يريد أن يعرف من سيبريانو ألجور إذا ما كان واثقاً جداً من ظنه فى أنه يمتلك، وإلى متى يا سيدى العزيز، القوة اللازمة لأن

www.ibtesamh.com/vb

يدير بمفرده المشغل عندما تذهب ابنته وصهره للعيش فى المركز، وإذا ما كان ساذجاً إلى حد الظن بأنه سيتمكن من تلبية الطلبيات التالية بانتظام مقبول، فى حال شاءت العناية الإلهية أن تأتيه تلك الطلبيات، وأخيراً، إذا ما كان أحمق إلى حد تخيل أن علاقاته من الآن فصاعداً مع المركز ومع مدير قسم المشتريات، سواء علاقاته التجارية أم الشخصية، ستكون بحراً متواصلاً ودائماً من الزهور، وسألت دمية رجل الإسكيمو بدقة منزعجة وارتيابية مريرة، وهل تظن أنت أنهم سيحبوننى دوماً. وكان فى هذه اللحظة بالذات أن مرت ذكرى إساورا مادروجا فى ذهن سيبريانو ألجور، فكر فيها كموظفة تساعده فى أعمال مشغل الخزف، وترافقه إلى المركز جالسة إلى جانبه فى الشاحنة، فكر فيها فى أوضاع مختلفة، وفى كل مرة أكثر حميمية وتهدئة، يتناولان الغداء معاً على المائدة نفسها، ويتبادلان الحديث على المقعد الحجرى، ويقدمان الطعام للكلب لقية، ويلتقطان ثمار شجرة التوت، ويشعلان المصباح الذى فوق الباب، ويزيحان جانباً ملاءات السرير، إنها أفكار كثيرة بلا شك وبالغة المجازفة بالنسبة لمن لم يشأ حتى مجرد تذوق الكعك. من الواضح أن كلمات مرسيال لم تكن تستدعى جواباً، ولم تكن سوى تأكيد لواقع معروف بجلاء لهم جميعاً، وهى أشبه بقوله بكل بساطة، أرغب فى مساعدتكما، ولكن ذلك غير ممكن. ومع ذلك، فقد ظن سيبريانو ألجور أنه عليه أن يقدم تفسيراً لجزء من الأفكار التى شغل بها الصمت الذى تلا ما

www.ibtesamh.com/vb

قاله مرسيال، ليس الأفكار الحميمة، فهذه يستبقيها حبيسة فى الصندوق المصفح لكبريائه المؤثر كعجوز، وإنما تلك الأفكار التى هى مشتركة، بطريقة أو بأخرى، بين من يعيشون فى هذا البيت، سواء اعترفوا بها أم لم يعترفوا، والتى يمكن اختصارها بأكثر قليلاً من نصف دستة من الكلمات، ما الذى تراه يخبئه لنا الغد. وقال، الأمر كما لو أننا نمشى فى الظلام، يمكن للخطوة التالية أن تكون للتقدم أو للسقوط، سنبدأ بمعرفة ما ينتظرنا عندما تُعرض الطلبية الأولى للبيع، وبدءًا من هناك نستطيع وضع حسابات الوقت التى سنحتاج إليه، إذا ما كان طويلاً أو قصيراً، أو لا شىء، وهذا أشبه بمن ينتزع بتلات زهرة أقحوان ليرى ما الذى ستقوله له، **الـ**حياة ليست مختلفة كثيراً عن ذلك، فقالت مارتا، **إنها** غير مختلفة، ولكن ما اعتدنا على لعبه طوال سنوات، علينا أن نلعبه الآن خلال أسابيع أو أيام، لقد انقطع المستقبل فجأة، وإذا لم أكن مخطئاً فإننى قد قلت شيئاً مشابهاً من قبل. توقف سيبريانو ألجور قليلاً، ثم أضاف وهو يهز كتفيه، **وهذا** دليل على أنها الحقيقة الخالصة، فقالت مارتا، بحزم أو نفاد صبر، **لا** يوجد أمامنا سوى أحد طريقين، إما أن نعمل مثلما كنا نعمل حتى الآن، دون أن نشغل تفكيرنا بأكثر مما يتطلبه الإنهاء الجيد للعمل، وإما إلغاء كل شىء وإخبار المركز بأننا عدلنا عن قبول الطلبية، ونظل **ن**نتظر، ننتظر ماذا، سألها مرسيال، أن تأتى ترقيتك، وأن ننتقل إلى المركز، وأن يحسم أبى مرة واحدة إن كان يريد البقاء

www.ibtesamh.com/vb

أو الذهاب معنا، أما ما لا يمكننا عمله فهو البقاء على هذه الحال من نعم ولكن لا، والتى قد تستمر لأسابيع، فقال سيبريانو ألجور، وبكلمات أخرى، ألا يموت الأب ولا نأكل المرق، أعذر قولك هذا لأننى أعرف ما الذى يجول فى رأسك، لا تغضبا، أرجوكما، طلب منهما مرسيال، فلدى ما يكفى من المرارة مما يتوجب علىّ تحمله من أهلى، اطمئن، ولا تقلق، قال له سيبريانو ألجور، فبين زوجتك وبينى لا يمكن حدوث استياء حقيقى، حتى لو بدا لعيون البعض أنه كذلك، لا، لا يمكن أن يحدث، مع أننى أشعر أحياناً بالرغبة فى ضربك، هددت مارتا مبتسمة وأضافت، وانتبها إلى أن الأمر سيكون أسوأ منذ الآن، عليكما توخى الحذر، فقد قيل لى إن النساء الحوامل يتعرضن لتبدلات مزاج مفاجئة، ويتوحمن، وتنتابهن النزوات، والتدلل، ونوبات بكاء، وسوء الطبع، فاستعدا لما هو آت، أنا قانع ومستسلم سلفاً، قال مرسيال، وتوجه إلى سيبريانو ألجور، وماذا عنك يا أبتاه، استسلامى أنا أقدم بسنوات طويلة، منذ يوم مولدها، أخيراً، السلطة كلها للنساء، فارتجفوا أيها الذكور، ارتجفوا وخافوا، هتفت ماريا. لم يجار صانع الخزف هذه المرة نبرة ابنته المرحة، فقد تكلم من قبل بجد وهدوء كما لو أنه ينتقى واحدة فواحدة الكلمات التى ظلت فى الخلف، فى المكان الذى جرى التفكير فيها وإنضاجها، لا، فهذه الكلمات لم يجر التفكير فيها، ولم تكن بحاجة للنضج، بل برزت فى تلك اللحظة بالذات من روحه مثل جذور صعدت فجأة إلى سطح الأرض، العمل

www.ibtesamh.com/vb

سيتواصل بصورة عادية، قال، سأنجز تعهداتنا بقدر ما أستطيع، دون مزيد من الشكوى أو الاعتراض، وعندما يتم ترقية مرسيال سأفكر فى الوضع، **س**ستفكر فى الوضع، سألته مارتا، ما الذى يعنيه هذا، إذا ما رأيتُ عدم إمكانية مواصلة العمل فى مشغل الخزف، فسوف أغلقه وأتوقف عن تموين المركز، **ح**سن جداً، وممَ ستعيش بعد ذلك، وأين، وكيف، ومع من، اغتاظت مارتا، **س**أرافق ابنتى وصهرى للعيش فى المركز، إذا كانا لا يزالان راغبين فى أن أكون معهما. كان لتصريح سيبريانو ألجور المفاجئ والحاسم تأثير مختلف على الابنة والصهر. فقد هتف مرسيال، **أخ**يراً، وعانق حماه بقوة، **لا** يمكنك تصور السعادة التى تمنحنى إياها، قال، لقد كانت شوكة مغروسة فى أعماقى. وكانت مارتا تنظر إلى أبيها نظرة ارتياب فى أول الأمر، كمن لم تصدق ما سمعته، ولكن وجهها راح يشع بالتفهم شيئاً فشيئاً، لقد كان عمل الذاكرة الخدوم يحمل إلى ذاكرتها بعض العبارات الشعبية الشائعة، وبعض بقايا القراءات الكلاسيكية، وبعض الصور المبتذلة، صحيح أنها لم تتذكر كل ما يمكن تذكره، من أمثال، إحراق السفن، قطع الجسور، القطع بسلام، البتر المباشر، قطع الحبال، قطع الشر من جذوره، من يخسر العشرة يكون قد خسر الخمسة، رجل ضائع لا يحتاج إلى نصائح، التخلى قبل بلوغ الهدف، إنها فجة بلا نفع، عصفور فى اليد خير من عشرة محلقة، هذه العبارات وكثير غيرها، وكلها من أجل قول شىء واحد

www.ibtesamh.com/vb

فقط، **مـا** لا أريده هو ما لا أستطيعه، وما لا أستطيعه هو ما لا أريده. اقتربت مارتا من أبيها، ومرت بيدها على وجهه بحركة شديدة البطء والرقة، حركة أمومية تقريباً، **سـيكون** ذلك هو الأفضل، إن كان هذا ما ترغب فيه حقاً، دمدمت، ولم تُبد ارتياحاً أكبر من القليل الذى يمكن لتلك الكلمات الفقيرة، شديدة الابتذال، أن تعبر عنه، ولكنها كانت واثقة من أن أباها سيدرك أنها لم تخترها بدافع عدم المبالاة، وإنما بدافع الاحترام. وضع سيبريانو ألجور يده على كتفى ابنته، ثم جذبها نحوه، وطبع قبلة على جبهتها، وبصوت خافت، نطق الكلمة المقتضبة التى ترغب فى سماعها وقراءتها فى عينيه، **شـكراً**. مرسيال لم يسأل عنى «**شـكراً**» له، لأنه تعلم منذ زمن بعيد أن الميدان الذى يتحرك فيه هذا الأب وهذه الابنة هو ـ أكثر من كونه أُسريّاً ـ مقدس وبعيد المنال بطريقة ما. لم يراوده شعور بالغيرة، وإنما فقط غمّ من يعرف أنه مُستبعد نهائياً، ليس من هذا الميدان الذى لا يمكن له أن ينتمى إليه أبداً، وإنما من ميدان آخر، إذا ما كانا هناك فيه، أو إذا ما استطاع هو ذات مرة أن يكون فيه معهما، فسوف يجد أباه وأمه الخاصين ويتعرف عليهما أخيراً. واكتشف نفسه يفكر، دون مفاجأة كبيرة، أنه بالنظر إلى أن حماه قد قرر العيش فى المركز، فإن فكرة أبويه فى بيع بيت القرية والانتقال معه صارت مستبعدة نهائياً، مهما كلفهما ذلك ومهما احتجا، لأن هناك، فى المقام الأول، قاعدة صارمة فى المركز محددة ومفروضة فى تعليمات السكن الداخلى

www.ibtesamh.com/vb

بعدم قبول أسر كبيرة العدد، وفى المقام الثانى، لأن الانعدام الدائم لأية علاقة تفاهم بين أفراد الأسرتين، يجعل من السهل تصور الجحيم الذى ستتحول إليه حياتهم إذا ما وجدوا أنفسهم مجتمعين فى حيز ضيق. وعلى الرغم من بعض المواقف وبعض حالات التفريج عن النفس التى يمكن لها أن تقود إلى آراء مناقضة، فإن مرسيال لا يستحق أن نعتبره ابناً عاقاً، فالمسئولية فى عدم توافق المشاعر والمشيئة فى أسرته لا تقع على عاتقه وحده، ومع ذلك، وفى إثبات جديد آخر لمدى كون الروح البشرية بئراً موبوءة بالتناقضات، نجده سعيداً؛ لأنه غير مضطر إلى العيش فى البيت نفسه مع اللذين منحاه الحياة. وحيث إن مارتا حبلى الآن، عسى ألا يؤكد القدر المجهول فيها وفيه ذلك الحكم القديم الذى يُرتل بصرامة، أبن أنت وأباً ستكون، ومثلما تفعل سيفعلون بك. من الصحيح تماماً أن الطبيعة العميقة للابن، بطريقة أو بأخرى، وبنوع من الانتحاء الحتمى، تدفع الأبناء إلى البحث عن آباء بدلاء لأسباب طيبة أو خبيثة، ولمسوغات عادلة أو جائرة، فى كل مرة لا يستطيعون أو لا يريدون أو لا يعرفون التعرف على أنفسهم فى آبائهم الحقيقيين. والحقيقة أن الحياة، برغم كل عيوبها، تحب التوازن، ولو أن الأمر بيدها هى وحدها لسعت لأن يكون اللون الذهبى على الدوام فوق اللون الأزرق، وأن يكون لكل تقعر نظيره المحدب، وألا يكون هناك وداع بلا وصول، وأن تتصرف الكلمة والإيماءة والنظرة كتوائم لا يمكن الفصل بينها، تقول

www.ibtesamh.com/vb

الشيء نفسه فى كل الظروف. تتخذ مسارات لا يمكننا التعرف على أنفسنا فى تنامى تفاصيلها ولا نكون قادرين ولا مؤهلين، ولكن لدينا يقينًا مطلقًا بوجودها وبجوهر فضيلتها التواصلية، كما فى جوهر فضائلنا التواصلية، كان مجموع الملاحظات التى توالت متفرقة هو ما ولّد فكرة عند مرسيال جاتشو، نُقلت على الفور إلى الحمى بسعادة بنيوية ظاهرة، **من** الممكن إحضار ما تبقى من الخزف دفعة واحدة، قال، فاعترض سيبريانو ألجور، **أنت** لا تعرف كم هى الكمية المتبقية، أظن أنه مازال هناك ما يملأ الشاحنة الصغيرة عدة مرات، **أنا** لا أتحدث عن شاحنة صغيرة، ما أعنيه هو أن الخزف لا يمكن أن يكون كثيراً بحيث لا يمكن لشاحنة عادية أن تحل المسألة فى حمولة واحدة، **و**من أين سنأتى بهذه الشاحنة الكبيرة الرائعة، سألته مارتا، **نستأجرها**، أجابها، **سيكون** أجرها غالياً جداً، ولست أملك ما يكفى من المال، قال صانع الخزف، غير أن الأمل أحدث رعشة فى صوته، **يوم** واحد سيكون كافياً لإنجاز هذا العمل، وإذا ما جمعنا نقودنا، ما لدينا وما لديك، فإننى واثق من أننا سنتوصل إلى ذلك، وحيث إننى حارس داخلى، فربما سيقدمون لى حسماً، ولن نخسر شيئاً إذا ما حاولنا، رجل واحد للتحميل والتفريغ، لا أعرف إن كنتُ قادراً على ذلك، فأنا لم أعد أكاد أستطيع تحريك ذراعى وساقىّ، **لن** تكون وحدك، سأذهب معك، قال مرسيال، **لن** أوافق على ذلك، فقد يتعرفون عليك، وسيكون الأمر سيئاً بالنسبة إليك، **لا** أظن بوجود أى

www.ibtesamh.com/vb

خطر، فأنا لم أذهب إلى قسم المشتريات سوى مرة واحدة، وإذا ما وضعتُ نظارة سوداء وقبعة على رأسى يمكن لى أن أتحول إلى أى شخص، **الـ**فكرة جيدة، جيدة جداً، قالت مارتا، ويمكن لنا بذلك التفرغ لصنع الدمى، **هـ**ذا هو ما أفكر فيه، قال مرسيال، **و**أنا أيضاً، اعترف سيبريانو ألجور. ظلوا يتبادلون النظرات صامتين، باسمين، إلى أن سأل صانع الخزف، **مـ**تى، وردّ مرسيال، **غـ**داً بالذات، سنستغل يوم عطلتى، ولن تتوفر فرصة أخرى إلا بعد عشرة أيام، وعندئذ لن يكون هناك ما يستحق العناء، **غـ**داً، كرر سيبريانو ألجور، وهذا يعنى أننا سنتمكن من البدء فى العمل بجد، **و**هو كذلك، قال مرسيال، وسنكسب بذلك أسبوعاً تقريباً، **لـ**قد منحتنى روحاً جديدة، قال الخزاف، ثم سأله، **كـ**يف سنفعل ذلك، فهنا فى القرية لا أظن أنه توجد شاحنات كبيرة للتأجير، **سـ**نستأجرها فى المدينة، سنخرج فى الصباح كى يتاح لنا الوقت لاختيار أفضل سعر ممكن، أُدرك أن الخروج باكراً سيكون ملائماً، قالت مارتا، ولكننى أظن أنه عليك تناول الغداء مع أبويك. ففى المرة الأخيرة لم تذهب، ولا بد أنهما مستاءان. تشنج مرسيال، **لـ**ستُ أرغب فى الذهاب، وفوق ذلك، قال متوجهاً إلى حميه، فى أية ساعة يتوجب عليك أن تكون فى المستودع، الساعة الرابعة، أترين، تناول الغداء مع أبوى، والذهاب بعد ذلك إلى المدينة، مع كل الطريق إلى هناك، واستئجار الشاحنة والوصول فى الساعة الرابعة لسحب الخزف، لن يتسع لنا الوقت،

www.ibtesamh.com/vb

قل لأبويك إنك مضطر لتناول الغداء باكراً، وحتى فى هذه الحالة لن يتسع الوقت، ثم إننى غير راغب فى الذهاب، سأذهب فى الإجازة القادمة، اتصل هاتفياً بأمك على الأقل، سأتصل بها، ولكن لا تستغربى إذا ما عادت لتسألنى متى سننتقل. ترك سيبريانو ألجور ابنته وصهره يتجادلان فى مسألة غداء آل جاتشو الأسرى الخطيرة واقترب من الرف الذى تصطف عليه الدمى. وبحذر شديد نزع عنها قطع القماش المبللة، تأملها باهتمام، واحدة فواحدة، إنها لا تحتاج إلا إلى بعض اللمسات الخفيفة فى الرءوس والوجوه، وأجزاء من الأجساد، لكون الدمى صغيرة الحجم، طولها لا يزيد إلا قليلاً على الشبر، أصابها التشقق الحتمى بفعل ضغط القماش عليها، ستتولى مارتا إعادتها كأنها جديدة، وستبقى مكشوفة بعد ذلك، دون غطاء، كى تتخلص من الرطوبة قبل إدخالها إلى الفرن. وجابت جسد سيبريانو ألجور المتعب رعشة سعادة، كان يشعر كما لو أنه يبدأ أشد الأعمال صعوبة ودقة فى حياته كخزاف، الشواء المغامر لقطعة بالغة القيمة الفنية قولبها فنان عظيم لا يهمه أن تقلل من عبقريته حتى الظروف غير المضمونة لهذا المكان البائس، ولأن الكلام يدور عن القطعة الفنية، وكذلك عن الفنان، فلا يمكنه القبول بالنتائج المدمرة التى تنتج عن تبدل فى درجة الحرارة، سواء بسبب الإفراط أو النقص. المسألة هنا فى الواقع، بلا تعظيم ولا درامية، هى فى حمل نصف دستة من الدمى التافهة إلى الفرن وطهيها كى تنتج كل

www.ibtesamh.com/vb

واحدة منها مئتى نسخة تافهة، وسيكون هناك من يقول إننا جميعنا نولد بقدرمحسوب، ولكن الظاهر للعيان هو أن البعض فقط يأتون إلى هذا العالم كى يصنعوا من الصلصال آدمات وحواءات أو ليُكَثِّروا الخبز والسمك. كانت مارتا ومرسيال قد خرجا من مشغل الفخار، هى من أجل إعداد العشاء، وهو كى يعمق العلاقات التى بدأها مع الكلب لقية الذى، وإن كان لا يزال يرفض أن يتقبل دون احتجاج وجود زى عسكرى فى الأسرة، يبدو مستعداً لاتخاذ موقف تنازل ضمنى مادام ذلك الزى يُستبدل، فور الوصول، بأية ملابس ذات مظهر مدنى، حديثة أو قديمة، جديدة أو عتيقة، نظيفة أو متسخة، لا فرق فى ذلك. سيبريانو ألجور صار وحيداً الآن فى المشغل. اختبر وهو ساه متانة إحدى العلب الخشبية، نقل كيس جبس من مكانه، دون حاجة إلى ذلك، وكما لو أن المصادفة، وليست المشيئة، هى التى قادت خطاه، ووجد نفسه أمام الشكلين اللذين قولبهما، الرجل والمرأة. وخلال ثوان قليلة تحول الرجل إلى كتلة صلصال عديمة الشكل. وربما كان يمكن للمرأة أن تنجو لو لم يرن فى مسمع سيبريانو ألجور منذ الآن السؤال الذى ستوجهه إليه مارتا فى الغد، لماذا، لماذا الرجل وليس المرأة، لماذا أحدهما وليس الاثنين. عُجن صلصال المرأة فوق صلصال الرجل، إنهما قطعة صلصال واحدة مرة أخرى.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

انتهى الفصل الأول من العرض المسرحى، وجرى سحب ديكورات المشهد، والممثلون يستريحون من جهود التمجيد الإلهى. لم تبق فى مستودعات المركز قطعة واحدة من خزف مشغل آل ألجور، ربما بقى بعض الغبار الأحمر المبعثر على الرفوف، ولن يكون من نافل القول التذكير بأن تماسك المواد ليس أبدياً، طالما أن ملامسة أصابع الزمن المتواصلة وغير المرئية تُبلى حتى المرمر والجرانيت، فكيف لا تفعل ذلك بمجرد صلصال ذى تركيب غير مضمون وشىٍّ ربما يكون مخالفاً للأصول. لم يتعرفوا على مرسيال جاتشو فى قسم المشتريات، وهذه نتيجة مؤكدة للقبعة والنظارة السوداء، ولكنها نتيجة الذقن غير الحليقة أيضاً التى تركها عمداً لتأكيد فعالية التنكر الحامى، إذ أن أهم الصفات التى تميز أى حارس فى المركز تتضمن حلاقة الذقن المتقنة. وعلى كل حال، لم يفت معاون مدير القسم الاستغراب من التحسن المفاجئ فى سيارة الشحن، وهو موقف منطقى من شخص سمح لنفسه أكثر من مرة من قبل بالابتسام بسخرية

www.ibtesamh.com/vb

لمرأى الشاحنة الصغيرة العتيقة، غير أن المفاجئ كان، وهذه هى أدنى تسمية فى الظروف الحالية، إطلالة السخط التى لم يكد يكبحها والتى صعدت إلى نظرته وتقطيب وجهه عندما أخبره سيبريانو ألجور بأنهم مستعدون لسحب كل ما تبقى من البضاعة، **كـ**لها، سأله، **كـ**لها، أجاب صانع الخزف، فقد أحضرت شاحنة كبيرة ومساعداً. وإذا كان سيخصص لمعاون مدير القسم ذى المزاج المعكر هذا مستقبل أكبر فى الرواية التى نرويها، لكان بإمكاننا دون شك أن نطلب منه فى أحد هذه الأيام أن يكشف لنا عن أعماق مشاعره فى تلك المناسبة، أى السبب الأخير لضيقه - وهو ضيق غير منطقى بكل تأكيد - الذى لم يشأ إخفاءه أو لم يستطع إخفاءه. وربما سيعمد عندئذ إلى خداعنا بالقول، على سبيل المثال، إنه اعتاد على زيارات سيبريانو ألجور اليومية وإنه - وإن كان لا يستطيع أن يقسم، احتراماً للحقيقة، إنهما صديقان - صار يشعر تجاهه بشىء من التعاطف، وخاصة بسبب الوضع المهنى غير الموفق الذى صار إليه هذا الشيطان البائس. تزييف من أوقح الأنواع وأشدها جلاء، لأننا إذا ما تحولنا من الاهتمام بما هو سطحى إلى الحفر فى ما هو أعمق، فإننا سنلحظ أن ما يشى بحنق معاون مدير القسم هو الإحباط من رؤيته كيف تفلت من يديه المتعة الخبيثة التى يجدها من يستمتعون بهزيمة الآخرين حتى عندما لا تكون لهم أية منفعة فى ذلك. وبذريعة أنهم سيحتاجون لساعات من أجل إنجاز العمل وبأنهم يعرقلون إفراغ شحنات بضائع

www.ibtesamh.com/vb

أخرى، حاول الرجل السيئ جداً أن يمنع تحميل الشاحنة، غير أن سيبريانو ألجور حاصره، مثلما يقال عادة بفصاحة، بين السيف والجدار، إذ سأله من سيتحمل مسئولية نفقات استئجار السيارة الشاحنة فى حال عدم إنهاء العمل، وطالب بسجل الشكاوى، وكضربة نهائية ويائسة، أكد أنه لن يخرج من هناك دون أن يتكلم إلى رئيس القسم. ومن المعروف فى مراجع علم النفس التطبيقى الأولية، فصل السلوك، أن الأشخاص سيئى الطباع يكونون فى أحيان كثيرة جبناء، ولهذا يجب ألا نُفَاجأ بأن الخوف من أن يتعرض لتأنيب رئيسه الأعلى أمام الملأ دفع معاون رئيس القسم إلى تغيير موقفه بين لحظة وأخرى. أفلت من فمه عبارة متغطرسة ليشفى غليل غيظه وانسحب إلى أقصى عمق المستودع، ولم يعد للظهور إلا عندما غادرت الشاحنة القبو أخيراً وهى محملة. لم يحتفِ سيبريانو ألجور ولا جاتشو بالنصر، لا عملياً ولا مجازياً، فقد كانا متعبين إلى حدّ لا يمكن لهما معه تبديد النَّفَس القليل المتبقى لديهما فى عبارة استهزاء وتهنئات، واقتصر أكبرهما على القول، *سيمرمر* حياتنا عندما نأتى بالبضاعة، سوف يتفحص الدمى بعدسة مكبرة وسيرفضها بالعشرات، وردّ أصغرهما بأن ذلك قد يحدث، ولكنه غير مؤكد، وأن رئيس القسم هو من يتولى الموضوع، وقد نجونا من هذه اليوم يا أبتاه، وسنرى ما سيحدث فى المسألة الأخرى، فلا بد للحياة من أن تكون على هذا النحو، عندما يفقد الحماسة شخص، يمسك الآخر بأحشائه

www.ibtesamh.com/vb

ويجعل منها قلباً. كانا قد أوقفا شاحنتهما الصغيرة عند ناصية شارع قريب، وستظل هناك إلى أن يعودا من إفراغ حمولة الخزف الأخيرة فى المنخفض القريب من النهر، وبعد ذلك سيعيدان الشاحنة الكبيرة المستأجرة إلى الجراج، وأخيراً وبعد أن يكونا مستنفدى القوى، أقرب إلى الموت منهما إلى الحياة، أحدهما لأنه فقد فى ردهات المركز الملساء عادة بذل الجهد العضلى الصحية، والآخر بسبب مساوئ التقدم فى السن المعروفة، سيصلان إلى البيت، حين يكون المساء آخذاً بالانتهاء. وسينزل الكلب لقية إلى الطريق لاستقبالهما وهو يقوم بدوره بالقفزات والنطات الخاصة بشرطه ككلب، وستكون مارتا بالانتظار عند الباب. ولسوف تسأل، **هل** حُلّ الأمر، هل انتهى كل شىء، وسوف يردان عليها بنعم، لقد انتهى كل شىء، وسيفكر الثلاثة بعد ذلك، أو سيشعرون، إذا ما كان هناك تناقض بين الشعور والتفكير، بأن هذا الفصل الذى انتهى هو نفسه الذى يُنتظر البدء به بفارغ الصبر، وأن الفصول الأول والثانى والثالث، سواء أكانت مهاماً أم حيوات، إنما هى قطعة واحدة على الدوام. صحيح أن بعض الديكورات قد سُحبت من منصة، ولكن الصلصال الذى ستصنع منه الديكورات الجديدة هو صلصال الأمس نفسه، وعندما يستيقظ الممثلون، غداً، من حلم الكواليس، سيضعون القدم اليمنى أمام الموضع الذى خلّفوا فيه أثر القدم اليسرى، ثم يضعون اليسرى أمام اليمنى، وأياً يكن ما سيفعلونه، فإنهم لن يخرجوا عن الطريق. وعلى الرغم

www.ibtesamh.com/vb

من إنهاك مرسيال وتعبه، فإنه سيكرر مع مارتا، كما لو أنها المرة الأولى أيضاً، إيماءات، وحركات، وأنين، وتنهدات الحب. وكذلك الكلمات. وسوف ينام سيبريانو ألجور بلا أحلام فى فراشه. وفى الصباح الباكر، كما هى العادة، سيُوصل صهره إلى العمل. وربما سيخطر له وهو فى طريق العودة أن يمر على المنخفض القريب من النهر، دون أى مبرر خاص، وحتى دون فضول، فهو يعرف معرفة تامة ما تُرك هناك، ولكنه على الرغم من ذلك كله قد يقترب من حافة المغارة، وإذا ما فعل ذلك فسوف ينظر إلى أسفل، وعندئذ سيتساءل إن كان يتوجب عليه أن يقطع بعض أغصان الشجر كى يغطى الخزف بصورة أفضل، وهذا يعطى فكرة عن أنه لا يريد لأحد آخر أن يعرف ما الأشياء الموجودة هناك، وأنه يريدها أن تظل هكذا، مختفية، محفوظة، حتى اليوم الذى تعود فيه لتصير ضرورية من جديد، آه، كم هو صعب انفصالنا عما صنعناه، سواء أكان شيئاً أو حلماً، لاسيما عندما نكون قد دمرناه بأيدينا بالذات.

سسأنظف الفرن، قال سيبريانو ألجور عند الوصول إلى البيت. تجربة الكلب لقية السابقة دفعته إلى التفكير فى أن صاحبه سيجلس مرة أخرى على مقعد التأملات، فالمسكين مازال يمضى بروح مشوشة بالمتناقضات، الحياة تمضى معه على خلاف ما ينبغى، وفى هذه المناسبات تكون الحاجة إلى الكلاب أكبر، فهى تأتى وتقبع أمامنا وفى عينيها السؤال المؤكد، أتريد مساعدة، وحيث إنه من الصحيح، لأول وهلة،

www.ibtesamh.com/vb

آنه لا يكون فى متناول يد أحد هذه الحيوانات معالجة تلك الحالات من المعاناة، والغم، وغيرها من الكروب البشرية، فقد يحدث أن يكون السبب كامناً فى واقع أننا غير قادرين على فهم ما هو أبعد أو أقرب من بشريتنا، كما لو أن الكروب الأخرى فى العالم لا يمكن أن تكتسب واقعية ملموسة إلا إذا قسناها بمعاييرنا الخاصة، أو بكلمات أبسط، كما لو أن ما هو بشرى هو وحده الموجود. لم يجلس سيبريانو ألجور على المقعد الحجرى، مرّ بجانبه، وبعد ذلك حرك المزاليج الحديدية السميكة الثلاثة المثبتة فى ثلاثة مستويات مختلفة، فوق، وفى الوسط، وتحت، ثم فتح باب الفرن بصرير حاد من المفصلات. بعد انقضاء الأيام الأولى من التفحص الحسىّ التى أشبعت الفضول المباشر لمن وصل للتو إلى مكان جديد، لم يعد فى الفرن ما يشدّ انتباه الكلب لقية. فهو بناء قديم وفظ الصنعة، له باب طويل وضيق، والهدف منه مجهول، ولا يعيش فيه أحد، إنه بناء فى جزئه العلوى ثلاثة أشياء كأنها مداخن، ولكنها ليست كذلك بالتأكيد، إذ لم تخرج منها قط أية رائحة طعام محفزة. وزيادة فى حيرته، هاهو ذا الباب ينفتح الآن ويدخل السيد برغبة كما لو أن ذلك المكان هو بيته أيضاً، مثل البيت الآخر الذى هناك. يتوجب على أى كلب، بدافع الحذر والمبدأ، أن ينبح حيال كل المفاجآت التى تواجهه فى حياته، لأنه لا يستطيع أن يعرف مسبقاً إذا ما كانت الطيبة منها ستتحول إلى خبيثة أو إذا ما كانت الخبيثة ستتخلى عن كونها ما كانت عليه،

www.ibtesamh.com/vb

ولهذا نبح لقية ونبح، أولاً بقلق عندما بدا أن هيئة السيد تنطفئ فى آخر عتمة الفرن، ونبح بعد ذلك سعيداً برؤيته يعود للظهور كاملاً وبملامح متبدلة، إنها معجزات الحب الصغيرة. عندما عاد سيبريانو ألجور للدخول إلى الفرن، وهو يمسك المكنسة الآن، لم يقلق لقية، فأى سيد، إذا ما أمعنا النظر، هو مثل الشمس والقمر، يتوجب علينا أن نكون صبورين حين يختفى، وانتظار مرور الوقت، ولا يمكن لكلب أن يقول إذا ما كان الوقت قصيراً أو طويلاً، لأنه لا يميز الفرق فى المدة بين الساعة والأسبوع، بين الشهر والسنة، فلا وجود بالنسبة لحيوان من هذا النوع إلا للحضور أو الغياب. وخلال تنظيف الفرن، لم يحاول لقية الدخول، انتحى جانباً كيلا يسقط عليه مطر الجزيئات الصغيرة من فتات الصلصال المشوى، وقطع الخزف المكسر الذى تدفعه المكنسة إلى الخارج، وقد استلقى طوال ما احتاجه ذلك ورأسه مستقر بين قائمتيه. كان يبدو غير عابئ بشىء، وشبه نائم تقريباً، غير أنه كان يمكن لأقل الخبيرين بمعرفة النزوات الكلبية أن يدرك، من مجرد الطريقة المواربة التى كان يفتح بها الكلب عينيه ويطبقهما بين حين وآخر، أن لقية كان ينتظر وحسب. وبانتهاء عملية التنظيف، خرج سيبريانو ألجور من الفرن وتوجه نحو مشغل الخزف. وبينما هو فى مجال الرؤية، لم يتحرك الكلب من مكانه، ثم نهض بعد ذلك ببطء، وتقدم وهو يمط رقبته حتى مدخل الفرن ونظر. إنه بيت غريب وخاوٍ، ذو سقف مقبب، بلا أثاث ولا زينات، مبطن

www.ibtesamh.com/vb

بمكعبات متوازية السطوح ضاربة إلى البياض، لكن أكثر ما أثر فى أنف الكلب لقية هو الجفاف الغريب فى الجو المنتشر داخلاً وكذلك اللذعة الشديدة للرائحة الوحيدة التى تُشم، نفحة نهائية وأخيرة من تكلس غير متناه، وعسى ألا يفاجئكم التناقض العابق بين نهائية وغير متناه، إذ إن ما نتحدث عنه لم يكن أحاسيس بشرية، وإنما هى ما يمكن لنا تصوره بشرياً حول ما يشعر به كلب عند دخوله أول مرة إلى فرن خزف فارغ. وعلى العكس مما يمكن توقعه بالطبع، لم يترك لقية المكان الجديد مُعَلّماً ببوله. صحيح أنه بدأ بالانصياع لما تأمره به الغريزة، وصحيح أنه وصل إلى حدّ رفع قائمته بصورة متوعدة، ولكنه كبح نفسه، توقف فى اللحظة الأخيرة والحاسمة، من يدرى إذا ما فعل ذلك خائفاً من الصمت المنجمى المحيط به، من خشونة البناء الفظة، من لون الأرضية والجدارين الشبحى والضارب إلى البياض، ومن يدرى إذا ما ارتاب ببساطة بأن السيد قد يستخدم العنف ضده إذا ما وجد بقعة بول شنيعة توسخ المملكة، البلاط، قبة النار، البوتقة التى يحلم فيها الصلصال كل مرة فى أنه سيتحول إلى الألماس. وبفرو ظهره المنفوش، وذيله بين قائمتيه كما لو أنه يأتى مطروداً من بعيد، خرج الكلب لقية من الفرن. لم يرَ أحداً من أسياده، كان البيت والحقل كأنهما مهجوران، وشجرة التوت، بتأثير زاوية سقوط الشمس، بدت كما لو أنها تعكس ظلاً غريباً يتجرجر على الأرض كأنه آت من شجرة مختلفة. وخلافاً للاعتقاد الشائع عموماً، فإن الكلاب،

www.ibtesamh.com/vb

مهما أحيطت بالعناية والتدليل، لا تعيش حياة سهلة، والسبب فى المقام الأول، أنها لم تتمكن حتى اليوم من التوصل إلى فهم مُرضٍ بأدنى الحدود للعالم الذى جىء بها إليه، وفى المقام الثانى لأن هذه الصعوبة تتزايد باضطراد بسبب تناقضات وعدم استقرار سلوك الكائنات البشرية التى تشاطرها - إذا صح هذا القول - البيت والطعام وحتى الفراش فى بعض الأحيان. لقد اختفى السيد، ولم تظهر السيدة، والكلب لقية يُفرج عن الكآبة وعن كبح مثانته على المقعد الحجرى الذى لا ينفع فى أى شىء آخر سوى التأمل. فى هذه اللحظة خرج سيبريانو ألجور ومارتا من مشغل الخزف. ركض لقية نحوهما، فى لحظات مثل هذه يراوده الشعور بأنه سيفهم أخيراً كل شىء، ولكن الانطباع لا يستمر، إنه لا يستمر فى أى وقت، فالسيد يصيح به صيحة مدوية، اخرج من هنا، وتصرخ السيدة مذعورة، اهدأ. من الذى يمكن له أن يفهم فى أحد الأيام هؤلاء الناس، ولن يتأخر الكلب لقية فى الانتباه إلى أن السيدين يملكان هناك فى الداخل بعض الدمى الطينية الموضوعة بتوازن قلق على رفين صغيرين، ثلاث دمى لكل منهما على كل رف، ولنتصور الكارثة التى ستقع لو أنهم لم يكبحوا اندفاعى فى الوقت المناسب. يتواجه المتوازنون على رفوف التجفيف الطويلة التى هى منذ أسابيع عارية من الأطباق، والجفنات، والفناجين، والصحون الصغيرة، والزبديات، والأباريق، والجرار الصغيرة، والزهريات وغيرها من أوانى البيت والحديقة. هذه

www.ibtesamh.com/vb

الدمى الست التى تبقى معرضة للهواء كى تجف. محمية بظل شجرة التوت، ولكن الشمس تصلها أحياناً وهى تطل وتتحرك بين الأوراق، إنما هى الحرس المتقدم من عمل جديد، فمئات الدمى المماثلة فى كتائب متراصة ستملأ الرفوف العريضة، ألف ومئتا دمية، مئتان مكرورة ست مرات، وفق الحسابات التى أُجريت فى حينها، ولكن الحسابات كانت خاطئة، فسعادة الانتصار ليست بالناصح الجيد على الدوام، ويبدو أن هذين الخزَّافين، على الرغم من ثلاثة أجيال من الخبرة، قد نسيا أنه لا بد من الاحتياط دوماً، ذلك أن المقص نفسه يأكل شيئاً من القماش الذى يقصه، وأنه لا بد من هامش فقدان وخسارة، فهناك ما يسقط وينكسر، ما يتشوه، ما ينكمش إلى هذا الحد أو ذاك، ما يفتته الحر لأن القطعة سيئة الصنع، ما يخرج غير مشوى جيداً لخلل فى دوران الهواء الساخن، وإلى هذا كله يضاف ما له علاقة مباشرة باحتمالات الحدوث المادية لعمل فيه الكثير من الفن الكيميائى، وهو مثلما نعرف ليس بالعلم الدقيق، وإلى هذا كله، مثلما قلنا، لا بد أن نضيف الفحص الصارم الذى يفرضه المركز، كالعادة، على كل واحدة من القطع، والأدهى مع معاون مدير القسم ذاك الذى يبدو أنه نوى الشر. لم يرد إلى ذهن سيبريانو ألجور سوى هذين التهديدين، المؤكد والكامن، بينما هو يكنس الفرن، وهذا هو الجيد فى تداعى الأفكار، بعضها تأتى ساحبة غيرها، بلا عناء، والبراعة هى فى عدم السماح بقطع خيط الأفكار، فى فهم أن

www.ibtesamh.com/vb

كسرة خزف على أرض ليست مجرد حاضرها ككسرة على الأرض، بل هى أيضاً ماضيها عندما لم تكن كذلك، وهى أيضاً مستقبلها الذى لا يُعرف ما الذى ستصير إليه.

يُحكى أنه فى أزمنة قديمة كان هناك إلهٌ قرر أن يقولب إنساناً من تراب الأرض التى خلقها قبلاً، وأنه بعد ذلك، من أجل أن يمنحه التنفس أو الحياة، نفخ فى أنفه. بعض النفوس المتمادية فى غيّها والناكرة تشير بحذر، عندما لا تعلن بصخب فضائحى، أن ذلك الإله، بعد عملية الخلق السامية تلك، لم يعد قط إلى الاهتمام بفنون الفخار والصلصال، وهى طريقة ملتوية، بكل بساطة، لاستنكار تخليه عن العمل. والمسألة، بالرغم من الأهمية الكبرى التى تكتسبها، هى جدية بما يكفى لأن لا نعالجها بصورة تبسيطية، إنها تتطلب توازناً والكثير من الحيادية، وكثيرًا من الروح الموضوعية. وكمعلومة تاريخية، لم يعد عمل القولبة منذ ذلك اليوم التاريخى صفة تقتصر على الخالق، وانتقلت المنافسة المستجدة إلى المخلوقات التى - ولا بد من المعذرة لقول ذلك - ليست مزودة بنَفَس كاف. وكانت النتيجة هى تكليف النار بمسئولية كل الأعمال الإضافية التى يمكنها تقديمها، وفى المحصلة، سواء من حيث اللون أم البريق، وحتى من حيث الصوت، كان هناك شبه معقول بشىء حى لدى خروج صنيعتهم من الأفران. إنه حكم على المظاهر. النار تحقق الكثير، وهذا أمر لا وجود لمن ينكره، ولكنها لا تستطيع تحقيق كل شىء، لديها محدودية

www.ibtesamh.com/vb

جدية، بل وبعض العيوب الخطيرة، ومنها على سبيل المثال، معاناتها من جوع بقرى لا يعرف الشبع يقودها إلى التهام كل ما تجده أمامها وتحويله إلى رماد. وبالعودة إلى المسألة التى تهمنا، مشغل الخزف وعمله، فإننا جميعنا نعرف أن صلصالاً رطباً يُدخَل فى فرن هو صلصال سيتفتت فى زمن أقصر مما هو مقدر له. هناك شرط أول ولا رجوع عنه تفرضه النار، إذا ما أردنا منها أن تفعل ما ننتظر منها فعله، أن يدخل الصلصال جافاً وجافاً جداً إلى الفرن. وهنا نعود صاغرين إلى النفخة فى الأنف، وهنا يكون علينا أن نعترف إلى أى حدّ كنا ظالمين ومتهورين عندما جعلنا من أنفسنا عرابى الفكرة الكافرة وتبنينا أن الإله المذكور قد أولى ظهره، غير مبالٍ، لصينعته. أجل، صحيح أن أحداً لم يعد لرؤية ذلك الإله بعد ذلك، ولكنه خلّف لنا ربما أفضل ما فيه: النفخة، الهواء، الريح، النسيم، الصبا، هذه التى تدخل الآن بنعومة من مناخير دمى الصلصال الست التى انتهى سيبريانو ألجور وابنته من وضعها للتو، بكل عناية، فوق أحد ألواح التجفيف. والإله المذكور كاتب أيضاً، فضلاً عن كونه صانع فخار، فهو يعرف أن يكتب مستقيماً فى سطور مائلة، ولأنه لم يكن هنا كى ينفخ شخصياً، فقد أرسل من يقوم بالعمل باسمه، وكل ذلك كيلا تنتهى حياة هؤلاء الصلصال إلى الانطفاء غداً فى عناق النار الأعمى والفظ. وقولنا غداً هو مجرد طريقة للكلام، لأنه إذا كان صحيحاً أن نفخة واحدة كانت كافية فى البدء كى يكتسب صلصال الإنسان النَّفس

www.ibtesamh.com/vb

والحياة، فسوف تكون كثيرة النفخات اللازمة لهؤلاء البهاليل، والمهرجين، والآشوريين الملتحين، وموظفى المندرين الصينيين، ورجال الإسكيمو، والممرضات، هؤلاء الموجودون هنا وأولئك الذين سيصطفون فى صفوف منتظمة على هذه الألواح الخشبية، من أجل أن يتبخر منهم، شيئاً فشيئاً، الماء الذى من دونه ما كان لهم أن يتوصلوا إلى أن يكونوا ما هم عليه، ويصبح بإمكانهم الدخول واثقين إلى الفرن ليتحولوا إلى ذاك الذى سيكون عليهم أن يصيروا إليه. انتصب الكلب لقية على قائمتيه الخلفيتين وأسند الأماميتين على حافة اللوح الخشبى كى يرى عن قرب أكثر تلك الكركوزات الست المصطفة أمامه. تشمم مرة، مرتين، ثم فقد اهتمامه بها، ولكن ليس فى الوقت المناسب لتفادى الصفعة القوية والمؤلمة التى وجهها السيد إلى رأسه، ولا لتكرار الكلمات القاسية التى كان قد سمعها من قبل، أخرج من هنا، كيف يمكن له أن يوضح أنه لم يكن ينوى إلحاق أى أذى بالدمى، وأنه أراد فقط أن يراها بصورة أفضل وأن يشمها، ولم يكن من العدل أن تضربنى لأمر بهذه التفاهة، يبدو أنكَ لا تعرف أن الكلاب لا تستخدم عيون وجهها فقط لتحرى العالم الخارجى، فالأنف هو أشبه بعين متمِّمة ترى ما تشمه، ولحسن الحظ أن المرأة لم تصرخ هى الأخرى اهدأ، لحسن الحظ أنه يجد على الدوام أحداً قادراً على فهم مبررات الآخرين، بمن فى ذلك أولئك الذين لم تتوصل قدرات ألسنتهم إلى تقديم التفسيرات، بسبب بكم طبيعى، أو عدم كفاية

www.ibtesamh.com/vb

المفردات. لم تكن ثمة حاجة لأن تضربه يا أبتاه، فهو يبدى الفضول وحسب، قالت مارتا. ومن شبه المؤكد أن سيبريانو ألجور نفسه لم يكن يرغب فى إلحاق الأذى بالكلب، وقد صدر عنه ذلك الفعل بقوة الغريزة التى لم تفقدها الكائنات البشر بعد، خلافاً للتفكير الشائع عموماً، وليست قريبة من فقدانها. فالغريزية تتعايش جنباً إلى جنب مع الذكاء، ولكنها أسرع منه بصورة غير متناهية، ولهذا يجد الذكاء المسكين نفسه مضحكاً فى أحيان كثيرة، وأنه مزدرى فى مناسبات كثيرة، وهذا ما حدث فى هذه الحالة، كان ردّ فعل الخزاف خوفاً من رؤية تخريب ما كلفه الكثير من الجهد بالطريقة نفسها التى تتصرف فيها اللبؤة بجزع حين ترى وليدها فى خطر. ليس كل الخالقين يغفلون عن مخلوقاتهم، سواء أكانت أشبالاً أم دمى، ليسوا جميعهم ينصرفون ويخلفون مكانهم تقلبات نسمة تنفخ بين حين وآخر، كما لو أننا لسنا بحاجة إلى ضرورة النمو هذه، بالذهاب إلى الفرن، بمعرفة من نحن. استدعى سيبريانو ألجور الكلب، تعال هنا يا لقية، تعال إلى هنا. لا وجود عملياً لمن هو قادر على فهم هذه الكائنات، يضربون وفى الحال يأتون ليداعبوا من ضربوه، يُضربون فى الحال يذهبون لتقبيل اليد التى ضربتهم، من المحتمل أن هذا كله ليس إلا نتيجة المشاكل التى تعرضنا لها منذ بداية الأزمة البعيدة جداً، كيما نتفاهم فيما بيننا، نحن الكلاب، نحن البشر. لقد نسى لقية الصفعة التى تلقاها، أما السيد، والسيد يمتلك ذاكرة، فسينساها

www.ibtesamh.com/vb

غداً أو بعد ساعة، ولكنه لا يستطيع نسيانها فى هذه اللحظة، ففى مثل هذه الحالات تكون الذاكرة مثل ضربة شمس آنية فى الشبكية تخلّف حرقة سطحية، شيئاً خفيفاً، لا أهمية له، ولكنه يزعج خلال بقائه، وأفضل ما يمكن فعله هو استدعاء الكلب، القول له، تعال هنا يا لقية، والكلب سيذهب، إنه يذهب دائماً، وإذا كان يلحس اليد التى تداعبه فلأنها طريقة التقبيل عند الكلاب، وخلال وقت قصير ستختفى الحرقة، وتصبح الرؤية طبيعية، وكأن شيئاً لم يحدث.

قدّر سيبريانو ألجور كمية الحطب ووجد أنها قليلة. لقد كان يرضى نفسه على امتداد سنوات طويلة بفكرة أنه ستحين الساعة التى يتوجب فيها تقويض فرن الحطب القديم ليقام مكانه فرن جديد، من الأفران الحديثة، تلك التى تعمل بالغاز، والقادرة على تقديم درجات حرارة عالية جداً، وسريعة التسخين وذات نتائج باهرة فى عمليات الطهو. ومع ذلك، كان يحدس فى أعماق نفسه أن ذلك لن يحدث أبداً، وذلك فى المقام الأول بسبب المال الكثير الذى يتطلبه بناء فرن، وهى أموال ليست فى متناول يده، ولكن لأسباب أخرى أيضاً أقل مادية، مثل معرفته المسبقة بأنه سيحزنه تدمير ذاك الذى كان جده قد بناه وقام أبوه بعد ذلك بتحسينه، فتدميره له سيكون كأنه يمحوهما، بمعنى خاص، إلى الأبد عن سطح الأرض، ذلك أن الفرن موجود على سطح الأرض تحديداً. ولديه فوق ذلك سبب آخر، يعترف به أقل، ويلخصه فى خمس كلمات، لقد صرت عجوزاً على

www.ibtesamh.com/vb

ذلك، ولكن فرناً جديداً يستدعى موضوعياً استخدام أجهزة لقياس درجات الحرارة، وأنابيب، ووسائط أمان، وحرَّاقات، وهذا يعنى تقنيات أخرى واهتمامات أخرى. ولا يبقى بالتالى من مخرج سوى مواصلة العمل فى الفرن القديم الذى يُغذى بالطريقة القديمة، بحطب، وحطب، وحطب، وربما كان هذا هو أصعب ما يجب تحمله فى أشغال الصلصال. فكما هى الحال فى موقد قاطرات البخار القديمة التى يتوجب قضاء الوقت فى إلقاء رفوش من الفحم عبر فوهة الموقد، يوجب على الخزاف، أو على الأقل سيبريانو ألجور، غير القادر على دفع أجرة مساعد له، أن ينهك نفسه لساعات فى دس الوقود القديم داخل الفرن، تفرعات أغصان تلفها النار وتلتهمها خلال برهة، وأغصان يأخذ اللهب بعضها ويلعقها شيئاً فشيئاً إلى أن يفتتها إلى جمار، والجيد هو عندما نستطيع تدليل النار بصنوبر ونشارة، فهى تشتعل ببطء أكبر وتوفر حرارة أشد. وسيبريانو ألجور يتمون من المناطق المحيطة بالقرية، يوصى الحطَّابين والمزارعين على بعض شحنات الحطب لإحراقها، ويشترى من مناشر الخشب وورش نجارة الحزام الصناعى بضعة أكياس من النشارة، ويفضل أن تكون نشارة أخشاب قاسية، مثل السنديان أو الجوز أو الكستناء، وعليه أن يقوم بذلك كله وحده، فلا يخطر لباله بالطبع أن يطلب من ابنته، لاسيما وهى حامل، أن ترافقه وتساعده فى حمل الأكياس إلى الشاحنة، إنه يأخذ معه لقية لينهى المصالحة معه، وهو ما يعنى

www.ibtesamh.com/vb

أن الحرقة فى ذاكرة سيبريانو ألجور لم تكن، فى نهاية المطاف، قد شفيت تماماً بعد. الحطب الموجود تحت السقيفة المائلة سيكون أكثر من كافٍ لطهو الدمى الست التى ستُستخدم كنموذج. غير أن سيبريانو ألجور يتشكك، ويرى أن عدم التناسب الهائل بين الوسائل المستخدمة والنتيجة التى سيتوصل إليها سخيف وعبثى، إنه عبثى بلا اعتذار، هذا يعنى أنه من أجل شىّ المادة التافهة المكونة من نصف دستة من الدمى سيكون بحاجة إلى استخدام الفرن كما لو أنه سيشوى كمية تصل حتى السقف. قال ذلك لمارتا، فأعطته الحق، وبعد نصف ساعة من ذلك أعطته العلاج، الكتاب يشرح كيف يمكن حلّ المشكلة، بل إنه يورد رسماً توضيحياً من أجل فهم أفضل. من المحتمل جداً أن جد أبى مارتا، وهو من كان فى أزمنة قديمة جداً، قد استخدم ذات مرة، فى بدايات مهنته كخزاف، ما صار فى هذا العصر عملية شىٍ قديمة فى مغارة، ولكن لا بد أن إنشاء أول فرن قد أُعفى ودفع إلى النسيان بطريقة ما الممارسة القديمة البائدة، ولم تنتقل إلى أبى سيبريانو ألجور. ولحسن الحظ أن الكتب موجودة. ويمكن لنا أن ننساها فى خزانة أو صندوق، أو نتركها للغبار والعثة، أو نهجرها فى عتمة الأقبية، يمكن لنا ألا نمر عليها بعيوننا ولا نلمسها لسنوات وسنوات، ولكنها لا تهتم بذلك كله، وتنتظر بهدوء منطبقة على نفسها كيلا يضيع شىء مما تحتويه فى داخلها، ودوماً تأتى اللحظة، يأتى هذا اليوم الذى نتساءل فيه، أين هو

www.ibtesamh.com/vb

ذلك الكتاب الذى يعلّم كيفية شى الصلصال، ويظهر أخيراً الكتاب المطلوب، وهاهو ذا الآن بين يدى مارتا بينما الأب يحفر إلى جانب الفرن مغارة صغيرة بعمق نصف متر، ومثلها اتساعاً، فكمية الدمى لا تحتاج لما هو أكثر من ذلك، ثم يضع فى قاع الحفرة طبقة أغصان صغيرة ويشعل فيها النار، يتصاعد اللهب، يداعب الجوانب، تُختزل الرطوبة السطحية، ثم تضعف النار، ولا يبقى إلا الرماد الساخن وبعض الجمار الصغيرة جداً، وفوق هذه الجمار والرماد ستُنزل مارتا الدمى، بعد أن أعطت لأبيها الكتاب المفتوح على الصفحة، وتأخذ بتنضيد الدمى الست التجريبية بعناية قصوى، واحدة فواحدة، دمية موظف المندرين الصينى، ورجل الإسكيمو، والآشورى الملتحى، والمهرج، والبهلول، والممرضة، وفى المغارة مازال الهواء الساخن يخفق، يلامس بشرة الدمى الرمادية التى تبخر منها الماء كله تقريباً، وكذلك الداخل المصمت لأبدانها، بفعل حركة الهواء والنسيم. والآن، عند فوهة الحفرة، وبسبب عدم وجود شبكة حديدية مناسبة لهذا الغرض، يضع سيبريانو ألجور قضباناً حديدية مسطحة، غير ملتصقة بعضها ببعض وغير منفصلة كثيراً بعضها عن بعض، مثلما يشير الكتاب، فمن خلالها سيسقط جمر المحرقة التى بدأ الخزّاف يُسعّرها. كانا سعيدين باكتشاف الكتاب المنقذ إلى حدّ أنهما لم ينتبها، لا الأب ولا الابنة، إلى أن ساعة الغروب التى بدءًا فيها العمل ستضطرهما إلى تغذية الموقد حتى وقت متقدم من الليل، إلى أن تملأ الجمار

www.ibtesamh.com/vb

الحفرة بالكامل تقريباً وينتهى الشىّ. قال سيبريانو ألجور للابنة، اذهبى أنت ونامى، وسأظل أنا أراقب النار، فردت عليه، لن أضيع رؤية هذا المشهد مقابل ذهب العالم كله. جلسا على المقعد الحجرى يتأملان اللهب، وبين حين وآخر كان سيبريانو ألجور ينهض ويذهب لإلقاء مزيد من الحطب، من أغصانٍ غير ثخينة كى تسقط الجمار من الفراغات بين قضبان الحديد، وعندما حان موعد العشاء نزلت مارتا إلى البيت لتُعدّ وجبة خفيفة، تناولاها فيما بعد على الضوء المتذبذب الذى يتحرك على الجدار الجانبى للفرن كما لو أنه هو أيضاً يتأجج ناراً من الداخل. وشاطرهما الكلب لقية ما هو موجود من طعام، ثم ربض بعد ذلك عند قدمى مارتا، ينظر بثبات إلى اللهب، لقد كان فى مرات أخرى من حياته قريباً من مواقد أخرى، ولكن أياً منها لم يكن مثل هذا الموقد، من المحتمل أنه عنى شيئاً آخر، فالمواقد، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، متشابهة كلها، إنها حطب مشتعل، وبريق، وجمر، ورماد، أما ما كان يفكر فيه لقية فهو أنه لم يكن قط على هذه الحال، قابعاً عند أقدام شخصين أسلم إليهما إلى الأبد حبه ككلب، إلى جانب مقعد حجرى مناسب لتأملات جدية، مثلما يمكن له هو نفسه أن يشهد ابتداء من هذا اليوم ومن خلال تجربة شخصية مباشرة. ملء نصف متر مكعب بالجمر يحتاج لوقت، وخاصة إذا كان الحطب، مثلما يحدث الآن، لم يجف تماماً، والدليل هو رؤية غليان آخر النسغ فى أطراف الأغصان الآخذة بالاحتراق.

www.ibtesamh.com/vb

سيكون مشوقاً، لو كان ذلك ممكناً، النظر داخلاً، ورؤية إذا ما كان الجمر قد وصل حتى خاصرة الدمى، ولكن ما لا يمكن تصوره هو كيف هى الحال داخل المغارة، المفرقع والمتلألئ بضوء ألسنة اللهب القصيرة المتعددة التى انتهت من استهلاك قطع الحطب الصغيرة المتوهجة الآخذة بالتساقط إلى أسفل. ولأن الليل بدأ بالبرودة، فقد ذهبت مارتا إلى البيت بحثاً عن بطانية، وبإلقائها على الأكتاف، التف بها الأب والابنة. أما من أمام فلا يحتاجان إليها، فما يحدث الآن هو مثل ما كان يحدث فى أزمنة مضت، عندما كنا نجتمع حول المدفأة لنتدفأ فى ليالى الشتاء، وكان الظهر يرتجف من البرد بينما الوجه واليدان والساقان تشوى. وخاصة الساقين، لأنهما قريبتان جداً من النار. **غداً** يبدأ العمل القاسى، قال سيبريانو ألجور، أنا سأساعد فيه، قالت مارتا، **ستساعدين** دون شك، **لا** مفر من ذلك، على الرغم من أن الأمر يضايقنى، **لقد** كنتُ أساعد على الدوام، **ولكنك** الآن حبلى، فى الشهر الأول، وربما أقل، فالحمل غير ظاهر بعد، وأنا أشعر بأننى فى أحسن حال، أخشى ألا نتمكن من إنجاز هذا العمل حتى النهاية، **بل** سنتمكن، **لو** أننا نجد على الأقل من يساعدنا، أنتَ نفسك قلت إنه ليس هناك من يرغب فى العمل فى مشاغل خزف، كما أننا سنضيع الوقت كله فى تعليم من يأتى وستكون النتائج أقل من الجهد المبذول، **صحيح**، أكد سيبريانو ألجور وقد استغرق فى التأمل فجأة. لقد تذكر أن إساورا إستوديوسا، أو إساورا مادروجا، كما

www.ibtesamh.com/vb

عادت تسمى نفسها على ما يبدو، تسعى للبحث عن عمل، وإذا هى لم تجده، فسوف تغادر القرية، ولكن هذا التفكير لم يقلقه، فهو غير قادر عملياً، ولا يريد أن يتصور المدعوة مادروجا تعمل فى مشغل الخزف، محشورة فى الوحل، فمعرفتها الوحيدة من هذه المهنة هى تلك الطريقة فى احتضان إبريق الفخار ملتصقاً بصدرها، ولكن هذا لا يفيد فى شىء عندما يكون الأمر متعلقاً بصنع الدمى وليس الهدهدة لها. وفكر، الهدهدة يمكن لأى شخص القيام بها، ولكنه كان يعرف أن ذلك غير صحيح. وقالت مارتا، **يـ**مكننا الاستعانة بأحد ليتولى مسئولية الأعمال المنزلية، وهذا يوفر لى الحرية للبقاء فى مشغل الخزف، فقاطعها سيبريانو ألجور بجفاء، **لا** نملك نقوداً لدفع أجور مساعِدة، أو موظفة منزلية، أو امرأة لساعات، أو أى تسمية أخرى، وألحت مارتا، امرأة تكون محتاجة لعمل ولا يهمها لو كسبت قليلاً لبعض الوقت. أزاح الأب البطانية عن كتفيه بنفاد صبر كما لو أنه يختنق، إذا كان ما تفكرين فيه هو ما أتخيله فأظن أنه من الخير أن ينتهى الحديث هنا، **بـ**قى أن نعرف إذا كنتَ قد تخيلت ما تخيلته لأننى فكرتُ فيه، قالت مارتا، أم أنكَ فكرت فيه قبل أن أتخيله أنا، **لا** تتلاعبى بالكلمات، أرجوكِ، أنت تتمتعين بهذه المهارة، أما أنا فلا، لم ترثيها عنى، **لا** بد أن يكون ثمة شىء من حصادنا الخاص، وعلى أى حال، هذا الذى تسميه تلاعباً بالكلمات هو بكل بساطة طريقة لجعل الكلمات مرئية أكثر، **يـ**مكن لكِ أن تعيدى تغطية كلماتك هذه

www.ibtesamh.com/vb

إذاً، فهى لا تهمنى. أعادت مارتا البطانية إلى ما كانت عليه، وسترت كتفى أبيها وقالت، إنها مغطاة إذاً، وإذا ما كشف أحدهم الغطاء عنها يوماً فلن أكون أنا. انسل سيبريانو ألجور من تحت البطانية، لا أشعر بالبرد، قال، ثم ذهب ليلقى مزيداً من الحطب فى الموقد. أحست مارتا بالتأثر وهى تتأمل الدقة التى يضع بها الجذوع الجديدة فوق المشتعلة، بانكباب وتدقيق شديد كمن يجبر نفسه على استبعاد أفكار مزعجة، على تركيز كل قوة انتباهه على أمر تافه بلا أهمية. ما كان ينبغى لى أن أعود إلى الموضوع، قالت لنفسها، وخاصة الآن، بعد أن قال إنه سيذهب معنا إلى المركز، ثم إننا، إذا افترضنا أنهما توصلا إلى التفاهم إلى حد موافقتهما على أن يعيشا معاً، فإننا سندخل فى مشكلة عويصة وربما مستحيلة الحل، لأن الذهاب إلى المركز مع الابنة والصهر هو شىء، وشىء آخر هو أخذ زوجة معه، وبدلاً من أسرة واحدة سنكون أسرتين، وأنا واثقة من أنهم لن يتقبلونا، وقد أخبرنى مرسيال بأن الشقق صغيرة هناك، وسيضطران إلى البقاء هنا، وممَ سيعيشان، إنهما شخصان يكاد لا يعرف أحدهما الآخر، كم من الوقت سيستمر تفاهمهما، ما أفعله ليس مجرد تلاعب بالكلمات، بل هو تلاعب بمشاعر الآخرين، بمشاعر أبى بالذات، أى حق لى بذلك، أى حق لكِ بذلك يا مارتا، جربى أن تكونى فى مكانه، لا يمكنكِ ذلك طبعاً، وإذا كنت غير قادرة فاصمتى، يقال إن كل شخص هو جزيرة بذاتها، وهذا غير صحيح، كل شخص هو صمت، أجل، صمت، كل واحد مع

www.ibtesamh.com/vb

صمته، كل واحد مع الصمت الذى يكونه. رجع سيبريانو ألجور إلى المقعد الحجرى، وقام هو نفسه بوضع البطانية فوق كتفيه على الرغم من أنه مازال يحمل فى ملابسه حرارة الموقد، اقتربت مارتا منه، أبى، أبى، قالت، ماذا تريدين، لا شىء، لا تهتم بى. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة عندما امتلأت الحفرة بالجمر. لم تعد ثمة حاجة لبقائنا هنا، قال سيبريانو ألجور، وغداً، عندما تبرد الدمى، سنُخرجها ونرى كيف صارت. رافقهما الكلب لقية حتى باب البيت. ثم رجع بعد ذلك إلى جانب الموقد وأقعى على الأرض. وتحت طبقة الرماد الخفيفة كان يشع نور خافت، فالجمر مازال يتأجج. وفقط عندما انطفأت الجمار بالكامل، أطبق لقية عينيه لينام.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

حلم سيبريانو ألجور أنه فى داخل فرنه الجديد. وكان يشعر بالسعادة لأنه تمكن من إقناع ابنته وصهره بأن التعاظم المفاجئ فى نشاط مشغل الخزف يتطلب تغيرات جذرية فى عمليات الإعداد، وتحديث سريع لوسائل ومنشآت التصنيع، بدءاً من حالة الفرن القديم المستعجلة، المتبقى من حياة حرفية بائدة لا يستحق معها أن يُحتفظ به ولو كأثر متداع فى متحف فى الهواء الطلق. **فـ**لنترك جانباً الحنين الذى لا يؤدى إلا إلى الضرر والتخلف، قال سيبريانو ألجور بحماسة غير معهودة، فالتقدم يندفع دون كابح، وينبغى لنا أن نتخذ القرار بمجاراته، ويا لأولئك الذين يدفعهم الخوف من بلاء مستقبلى إلى البقاء جالسين على حافة الطريق يبكون ماضياً لم يكن أفضل من الحاضر. ولشدة الدقة والكمال اللذين خرجت بهما العبارة، فقد أفحمت الشابين المعارضين. وعلى أى حال، يجب الاعتراف بأن الفروق التكنولوجية بين الفرن الجديد والفرن القديم ليست من عالم آخر بأى حال، فما يتضمنه الآخر من قدم، يمتلكه الآن الثانى

www.ibtesamh.com/vb

من حداثة، والتعديل الوحيد الذى يلفت النظر حقاً يتلخص فى حجم البناء، وفى استطاعته التى هى أكبر مرتين، والصحيح أيضاً، وإن كان ذلك لا يُلحظ كثيراً، أن ثمة فروقاً، حتى أنها غير عادية بعض الشىء، فى علاقات التناسب بين ارتفاع الفراغ الداخلى وعمقه وعرضه. وحيث إن الأمر كله متعلق بحلم، فينبغى عدم استغراب هذه النقطة الأخيرة. ولكن ما يثير الاستغراب، أجل، مهما كانت كثرة الحريات والمبالغات التى تمنحها الحالة الحُلمية للحالم، هو وجود مقعد حجرى هناك فى الداخل، مقعد مشابه تماماً لمقعد التأملات، ولا يمكن لسيبريانو ألجور أن يرى منه سوى الجزء الخلفى من مسنده، لأن المقعد يتجه، بصورة غير مألوفة، نحو الجدار الذى فى العمق، على بُعد خمسة أشبار فقط عن الجدار. **لا** بد أن البنائين هم الذين وضعوه هناك كى يستريحوا عليه فى موعد الغداء، ونسوا إخراجه بعد ذلك، هكذا فكر سيبريانو ألجور، ولكنه كان يعرف أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، فالبناءون، وهذه معلومة تاريخية صارمة، يحبون تناول الطعام فى الهواء الطلق على الدوام، حتى عندما يكون عليهم أن يعملوا فى الصحراء، فما بالك إذا كان الموقع ريفياً لطيفاً مثل هذا المكان، مع ألواح التجفيف تحت شجرة التوت، وهبوب نسيم الظهيرة الخفيف. **أياً** يكن المكان الذى جئتَ منه، ستذهب لترافق ذلك المقعد الذى فى الخارج، قال سيبريانو ألجور، والمشكلة هى فى إخراجك من هنا، فأنت ثقيل جداً لا يمكن حملك

www.ibtesamh.com/vb

بالذراعين، وإذا ما جررتُكَ فسوف تُحدث شروخاً فى الأرضية، لا أفهم من الذى خطر له حملك إلى داخل الفرن ووضعك بهذا الشكل، فالشخص الذى يجلس سيلتصق أنفه بالجدار. ولكى يُثبت لنفسه أنه محق فى قوله، انسل سيبريانو ألجور برفق بين أحد جانبى المقعد والجدار الجانبى، وجلس. كان عليه أن يتقبل أخيراً أن أنفه لا يتعرض لأى خطر احتكاك بجدار الآجر المقاوم للحرارة، وأن الركبتين، وإن كانتا متقدمتين فى المستوى الأفقى، إلا أنهما بمنجاة كذلك من أية احتكاكات مزعجة. لكن اليد فيمكن لها، أجل، أن تصل إلى الجدار دون أى جهد. والآن، فى اللحظة التى كانت فيها أصابع سيبريانو ألجور على وشك أن تلمس الجدار، قال صوت آت من الخارج، **لا** يوجد ما يستحق عناء إشعالك الفرن. كان الأمر غير المتوقع صادراً عن مرسيال، مثلما هو له أيضاً الظل الذى انعكس لثانية واحدة على جدار العمق ليختفى على الفور. بدا لسيبريانو ألجور أن طريقة صهره فى التعامل تنم عن تعسف وقلة احترام، **لـم** أمنحه قط مثل هذه الثقة، فكر. ثم قام بحركة ليلتفت ويسأله لماذا لا يوجد ما يستحق عناء إشعال الفرن، وما هذه الطريقة فى التعامل برفع الكلفة معه، ولكنه لم يتمكن من إدارة رأسه، فمما يحدث لنا بكثرة فى الأحلام أننا نود الركض ونكتشف أن الأرجل لا تنصاع، وتكون الأرجل عموماً هى التى لا تستجيب، أما هذه المرة فالرقبة هى التى ترفض الالتفات. ثم إن الظل لم يعد موجوداً، وليس بالإمكان توجيه الأسئلة إلى ظل، هذا

www.ibtesamh.com/vb

فى حال الافتراض العبثى وغير العقلانى بأن للظل لساناً من أجل صياغة الجواب، ولكن التوافق التكميلى للكلمات التى تفوه بها مرسيال كانت لا تزال تتردد بين سقف الفرن المقبب وأرضيته، وبين جدار وآخر. وقبل أن تتلاشى الذبذبات تماماً ويُتاح الوقت لمادة الصمت المكسور المبعثرة أن تستعيد بنانها، أراد سيبريانو ألجور أن يعرف الأسباب الغامضة التى تجعل إشعال الفرن أمراً لا يستحق العناء، إذا ما كان هذا حقاً هو ما قاله صوت الصهر، إذ صار يبدو له الآن أن الكلمات كانت غير هذه، بل إنها أكثر غموضاً، **لا** وجود لما يستحق عناء أن تضحى بنفسك من أجله، كما لو أن مرسيال اعتقد أن حماه، ويبدو أنه لم يرفع الكلفة معه، قد قرر أن يجرب بجسده قوة النيران، قبل أن يسلمها عمل يديه. إنه مجنون، تمتم الخزاف بينه وبين نفسه، لابد أن صهرى هذا مجنون تماماً كى يتصور مثل هذه الأمور، إذا كنتُ قد دخلتُ إلى الفرن، فإنما فعلت ذلك من أجل، وكان لا بد له من قطع العبارة، فسيبريانو ألجور لا يعرف فى الواقع سبب وجوده هناك، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الاستغراب، مادام يحدث لنا فى أحيان كثيرة، ونحن مستيقظون، ألا نعرف لماذا فعلنا هذا الشىء أو ذاك، فما بلك حين نكون نائمين، ونحلم. فكر سيبريانو ألجور أنه من الأفضل، ومن الأسهل، أن ينهض بكل بساطة عن المقعد الحجرى، وأن يخرج ويسأل صهره أى هراء شياطين مبهم كان ذاك الذى قاله، ولكنه أحس بثِقل رصاص فى جسده، أو ليس ذلك بالضبط، فالحقيقة

www.ibtesamh.com/vb

أن ثقل الرصاص لا يمكن أن يكون كبيراً إلى حد لا تستطيع معه قوة أكبر من رفعه، وما يحدث الآن هو أنه مقيد إلى مسند المقعد، مقيد دون حبال ودون قيود، ولكنه مقيد. حاول أن يدير رأسه مرة أخرى، ولكن الرقبة لم تنصع له. إننى مثل تمثال حجرى يجلس على مقعد حجرى وينظر إلى جدار حجرى، فكر، مع أنه كان يعلم أن الأمر ليس كذلك بالضبط، فالجدار على الأقل، مثلما يمكن لعينيه كخبير فى المواد أن تؤكدا، لم يشيد من أحجار، وإنما من آجر مقاوم للحرارة. وكان فى هذه اللحظة أن عاد ظل مرسيال ينعكس على الجدار، لقد جئتك بالخبر الذى كنا ننتظره بفارغ الصبر منذ زمن، قال صوته، لقد رُقِّيتُ أخيراً إلى حارس مقيم، وهكذا لم يعد ثمة جدوى من مواصلة التصنيع، تستطيع أن تشرح للمركز أننا أغلقنا مشغل الخزف وسيتفهمون ذلك، فهو ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، لا بد أن تخرج من هناك الآن، لأن الشاحنة أمام الباب من أجل تحميل الأثاث، ويا لخسارة المال الذى أُنفق فى بناء الفرن. فتح سيبريانو ألجور فمه ليجيب، ولكن الظل كان قد مضى، وما كان يريد صانع الخزف قوله هو أن الفرق بين كلمة الحرفى والوصية الإلهية يستند إلى أن هذه الأخيرة تطلبت أن توضع كتابة، وأسفرت مع ذلك عن النتائج المؤسفة المعروفة، وأنه إذا كان مستعجلاً فيمكن له أن يبدأ الرحيل، وهذه عبارة فجة بعض الشىء وتتناقض مع التصريح الوقور الذى أعلنه هو نفسه قبل أيام غير كثيرة، عندما وعد ابنته وصهره

www.ibtesamh.com/vb

بأن يذهب للعيش معهما حين تتم ترقية مرسيال، وعندما يجعل انتقالهما الحفاظ على سير العمل فى مشغل الخزف أمراً مستحيلاً. كان سيبريانو ألجور يوبخ نفسه لأنه أكد ما لا يمكن للشرف أن يسمح له بتنفيذه، عندما ظهر خيال جديد على جدار العمق. وعلى الضوء الخفيف الذى يمكن له الدخول من الباب الضيق لفرن بهذا الحجم، يكون من السهل جداً الخلط بين شبحين بشريين، ولكن صانع الخزف عرف من يكون الشبح الثانى، إذ لا يمكن أن يكون الظل الأشد قتامة ولا الصوت الأشد كثافة هما ظل وصوت الصهر، **يا** سيد سيبريانو ألجور، لقد جئتُ فقط لأخبرك بأن طلبيتنا من الدمى الخزفية قد أُلغيت، قال مدير قسم المشتريات، لا أعرف ولا أريد أن أعرف سبب حشر نفسك هناك، إذا كنت قد فعلت ذلك لتبدو بطلاً رومانسياً ينتظر أن يكشف له الجدار أسرار الحياة، فإننى أرى بكل بساطة أن ذلك مضحك، أما إذا كانت نواياك تمضى إلى ما هو أبعد من ذلك، إذا كنت تنوى التضحية بنفسك فى النار، مثلاً، فاعلم أن المركز يرفض تحمل أية مسئولية عن الوفاة، فهذا ما كان ينقصنا، أن يأتوا لتحميلنا مسئولية انتحار أشخاص غير أكفاء يحل بهم الإفلاس لكونهم عاجزين عن فهم قواعد السوق. لم يُدر سيبريانو ألجور رأسه باتجاه الباب، على الرغم من يقينه بأنه صار قادراً على عمل ذلك، كان يعلم أن الحلم قد انتهى، وأنه لا يمكن لشىء أن يمنعه من النهوض عن المقعد الحجرى عندما يشاء، غير أن شكاً

www.ibtesamh.com/vb

واحداً مازال يقلقه، صحيح أنه شك سخيف، وصحيح أنه تافه، ولكنه مفهوم مع ذلك إذا ما أخذنا بالاعتبار حالة الحيرة الذهنية التى خلّفه فيها الحلم باضطراره إلى الذهاب للعيش فى المركز نفسه الذى أبدى للتو ازدراءه لعمله، وهذا الشك، ولنتوجه إليه، فنحن لم ننسه، له علاقة بالمقعد الحجرى. فسيبريانو ألجور كان يتساءل عما إذا كان قد حمل مقعداً حجرياً إلى السرير أم أنه يستيقظ مغطى بالندى على المقعد الحجرى الآخر، مقعد التأملات، فالأحلام البشرية هى هكذا، تختار فى بعض الأحيان أشياء حقيقية وتحولها إلى رؤى، وفى أحيان أخرى تجعل الهذيان يلعب لعبة التخفى بالواقع، ولهذا كثيراً ما نجلس حائرين، الحلم يشد من جهة، والواقع يدفع من الجهة الأخرى، والحقيقة الناصعة هى أن الخط المستقيم لا وجود له إلا فى الهندسة، وحتى فى هذه الحالة يبدو لنا تجريداً. فتح سيبريانو ألجور عينيه. إننى فى الفراش، فكر باطمئنان، وفى هذه اللحظة انتبه إلى أن ذاكرة الحلم آخذة بالتفلت، وأنه لن يتمكن من الاحتفاظ إلا ببعض الأجزاء، ولم يعرف إذا ما كان عليه أن يبتهج بالقليل أم يحزن للإفراط، وكثيراً ما يحدث هذا أيضاً بعد الحلم. كان الوقت لا يزال ليلاً، ولكن أولى تحولات السماء التى تعلن عن اقتراب الفجر لن تتأخر فى الظهور. لم يعد سيبريانو ألجور إلى النوم. فكر فى أشياء كثيرة، فكر فى أن عمله آخذ بالتحول إلى عدم الجدوى، وأنه لم يعد لوجود شخصه من مسوغ كاف ومقبول وسطياً، إننى عقبة

www.ibtesamh.com/vb

أمامهما، دمدم، وفى هذه اللحظة ظهرت له نتفة من الحلم بكل وضوح، كما لو أنها قد قُصت وأُلصقت على جدار، كان مدير قسم المشتريات وهو يقول له، إذا كنت تنوى التضحية بنفسك فى النار يا سيدى العزيز، فليكن هنيئاً لك، ولكننى أنبهك مع ذلك إلى أنه ليس من تجاوزات المركز، إذا كانت لديه تجاوزات، أن يرسل ممثلين عنه أو أكاليل زهر إلى مآتم ممونيه القدماء. عاد سيبريانو ألجور إلى الوقوع فى الحلم للحظات، ولا بد أن نسجل بالمناسبة، قبل أن يشار لنا إلى التناقض الظاهرى، أن الوقوع فى الحلم للحظات ليس له المعنى نفسه للقول إنه كان قد نام، فالخزاف لم يفعل شيئاً سوى الحلم مصادفة بالحلم نفسه الذى كان قد رآه، وإذا كانت كلمات مدير قسم المشتريات الثانية لم تخرج مماثلة للمرة الأولى بالضبط فإن السبب فى ذلك بسيط، لأن الكلمات التى نقولها، ليس فى حياة اليقظة وحدها، إنما تعتمد على مزاج المناسبة. فتلك الإشارة المزعجة وغير الصحيحة إلى فرضية التضحية بالنفس فى النار كان لها، مع ذلك، فضيلة تحويل تفكير سيبريانو ألجور نحو دمى الصلصال الموضوعة لتشوى فى المغارة، وبعد ذلك، عبر دروب ومجازات فى الدماغ لن يكون من المستحيل إعادة بنائها ووصفها بدقة كافية، نحو الاعتراف المفاجئ بأفضلية الدمية الجوفاء على الدمية المصمتة، سواء بالنظر إلى الوقت المستخدم أم الصلصال المستهلك. هذه القدرة المغناطيسية المتواترة التى تمتلكها البديهيات كى تتبدى دون كثير من

www.ibtesamh.com/vb

التوسل ينبغى أن تكون محط تحليل معمق من جانب الفقهاء الذين يبحثون فى أمور الطبيعة المختلفة ـ إنما غير المتعارضة بالتأكيد ـ ما هو مرئى منها وغير مرئى، بمعنى التقصى إذا ما كان يوجد فى الداخل الأكثر حميمية لما يُعرض للنظر، وهناك أسباب كثيرة للشك كما يبدو، شىء كيميائى أو فيزيائى ذو ميل خبيث إلى النفى والتعمية، أو انزلاق متوعد باتجاه الصفر، أو حلم خواء متسلط على العقل. أياً يكن الأمر، فإن سيبريانو ألجور راضٍ عن نفسه. منذ لحظات كان يرى أنه يشكل مشكلة لابنته وصهره، وأنه عائق، عقبة، عديم الجدوى، باطل، وهذه الكلمة الأخيرة تعبر عن كل شىء عندما يكون علينا أن نصنف ما يُفترض أنه لم يعد ينفع فى شىء، وها هو الآن قادر على إنتاج فكرةٍ منفعتها فى ذاتها مثبتة مسبقاً فى واقع أن آخرين توصلوا إليها من قبل ووُضعت موضع التنفيذ مرات كثيرة. ليس بالإمكان التوصل إلى أفكار أصيلة على الدوام، ويكفى بكل بساطة التوصل إلى أفكار عملية. يروق لسيبريانو ألجور أن يطيل أمد البقاء ساكناً فى الفراش، أن يستغل إغفاءة الصباح الطيبة، فهى الأكثر إعادة للنشاط بين كل الإغفاءات، ربما لأننا نعى ذلك بصورة غامضة، غير أن استثارة الفكرة التى خطرت له، وتذكُّر الدمى تحت الرماد الذى لا يزال ساخناً دون شك، وكذلك ـ ولماذا لا يعترف ـ الإخبار المسبق المتسرع بأنه لن يعود إلى النوم، كل ذلك معاً جعله يزيح الدثار جانباً ويقفز بسرعة إلى الأرض، منتعشاً

www.ibtesamh.com/vb

ورشيقاً كما فى سنوات فتوته. ارتدى ملابسه دون أن يُحدث ضجة، وخرج من الحجرة حاملاً حذاءه بيده، وتوجه على رءوس أصابعه إلى المطبخ. إنه لا يريد لابنته أن تستيقظ، ولكنها استيقظت، أو أنها كانت مستيقظة، مشغولة بجمع فتات أجزاء من أحلامها الخاصة، أو تصيخ السمع إلى العمل الأعمى الذى تحققه الحياة، ثانية فثانية، فى رحمها. رن الصوت صافياً وواضحاً فى صمت البيت، أبتاه، إلى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر، لا أستطيع النوم، وسأذهب لأرى كيف جرى شواء الدمى، أما أنتِ فابقى، لا تنهضى. وأجابت مارتا، أجل سأبقى، إذ لم يكن من الصعب عليها، وهى التى تعرفه، أن تفكر فى أن أباها يرغب فى البقاء وحيداً خلال عملية إخراج الرماد والدمى من المغارة، مثل طفل يتقدم فى الممر المظلم متلمساً طريقه فى ساعة متقدمة من الليل، وهو يرتعش من الخوف والإثارة ليكتشف أياً من الدمى والهدايا التى حلم بها قد وُضعت فى حذائه. انتعل سيبريانو ألجور حذاءه، فتح باب المطبخ وخرج. كانت أوراق شجرة التوت الوارفة تستبقى الليل محتجزاً بثبات، لن تتركه يذهب سريعاً، فظهور أول أنوار الفجر مازال يحتاج لنصف ساعة على الأقل. نظر إلى كوخ الكلب، ثم جال ببصره فيما حوله، وفوجئ؛ لأنه لم ير الكلب يخرج للقائه. صفر بصوت خافت، ولكن لقية لم يظهر. انتقل صانع الخزف من المفاجأة الحائرة إلى قلق جلى، لا أظن أنه قد ذهب، لا أظن ذلك، دمدم. يمكن له أن يصرخ باسم الكلب،

www.ibtesamh.com/vb

ولكنه لم يفعل لأنه لا يريد إثارة ذعر ابنته. **لا** بد أنه يتسكع فى مكان ما، يتسكع متشمماً كائناً ليلياً، قال ليطمئن نفسه، ولكنه بينما هو يجتاز الفناء باتجاه الفرن، كان يفكر فى لقية أكثر من تفكيره فى دمى الصلصال التى يتلهف إليها. وكان قد صار على بُعد خطوات قليلة من الحفرة عندما رأى الكلب يخرج من تحت المقعد الحجرى، **لـ**قد أخفتنى أيها المحتال، لماذا لم تأت عندما ناديتك، قال له مؤنباً، ولكن لقية لم يقدم أى جواب، كان مشغولاً بالتمطى، وفى إعادة عضلاته إلى أماكنها، فقد شدّ أولاً قائمتيه الأماميتين إلى الأمام، خافضاً رأسه وعموده الفقرى فى مستوى مائل، ومارس بعد ذلك ما يُفترض أنه، فى مفهومه، تمرين لا بد منه لضبط بدنه وتعديله، بخفض فخذيه الخلفيتين وإطالتهما حتى بدا كأنه يريد الانفصال عنهما. الجميع يعرف أن يقول لنا إن الحيوانات قد تخلت عن الكلام منذ زمن بعيد، ولكن ما لا يمكن إثباته أبداً هو أنها لم تواصل التفكير سراً. فانظر، على سبيل المثال، حالة هذا الكلب المدعو لقية، كيف أنه على الرغم من الإضاءة الشحيحة التى بدأت تنزل شيئاً فشيئاً من السماء، يمكن أن يُقرأ فى وجهه ما يفكر فيه، ليس أقل ولا أكثر من صمَّ أذنيك عن الكلام السخيف، وما يريد قوله بلغته هو أن سيبريانو الجور، مع تجربته الطويلة فى الحياة، وإن كانت قليلة التنوع، لا يحتاج لمن يشرح له ما هى واجبات أى كلب، فمن المعروف جيداً أن الحراس البشريين لا يحرسون بجد إلا إذا صدر لهم أمر حاسم بذلك، أما الكلاب،

www.ibtesamh.com/vb

وهذا الكلب بصورة خاصة، فلا ينتظر أن يقال له ابقَ هناك ناظراً إلى النار، ويمكننا أن نكون متأكدين من أنهم سيظلون مفتوحى العيون مادامت الجمار لم تنطفئ. ولابد على أى حال من العدل مع التفكير البشرى، فتباطؤه المعروف لم يمنعه دوماً من الوصول إلى نتائج صائبة، مثلما حدث الآن بالذات فى ذهن سيبريانو ألجور، فقد لمع فيه نور مفاجئ استطاع بفضله أن يقرأ وأن ينطق بصوت عالٍ كلمات الاعتراف بالجميل التى يستحقها الكلب لقيةً بجدارة، بينما كنتُ أنام فى دفء ملاءات السرير، ظللتَ أنت هنا فى حراسة متيقظة، ليس مهماً أن حراستك لا تفيد عملية الطهو فى شىء، فما يُحسب حقاً هو اللفتة. بعد أن أنهى سيبريانو ألجور مديحه، ابتعد لقية راكضاً ليرفع قائمته ويفرغ مثانته، ثم رجع محركاً ذيله وأقعى على مسافة قريبة من المغارة، متأهباً لحضور عملية إخراج الدمى. وفى هذه اللحظة أضىء نور المطبخ، فقد نهضت مارتا. أدار صانع الخزف رأسه، لم يكن يرى بوضوح فى روحه إذا ما كان يفضل أن يكون وحيداً أو يرغب فى أن تأتى ابنته لترافقه، ولكنه عرف ذلك بعد دقيقة، عندما أدرك أنها قررت أن تترك له الدور الأساسى حتى اللحظة الأخيرة. ومثل حافة قبة سماوية مضيئة تتقدم دافعة قبة الليل، كانت حدود الصباح تتحرك ببطء نحو الغرب. هبت نسمة قريبة من سطح الأرض حركت، على شكل زوبعة، الرماد الذى على سطح المغارة. جثا سيبريانو ألجور، أزاح جانباً القضبان

www.ibtesamh.com/vb

الحديدية، وباستخدام الرفش الصغير نفسه الذى حفر به المغارة، بدأ يزيح الرماد المختلط بقطع صغيرة من الفحم غير المحترق تماماً. كانت الجزئيات البيضاء التى لا وزن لها تقريباً تعلق بأصابعه، وبعضها دقيق جداً يستنشقه مع تنفسه، صعدت حتى أنفه وأجبرته على اللهاث، مثلما يفعل لقية أحياناً. وكلما كان الرفش يقترب من قعر المغارة، كانت الجمار أكثر سخونة، ولكن ليس إلى حدّ أن تحرق، كانت دافئة ببساطة، مثل جلد بشرى، وطرية وناعمة مثله أيضاً. ترك سيبريانو ألجور الرفش جانباً ودس يديه فى الرماد. لمس نعومة دمى الصلصال المشوية وخشونتها. وعندئذ، كما لو أنه يشارك فى عملية توليد، أمسك بأصابعه الإبهام والسبابة والوسطى رأس إحدى الدمى وسحبها إلى أعلى. كانت الممرضة. نفض الرماد عن جسدها، ونفخ على وجهها، بدا كما لو أنه يمنحها نوعاً من الحياة، ناقلاً إليها نبض قلبه بالذات. ثم راح يُخرج الكركوزات واحداً فواحداً، الآشورى الملتحى، المندرين الصينى، البهلول، رجل الإسكيمو، المهرج، أُخرجوا جميعهم من المغارة ووضعوا إلى جانب الممرضة، نظيفين إلى هذا الحد أو ذاك من الرماد، ولكن دون الاستفادة الإضافية من النفخة الحيوية. لم يكن هناك من يسأل الخزاف عن أسباب اختلاف المعاملة التى يمكن تحديدها، للوهلة الأولى، باختلاف الجنس، اللهم إلا إذا كان التدخل الخَلقىّ يعتمد ببساطة على أن دمية الممرضة كانت الأولى فى الخروج من الحفرة، فدائماً، ومنذ أن صار العالم

www.ibtesamh.com/vb

عالماً، كان هذا هو ما يحدث، إذ يتعب الخالقون من عملية الخلق عندما لا تعود حدثاً مستجداً. ومع ذلك، فإنه بعد ما واجهه سيبريانو ألجور من مصاعب وهو يقولب صدر الممرضة، لن يكون من الخطأ أن نعزو سبب النفخة الأخيرة، وإن كان ذلك بصورة غامضة وغير دقيقة، إلى ذلك الجهد الكبير المبذول للوصول إلى ما يَعِدُ به الصلصال المرن وينكره عليه فى آن واحد. من يدرى. عاد سيبريانو إلى ملء الحفرة بالتراب الذى هو حق طبيعى لها، وسوّاه جيداً كى لا تظل حفنة واحدة منه خارجها، ثم توجه إلى البيت حاملاً ثلاث دمى فى كل يد. كان لقية يتقافز بجانبه بفضول وهو يرفع رأسه. وكان ظل شجرة التوت قد ودّع الليل، وبدأت السماء تتفتح بالكامل عن أول زُرقة الصباح، ولن تتأخر الشمس عن البزوغ فى الأفق الذى لا يبلغه البصر من هناك.

كيف خرجت الدمى، سألت مارتا حين دخل أبوها، يبدو أنها جيدة، ولكن ينبغى تنظيفها من الرماد العالق بها. سكبت مارتا ماء فى طست فخارى، اغسلها هنا، قالت. الأولى فى دخول الماء هى الأولى فى الخروج من الرماد، أهى مصادفة أم توافق، يمكن أن تكون لهذه الممرضة فى المستقبل بعض المسوغات للشكوى، ولكن ليس بسبب قلة الاهتمام بها. **كيف** هو هذا، سألت مارتا غير مدركة المناظرة الدائرة هنا حول جنس الدمى، **جيد**، كرر الأب باقتضاب. وقد كانت الدمية جيدة فى الواقع، الطهو متماثل فى كل

www.ibtesamh.com/vb

الأنحاء، لون أحمر بديع، ودون أدنى شرخ صغير، ومثلها كانت متقنة الدمى الأخرى، باستثناء الآشورى الملتحى، فقد ظهر وعلى ظهره لطخة سوداء، وهى تقتصر لحسن الحظ على بداية تفحم سببه تسرب هواء غير مرغوب. **ل**يس مهماً، لن يتأثر بذلك، قالت مارتا، وتفضل الآن بالجلوس لتستريح ريثما أُعدّ لك الفطور، فقد أنهكت جسدك منذ الفجر، **ل**قد أَرِقتُ ولم أستطع العودة إلى النوم، **ك**ان يمكن للدمى أن تنتظر حتى طلوع الصباح، أما أنا فلا يمكننى الانتظار، **م**ثلما يقول المثل القديم، من هو قلق لا يمكنه النوم، **أو** أنه ينام ليحلم بما يُقلقه، **و**هل استيقظت مبكراً جداً كيلا تحلم، سألته مارتا، **ه**ناك أحلام يكون من الأفضل الخروج منها بسرعة، أجاب الأب، **و**كانت هذه هى الحال الليلة، أجل، إنها الحال هذه الليلة، أترغب فى أن ترويه لى، **إ**نه حلم لا يستحق عناء أن يروى، **ف**ى هذا البيت كان قلق أى فرد هو قلق الجميع على الدوام، **و**لكن ليس الأحلام، إلا إذا كانت أحلام قلق، **لا** سبيل إلى المناقشة معك، **م**ا دام الأمر كذلك فلا تضع مزيداً من الوقت، أروِ لى الحلم، حلمت أن مرسيال قد رُقىَّ وأنهم ألغوا الطلبية، الاحتمال الأكبر لهذا الحلم هو أن الطلبية لن تلغى، **ه**ذا ما أظنه، ولكن المخاوف تعلق واحدة بأخرى والاثنتان بسلة ممتلئة، أما بالنسبة لموضوع مرسيال، فنحن نعرف أنه قد يحدث فى أية لحظة، صحيح، **ل**قد كان الحلم إشعاراً من أجل العمل بسرعة، الأحلام لا ترسل إشعارات، إلا إذا شعر

www.ibtesamh.com/vb

الحالمون بأنهم تلقوا إشعاراً، لقد نهضت حكيماً يا أبى العزيز، لكل سن عيوبها، وهذا الأمر يثقل علىّ فى الأوقات الأخيرة، لحسن الحظ أن أحكامكَ تروقنى وأنا أتعلم منها، حتى عندما لا تكون أكثر من تلاعب بالكلمات، مثلما هى الحال الآن، سألها سيبريانو ألجور، أظن أن الكلمات لم تولد إلا ليلعب بعضها مع أخريات، وأنها لا تعرف شيئاً آخر، وأنه خلافاً لما يقال، لا توجد كلمات فارغة، إنكِ حكيمة، هذا مرض عائلى. وضعت مارتا الفطور على المنضدة، القهوة والحليب، وبعض البيض المقلى، وخبزاً محمصاً وزبداً، وفاكهة. وجلست قبالة الأب لتراه وهو يأكل. وأنتِ، سألها سيبريانو ألجور، لا أشعر بالجوع، أجابته، إنها إشارة سيئة فى الوضع الذى أنتِ فيه، يقال إن هذه الحالات كثيرة الشيوع بين الحوامل، ولكنكِ تحتاجين إلى تغذية جيدة، ينبغى لكِ منطقياً أن تأكلى عن اثنين، أو عن ثلاثة، إذا كان الحمل بتوءم، إننى أتكلم بجد، لا تقلق، مازالت تنتظرنى نوبات الغثيان ولا أدرى كم من الإزعاجات الأخرى. ساد صمت. تكور لقية على نفسه تحت المنضدة متظاهراً بعدم الاهتمام بروائح الطعام، ولكن ذلك مجرد إذعان، فهو يعرف أن دوره فى تناول الطعام سيتأخر بضع ساعات. هل ستبدأ العمل الآن؟ سألت مارتا، فور انتهائى من تناول الطعام، أجابها سيبريانو ألجور. ساد صمت آخر. أبتاه، قالت مارتا، تصور أن مرسيال يتصل الآن ليخبرنا بأنه قد رُقّى، ألديك سبب ما للتفكير فى أن هذا سيحدث، ولا أى سبب، إنه مجرد

www.ibtesamh.com/vb

افتراض، لا بأس، فلنتخيل إذاً أن يرن الهاتف فى هذه اللحظة، وأنكِ تنهضين للرد، وأن مرسيال يخبرنا بأنه قد رُقّى إلى رتبة حارس مقيم، ما الذى ستفعله فى هذه الحالة، سأنتهى من تناول الفطور، وسأحمل الدمى إلى المشغل وأبدأ بصنع القوالب، كما لو أن شيئاً لم يحدث، أجل، كما لو أن شيئاً لم يحدث، أتظن أنه سيكون قراراً حصيفاً، ألا ترى أن التخلى عن التصنيع وقلب الصفحة سيكون أكثر حكمة، يا ابنتى الحبيبة، من المحتمل جداً أن يكون عدم التعقل وقلة الحكمة واجباً على الشباب، ولكنهما حق للشيوخ يجب احترامه بالمطلق، سأسجل ملاحظة بالجزء المتعلق بى، حتى لو اضطررتِ أنتِ ومرسيال إلى الانتقال إلى المركز بسرعة، فإننى سأظل هنا حتى أنهى العمل الذى كُلفت به، وبعد ذلك سألتحق بكما، مثلما وعدتكما، هذا جنون يا أبتاه، جنون، قلة حكمة، عدم تعقل، إن رأيكِ بى ضعيف جداً، الجنون هو أنكَ تريد القيام وحيداً بمثل هذا العمل، قل لى كيف تتصور ما سأشعر به وأنا أعرف ما الذى يجرى هنا، وكيف تتصورين أنت ما الذى سأشعر به إذا ما تخليت عن عمل فى منتصف الطريق ألا تدركين أنه لم يعد لدى وأنا فى هذه المرحلة من الحياة أشياء أخرى أتمسك بها؟ لديك أنا ابنتك، وسيكون لك حفيد، اعذرينى، ولكن هذا غير كاف، سيكون كافياً عندما تذهب للعيش معنا، أعتقد أنَ الأمر كذلك، ولكننى سأكون قد أنهيت عملى الأخير على الأقل، لا تكن دراماتيكياً يا أبتاه، فمن يدرى ما الذى سيكونه عملك

www.ibtesamh.com/vb

الأخير. نهض سيبريانو ألجور عن المائدة. أفقدتَ الشهية فجأة، سألته الابنة حين رأت بقية من الطعام ظلت فى الطبق، أجد صعوبة فى الابتلاع، أشعر بعقدة فى حنجرتى، إنها الأعصاب، لابد أنها كذلك، أعصاب. كان الكلب قد نهض أيضاً متأهباً للذهاب وراء سيده. آه، قال سيبريانو ألجور، نسيت أن أخبرك أن لقية أمضى الليل كله تحت المقعد الحجرى يحرس الموقد، أرى أنه يمكن تعلم بعض الأشياء أيضاً من الكلاب، أجل، يمكن التعلم بصورة خاصة عدم مناقشة ما يجب أن يكون واقعاً، ولابد أن ثمة بعض الفضائل فى الغريزة البسيطة، أتعنى أن الغريزة أيضاً هى ما يدفعك إلى إنهاء العمل، وأنه لدى الكائنات البشرية، أو لدى بعضها، يوجد عامل سلوك شبيه بالغريزة، سألته مارتا، ما أعرفه هو أن للعقل نصيحة واحدة يقدمها إلىّ، ما هى، ألا أكون أبلهَ، وأن العالم لن ينتهى لمجرد أننى لم أنهِ الدمى، حقاً، وأية أهمية تحققها للعالم بعض الدمى الطينية إلى هذا الحد أو ذاك، أراهن أنك ما كنت ستبدين هذه اللامبالاة لو كان الحديث، بدل الدمى الطينية، عن سيمفونيات تاسعة أو خامسة، ولسوء الحظ يا ابنتى أن أباك لم يولد ليكون موسيقياً، إذا حسبتَ أننى كنت أبدى عدم المبالاة فإننى سأحزن، لم أحسبُ ذلك طبعاً، اعذرينى. وكان سيبريانو ألجور يوشك أن يخرج، لكنه توقف للحظة أخرى عند عتبة الباب، على أى حال، يجب الاعتراف بأن العقل أيضاً قادر على إنتاج أفكار نافعة، فهذه الليلة، حين استيقظتُ، خطر لى أنه يمكن

www.ibtesamh.com/vb

الاقتصاد كثيراً فى الوقت وفى بعض المواد كذلك إذا ما صنعنا الدمى جوفاء، سوف تجف وتشوى بسرعة أكبر، وسنوفر فى الصلصال، يحيا العقل، أخيراً، لاحظى أننى لم أنتبه، فالطيور أيضاً تصنع أعشاشها مجوفة ولا تتبجح بذلك.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

ابتداء من هذا اليوم لم يعد سيبريانو ألجور يتوقف عن العمل فى مشغل الخزف إلا لتناول الطعام والنوم. قلة خبرته بالتقنيات جعلته يتجاهل نِسبَ الجبس والماء فى تصنيع القوالب، وساءت حالة كل شىء عندما أخطأ فى كميات الصلصال والماء والمذيب الضرورية لمزيج متوازن من باربوتين الحشوة، وسكب المزيج الذى حصل عليه بسرعة مفرطة، مما تسبب فى إحداث فقاعات هوائية داخل القالب. أمضى الأيام الثلاثة الأولى فى صنع وتخريب ما يصنع، والقنوط من الأخطاء، لاعناً خراقته، ومهتزاً من السعادة كلما توصل إلى نجاح فى عملية حساسة. عرضت عليه مارتا المساعدة، ولكنه طلب منها أن تتركه بسلام، وهى طريقة فى التعبير لا تتوافق فى الحقيقة على الإطلاق مع الواقع الذى كان يعيشه فى المشغل القديم، بين جبس يتصلب بسرعة كبيرة وماء يصل متأخراً إلى اللقاء، بين معاجين ليست جافة كفاية وخلائط بالغة الكثافة تأبى المرور من المصفاة، وكان الأكثر صواباً له أن يقول، اتركينى بسلام فى

www.ibtesamh.com/vb

حربى. وفى صباح اليوم الرابع، كما لو أن عفاريت الخبث والأخطاء، ممثلة بمختلف المواد المستخدمة، قد ندمت على أسلوبها القاسى فى تعاملها مع المبتدئ الطارئ فى الفن الجديد، بدأ سيبريانو ألجور يجد نعومة حيث كان يواجه الخشونة من قبل، ووداعة تملؤه بالامتنان، وأسراراً تنكشف. كان يضع المرجع المساعد فوق الرف، مبللاً، ملطخاً بآثار الأصابع المتسخة، يطلب منه النصح بين خمس دقائق وأخرى، يخطئ أحياناً فى فهم ما قرأه، وأحياناً يضىء له حدس مفاجئ صفحةً بكاملها، وليس من غير المناسب التأكيد أن سيبريانو ألجور كان يتذبذب بين أشد أشكال التعاسة تمزقاً وأقصى أنواع البهجة كمالاً. كان ينهض من الفراش مع أول أنوار الفجر، وينهى فطوره بلقمتين ويعتكف فى مشغل الخزف حتى موعد الغداء، ثم يشتغل بعد ذلك طيلة فترة بعد الظهر حتى وقت متقدم من السهرة، مع وقفة قصيرة لتناول العشاء بسرعة، وبزهد لا يبقى مديناً معه بشىء للوجبات الخفيفة الأخرى. وكانت الابنة تحتج، سوف تمرض وأنت تعمل بهذه الطريقة وتأكل قليلاً، إننى فى أحسن حال، يجيبها هو، ولم أشعر فى حياتى بأننى أفضل حالاً مما أنا عليه الآن. وكان ذلك صحيحاً وغير صحيح. ففى الليل، عندما يذهب أخيراً للنوم، نظيفاً من روائح الجهد وأوساخ العمل، كان يشعر أن مفاصله تطقطق، وأن بجسده ألمًا متواصلاً. لم يعد باستطاعتى ما كنت أستطيعه، كان يقول لنفسه، ولكن صوتاً فى أعماق وعيه، صوتاً هو

www.ibtesamh.com/vb

منه أيضاً، يعارضه، لم تستطع من قبل ما تستطيعه الآن يا سيبريانو، لم تستطع كل هذا قطّ. وكان ينام مثلما يفترض بالحجر أن ينام، بلا أحلام، بلا اهتزاز، يبدو كأنه بلا تنفس، يُريح فوق العالم كل ثِقل إنهاكه اللامتناهى. فى بعض الأحيان، كأمٍ قلقة، تستبق مخاوف مستقبلية دون أن تكون قد فكرت فى ذلك، تنهض مارتا فى منتصف الليل لترى كيف هو أبوها. تدخل بصمت إلى حجرته، تقترب ببطء من السرير، تنحنى قليلاً لتسمع، ثم تخرج بالحذر نفسه الذى دخلت به. ذلك الرجل الكبير، ذو الشعر الأبيض والوجه المنهوك، أبوها، كان أشبه بابن لها أيضاً، ومن ينكر هذا لا يعرف إلا القليل من الحياة، فالخيوط التى تشابك العلاقات الإنسانية عموماً، وعلاقات القرابة بصورة خاصة، لاسيما القرابة المقربة منها، هى أشد تعقيداً مما تبدو عليه للوهلة الأولى، نقول آباء، ونقول أبناء، معتقدين أننا نعرف تماماً ما نتكلم عنه، ولا نتساءل حول الأسباب العميقة للعواطف الكامنة هناك، أو اللامبالاة، أو الكراهية. تخرج مارتا من الحجرة وتمضى مفكرة إنه نائم (Duerme) وهذه كلمة تبدو فى الظاهر أنها لا تفعل أكثر من التعبير عن حقيقةِ واقعٍ، ومع ذلك، بستة حروف، بمقطعين صوتيين، كانت قادرة على ترجمة كل الحب الذى يمكن أن يتسع له قلبٌ بشرى فى لحظة معينة. ومن الملائم القول، من أجل تعليم السَّذج، أنه كلما كان التفخيم فى الكلام أكبر، تكون الحقيقة أقل.

www.ibtesamh.com/vb

توافق اليوم الرابع مع موعد ذهابه لإحضار مرسيال من المركز فى يوم عطلته، وهى العطلة التى ينبغى لنا، بصورة طبيعية، أن ندعوها أسبوعية لو لم تكن، مثلما نعرف، عشرية، أى مرة كل عشرة أيام. قالت مارتا لأبيها إنها ستذهب هى، وألا يقطع عمله، لكن سيبريانو ألجور أجابها أن لا، وألا تفكر مجرد تفكير فى ذلك، صحيح أن عمليات السطو فى الطريق العام قد تناقصت، ولكن هناك مجازفة على الدوام، إذا كان ثمة خطر علىّ، فإن الأمر ينطبق عليكَ أيضاً، أولاً أنا رجل، وثانياً لستُ حاملاً، مسوغان محترمان ينفعان فى تنميقك وحسب، مازال لدى سبب ثالث، وهو المهم، أخبرنى به، لن أتمكن من العمل إلى أن تعودى، أى أن العمل لن يتضرر بذهابى، ثم إن الرحلة ستفيد فى تهوية رأسى، وهذه ضرورة أحتاج إليها، إننى غير قادر على التفكير إلا فى قوالب وخلائط، وستفيدنى أنا أيضاً فى تهوية نفسى، ولهذا سنذهب كلانا لإحضار مرسيال، وسيبقى لقية لحراسة القلعة، إذا كان هذا ما تريدينه، إنسَ الأمر، فقد كنت أمزح، فأنت معتاد على الذهاب لإحضار مرسيال، وأنا معتادة على البقاء فى البيت، ولتحيا العادة، فلنذهب معاً، بجد، اذهب أنت، بجد. ابتسما وأُرجئت المسألة المركزية، أى مسألة المسوغات الموضوعية والذاتية للعادة. وبعد الظهر، عندما حان الوقت، ودون أن يستبدل ملابس العمل كيلا يضيع الوقت، انطلق سيبريانو ألجور على الطريق. وحين أشرف على الخروج من القرية، انتبه إلى أنه لم يلتفت

www.ibtesamh.com/vb

لدى مروره قبالة الشارع الذى تعيش فيه إساورا مادروجا، وعندما يقال هنا التفات، يمكن أن يُفهم ذلك على أنه التفات إلى هذا الجانب أو ذاك، ذلك أن سيبريانو ألجور، فى أيام ماضية، كان ينظر فى بعض الأحيان لعله يرى، وفى أحيان أخرى ينظر إلى حيث هو واثق من أنه لن يرى. وخطرت لذهنه فكرة أن يسأل نفسه كيف يفسر عدم المبالاة المحيِّرة، لكن حجراً فى منتصف الطريق شغله عن ذلك، وضاعت الفرصة. الرحلة باتجاه المدينة انقضت دون مصاعب، تعرض فقط لتأخير سببه حاجز للشرطة يوقف سيارة ويترك التى تليها بهدف تفحص وثائق السائقين. وبينما هو ينتظر أن يعيدوا إليه وثائقه، وجد سيبريانو ألجور الوقت ليلاحظ أن خط حدود الأكواخ قد انزاح قليلاً باتجاه الطريق العام، وفكر، **سيعيدون** دفعها إلى الوراء فى أى يوم.

كان مرسيال ينتظر. اعذرنى لتأخرى، قال الحمو، كان علىّ أن أخرج فى وقت أبكر من البيت، والشرطة أرادت بعد ذلك دسّ أنفها فى الأوراق، **كيف** هى مارتا، سأله مرسيال، فيوم أمس لم أستطع الاتصال بالهاتف، **أظن** أنها فى حالة جيدة، وعليك أن تكلمها على أى حال، فهى تأكل قليلاً وبلا شهية وتقول إن ذلك عادى بين النساء الحوامل، وقد يكون كذلك فعلاً، فأنا لا أفهم فى هذه الأمور، ولكننى لو كنت مكانك لما وثقت بذلك، **سأكلمها**، كن مطمئناً، وربما السبب أنها فى بداية الحمل، **لسنا** نعرف شيئاً، إننا

www.ibtesamh.com/vb

حيال هذه الأمور أشبه بطفل ضائع، عليك أن تأخذها إلى الطبيب. لم يجب مرسيال بشيء. وصمت الحمو. من المؤكد أنهما يفكران فى الشيء نفسه، فى أن الفحوص فى مستشفى المركز لا مثيل لها فى أى مكان آخر، هذا على الأقل ما يعلنه الصوت الشعبى، وستكون العناية أفضل لأنها زوجة موظف، بالرغم من أن الإقامة هناك ليست شرطاً لجعلها مؤهلة للتمتع بالرعاية. وبعد دقيقة، قال سيبريانو ألجور، عندما تشاء سأُحضر إليك مارتا. كانا قد خرجا من المدينة، وصار بإمكانهما التحرك بسرعة أكبر. سأله مرسيال، **كيف** يمضى العمل، **مازلنا** فى البداية، لقد شوينا الدمى التى قولبناها، وأنا أعمل الآن فى القوالب، **وكيف** الحال، **يخدع** أحدنا نفسه، يظن أن أى صلصال هو صلصال، وأن من يعمل شيئاً يمكنه عمل شيء آخر، ثم يكتشف أن الأمر ليس كذلك، وأنه علينا أن نتعلم من البدء. توقف قليلاً ليضيف بعد ذلك، **ولكننى** سعيد، إنه شيء قريب قليلاً من كونى أحاول الولادة من جديد، مع الاعتذار للمبالغة، **غداً** سأساعدك قليلاً، قال مرسيال، ما أعرفه أقل من قليل، ولكننى سأكون نافعاً فى شيء ما، **لا**، أنت ستبقى مع زوجتك، اخرجا معاً فى جولة، **لن** نخرج فى جولة، ولكن علينا الذهاب غداً للغداء فى بيت أبوىّ، فهما لم يعلما بعد أن مارتا حامل، سيبدأ ذلك بالظهور فى أى يوم، ويمكن لك أن تتصور ما الذى سأسمعه، **وسيكونان** محقين، لابد من أن نكون عادلين، قال سيبريانو ألجور. صمت آخر. الطقس

www.ibtesamh.com/vb

جيد، لاحظ مرسيال، عسى أن يستمر ذلك أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، قال الحمو، فالدمى يجب أن تذهب إلى الفرن جافة إلى أقصى حدّ ممكن. صمت جديد ومديد هذه المرة. كانت الشرطة قد رفعت حاجزها، وكان الطريق مفتوحاً. حاول سيبريانو ألجور أن يتكلم مرتين، وأخيراً تكلم فى المرة الثالثة، **هل** من جديد بشأن ترقيتك، سأله، **لا** شيء حالياً، أجاب مرسيال، **أتظن** أنهم بدّلوا رأيهم، **لا**، إنها مسألة إجراءات وحسب، فالنظام البيروقراطى فى المركز شديد التكلف مثل هذا العالم خارجه، **مع** ما فيه من دوريات شرطة تدقق فى رخص السياقة، وبوليصات التأمين، والشهادات الصحية، إنه الأمر نفسه إلى هذا الحد أو ذاك، **يبدو** أننا لا نعرف أن نعيش بطريقة أخرى، **ربما** لا توجد طريقة أخرى للعيش، **أو** ربما أن الوقت قد فات من أجل وجود طريقة أخرى. لم يعودا إلى الكلام حتى مدخل القرية. طلب مرسيال من حميه أن يمر من أمام بيت أبويه، **فقط** لما يتطلبه من وقتٍ إخبارهما بأننا سنذهب غداً لتناول الغداء معهما. لم يكن الانتظار طويلاً فى الواقع، ولكن مرسيال بدا، مرة أخرى، غير مرتاح عند دخوله إلى الشاحنة، **ما** الذى جرى لك الآن، سأله سيبريانو ألجور، **ما** جرى لى هو أن كل شيء يخرج على أسوأ حال فى علاقتى بأبوىّ، **لا** تبالغ يا رجل، فحياة الأسر لم تكن قط ما يمكن تسميته بحراً من الزهور، إننا نعيش ساعات طيبة وساعات سيئة، ونكون محظوظين جداً إذا ما كان معظمها بين بين، **دخلتُ**،

www.ibtesamh.com/vb

وكانت أمى وحدها فى البيت، فأبى لم يرجع بعد، أوضحتُ لها مجيئى، ومن أجل تنشيط المحادثة، باستخدام نبرة وقورة ومرحة فى الوقت نفسه، نبهتها إلى أنهما سيطلعان غداً على مفاجأة عظيمة، وبعد ذلك، يمكنك أن تتكهن ما كان عليه ردّ أمى، لا يمكن لمواهبى التنبوئية أن تصل إلى هذا الحد، سألتنى عما إذا كانت المفاجأة العظيمة هى أنهما سيذهبان للعيش معى فى المركز، وماذا قلت لها أنت؟ قلت أن لا، وأنه ليس هناك فى نهاية المطاف ما يستحق تأخير المفاجأة حتى الغد، وقلت لها فلتعلما إذاً أن مارتا حامل، وسيكون لنا ابن، وقد ابتهجت أمك بذلك طبعاً، أجل، بالطبع، ولم تتوقف عن معانقتى وتقبيلى، ولماذا تشكو إذاً، المسألة هى أنه لابد على الدوام من ظهور سحابة سوداء فى سماء علاقتى بهما، وهذه السحابة الآن هى الفكرة الثابتة فى العيش فى المركز، أنت تعرف أننى لا أنزعج من التخلى عن مكانى، ولا بأى حال، فهذا أمر خارج النقاش، ليس لأننى استبدلتُ أبوىّ بحمىّ، وإنما لأن لدى كل من أبوى نصفه الآخر، بينما سيظل الحمو وحيداً، لن أكون الشخص الوحيد الذى يعيش وحيداً فى هذا العالم، أؤكد لك أنك ستكون كذلك فى نظر مارتا، لقد جعلتنى عاجزاً عن الردّ، هناك أمور لا تحتاج لشدة وضوحها إلى أى تفسير. وحيال هذا المظهر الحاسم من الحكمة الأساسية، وجد الخزاف نفسه مرة أخرى عاجزاً عن الجواب. وقد أسهم سبب آخر كذلك فى الصمت المفاجئ، ذلك أنهما كانا يمران فى تلك

www.ibtesamh.com/vb

اللحظة بالذات قبالة شارع إساورا مادروجا، وهو أمر لم يجد معه وعى سيبريانو ألجور، خلافاً لما حدث فى رحلة الذهاب، طريقة للبقاء دون مبالاة. وعند وصولهما إلى مشغل الخزف، أحس مرسيال بسعادة غير متوقعة حين رأى لقية يستقبله كما لو أنه لا يرتدى زىّ حارس المركز وإنما أشد الملابس سلمية ومدنية. تأثر بشدة قلب الشاب الحساس الذى مازال متألماً من المحادثة غير الموفقة مع والدته، بمظاهر كشف الحيوان عن مشاعره، فاحتضنه كما لو أنه أحب شخص إليه. إنها لحظات خاصة، ولا حاجة إلى التذكير بأن أكثر شخص يحبه مرسيال فى الحياة هى زوجته، هذه التى تنتظر إلى جانبه بابتسامة حانية أن يأتى دورها فى المعانقة، ولكن مثلما هناك مناسبات تجعلنا فيها مجرد يد على الكتف نذوب فى الدموع، يمكن أيضاً أن يحدث أن تجعلنا سعادة كلب نزيهة نتصالح للحظة قصيرة مع الآلام، ومع الخيبات والمنغصات التى تسبب بها العالم لنا. وحيث إن لقية لا يعرف إلا القليل عن المشاعر البشرية، فإن وجودها، سواء بجانبها الإيجابى أم السلبى، تبدو مؤكدة بصورة مرضية، ولأن معرفة مرسيال أقل من ذلك بالمشاعر الكلبية، واليقين بشأنها ضئيل والشكوك كثيرة، فلابد لأحد من أن يوضح لنا يوماً ما هى شياطين الأسباب القابلة لفهم هذا وذاك، التى جعلت كليهما يتعانقان هنا بينما هما لا ينتميان حتى إلى النوع نفسه. وبما أن تشكيل قوالب الدمى كان الحدث الجديد بالمطلق

www.ibtesamh.com/vb

فى مشغل الخزف، لم يستطع سيبريانو ألجور إلا أن يعرض على صهره ما صنعه فى تلك الأيام، غير أن كبرياءه الذى دفعه إلى رفض مساعدة ابنته، عانى من فكرة أن صهره قد يلاحظ خطأ ما، عيباً يصعب إصلاحه، أو إشارة من تلك الإشارات الكثيرة التى تشى بسهولة بالاحتضار الذهنى الذى عاشه ضمن تلك الجدران الأربعة. وبالرغم من أن مرسيال سيكون مشغولاً جداً مع مارتا بحيث لا يتمكن من الانتباه إلى الصلصال وسيلكات الصوديوم والجبس والعلب والقوالب، فقد قرر الخزّاف ألا يعمل اليوم بعد العشاء، وأن يرافقهما فى أحاديث ما بعد تناول الطعام، مما أدى إلى فتح المجال له للتأمل بدقة نظرية كافية فى موضوع يعرف أكثر من أى شخص آخر إلى أى حدّ وبأية نتائج كارثية خالفته فيه الممارسة العملية. أخبر مرسيال مارتا بأنهما سيتناولان الغداء فى اليوم التالى عند أبويه، ولكنه لم يشر ولو بصورة عابرة إلى الحوار المحزن مع أمه، بحيث جعل حماه يفكر فى أنها مسألة انتقلت إلى الميدان الخاص، وأنها مشكلة تُناقش فى حميمية المخدع، وليس لتكرارها والتفصيل فيها فى حديث بين ثلاثة، اللهم إلا إذا كان مرسيال، بأشد مظاهر الحذر جدارة، يرمى ببساطة إلى تجنب الوقوع مرة بعد أخرى فى الجدل حول مسألة الانتقال الشائكة إلى المركز، وقد رأينا بعمق كيف تبدأ، ورأينا بعمق كيف تنتهى.

www.ibtesamh.com/vb

فى صباح اليوم التالى، وكان سيبريانو ألجور قد انكب على عمله، دخل مرسيال إلى مشغل الخزف، صباح الخير، قال، لقد حضر المتدرب. كانت مارتا آتية معه، ولكنها لم تعرض مشاركتها فى العمل، على الرغم من ثقتها من أن أباها لن يطردها هذه المرة. كان المشغل أشبه بميدان معركة احتله طوال أربعة أيام شخص وحيد يصارع ضد نفسه وضد كل ما يحيط به، المكان غير مرتب بعض الشىء، قال سيبريانو ألجور معتذراً، لا شىء كما فى السابق، فعندما كنا نصنع الأوانى الخزفية كانت لدينا معايير، كان لدينا روتين ثابت، إنها مسألة وقت فقط، قالت مارتا، فمع مرور الوقت تعتاد الأيدى والأشياء بعضها على بعض، وعندئذ لا تعود الأشياء تربك ولا تسمح الأيدى بالإرباك، فى الليل أشعر بإنهاك شديد تتهدل معه يداى لمجرد التفكير فى أنه علىّ ترتيب هذه الأشياء، كان بإمكانى تولى هذه المهمة بطيبة خاطر لو لم تمنعنى من الدخول إلى هنا، لم أمنعكِ، لا، لم تقله بهذه الكلمات بالذات، المسألة أننى لا أريدك أن تتعبى، عندما يأتى وقت البدء بالطلاء سيكون الأمر مختلفاً، لأنكِ ستعملين وأنت جالسة ولن تضطرى إلى بذل مجهود، فلنر إذا لم يخطر لكَ عندئذ أن تقول لى إن رائحة الطلاء ستؤذى الطفل، من الواضح أنه لا سبيل إلى التحدث مع هذه المرأة، قال سيبريانو ألجور لمرسيال كمن استسلم لطلب مساعدة، أنت تعرفها قبلى بزمن طويل، تحلَ بالصبر، ولكن المكان بحاجة إلى تنظيف جدّى وترتيب فعال، هذا أمر لا

www.ibtesamh.com/vb

شك فيه، لدى فكرة، هل يأذن لى السيدان بأن تكون لدى فكرة، إنها لديك، وسوف تنفجرين إذا أنتِ لم تطرحيها خارجاً، قال الأب متذمراً، وما فكرتك، سألها مرسيال، هذا الصباح سترتاح العجينة، وسوف نعيد هذا المكان كله إلى حالة محترمة، وبما أن أبى الحبيب لا يريدنى أن أتعب فى العمل، فإننى سأكتفى بإصدار الأوامر. تبادل سيبريانو ألجور ومرسيال النظر أحدهما إلى الآخر، ليريا من الذى سيتكلم أولاً، ولأن أياً منهما لم يحسم أمره بالكلام، فقد انتهيا إلى القول معاً، موافق. وقبل موعد خروج مرسيال ومارتا إلى الغداء كان مشغل الخزف وكل ما فيه نظيفاً ومرتباً بالقدر الذى يمكن انتظاره من مكان عمل؛ حيث الطين هو المادة الأولية الأولى فى البضاعة المصنّعة. الحقيقة أننا إذا ما مزجنا الماء بالصلصال، أو الماء بالجبس، أو الماء بالإسمنت، فإننا نستطيع أن نقلب مخيلتنا مثلما نشاء من أجل اختراع تسمية لها أقل فظاظة، أقل ابتذالاً، أقل عادية، ولكننا سننتهى دوماً، عاجلاً أو آجلاً، إلى الوصول إلى الكلمة الدقيقة، الكلمة التى تقول ما يتوجب قوله: طين. آلهة كثيرون، ممن هم معروفون أكثر من غيرهم، لم يرغبوا فى أية مادة أخرى من أجل مخلوقاتهم، ولكن من المشكوك فيه إذا ما كان ذلك التفضيل يمثل اليوم نقطة لصالح الطين أم نقطة ضده.

تركت مارتا غداء الأب جاهزاً، ما عليك إلا تسخينه، قالت وهى تخرج مع مرسيال. تضاءلت

www.ibtesamh.com/vb

الضجة الضعيفة الصادرة عن الشاحنة وسرعان ما تلاشت تماماً. ساد الصمت فى البيت وفى مشغل الخزف، وسيبقى سيبريانو ألجور وحيداً طوال أكثر من ساعة. سيكون مرتاحاً من الحالة العصبية فى الأزمنة الأخيرة، ولم يتأخر طويلاً فى الانتباه إلى أن معدته بدأت تقدم له إشارات عدم الرضا. حمل أولاً الطعام إلى لقية، ثم دخل بعد ذلك إلى المطبخ، رفع غطاء القدر وشمّ، الرائحة زكية والطعام لا يزال ساخناً. لم يكن هناك أى سبب يدعوه للانتظار. عندما انتهى من تناول الطعام، وبينما هو جالس على أريكة استراحته، أحس أنه بأمان. من المعروف جيداً أن متعة الروح ليست بمنأى عن تحسس التغذية الكافية للجسد، ومع ذلك، إذا كان سيبريانو ألجور يشعر بالأمان فى هذه اللحظة، إذا كان يشعر بنوع من التحول شبه المبهج فى كيانه كله، فإن ذلك لا يعتمد فقط على الفعل المادى المتمثل فى تناوله الطعام. فحسب الترتيب، ساهم كذلك فى حالته المعنوية السعيدة التقدم المؤكد فى تمكنه من تقنية القولبة، والأمل فى أنه اعتباراً من الآن ستنتهى المشاكل أو تتحول إلى مشاكل أقل صعوبة، والتفاهم الرائع بين مارتا ومرسيال الذى يملأ، كما يقال عادة، عينى أى شخص، وأخيراً، وهو أمر لا يقل أهمية، النظافة المعمقة للمشغل. تراخى جفنا سيبريانو ألجور ببطء، وارتفعا ثانية، ثم فتحهما مرة أخرى بمشقة أكبر، وفى المرة الثالثة انتقل إلى محاولة خالية من أية قناعة. وبروحه ومعدته فى حالة امتلاء تام، استسلم

www.ibtesamh.com/vb

سيبريانو ألجور للانزلاق نحو النعاس. وفى الخارج، فى ظل شجرة التوت، كان لقية نائماً أيضاً، وكان يمكن لهما أن يظلا على تلك الحال حتى عودة مرسيال ومارتا، ولكن الكلب نبح فجأة. لم تكن نبرة النباح متوعدة ولا خائفة، بل مجرد تنبيه عادى، كمن ينجز واجب وظيفته، حتى لو كنت أعرف الشخص القادم، يتوجب علىّ أن أنبح؛ لأن هذا ما يُنتظر منى فعله. لم يكن نباح لقية غير المستاء مع ذلك هو ما أيقظ سيبريانو ألجور، ولكن ما أيقظه كان صوتاً، صوت امرأة تنادى من الخارج، **مارتا**، ثم سألت بعد ذلك، **هل** أنت فى البيت يا مارتا؟ لم ينهض صانع الخزف عن الأريكة، اكتفى برفع بدنه قليلاً، كما لو أنه يستعد للهرب. توقف الكلب عن النباح، كان باب المطبخ مفتوحاً، وتقدمت المرأة فى ذلك الاتجاه، كانت تقترب أكثر فأكثر، أوشكت على الظهور، فإذا لم يكن هذا اللقاء الجديد نتيجة حدث طارئ، إذا كان مجرد توافق مصادفة محضة، وإذا كان مُقدراً ومسجلاً فى سجل الأقدار، فإنه لا يمكن لزلزال أن يقطع عليه الطريق. كان لقية هو الذى دخل أولاً يهز ذيله، ثم ظهرت إساورا مادروجا. **آه**، هتفت متفاجئة. لم يكن النهوض سهلاً على سيبريانو ألجور، فالأريكة المنخفضة والساقان الضعيفتان فجأة كانت السبب فى الهيئة الكئيبة التى بدا بها. قال لها، **مساء** الخير. وقالت له، **مساء** الخير، صباح الخير، لا أدرى كم هى الساعة بالضبط الآن. فقال، **لقد** تجاوزت منتصف النهار. وقالت، **ظننتُ** أن الوقت أبكر. قال هو، **مارتا**

www.ibtesamh.com/vb

غير موجودة، ولكن تفضلى بالدخول. فقالت، **لا** أريد إزعاجك، سأعود فى وقت آخر، فما جئت من أجله ليس مستعجلاً بأى حال. وقال، لقد ذهبت مارتا مع مرسيال لتناول الغداء فى بيت حميها، لن يتأخرا. وقالت، **جئت** فقط لأخبر مارتا بأننى حصلتُ على عمل. وقال، **حصلتِ** على عمل، أين. فقالت، **هنا** بالذات، فى القرية لحسن الحظ. وقال، **وفى** أى شىء ستعملين. قالت، **فى** متجر، سأتولى الخدمة على الكونتوار. قال، **أيعجبكِ** هذا العمل. قالت، **فى** الحياة لا يمكن لنا العمل دوماً فيما يعجبنا، الشىء الأساسى بالنسبة لى هو البقاء هنا، ولم يجب سيبريانو على قولها هذا، ظل صامتاً، وقد فوجئ بالأسئلة التى خرجت من فمه دون أن يفكر فيها تقريباً، فما يتبادر إلى ذهن أى شخص هو أنه عندما يوجه أحدهم أسئلة فإنما يفعل ذلك لأنه يريد أن يعرف، وإذا كان يريد أن يعرف فلا بد أن يكون لديه سبب، والمسألة المبدئية التى يريد سيبريانو ألجور توضيحها الآن فى فوضى مشاعره هى سبب أسئلته التى تكشف - إذا ما فُهمت بحرفيتها، ولا يبدو فى هذه الحالة أن هناك طريقة أخرى لفهمها - عن اهتمام بحياة هذه المرأة ومستقبلها يتجاوز كثيراً ما هو طبيعى انتظاره من جار طيب، وهذا الاهتمام من جهة أخرى، مثلما نعرف جيداً، يتناقض جذرياً مع قرارات وأفكار راح يتبناها سيبريانو ألجور نفسه على امتداد هذه الصفحات بشأن إساورا إستوديوسا من قبل، ومادروجا حالياً. المشكلة جدية وتتطلب تأملاً

www.ibtesamh.com/vb

واسعاً وواعياً، غير أن المنطق الناظم لهذه الرواية وتوجهها، وإن كان خرقهما ممكناً بين حين وآخر، بل وواجباً فى بعض الأحيان، لا يسمحان لنا بأن نترك إساورا مادروجا وسيبريانو ألجور لمزيد من الوقت فى هذا الموقف الحرج، مجبرين على البقاء صامتين أحدهما أمام الآخر، مع وجود كلب ينظر إليهما دون أن يفهم ما الذى يحدث، ومع وجود ساعة حائط تسأل، فى تكتكتها، لماذا يريد هذان الاثنان الوقت إذا كانا لا يستغلانه. ومن الضرورى بالتالى القيام بشىء ما. أجل، القيام بشىء ما، ولكن ليس أى شىء. صحيح أنه يمكن لنا ويتوجب علينا أن نخرق المنطق الناظم للرواية وتوجهها، ولكن لا يمكن بأى حال على الإطلاق خرق ما يشكل الطابع الحصرى والجوهرى لشخص ما، أى شخصيته وطريقته فى العيش، وحضوره الخاص المتميز. يمكن لنا أن نتقبل فى الشخصية كافة التناقضات، ولكن لا يمكن القبول بأى عدم تماسك فيها، ونصر على هذه النقطة بصورة خاصة؛ لأن عدم التماسك والتناقض، خلافاً لما تشير إليه المعاجم، ليسا مترادفين. ففى أعماق تماسكه بالذات يمضى الشخص أو الشخصية متناقضاً، بينما عدم التماسك، لكونه طبعاً ثابتاً فى السلوك أكثر من التناقض، فإنه يصد عن ذاته التناقض، يصفيه، لا يتفهم التعايش معه. وانطلاقاً من هذه الرؤية، وإن كنا نجازف فى الوقوع فى شباك التناقض الظاهرى الباعث على الشلل، يجب عدم استبعاد فرضية أن التناقض سيكون، فى النهاية، وبصورة محددة، واحداً

www.ibtesamh.com/vb

من عوامل التماسك المناقضة لعدم التماسك. آه منا، فهذه التأملات النظرية، وربما غير المجردة تماماً من الأهمية بالنسبة لأولئك الذين يكتفون بالمظهر السطحى والمألوف للمصطلح، قد أبعدتنا أكثر فأكثر عن الوضع الحرج الذى تركنا فيه سيبريانو ألجور وإساورا مادروجا على انفراد أحدهما مع الآخر، لأن لقية أدرك أنه لا يحلّ ولا يربط هناك، وأحسن عملاً بابتعاده وعودته إلى ظل شجرة التوت ليواصل نومه الذى انقطع. لقد حان الوقت إذًا للبحث عن حلّ لهذه الحال غير المقبولة، بأن نجعل على سبيل المثال إساورا مادروجا، وهى أكثر حسماً لكونها امرأة، تنطق بضع كلمات قليلة لمجرد أن نبين أنه لا فرق فيما تقوله، إذ يمكن أن تنفع هذه الكلمات مثل أية كلمات سواها، حسن، سأنصرف إذاً، وفى أحيان كثيرة لا تكون ثمة حاجة إلى المزيد، فهذه كافية لكسر الصمت، وأن تحرك جسدها قليلاً كمن تنوى الانسحاب، وقد كان ذلك وسيلة مباركة فى هذه الحالة على الأقل، بالرغم من أنه لم يخطر لصانع الخزف سيبريانو ألجور، للأسف، شيئاً أفضل من إفلات سؤال جعله يوجّه فيما بعد لكمات إلى رأسه، وليحكم كلٌ منا إذا كان الحدث يستحق ذلك، وماذا تقولين لى عن إبريقنا؟ سألها، أما زال يؤمن لك خدمة جيدة. وسيوجه سيبريانو ألجور لكمات إلى رأسه كعقوبة لما اعتبره حماقة لا تغتفر، ولكن فلننتظر إلى ما بعد، حين يفارقه غضب المعاقبة الذاتية، ويتذكر أن إساورا مادروجا لم تطلق قهقهة مهينة مقابل ذلك، ولم

www.ibtesamh.com/vb

تضحك بقسوة، بل إنها لم تبتسم ابتسامة السخرية الخفيفة تلك التى يبدو أن الموقف يتطلبها، بل على العكس من ذلك، بدت جدية، وقاطعت ذراعيها على صدرها كما لو أنها مازال تحتضن الإبريق، ذلك الإبريق الذى أسماه سيبريانو ألجور إبريقنا دون أن ينتبه إلى الهفوة اللفظية، وربما بعد ذلك فى الليل، بينما كان النعاس يقترب، استجوبته هذه الكلمة حول النية الفعلية التى كانت لديه عندما نطق بها، وإذا ما كان ذلك الإبريق هو إبريقنا؛ لأنه انتقل ذات يوم من يد إلى أخرى، ولأنه يتكلم عنه مثلما كان فى تلك اللحظة، أم إنه إبريقنا لأنه لنا، لنا دون لف ولا دوران، لنا فقط، لنا نحن ـ الاثنين ـ لنا ونقطة على السطر. ولن يرد سيبريانو ألجور على هذه الأسئلة، بل سيدمدم كما فى مرات أخرى، **يا** للبلاهة، ولكنه يفعل ذلك بطريقة آلية، وبنبرة شديدة الحدّة وواثقة، ولكن دون قناعة حقيقية. والآن، وقد انسحبت إساورا مادروجا بعد أن قالت بلعثمة **إلى** اللقاء فى يوم آخر، الآن وقد خرجت من هذا الباب مثل ظل رقيق، الآن وقد رجع لقية بعد أن رافقها حتى بداية الدرب المؤدى إلى الطريق العام، ودخل إلى المطبخ بملامح واضحة التساؤل فى انحناءة الرأس، وفى اهتزاز الذيل، وفى انتصاب الأذنين، الآن انتبه سيبريانو ألجور إلى أنها لم تقل كلمة واحدة فى الرد على سؤاله، لم تقل نعم، ولم تقل لا، وإنما تلك الحركة فى احتضان جسمها فقط، ربما لتجد نفسها فيه، وربما لتحميه أو لتحمى نفسها منه. تطلع سيبريانو ألجور فيما حوله حائراً،

www.ibtesamh.com/vb

كما لو أنه ضائع، كانت يداه رطبتين، والقلب منفلتًا فى الصدر، ولهفة من تمكن الهرب للتو من خطر لم تتوصل خطورته إلى امتلاك مفهوم واضح. وعندئذ لكم رأسه أول مرة.

عندما رجعت مارتا ومرسيال من الغداء، وجداه فى مشغل الخزف، يسكب جبساً سائلاً فى أحد القوالب، **كيف** أمضيت الوقت من دوننا، سألته مارتا، لم أمت من الحنين، إذا كان هذا هو ما تعنينه، لقد قدمتُ الطعام للكلب، وتناول الغداء، واسترحتُ قليلاً، وهأنذا هنا مرة أخرى، وكيف هى الأمور فى ذلك البيت؟ **لا** وجود لشىء خاص، قال مرسيال، وبما أننى كنت قد أخبرتهما بأمر حمل مارتا، لم تجر احتفالات كبيرة، وإنما القبلات والمعانقات العادية فى مثل هذه المناسبات، أما عن الشئون الأخرى فلم يدر أى حديث، **هـ**كذا أفضل، قال سيبريانو ألجور، وواصل سكب مزيج الجبس فى القالب. كانت يداه ترتجفان قليلاً. **سـ**وف آتى فوراً لمساعدتك، إننى ذاهب لاستبدال ملابسى، قال مرسيال. لم تلحق مارتا بزوجها. بعد دقيقة من ذلك، سألها سيبريانو ألجور دون أن ينظر إليها، **أ**تريدين شيئاً؟ **لا**، لا أريد شيئاً، إننى أرى عملك وحسب. مرت دقيقة أخرى، وكان دور مارتا فى السؤال، **هـ**ل تشعر بأنك لست على ما يرام؟ إننى على ما يرام بالطبع، **أ**راك غريباً جداً، مختلفاً، إنهما عيناك، **عـ**ينـاى متفقتان معى عموماً، **إ**نك محظوظة، فأنا لا أعرف أبداً مع من أتفق، أجابها الأب بجفاء. لا

www.ibtesamh.com/vb

يمكن لمرسيال أن يتأخر طويلاً. ومارتا عادت للسؤال، **هـل** حدث شيء فى غيابنا. ترك الأب الدلو على الأرض، مسح يديه بخرقة، وردّ ناظراً إلى ابنته مواجهة، **جـاءت** إلى هنا إساورا، تلك المدعوة إستوديوسا أو مادروجا، أو أية تسمية تشائين، جاءت للتحدث إليك، **إساورا** جاءت إلى هنا، **ولا** أظنها قالت من الكلمات أكثر مما قلته لك للتو، **لسنا** نملك جميعنا مثل قدرتك التحليلية، وما الذى كانت تريده إذا كانت معرفة ذلك ممكنة، أرادت أن تخبركِ بأنها وجدت عملاً، **أين**، **هـنا**، **هـذا** يسعدنى، يسعدنى كثيراً، **سـأذهب** فيما بعد إلى بيتها. كان سيبريانو ألجور قد تحول إلى الاهتمام بقالب آخر، أبتاه، بدأت مارتا القول، ولكنه قاطعها، إذا كنتِ تريدين الكلام فى هذا الموضوع فلا تواصلى، ما طُلبَ منى أن أنقله إليك صرت تعرفينه، ولا جدوى من أية كلمات أخرى زائدة، إنهم يدفنون البذور أيضاً، ولكنها تنتهى إلى النمو، واعذرنى إذا كان الموضوع نفسه. لم يجبها سيبريانو ألجور. وما بين خروج الابنة وعودة الصهر، سيوجه لكمة أخرى إلى رأسه.

www.ibtesamh.com/vb

كون الكثير من أساطير أصل البشر لا تستبعد الصلصال من عملية الخلق المادية للإنسان هو واقع ذكرناه هنا، وهو فى متناول يد أى شخص متوسط الاهتمام بالتقاويم الكنسية العليمة بكل شىء والموسوعات العليمة بكل شىء تقريباً. وليست هذه، كقاعدة عامة، هى حال المؤمنين بمختلف الأديان الذين يستفيدون من السبل العضوية للكنيسة التى ينتمون إليها لتلقى ودمج هذه المعلومات وكثير غيرها من المعلومات المشابهة أو المماثلة بالأهمية. ومع ذلك، هنالك حالة، حالة واحدة على الأقل، كان لا بد فيها من إرسال الصلصال إلى الفرن حتى يُعتبر العمل منتهياً وناجزاً. وكان ذلك بعد محاولات عديدة. فذلك الخالق الفريد الذى نتحدث عنه وقد نسينا اسمه، ربما كان يجهل، أو أنه لم يكن يثق كثيراً بالفعالية الإعجازية للنفخة فى الأنف التى لجأ إليها خالقٌ آخر من قبل أو سيلجأ إليها فيما بعد، مثلما فعل فى أيامنا سيبريانو ألجور، وإن كان قد فعل ذلك دون أية نوايا أخرى سوى النية المتواضعة بتنظيف

www.ibtesamh.com/vb

وجه الممرضة من الرماد. وبالعودة الآن إلى ذلك الخالق الذى احتاج إلى حمل الإنسان إلى الفرن، وقد جرت الواقعة بالطريقة التى سنشرحها، وحيث يتبدى أن المحاولات المحبطة التى أشرنا إليها كانت نتيجة قصور معرفة الخالق المذكور بدرجات حرارة الطهو. فقد بدأ بصنع هيئة بشرية من الصلصال، وإذا كانت هيئة رجل أو امرأة هو تفصيل لا أهمية له، ثم أدخلها إلى الفرن وأجج النار الكافية. وبعد مرور وقت بدا له مضبوطاً، أخرجها من هناك، و.. رباه، سقطت روحه عند قدميه. فقد خرجت الهيئة سوداء قاتمة، لا تشبه فى شىء الفكرة التى تصورها عن كيف يجب أن يكون الإنسان. ومع ذلك، ربما لأنه كان لا يزال فى بداية نشاطه، لم يجد الشجاعة على تدمير المُنتَج المحبط فى تجربته. منحه الحياة بضربة من إصبعه على الرأس، وأرسله إلى الدنيا. ثم عاد إلى قولبة هيئة أخرى وأدخلها إلى الفرن، ولكنه اهتم هذه المرة بالانتباه إلى النار. وقد توصل إلى ذلك، أجل، ولكن أكثر مما ينبغى، ذلك أن الدمية خرجت بيضاء كأشد الأشياء البيضاء بياضاً، ولكن الخالق قليل البراعة لم يتوصل إلى المخلوق الذى يحلم به. عاد إلى العمل مرة أخرى، واحتلت هيئة بشرية أخرى المكان فى الفرن، وبالرغم من أن مقياس درجات الحرارة العالية لم يكن قد وُجد بعد، إلا أن المشكلة كانت سهلة الحل استناداً إلى ما سبق، وهذا يعنى أن السر كان يكمن فى عدم تسخين الفرن كثيراً أو قليلاً، أى لا زائداً ولا ناقصاً،

www.ibtesamh.com/vb

ووفق قاعدة الثلاثة هذه، ستكون النتيجة الآن طيبة. ولكنها لم تكن كذلك. صحيح أن الهيئة الجديدة لم تخرج سوداء، وصحيح أنها لم تخرج بيضاء، ولكن، آه أيتها السماء، لقد خرجت صفراء. وكان يمكن لأى خالق آخر أن يتخلى عن الأمر، وأن يسارع إلى إطلاق طوفان ليُجهز على الأسود والأبيض، ويدق عنق الأصفر، وهو ما يمكن اعتباره محصلة منطقية للتفكير الذى جال فى ذهنه على شكل سؤال، إذا كنت أنا نفسى لا أعرف أن أصنع إنساناً قادراً، فكيف سأتمكن غداً من محاسبته على أخطائه. وطوال أيام عديدة لم يجد صانع فخارنا المرتجل ذاك الجرأة على الدخول إلى المشغل، ولكن بعد ذلك، ومثلما يقال عادة، انقضت عليه من جديد دويبة الخلق وبعد بضع ساعات كانت الهيئة الرابعة قد أنجزت وصارت جاهزة للذهاب إلى الفرن. وبافتراض أنه كان هنالك آنذاك فوق ذلك الخالق خالقٌ آخر، فالاحتمال الأكبر هو أن الأصغر قد رفع إلى الأكبر شيئاً يشبه التوسل، نوعاً من الصلاة، من التضرع، أو أى شىء من هذا القبيل، **لا** تتركنى أفشل. وأخيراً، أدخل بيدين متلهفتين تلك الهيئة الصلصالية إلى الفرن، وبعد ذلك انتقى بحذر كمية، ووزن الحطب الذى بدا له مناسباً، واستبعد منها الأخضر وشديد الجفاف، وسحب حطبة تشتعل بصورة سيئة ودون لطف، وأضاف أخرى تعطى ناراً مرحة، وقدر بأقرب قدر ممكن الوقت وشدة الحرارة، وكرر التضرع، **لا** تتركنى أفشل، وقرّب

www.ibtesamh.com/vb

عود ثقاب من الوقود. ونحن بشر هذه الأيام، ممن مررنا بحالات جزع كثيرة، مثل امتحان صعب، أو صديقة تخلفت عن الموعد، أو ابن جعلنا ننتظر، أو وظيفة أُنكرت علينا، يمكن لنا أن نتصور ما عاناه ذلك الخالق بينما هو ينتظر نتيجة محاولته الرابعة، والعرق الذى ربما لم يحل دون تجمده إلا القرب من الفرن، والأظفار المقضومة حتى جذورها، كل لحظة تمر كانت تحمل معها عشر سنوات من الحياة، ولأول مرة فى تاريخ مختلف عمليات خلق الكون عرف الخالق نفسه العذابات التى تنتظرنا فى الحياة الأبدية، لكونها أبدية، وليس لكونها حياة. ولكن الأمر كان يستحق ذلك العناء. فعندما فتح خالقنا باب الفرن ورأى ما هو هناك، خرَّ على ركبتيه مفتوناً. هذا الإنسان لم يكن أسود ولا أبيض ولا أصفر، بل كان، أجل، أحمر، أحمر مثلما هو أحمر الفجر والغروب، أحمر مثل مهل البراكين، أحمر مثل النار التى جعلته أحمر، أحمر مثل الدم الذى كان قد بدأ الدوران فى أوردته، لأن تلك هى الهيئة البشرية، لأنها الهيئة المنشودة، لم تكن هنالك حاجة لنقرها بالإصبع على الرأس، بل كان يكفى القول لها، **تعالى**، لتخرج بنفسها ماشية من الفرن. ومن يجهل ما جرى فى العصور التالية سيقول إنه على الرغم من تلك الوفرة من الأخطاء والجزع، أو بفعل الفضيلة التعليمية والتربوية للتجربة، بفضلها كلها، انتهت القصة إلى بلوغ نهاية سعيدة. ومثلما فى كل أمور هذا العالم، وكل العوالم بالتأكيد، فإن الحكم

www.ibtesamh.com/vb

يعتمد على وجهة نظر الملاحظ. أولئك الذين رفضهم الخالق، أولئك الذين أبعدهم عنه، وإن كان بأريحية لطيفة تستحق الشكر، أى ذوو البشرة السوداء، والبيضاء، والصفراء، ازدهروا فى العدد، وتكاثروا، وغطوا، إذا صح القول، الكوكب الأرضى كله، أما ذوو البشرة الحمراء، هؤلاء الذين بذل الخالق فيهم جهداً كبيراً، وعانى من أجلهم بحراً من الهموم والآلام، هم فى هذه الأيام بيانات جلية عاجزة عن كيف يمكن لانتصار أن يتحول، مع مرور الزمن، إلى توطئة خادعة لهزيمة. فالمحاولة الرابعة والأخيرة لأول خالق للإنسان، الذى أدخل مخلوقاته فى الفرن، هذه المحاولة التى جلبت له ظاهرياً النصر الحاسم، تحول فى النهاية إلى خيبة حاسمة. وسيبريانو ألجور، وهو كذلك قارئ مواظب لتقاويم وموسوعات تعرف كل شىء أو كل شىء تقريباً، كان قد قرأ هذه القصة عندما كان لا يزال صبياً، وقد نسى أشياء كثيرة فى الحياة، ولكنه لم ينس هذه القصة، ومن الذى يستطيع معرفة السبب. كانت أسطورة هندية، ولنكون أكثر دقة، أولئك الذين يُسمون ذوى الجلود الحمراء، ومن خلالها أراد مبدعو الأسطورة القدماء إثبات تفوق عرقهم على أى عرق آخر، بما فى ذلك تلك الأعراق التى لم يكن لديهم آنذاك أى خبر عنها. وحول هذه النقطة الأخيرة، نستبق الاعتراض، ستكون فارغة وغير مجدية الحجة بأنهم ماداموا لا يمتلكون معارف عن أجناس أخرى، فلن يكون بإمكانهم كذلك تصور

www.ibtesamh.com/vb

أنها بيضاء أو سوداء أو صفراء أو براقة. مجرد خداع. فمن يتعلل بهذه الحجة لا يثبت لنا إلا جهله بأننا نتحدث هنا عن شعب من صانعى الفخار، ومن الصيادين كذلك، علّمهم العمل الشاق فى تحويل الصلصال إلى إناء أو إلى معبود أنه يمكن فى مجال الصلصال حدوث أى شىء، الكارثة أو المجد، الكمال أو البؤس، السامى أو الفظ. فكم من المرات والمرات، وعلى امتداد كم من الأجيال، كان عليهم أن يُخرجوا من الفرن قطعاً ملتوية، مشروخة، متفحمة، دون شى أو نصف مشوية، وكلها غير نافعة. والواقع أنه لا وجود لفرق كبير بين ما يحدث فى فرن مشغل خزف وفرن خبز. فعجينة الخبز ليست إلا صلصالاً مختلفاً، يُصنع من دقيق وخميرة وماء، ومثله مثل الصلصال الآخر، سيخرج من الفرن ناضجاً، أو فجاً، أو محروقاً. ربما فى الداخل لا يوجد فرق، يفرج سيبريانو ألجور عن نفسه، أما هنا، فى الخارج، فإننى أضمن أنه مستعد لتقديم كل شىء الآن مقابل أن يكون خبازاً. النهارات والليالى تتوالى، والأمسيات والصباحات. ويرد فى الكتب وفى الحياة أن أعمال البشر كانت على الدوام أطول أمداً وأكثر إجهاداً من أعمال الآلهة، وانظر الحالة المذكورة عن خالق ذوى البشرة الحمراء الذى لم ينجز، فى نهاية المطاف، سوى أربع هيئات بشرية، ومقابل هذا العمل القليل، على الرغم من ضآلة النجاح، وجد مدخلاً إلى تاريخ التقاويم، بينما سيبريانو ألجور الذى تنتظره فى الحقيقة مكافأة

www.ibtesamh.com/vb

تسجيل لسيرة حياته، أو موجز لها بحروف مسكوبة. عليه أن ينتزع من أعماق الصلصال، فى هذه المرحلة الأولى فقط، مئة وخمسين مرة أخرى، أى ستمئة دمية، بمواصفات وأوضاع اجتماعية مختلفة، ثلاثة منها، البهلول والمهرج والممرضة، هى الأسهل تحديداً أيضاً بفعل النشاطات التى تمارسها، وهو ما لا ينطبق على موظف المندرين الصينى والآشورى الملتحى اللذين لم يكن بالإمكان تقصى ما فعلوه فى الحياة، على الرغم من المعلومات المعقولة المستعادة من الموسوعة. أما رجل الإسكيمو فيفترض أنه مازال يعمل فى الصيد وصيد السمك. صحيح أن ذلك كله سيان بالنسبة إلى سيبريانو. عندما تبدأ الدمى بالخروج من القوالب، متماثلة فى الحجم، ومخففة باللون المُوَحِد اختلافات الملابس التى تميزهم، يتوجب عليه أن يبذل جهداً فى الانتباه كيلا يخطئ بها ويخلط بينها. وفى استغراقه الشديد فى العمل ينسى أحياناً أن قوالب الحبس لها محدودية فى الاستخدام، حوالى أربعين استخداماً تقريباً، وبعدها تبدأ الحواف بالتشوه، وبفقدان متانتها ووضوحها، كما لو أن الدمية تبدأ التعب من كينونتها شيئاً فشيئاً، وكما لو أنها تأخذ بالتحول إلى حالة عرى أصلية، ليس حالة عريها الخاصة كتشخيص بشرى، وإنما العرى المطلق للصلصال قبل أن يبدأ الشكل الأول المعبر عن فكرة بإلباسه ثياباً. وكيلا يضيع الوقت بدأ بنبذ الدمى غير النافعة فى أحد الأركان، ولكنه بعد ذاك، وقد هزه

www.ibtesamh.com/vb

إحساس غريب ولا تفسير له من الشفقة والشعور بالذنب، هب بحثاً عنها، وكان معظمها مشوهاً ومختلطاً من السقوط والتصادم، وصفَّها بعناية على أحد رفوف المشغل. كان يمكن له أن يعيد عجنها ليمنحها فرصة أخرى بالحياة، وكان يمكن له أن يكورها ويعجنها دون أسى مثلما فعل بدميتى الرجل والمرأة اللتين قولبهما فى البدء، ومازال موجوداً هناك طينُهما الجاف، المشقق، عديم الشكل، ومع ذلك رفع من القمامة المسوخ سيئة التكوين، وحماها، ودثرها، كما لو أنه يحب أعماله الصائبة أقل من أخطائه التى لم يستطع تجنبها. لن يأخذ هذه الدمى إلى الفرن، فعبثاً سيذهب الحطب الذى يحترق من أجلها، ولكنه سيتركها هنا إلى أن يتشقق صلصالها ويتفتت، إلى أن تتفكك أجزاؤه وتسقط، وإذا ما طال الزمن كفاية، فحتى التراب الذى ستصير إليه سيتحول من جديد إلى صلصال منبعث. ستسأل **هارتا**، ما الذى تفعله هنا هذه القطع المشوهة، وسيردّ عليها، إنهم يروقننى، ولن يقول إنها تروقنى، لأنه لو قال ذلك فإنه يطردها نهائياً من العالم الذى ولدت من أجله، ولن يعترف بها كصنيعته ليحكم عليها باليتم النهائى والحاسم. صنيعته، وصنيعة متعِبة، هى كذلك أيضاً عشرات الدمى الناجزة التى تُنقل إلى ألواح التجفيف، هناك فى الخارج، فى ظل شجرة التوت، أما هذه، فلأنها كثيرة، ويكاد لا يمكن تمييز بعضها عن بعض، فإنها لا تطلب من العناية والاهتمام أكثر مما هو ضرورى كيلا

www.ibtesamh.com/vb

يصيبها الضرر فى اللحظة الأخيرة. وكان لا بد من تقييد لقية كيلا يصعد إلى ألواح التجفيف، حيث سيقترف أضخم عملية تكسير لم يشهد مثلها تاريخ مشغل الخزف المضطرب قط، وهو تاريخ مسرف، كما هو معروف، بالحطام والخلائط غير المرغوبة. ولنتذكر أنه عندما وضعت الدمى الست الأولى، النماذج الأولية، لتجف هنا، وأراد لقية أن يتحرى باللمس المباشر ما هى تلك الأشياء، كانت صرخة وصفعة سيبريانو ألجور الفورية كافية لأن تصرف غريزته كصياد - زاد من حدّتها جمود تلك الأشياء الغريب - وتحول دون تسببه بأية أضرار، ولكن لا بد لنا من الاعتراف بأنه سيكون من غير المعقول أن ننتظر الآن حيواناً كهذا يصمد دون تأثر أمام استفزاز جيش من المهرجين والمدرين الصينيين، من البهاليل والممرضات، من رجال الإسكيمو والآشوريين الملتحين، تغطيهم جميعهم جلودٌ حمراء سيئة المظهر. استمر الحرمان من الحرية ساعة واحدة. تأثرت مارتا للملامح الحساسة، وحتى المتظارفة التى خضع بها لقية للعقاب، فقالت لأبيها إن التربية قد تفيد فى شىء، حتى وإن كانت الحالة متعلقة بالكلاب، وأعلنت، المسألة هى فى تكييف المناهج، وكيف ستفعلين ذلك، أول ما يتوجب فعله هو إطلاق سراحه، ثم ماذا بعد ذلك، إذا حاول الصعود إلى الرفوف، يُربط مرة أخرى، وبعد ذلك، يُطلق سراحه ثم يُربط من جديد قدر ما يتطلبه الأمر من المرات، إلى أن يتعلم، للوهلة

www.ibtesamh.com/vb

الأولى يمكن لهذا أن يعطى نتيجة، وعلى كل حال يجب ألا تخدعى نفسك إذا ما بدا لكِ أنه قد تعلم الدرس، فهو لن يتجرأ بالطبع على الصعود إلى الرفوف وأنت حاضرة، أما عندما يكون وحيداً وليس هناك من يراقبه، فأخشى أن أساليبك التربوية لن يكون لها ما يكفى من القوة لضبط غرائز الجد ابن آوى الكامنة فى رأس لقية، ابن آوى جد الذى كان جد لقية ما كان ليزعج نفسه بشم الدمى، بل كان سيمر بها دون مبالاة ويواصل طريقه بحثاً عما يمكن أكله فعلاً، **لا** بأس، لكننى لن أطلب منك إلا التفكير فيما سيحدث إذا ما صعد الكلب إلى ألواح التجفيف، والعمل الذى سنفقده، **هل** سيكون كثيراً أم سيكون قليلاً، سوف نرى، ولكن إذا حدث ذلك فإننى أعدك بإعادة صنع الدمى التى تتضرر، وربما تكون هذه هى الطريقة لإقناعك بالسماح لى بمساعدتك، **هذا** أمر لن نتحدث فيه حالياً، وانصرفى الآن إلى تجاربك التربوية. خرجت مارتا من مشغل الخزف، ودون أن تتفوه بكلمة واحدة، فكت الحبل من الطوق المحيط بعنق الكلب. وبعد أن تقدمت بضع خطوات باتجاه المنزل، توقفت كمن هى ساهية. نظر إليها الكلب وخرّ مقعياً. تقدمت مارتا بضع خطوات أخرى، وتوقفت من جديد، ثم دخلت بعد ذلك بتصميم إلى المطبخ تاركة بابه مفتوحاً. لم يتحرك الكلب من مكانه. أغلقت مارتا الباب. انتظر الكلب قليلاً ثم نهض، وراح يقترب بعد ذلك من الألواح الخشبية. لم تفتح مارتا الباب. نظر

www.ibtesamh.com/vb

الكلب باتجاه المنزل، تردد، وأعاد النظر ثانية ثم وضع قائمتيه على حافة اللوح الخشبى حيث تُجفف دمى الآشوريين الملتحين. فتحت مارتا الباب وخرجت. أنزل الكلب قائمتيه بسرعة وظل واقفاً فى المكان نفسه ينتظر. لم يكن هناك ما يدعوه إلى الهرب، فوعيه لا يتهمه بفعل أى شىء سيئ. أمسكت به مارتا من الطوق المحيط بعنقه، وربطته مجدداً بالحبل دون أن تتلفظ بكلمة واحدة. عادت بعد ذلك إلى الدخول إلى المطبخ وإغلاق الباب. كان رهانها على أن الكلب ظل يفكر فيما حدث، يفكر، أو يفعل ما يفعله عادة فى مثل هذا الوضع. وبعد دقيقتين أعادت تحريره من الحبل، فمن المناسب عدم منح الحيوان وقتاً للنسيان، فالعلاقة بين السبب والنتيجة يجب أن تتثبت فى ذاكرته. تأخر الكلب وقتاً أطول فى وضع قائمتيه على لوح التجفيف، ولكنه حسم أمره أخيراً، ويمكن القول إنه فعل ذلك بقدر من القناعة أقل من السابق. وعلى الفور وجد نفسه مقيداً من جديد. وابتداء من المرة الرابعة بدأ يبدى ما يشير إلى أنه قد فهم ما تريده منه، ولكنه واصل رفع قائمتيه إلى لوح التجفيف، كما لو أنه يريد التأكد من أنه يتوجب عليه عدم وضعهما هناك. وخلال عملية التقييد وفك القيد المتوالية كلها، لم تتفوه مارتا بأية كلمة، كانت تدخل إلى المطبخ وتخرج منه، تغلق الباب وتفتحه، ومع كل حركة من الكلب، وهى الحركة نفسها دوماً، تردّ بحركة منها، هى الحركة نفسها دوماً، فى سلسلة من الأفعال

www.ibtesamh.com/vb

المتوالية والمتبادلة التى لن تتوقف إلا عندما يقدم أحدهما، بفضل حركة مختلفة، على قطع تلك المتوالية. وفى المرة الثامنة التى أغلقت فيها مارتا باب المطبخ وراءها، تقدم لقية من جديد نحو اللوح الخشبى، ولكنه لدى الوصول إليه لم يرفع قائمتيه متظاهراً بأنه يريد الوصول إلى الآشوريين الملتحين، بل راح ينظر باتجاه المنزل، دون حراك، منتظراً، كما لو أنه يتحدى السيدة فى أن تكون أكثر جرأة منه، كما لو أنه يسألها **ماذا** لديكِ الآن للرد على لعبتى العبقرية هذه التى ستمنحنى النصر وتمنحك الهزيمة. وكانت مارتا تدمدم لنفسها، **لقد** كسبتُ، وكنت واثقة من أننى سأكسب. توجهت إلى الكلب وداعبت رأسه، وقالت بلطف، **لقية** جميل، لقية لطيف، وأطل الأب من باب مشغل الخزف ليشهد النهاية السعيدة، **جيد** جداً، بقى أن نعرف هل سيكون الأمر نهائياً، فقالت مارتا، إننى مستعدة لوضع يدى فى النار لأؤكد أنه لن يعود إلى الصعود إلى ألواح التجفيف. كلمات بشرية قليلة جداً هى تلك التى تتمكن الكلاب من ضمها إلى معجمها الخاص من الهمهمة والنباح، ولهذا السبب فقط، لأنه لم يفهم ما قالاه، لم يحتج لقية على الرضا الطائش الذى يبديه سيداه، إذ يمكن لأى شخص مؤهل فى هذه الأمور وقادر على تقدير ما حدث بموضوعية أن يقول إن الرابح فى المعركة ليست مارتا، السيدة، مهما كانت قناعتها بذلك راسخة، وإنما الرابح هو الكلب، وإن كان علينا أن نقر أيضاً

www.ibtesamh.com/vb

بأن أولئك الأشخاص الذين لا يعرفون أن يحكموا إلا على المظاهر سيقولون عكس ذلك بالضبط. فلينسب كل واحد لنفسه النصر الذى يزعم أنه حققه، بمن فى ذلك الآشوريون الملتحون الذين صاروا الآن لحسن الحظ بمنجى من الاعتداءات. أما لقية، فلن نذعن لتركه هناك بسمعة الخاسر الجائرة. فالدليل المؤكد على أن الفوز كان من نصيبه هو تحوله منذ ذلك اليوم إلى الأشد حرصاً بين الحراس، الذين قاموا يوماً بحماية دمى صلصالية. وكان لا بد من سماعه ينبح مستدعياً سيديه إذا أوقعت هبة ريح مفاجئة نصف دستة من الممرضات.

وجبة الفرن الأولى ضمت ثلاثمئة دمية، أو بكلمة أدق ثلاثمئة وخمسين دمية، آخذين فى الاعتبار إمكانية تلف بعضها. لم يكن هناك متسع لمزيد. وحدث أن كان ذلك فى يوم راحة مرسيال، وحدث بالتالى أن كان أقسى يوم عمل لمرسيال. فبصبر، ووحيداً، ساعد حماه فى ترتيب الدمى على الرفوف داخل الفرن، وتولى تغذية الفرن، وهى مهمة أناس أقوياء، سواء بسبب الجهد البدنى فى نقل الحطب وإدخاله إلى الموقد أم للساعات التى يتطلبها ذلك، لأن مثل هذا الفرن القديم والبدائى بالمقارنة مع أفران التكنولوجيا الجديدة، يحتاج إلى وقت طويل من أجل بلوغ درجة الطهو، دون نسيان أنه لا بد بعد التوصل إليها من الحفاظ عليها ثابتة قدر الإمكان. وسيعمل مرسيال حتى وقت متقدم من الليل، حتى الساعة التى

www.ibtesamh.com/vb

ينتهى بها الحمو من المهمة التى فرضها على نفسه بالتقدم فى العمل فى المشغل، ويتمكن من المجىء للحلول محله. حملت مارتا العشاء إلى أبيها. وجاءت بعد ذلك بعشاء مرسيال، فتناول طعامه بينما هما جالسان على المقعد الحجرى الذى كان للتأملات يوماً. لم يكن أياً منهما يشعر بالشهية، وكل منهما لأسبابه الخاصة. أراكَ لا تأكل، لا بد أنه الإجهاد، قالت له، أجل، إننى متعب جداً، لقد فقدتُ عادة بذل الجهد، ولهذا أتكلف مشقة أكبر، قال، فكرة صنع هذه الدمى خطرت لى أنا، أعرف ذلك، كانت فكرتى، ولكن إحساساً بالندم يعذبنى فى هذه الأيام الأخيرة، فطوال الوقت أتساءل هل هناك ما يستحق إقدامنا على صنع الدمى، وأليس هذا كله غير مجدٍ بصورة محزنة، المهم بالنسبة لأبيك الآن هو العمل الذى يقوم به، وليس جدوى هذا العمل، وإذا ما انتزعتِ منه العمل، أى عمل، فإنك تنتزعين منه، بطريقة ما، مسوغاً من مسوغات العيش، وإذا ما قلتِ له إن ما يفعله لا ينفع فى شىء، فإن الاحتمال الأكبر أنه لن يصدق ذلك، لأنه لا يستطيع أن يصدق ذلك، وإن كان جلاء الأمر فاقعاً أمام عينيه، المركز توقف عن شراء الأوانى الخزفية منا وتمكن أبى من تحمل الصدمة، لأنكِ خرجتِ على الفور بفكرة صنع الدمى، يحدثنى قلبى بأن أزمنة سيئة على وشك المجىء، أيام أسوأ من هذه، ترقيتى إلى حارس مقيم، وهى لن تتأخر كثيراً، ستكون يوماً سيئاً بالنسبة لأبيك. لقد قال إنه

www.ibtesamh.com/vb

سيذهب معنا إلى المركز، هـذا صحيح، ولكنه قاله بتلك الطريقة نفسها التى نقول بها جميعنا إننا سنموت ذات يوم بينما هناك جزء من ذهننا يرفض تقبل ما هو معروف بأنه المصير المحتوم للكائنات الحية كلها، يتظاهر بأنه غير معنى بها، وهكذا هى حال أبيك، يقول إنه سيذهب للعيش معنا، ولكنه فى أعماقه كمن لا يصدق ذلك، كمن ينتظر أن يظهر له انعطاف فى اللحظة الأخيرة يحمله إلى طريق آخر، هـو يعرف بالتأكيد أنه لا يوجد للمركز إلا طريق واحد، طريق يؤدى من المركز إلى المركز، إننى أعمل هناك، وأعرف ما أقوله، وسيكون هناك من يقول إن الحياة فى المركز هى معجزة متواصلة. لم يجُب مرسيال فوراً. قدم قطعة من اللحم للكلب الذى كان ينتظر بصبر منذ البداية أن تتبقى له فضلة من الطعام، وبعد ذلك فقط قال، أجل، مثلما لا بد أن تكون قد بدت للقية، فى هذا الوقت المتقدم من الليل، قطعة اللحم التى قدمتها إليه. مرّ بيد على ظهر الحيوان مرتين، ثلاث مرات، المرة الأولى بدافع المحبة العادية والمعهودة، والمرتان التاليتان بإلحاح مغموم، كما لو أنه عليه التفريج عن ذلك الغم فوراً ودون إضاعة للوقت، ولكنه كان هو نفسه من يحتاج إلى الطمأنة، إلى استبعاد فكرة برزت فجأة من المكان الذى اختبأت فيه من الذاكرة، فى المركز لا يتقبلون وجود كلاب. وهذا صحيح، فهم لا يسمحون فى المركز بوجود كلاب ولا قطط، وإنما يسمحون فقط بطيور فى

www.ibtesamh.com/vb

أقفاص أو أسماك فى أحواض مائية، بل إن هذه الأخيرة صارت أقل منذ أن اختُرعت أحواض السمك الافتراضية، بلا أسماك لها رائحة السمك وبلا ماء يتوجب استبداله. وفيها يسبح بظرف خمسون نموذجاً من عشرة أنواع مختلفة من السمك، وكيلا تموت يتوجب رعايتها وتغذيتها كما لو أنها كائنات حية، ولابد من مراقبة نوعية الماء الذى لا وجود له، ولا بد كذلك من مراقبة درجة الحرارة، وفوق ذلك، كيلا يكون كل شىء واجبات وحسب، يمكن تزيين قعر الحوض بأنواع متعددة من الأحجار والنباتات، والمحظوظ بامتلاك هذه الأعجوبة يجد تحت تصرفه سلسلة من الأصوات التى تتيح له، بينما هو يتأمل أسماكه التى بلا أحشاء ولا حسك، أن يحيط نفسه بأجواء إيقاعية شديدة التنوع، مثل شاطئٍ كاريبى، أو غابة مدارية، أو عاصفة بحرية. إنهم لا يريدون كلاباً فى المركز، فكر مرسيال مجدداً، ولاحظ أن هذا القلق يخفى، آنياً، القلق الآخر، **هل** أخبرها بذلك، أم لا أخبرها، بدأ يميل إلى إخبارها، ثم فكر فى أنه سيكون من الأفضل ترك المسألة إلى ما بعد، عندما يأتى وقتها، عندما لا يبقى ثمة مهرب. اتخذ إذاً قرار الصمت، ولكن أى حقيقة هى تلك فى تقلب الإرادة المستمر فى حوض رأسنا الافتراضى، وبعد دقيقة من ذلك كان يقول لمارتا، **لقد** انتبهت للتو إلى أننا لن نستطيع أخذ لقية معنا إلى المركز، فهم لا يتقبلون حيوانات، وستكون مشكلة جدية أن نضطر إلى ترك

www.ibtesamh.com/vb

الحيوان المسكين مهجوراً فى الدنيا، فقالت مارتا، ربما نتمكن من إيجاد حلّ، أستنتجُ من هذا أنكِ قد فكرتِ فى الأمر، فوجئ مرسيال، أجل، لقد فكرت فيه منذ وقت طويل، وما هذا الحل، أظن أن إساورا لن تمانع بتولى العناية بلقية، بل إننى أظن أن ذلك سيسعدها كثيراً، أضف إلى ذلك أن كلاً منهما صار يعرف الآخر، أتقولين إساورا، أجل إساورا، امرأة الإبريق، هل تتذكر، من أحضرت لنا الكعك، ومن جاءت للتحدث معى عندما ذهبنا آخر مرة للغداء فى بيت أبويك، الفكرة تبدو لى جيدة، وهو أفضل حلّ للقية، يبقى أن نعرف إذا كان أبوكِ سيوافق، من المعروف سلفاً أن نصفاً منه سيعترض، سيقول لا يا سيدى، فامرأة وحيدة ليست بالرفقة الجيدة لكلب، وأتصور أنه سيخترع لنا نظرية فى الاختلافات مثل هذه، وأن هناك بالتأكيد أشخاصاً آخرين لا مانع لديهم من احتضان الحيوان، ولكننا نعرف كذلك أن نصفاً آخر منه سيرغب، بكل ما فى الرغبة من قوة، ألا يكسب النصف الأول، كيف هى تلك الغراميات، سألها مرسيال، مسكينة إساورا، مسكين أبى، لماذا تقولين مسكينة إساورا، مسكين أبى، لأنه من الواضح أنها تحبه، ولكنها لا تتمكن من اجتياز الحاجز الذى رفعه أمامها، وماذا عنه هو، هو، إنها مرة أخرى قصة نصفية، فهناك نصف منهما ربما لا يفكر فى شىء آخر غير هذا الأمر، ونصفه الآخر، نصفه الآخر فى الرابعة والستين، نصفه الآخر خائف،

www.ibtesamh.com/vb

الحقيقة أن الناس شديدو التعقيد، هذا صحيح، ولكننا لو كنا بسيطين لما صرنا أناساً. لقية لم يكن معهما، فقد تذكر فجأة أنه لا يوجد أحد سواه من أهل البيت ليرافق سيده العجوز المنهمك وحيداً فى المشغل فى صنع الثلاثمئة دمية الثانية لعملية التسليم الأولى المؤلفة من ستمئة قطعة، الكلب يرى هذه الأمور وتستثير فيه تشوشاً عظيماً، إنه يتحسسها ولكنه لا يتوصل إلى فهمها، كل ذلك العمل، وكل ذلك الجهد، وكل ذلك العرق، ولست أشير الآن إلى النقود التى سيكسبها فى الصفقة، سيكون مبلغاً صغيراً، سيكون بين بين، لن يكون مبلغاً كبيراً فى الحقيقة، إنه ما قالته مارتا قبل قليل عما إذا لم يكن ذلك كله غير مجدٍ بصورة محزنة. ومثلما تبين من قبل، والآن، بفضل الحوار المطول والعميق بين مارتا وماسيال، توفرت لنا الفرصة للتأكيد بأن المقعد الحجرى يُسَوّغ باتساع ووقار الاسم المهيب الذى أطلقناه عليه، مقعد التأملات، ولكن الحاجة تفرض نفسها هنا، وقد حان الوقت للعودة إلى الفرن، ودس مزيد من الحطب عبر فوهة الموقد، بحذر، فلا تنس يا مرسيال أن الإنهاك يشوش الأفعال الانعكاسية الدفاعية، ويزيد من الوقت اللازم للتصرف، فاحذر أن تقفز إليك من الداخل، مثلما حدث فى ذلك اليوم اللعين، أفعى اللهب الصافرة التى خلّفت ندبة فى يدك اليسرى إلى الأبد. وكان هذا تقريباً هو ما قالته مارتا أيضاً، أنا ذاهبة لجلى الأطباق، وأنت توخى الحذر يا مرسيال.

www.ibtesamh.com/vb

فى اليوم التالى، حمل سيبريانو ألجور من الصباح الباكر، كالعادة، مرسيال إلى المركز فى الشاحنة الصغيرة. قال له قبل أن يخرجا من البيت، **لا** أعرف كيف أشكرك على المساعدة التى قدمتها إلىّ، وردّ عليه مرسيال، **فـ**علت ما أستطيعه، وأرجو أن يتم كل شىء على ما يرام، إننى واثق من أن الدمى التالية ستحتاج إلى مجهود أقل، فقد توصلتُ إلى مجموعة حيل لتبسيط العمل، هذه هى فائدة مراكمة الخبرة، أظن أن الثلاثمئة دمية الوجبة التالية ستكون على ألواح التجفيف خلال أسبوع، إذا ما كانت من الآن حتى عشرة أيام، موعد إجازتى التالية، فى حالة تسمح بإدخالها إلى الفرن، فيمكنك أن تعتمد علىّ، **شـ**كراً، أتريدنى أن أخبرك شيئاً، أنت وأنا، لولا أزمة الصلصال اللعينة هذه، يمكن لنا أن نشكل ثنائياً جيداً، تترك عملك كحارس فى المركز وتتفرغ لمشغل الخزف معى، **هـ**ذا ممكن، ولكن الوقت قد فات للتفكير فى الأمر، ثم لو أننا فعلنا ذلك لكنا كلانا الآن دون عمل، أنا مازال لدى عمل، **هـ**ذا صحيح. وبعد بعض الوقت، بينما هما على الطريق إلى المدينة، وبعد صمت طويل، قال سيبريانو ألجور، لدى فكرة، وأريد أن أعرف رأيك فيها، **هـ**ات ما لديك، أن أُحضر إلى المركز هذه الثلاثمئة دمية الأولى عندما يجف الطلاء، وهكذا يرى المركز أننا نعمل بجد، ويبدأ البيع قبل الموعد المقرر للتسليم، وسيكون ذلك جيداً لهم وأفضل لنا، نتجنب إضاعة كل ذلك الوقت الطويل بانتظار

www.ibtesamh.com/vb

النتائج، وإذا خرج كل شىء كما هو مُنتظّر، يمكننا أن نحضّر الإنتاج التالى بطمأنينة أكبر، دون تسرع كما جرى هذه المرة، ما رأيك بالفكرة، أظن أنها فكرة جيدة، قال مرسيال، وتذكر فى هذه اللحظة أنه رأى جيدة كذلك فكرة وضع الكلب فى رعاية الجارة صاحبة الإبريق، بعد أن أوصلك إلى عملك سأذهب للتحدث مع مدير المشتريات، وأنا واثق من أنه سيوافق على الفكرة، قال سيبريانو ألجور، أرجو ذلك، أجابه مرسيال، وانتبه إلى أنه يكرر مرة أخرى كلمةً تلفظ بها قبل قليل، فهذا ما يحدث لنا مع الكلمات دائماً، نكررها على الدوام، ولكنها فى بعض الحالات، ودون أن يُعرف السبب، تُلحظ أكثر. وبينما كانت الشاحنة تدخل المدينة، سأل مرسيال، من الذى سيتولى الآن طلاء الدمى، مارتا تصر على أن تطليها هى، تقول إنه لا يمكن لى أن أكون فى القداس وأن أقرع الأجراس فى آن واحد، لم تقل ذلك بهذه الكلمات نفسها، ولكن المعنى هو ذاته، ولكن أبخرة الطلاء تسمم، أجل تسمم، ويبدو لى أنها غير مناسبة للوضع الذى هى فيه مارتا، أنا سأتولى الوجه الأول من الطلاء، ويمكننى استخدام المسدس البخاخ فى ذلك، صحيح أنه ينشر الطلاء فى الجو، ولكنه يعوض عن ذلك بسرعة الإنجاز، وبعد ذلك، بعد ذلك يأتى التلوين بالريشة، وهذا غير ضار، كان عليك أن تشترى قناعاً على الأقل، إنه غالى الثمن، تلعثم سيبريانو ألجور كما لو أنه خجل من كلماته، إذا كنا

www.ibtesamh.com/vb

قد توصلنا إلى تدبر النقود لاستئجار الشاحنة التى أخرجنا بها ما تبقى من الآوانى فى المركز، فإنه بالإمكان أيضاً تدبر ما يلزم لشراء القناع. لم نفكر فى الأمر، قال سيبريانو ألجور، ثم صحح ما قاله بحزن، لم أفكر فى الأمر. كانا قد صارا فى الجادة التى تقودهما فى خط مستقيم إلى المركز، وعلى الرغم من بعد المسافة، كان يمكن لهما قراءة الإعلان العملاق الذى عُلق على البناء، **حضرتك زيونا المفضل، ولكننا نرجوك ألا تخبر جارك بذلك.** لم يعلق سيبريانو ألجور بشىء، أما مرسيال فضاجأه خاطر، إنهم يتسلون على حسابنا. عندما توقفت الشاحنة قبالة بوابة خدمة الأمن، قال مرسيال، بعد أن تنتهى من التحدث إلى مدير قسم المشتريات، مرَّ من هنا، فسوف أرى إذا كان بإمكانى الحصول لك على قناع، أنا لا أحتاج إليه، وقد أخبرتك بذلك، ومارتا لن تستخدم إلا الفرشاة، أنت تعرفها جيداً مثلما أعرفها، ففى أول فرصة تسهو عنها ستحتل مكانك وعندما تنتبه لما حدث يكون الوقت قد فات، لا أدرى كم من الوقت سأتأخر فى قسم المشتريات، هل سأسأل عنك هنا أم أدخل للبحث عنك، لا تدخل، فالأمر لا يستحق عناء الدخول، سأترك القناع عند زميلى الذى أمام البوابة، كما تشاء، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، إلى اللقاء بعد عشرة أيام، واعتنِ بمارتا، سأعتنى بها، أجل، كن مطمئناً، فأنت لا تحبها أكثر منى، لست أدرى إذا كنت أحبها أكثر أو أقل، ولكننى

www.ibtesamh.com/vb

أحبها بطريقة أخرى، مرسيال، ماذا تريد، أن أعانقك، أرجوك. عندما خرج مرسيال من الشاحنة كانت عيناه مخضلتين. ولم يوجه سيبريانو ألجور أية لكمة إلى رأسه، بل اكتفى بالقول فى نفسه مع نصف ابتسامة حزينة، هذا ما يمكن أن يصل إليه الرجل، أن يجد نفسه يتسول معانقة، مثل طفل يفتقد الحب. شغّل الشاحنة ودار حول كتلة البناء التى صارت الآن أكثر اتساعاً نتيجة توسيع المركز، وفكر، بعد بعض الوقت لن يعود أحد إلى تذكر ما كان موجوداً هنا. بعد خمس عشرة دقيقة، كان ينزل إلى القبو شاعراً أنه غريب، كمن يعود إلى مكان بعد غياب طويل ولا يجد تبدلات تسوغ إحساسه، ولكنه لا يستطيع تجاهل ذلك الإحساس أيضاً. وبعد أن أخبر حارس المدخل أنه آت فى طلب معلومات، وليس لإفراغ بضاعة، أوقف الشاحنة فى الخط الجانبى. كان هناك صف طويل من السيارات الشاحنة الكبيرة تنتظر، بعضها ضخم جداً، وكانت لا تزال أمامه ساعتان تقريباً قبل أن تفتح بوابة خدمة تسلم البضائع. جلس سيبريانو ألجور بوضع مريح على المقعد وحاول النوم. النظرة الأخيرة التى ألقاها من خلال فتحة الفرن، قبل مجيئه إلى المدينة، كشفت له أن عملية الطهو قد أنجزت، وما عليه الآن إلا أن ينتظر إلى أن يبرد الفرن على مهل، دون تسرع، ببطء، كمن يذهب ماشياً على قدميه. ولكى ينام، راح يعدّ الدمى كمن يعدّ خرافاً، بدأ بدمى البهاليل وعدّها كلها، ثم انتقل إلى المهرجين وتمكن من

www.ibtesamh.com/vb

الوصول كذلك إلى النهاية، عدّ خمسين من هؤلاء، خمسين من أولئك، أما الزيادة، المتبقية لتعويض المتضررة، فلم يهتم بها، وأراد بعد ذلك الانتقال إلى رجال الإسكيمو، ولكن الممرضات، ودون أى تفسير، تقدمن منه، وفى الصراع الذى اضطر لخوضه من أجل إبعادهن، غلبه النعاس. لم تكن المرة الأولى التى يجد نفسه فيها ينهى نعاسه الصباحى فى قبو المركز، ولم تكن المرة الأولى التى يوقظه فيها صخب محركات الشاحنات الذى تضخمه الأصداء وتضاعفه. نزل من الشاحنة وتقدم باتجاه منضدة كونتوار المتابعة الشخصية، أخبرهم من يكون، وقال إنه آت من أجل استفسار ويريد التحدث إلى مدير القسم إذا كان ذلك ممكناً، وأضاف، إنها مسألة مهمة. الموظف الذى تعامل معه نظر إليه نظرة تشكك، كان أكثر من جلى أنه لا يمكن للمسألة ولا للشخص الذى أمامه أن يكونا مهمين، لاسيما أن هذا الشخص قد خرج من شاحنة صغيرة بائسة كُتب عليها من الخارج **مشغل خزف**، ولهذا أجاب بأن مدير القسم مشغول، وحدد، إنه فى اجتماع، وسيظل مشغولاً طيلة الفترة الصباحية، فليقل بالتالى ما الأمر الذى جاء من أجله. أوضح الخزاف ما عليه أن يوضحه، ولم ينس، من أجل التأثير على محدثه، الإشارة إلى المكالمة الهاتفية التى جرت بينه وبين مدير القسم، وأخيراً سمع الآخر يقول له، **س**ـأذهب لأسأل أحد معاونى المدير. خشى سيبريانو ألجور أن يخرج له ذلك المعاون الخبيث الذى

www.ibtesamh.com/vb

مرر حياته، ولكن معاون المدير الذى جاء الآن كان مهذباً ولطيفاً، وقد اتفق معه على أن الفكرة رائعة، إنها فكرة جيدة، أجل يا سيدى، إنها جيدة لك وأفضل لنا، فبينما أنتم تصنعون الدفعة الثانية المؤلفة من ثلاثمئة قطعة وتهيئون الأمور لإنتاج الستمائة المتبقية، على دفعتين، مثلما هى الحال الآن، أو فى دفعة واحدة، نأخذ نحن بمراقبة تجاوب جمهور المشترين، وردود الفعل على هذا المنتج الجديد، والتعليقات المعلنة والمضمرة، بل إن ذلك يمنحنا كذلك الوقت لإجراء بعض عمليات السبر الموجهة فى منحيين، أولاً حالة البيع الأولية، هذا يعنى اهتمام الزبون، رغبته، إرادته العفوية أو المعَّللة، وثانياً الوضع الناتج عن الاستخدام، أى الرضا الحاصل، المنفعة المعترف بها، إرضاء الغرور، سواء من الناحية الشخصية أم من وجهة النظر الجماعية، أكانت أسرية، أو مهنية أو رؤية جماعية أخرى، فالمسألة تتلخص أساساً، بالنسبة لنا، فى تحرى إذا ما كانت القيمة الاستعمالية، وهى عنصر متقلب، غير ثابتة وذاتية بامتياز، تزيد كثيراً أو تقل كثيراً عن القيمة التبادلية، فسأله سيبريانو ألجور لمجرد السؤال، وعندما يحدث هذا، ماذا تفعلون؟ ورد معاون المدير بنبرة متنازلة، سيدى العزيز، لا أظنك تنتظر أن أكشف لك هنا عن سرّ النحلة، لقد سمعتُ على الدوام أن سرّ النحلة شىء لا وجود له، وأنه مجرد خدعة، مجرد سر زائف، خرافة لم ينهوا اختراعها، قصة كان يمكن لها أن توجد ولم توجد،

www.ibtesamh.com/vb

معك حق، سرّ النحلة لا وجود له، ولكننا نعرفه. فكبح سيبريانو ألجور نفسه كمن وقع ضحية عدوان غير متوقع. كان معاون المدير يبتسم، ويلح برضا على أن الفكرة جيدة، جيدة جداً، وأنه بانتظار تسلم الدفعة الأولى وبعد ذلك سيخبره بما يحدث. دخل سيبريانو ألجور إلى شاحنته الصغيرة متضايقاً، تحت وطأة إحساس مقلق بالتهديد، وخرج من القبو. كانت جملة معاون المدير الأخيرة تدور فى رأسه، سرّ النحلة لا وجود له، ولكننا نعرفه، نعرفه، نعرفه. رأى قناعاً يسقط، ولاحظ أن وراء القناع يوجد قناع مماثل بالضبط، وأدرك أن الأقنعة التالية ستكون مشابهة تماماً لا محال لتلك التى سقطت، صحيح أن سرّ النحلة لا وجود له، ولكنهم يعرفونه. لا يمكنه التحدث عن تشوشه هذا إلى مارتا ومرسيال لأنهما لن يتفهماه، ولن يتفهماه لأنهما لم يكونا معه هناك، فى الجانب الخارجى من منضدة الكونتوار، يسمعان معاون مدير يشرح ما هى القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية، ربما يكمن سر النحلة فى خلق دوافع وإيحاءات كافية لدى الزبون كى ترتفع تدريجياً فى نظره القيم الاستعمالية، وهى خطوة تتلوها بعد وقت قليل رفع القيم التبادلية، تفرضها محاجة المُنتِج لمشترٍ سُحبت منه شيئاً فشيئاً، وبخفة، وسائل الحماية الداخلية التى تنتج عن وعى شخصيته بالذات، وهذه الوسائل من قبل، إذا وُجد فى أى وقت «من قبل» لا تشوبه شائبة، كانت توفر له، وإن كان بصورة ظرفية

www.ibtesamh.com/vb

غير ثابتة، إمكانية ما للمقاومة والسيطرة على النفس. المسئولية فى ذلك الوضع المعقد والمشوش تقع بكاملها على عاتق سيبريانو ألجور الذى تجرأ، وهو من هو، مجرد صانع خزف بسيط بلا بطاقة وليس سسيولوجياً ولا عالم اقتصاد، تجرأ فى دماغه الجلف، على الركض وراء فكرة، كى ينتهى إلى الاعتراف، نتيجة غياب مفردة مناسبة ولعدم الدقة الخطرة والمحزنة فى خصائص المصطلحات المستخدمة، بأنه غير مؤهل لنقل تلك الفكرة إلى لغة علمية بصورة كافية ربما تُسهل لنا، أخيراً، فهم ما أراد هو أن يقوله بلغته. وستبقى لذكريات سيبريانو ألجور تلك اللحظة الأخرى من تشوش الحياة ومن الخطأ فى فهمها، عندما ذهب فى أحد الأيام إلى قسم المشتريات فى المركز ليسأل عن أحد أبسط الأمور، ورجع من هناك بأشد أنواع الإجابات تعقيداً وغموضاً، وقد كانت ضبابية وغامضة إلى حدّ لم يكن هناك معه ما هو أكثر طبيعية من ضياعها فى متاهة دماغه. لقد ظلت النوايا على الأقل بمنجى. ففى عمق نفسه يمكن لسيبريانو ألجور أن يتذرع دوماً بأنه فعل كل ما فى متناول شرطه كخزاف ليحاول كشف المعنى الخفى لعبارة معاون المدير الباسم العَرَّافية، وحتى دون أن يكون واضحاً له هو نفسه أنه لم يتوصل إلى ذلك، إلا أنه خلّف بوضوح لمن يأتى بعد أنه لا يمكن، عبر الطريق الذى اتخذه هو، الوصول إلى أى مكان. هذه الأمور هى لمن يعرف، فكر سيبريانو ألجور دون

www.ibtesamh.com/vb

أن يتمكن من إسكات قلقه الداخلى. ونقول نحن، على كل حال، إن آخرين فعلوا أقل وتبجحوا أكثر.

اللفافة التى تركها مرسيال عند حارس البوابة تضمنت قناعين، وليس قناعاً واحداً، تحسباً لتعطل نظام تنقية الهواء فى أحدهما، كما تقول الملاحظة التى تضمنت من جديد الدعوة، اعتنِ لى بمارتا، أرجوك. كان الوقت قد بلغ موعد الغداء تقريباً، صباح ضائع، هكذا فكر سيبريانو ألجور وهو يتذكر القوالب، والصلصال الذى ينتظر، والفرن الذى يفقد حرارته، وصفوف الدمى داخل الفرن. وبعد ذلك، بينما هو فى منتصف الجادة، يقود الشاحنة وظهره إلى جدار المركز الذى عليه عبارة، **حضرتك زبوننا المفضل، ولكننا نرجوك ألا تخبر جارك بذلك**، يرسم بوقاحة ساخرة خطاً بيانياً للعلاقة التى يتحقق فيها تواطؤ المدينة غير الواعى مع الخداع الواعى، الذى يتحكم فيها ويمتصها، ومرّت فى ذهن سيبريانو ألجور فكرة أنه لم يُضع هذا الصباح وحسب، وأن عبارة معاون المدير الفاحشة قد أطاحت بما تبقى من واقع العالم الذى تعلم فيه وسكنه للعيش، وأنه ابتداء من اليوم سيكون كل شىء أقل قليلاً من مظهر، من وهم، من غياب معنى، من أسئلة بلا جواب. حال تبعث على الرغبة فى صدم الشاحنة بجدار، فكر. وتساءل لماذا لا يفعل ذلك، ولماذا من المحتمل أنه لن يصل أبداً إلى فعل ذلك، ثم راح يعدد أسبابه. وبالرغم من أن هذا منفصل عن سياق التحليل، من حيث المبدأ على الأقل،

www.ibtesamh.com/vb

إلا أن الأشخاص ينتحرون تحديداً لأنهم يمتلكون حياة، وأول الأسباب القوية لعدم إقدام سيبريانو ألجور على عمل ذلك هو واقع أنه حى، ثم ظهرت بعد ذلك فوراً ابنته مارتا، المرتبطة والملتصقة جداً بمسوغ حياة الأب، وكانت كما لو أنها دخلت فى السبب السابق فى آن واحد، وبعد ذلك جاء مشغل الخزف، والفرن، وكذلك الصهر، طبعاً، وهو شاب طيب جداً ويحب مارتا كثيراً، ولقية، مع أن أناساً كثيرين يرون قول ذلك فاضحاً ولا يمكن تفسيره موضوعياً، غير أنه يمكن حتى لكلب أن يربط شخصاً بالحياة، وكذلك، وكذلك، وكذلك، ولم يجد سيبريانو ألجور أية أسباب أخرى، ولكنه كان يشعر مع ذلك بأن سبباً آخر مازال ينقصه، ماذا تراه يكون، وماذا لا يكون، وفجأة، دون سابق إنذار، ألقت الذاكرة فى وجهه اسم ووجه المرأة المتوفاة، اسم ووجه جوستا إساسكا، لأنه إذا كان ما يبحث عنه سيبريانو ألجور هو أسباب عدم صدمه الشاحنة بجدار، وإذا كان قد وجد أسباباً كافية بعددها وجوهرها، وهى كالتالى، هو نفسه، ومارتا، ومشغل الخزف، والفرن، ومرسيال، والكلب لقية، وكذلك شجرة التوت التى لم يذكرها من قبل بسبب النسيان، فمن السخف أن السبب الأخير، هذا السبب غير المتوقع الذى أُنذر بوجوده بقلق كظل أو استفزاز، هو شخص لم يعد ينتمى إلى هذا العالم، صحيح أنه ليس أى شخص، وإنما المرأة التى كان متزوجاً منها، زميلته فى العمل، وأم ابنته، ولكن على الرغم من كثرة

www.ibtesamh.com/vb

المواهب الجدلية التى توضع فى القِدر، سيكون من الصعب التأكيد أن ذكرى شخص ميت يمكن لها أن تكون سبباً لدفع شخص حى إلى مواصلة العيش. إن محباً للأمثال والأقوال المأثورة والحِكم وغيرها من العبارات الشعبية السائرة، واحداً من غريبى الأطوار أولئك الذين يتصورون أنهم يعرفون أكثر مما علموهم إياه، سيقول إن ثمة قطّاً مختفياً هنا وذيله خارج. ومع الاعتذار من عدم مناسبة المقارنة وانطوائها على عدم احترام، فإننا نقول إن ذيل الهر، فى الحالة المطروحة، هى المتوفاة جوستا، ومن أجل العثور على ما تبقى من القط لن يكون علينا سوى الانعطاف عند الناصية. سيبريانو ألجور لن يفعل ذلك. ولكنه على الرغم من كل ذلك، ولدى وصوله إلى القرية، سيترك الشاحنة أمام باب المقبرة التى لم يدخل إليها منذ ذلك اليوم، وسيتوجه إلى مدفن المرأة. سيظل هناك بضع دقائق مفكراً، ربما ليشكر، وربما ليتساءل، **لماذا أتيتِ**، وربما يسمع نفسه يسأل، **لماذا أتيتِ**، ثم يرفع رأسه وينظر فيما حوله كمن يبحث عن أحد. ولن يكون ممكناً وجود أحد تحت تلك الشمس، وفى موعد الغداء.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

أول نصف جيل خرج من الفرن كان من دمى رجل الإسكيمو، وهى التى كانت أقرب إلى متناول اليد، عند مدخل الفرن بالضبط. إنها مصادفة طيبة الطالع حسب رأى مارتا الفورى، **لا** يمكن الحصول على بداية أفضل فى التدرب، ليس هناك ما هو أسهل من هؤلاء الإسكيمو فى الطلاء إلا دمى الممرضات التى لا ترتدى سوى الأبيض. عندما بردت الدمى تماماً حملوها إلى ألواح التجفيف حيث قام سيبريانو ألجور، مسلحاً بمسدس بخ الرذاذ ومحتمياً وراء فلتر القناع، بتغطية الدمى كلها بمنهجية بطلاء الأساس الأبيض الباهت. وتذمر فى دخيلته من أنه ليس هناك ما يستدعى تغطيته فمه وأنفه، **يـ**كفى أن أقف ضد اتجاه الريح، فيطير الطلاء بعيداً ولا يمسنى، ولكنه فكر بعد ذلك فى أنه يتحول إلى جاحد وناكر للجميل، دون أن ينسى أنه فى مثل هذا الجو الطيب لن تُعدم أيام لا يهب فيها ولو نسيم خفيف. وبانتهاء الجزء الخاص به من العمل، ساعد سيبريانو ألجور ابنته فى تهيئة الألوان، وإناء البترول، ورياش التلوين، ونماذج

www.ibtesamh.com/vb

الرسوم الملونة التى ستُستخدم كموديل، وأحضر المقعد الذى عليها أن تجلس عليه، وما كاد يراها تقوم بضربة الفرشاة الأولى حتى قال، هذه فكرة سيئة، فبوضع الدمى فى صف هكذا، مثلما هى موضوعة، ستضطرين إلى التنقل بالمقعد طوال الوقت على امتداد الصف، وهذا سيُتعبكِ، ومرسيال قال لى، ما الذى قاله لكَ مرسيال، سألته مارتا، قال إنه عليك أن تتوخى الحذر الشديد، وأن تتجنبى الإرهاق، ما يسبب لى التعب هو سماع التوصية نفسها مرات عديدة، هذا من أجل خيركِ، انظر، إذا ما وضعتُ أمامى دستة من الدمى، أترى، ستكون كلها فى متناول يدى ولن يكون علىّ سوى أن أحرك المقعد أربع مرات، ثم إن تحريكه يفيدنى، والآن بعد أن شرحتُ لكَ أسلوب عمل هذه السلسلة المعكوسة، أذكّركَ أنه ليس هناك ما هو أشد ضرراً بمن يعمل إلا حضور من لا يعملون شيئاً، مثلما هو وضعكَ فى هذه الحالة، لن أنسى أن أقول لك الشىء نفسه عندما أكون أنا من يعمل، لقد فعلتَ ذلك، بل كان ما فعلتَه أسوأ، فقد طردتنى، إننى ذاهب، لا يمكن الحديث معكِ، أريد أن أخبرك بأمرين قبل أن تذهب، الأمر الأول هو أنه إذا كان هناك شخص يمكن التحدث إليه فإنه أنا بالتحديد، وما هو الأمر الثانى، أعطنى قبلة. يوم أمس بالذات طلب سيبريانو ألجور عناقاً من صهره، ومارتا هى من تطلب الآن قبلة من أبيها، هناك شىء يحدث فى الأسرة، لم يعد ينقص إلا أن تبدأ بالظهور فى السماء مذنبات وشفقيات شمالية وساحرات يمتطين

www.ibtesamh.com/vb

مكانس، وأن ينبح لقية طوال الليل على القمر، حتى لو لم يكن هناك قمر، وأن تتحول شجرة التوت بين لحظة وأخرى إلى عقيمة. اللهم إلا إذا كان ذلك كله ليس سوى نتيجة حساسيات انفعالية مفرطة، حساسية مارتا؛ لأنها حبلى، وحساسية مرسيال لأن مارتا حبلى، وحساسية سيبريانو ألجور لكل الأسباب التى نعرفها ولأسباب أخرى لا يعرفها أحد سواه. وباختصار، قبّل الأب ابنته، وقبّلت الابنة أباها، وقدما للقية قليلاً من الاهتمام الذى يطالب به، ولم يعد بإمكان أحد التذمر. ومثلما يقال عادة، هنا لم يحدث أى شىء. دخل سيبريانو ألجور إلى مشغل الخزف كى يبدأ صب دمى الدفعة الثانية الثلاثمائة، وكانت مارتا فى ظل شجرة التوت، أمام النظرات النزيهة للقية الذى عاد إلى مسئولياته كحارس، تستعد لتبدأ طلاء رجال الإسكيمو. لم تستطع البدء، فقد نسيت أنه لابد أولاً من المرور على الدمى بورق الزجاج، تشذيبها من زوائد السكب، ومن عدم استواء السطوح، ومن عيوب الإنجاز، ثم تنظيفها من الغبار، ولأن النكبات لا تأتى منفردة، ونسيان شىء عموماً يُذكّر بنسيان آخر، فإنها لا تستطيع طلاء الدمى مثلما فكرت، بالانتقال من لون إلى آخر على التوالى، دون انقطاع حتى ضربة الفرشاة الأخيرة. فقد وردت إلى ذهنها تلك الصفحة من المرجع التى يُشرح فيها بوضوح أنه يجب أن يجف اللون تماماً قبل استخدام اللون التالى، أجل، ما يناسبنى الآن أكثر هو خط إنتاج متسلسل، قالت، أن تمر الدمى أمامى واحدة فواحدة لتتلقى اللون الأزرق،

www.ibtesamh.com/vb

ثم تمر مرة أخرى للأصفر، وبعد ذلك من أجل البنفسجى، ثم الأسود، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والمباركة النهائية، هذه التى تتضمن كل ألوان قوس قزح، فليمنحك الربُ الصلاح، فأنا من جانبى فعلت ما أستطيعه، ولن يكون كبيراً الصلاح الذى يضيفه الرب المحكوم بالنسيان والوقائع الطارئة غير المتوقعة مثل أى كائن عادى فانٍ آخر. المباركة النهائية التى تعزى إلى تتويج الجهود، وإلا فإن وعينا الذليل بأننا إذا لم نستطع التوصل إلى الإنجاز بصورة أفضل يكون سببه ببساطة هو أننا عاجزون عن ذلك. والتذرع بما يجب أن يكون، ما هو على الدوام إلا إضاعة للوقت، فالذرائع لا تعدو كونها مجموعة كلمات عرضية إلى هذا الحد أو ذاك، تنتظر أن تكتسب من ترتيب صياغتها معنى ليست متأكدة هى نفسها من أنها تتضمنه. تركت مارتا لقية ينظر إلى الدمى، ودون مزيد من الجدل بشأن ما لا مفر منه، ذهبت إلى المطبخ بحثاً عن ورقة الزجاج الناعمة الوحيدة التى تعرف أنها موجودة فى البيت وفكرت، هذه ستُستهلك فى لحظة واحدة، يجب أن أشترى عدداً منها. ولو أنها نظرت من خلال باب مشغل الخزف، لرأت أن الأمور لا تجرى هناك أيضاً على ما يرام. لقد ادعى سيبريانو ألجور أنه قد ابتكر بعض الحيل لتسريع العمل، وهذا صحيح ومن وجهة نظر شمولية، إذا صح التعبير، ولكن السرعة ما لبثت أن أثبتت أنها لا تتناسب مع الإتقان، مما أدى إلى عدد من الدمى ذات العيوب أكبر بكثير مما جرى فى المجموعة الأولى.

www.ibtesamh.com/vb

عندما رجعت مارتا إلى عملها كانت الدمى المعطوبة الأولى مستقرة على الرفوف، غير أن سيبريانو ألجور، وبعد أن أجرى حسابات للزمن الذى كسبه والدمى التى فقدها، قرر عدم التخلى عن سرعة الإنتاج على الرغم من أن حيله التى لا غبار عليها لم تُشرح قط. وهكذا راحت الأيام تمضى. فبعد رجال الإسكيمو جاء دور المهرجين، ثم خرجت الممرضات، وتلا ذلك موظفو المندرين الصينيون، والآشوريون الملتحون، وأخيراً البهاليل الذين كانوا مستقرين إلى جانب جدار الصدراة. أما مارتا فنزلت فى اليوم الثانى إلى القرية واشترت دستتين من ورق الزجاج. وكان ذلك المتجر هو الذى بدأت إساورا العمل فيه، وقد كانت مارتا تعرف ذلك منذ أن زارتها بعد لقاء الجارة المشوِّش، بالمعنى العاطفى، مع أبيها. هاتان المرأتان لا تلتقيان كثيراً، غير أن لديهما فائضًا من الأسباب للتحول إلى صديقتين مقربتين. وبتكتم، بحيث لا تصل الكلمات إلى مسمع صاحب المتجر، سألت مارتا إساورا إن كانت تجد أنها على ما يرام فى هذا العمل، فأجابتها بنعم، إنها على ما يرام، وقالت، يمكن لإحدانا أن تعتاد. كانت تتكلم دون سعادة، ولكن بحزم، كما لو أنها تريد أن تبيّن أن الرغبة لا علاقة لها بالمسألة، وأن الإرادة، والإرادة وحدها هى التى لها الثقل الحاسم فى قرارها بقبول الوظيفة. كانت مارتا تتذكر كلمات سمعتها من قبل، أى عمل من أجل البقاء والعيش هنا. السؤال الذى وجهته إساورا بعد ذلك، بينما هى تلف أوراق الزجاج باللطف المطلوب، فهمته مارتا كصدى

www.ibtesamh.com/vb

مشوه، ولكن يمكن التعرف إليه، لتلك الكلمات، وفى بيتكم، كيف هم الجميع، إنهم متعبون، فالعمل كثير، ولكنهم على ما يرام عموماً، المسكين مرسيال اضطر إلى العمل فى الفرن فى يوم عطلته، أظن أنه مازال يعانى الألم فى كليتيه. كانت أوراق الزجاج ملفوفة وجاهزة، وبينما إساورا تتلقى النقود وتعيد الفكة، سألت دون أن ترفع عينيها، وأبوكِ. لم تتمكن مارتا من الرد إلا بالقول إن أباها على ما يرام، ومرت فى ذهنها فكرة غمّ مفاجئة، ما الذى ستفعله هذه المرأة بحياتها عندما نغادر. كانت إساورا تودع، فعليها تلبية زبون آخر، سلّمى، قالت، ولو أن مارتا سألتها فى تلك اللحظة، ما الذى ستفعلينه بحياتك عندما نغادر، فربما كانت ستجيب بهدوء، مثلما أجابت قبل قليل، يمكن لإحدانا أن تعتاد. أجل، إننا نسمع فى أحيان كثيرة، أو أننا نقوله نحن بالذات، يمكن للمرء أن يعتاد، يقولون، نقول، بهدوء يبدو حقيقياً، لأنه لا وجود له فى الحقيقة، ولم يُكتشف بعد أسلوب آخر للتعبير عن استسلامنا بقدر ممكن من الكرامة، وما لا يسأل عنه أحدٌ: ما هى الكلفة حتى يعتاد أحدنا. خرجت مارتا من المتجر والدموع تكاد تطفر من عينيها. وبنوع من تأنيب الضمير اليائس، كما لو أنها تتهم نفسها بخداع إساورا، فكرت، ولكنها لا تعرف شيئاً، بل إنها لا تعرف أننا على وشك الذهاب من هنا.

نسيا تقديم الطعام إلى الكلب مرتين. كان لقية يتذكر أزمنة عوزه وبؤسه، حين كان الأمل فى الغد هو الطعام الوحيد المتوافر له لساعات طويلة تظل فيها

www.ibtesamh.com/vb

المعدة متلهفة إلى الطعام، لم يطالب بشيء، أهمل واجباته فى الحراسة، استلقى إلى جوار كوخه، فهو يعرف من الخبرة القديمة أن الجسد المستلقى أكثر قدرة على تحمل الجوع، استلقى منتظراً، بصبر، أن يلطم أحد السيدين رأسه براحته ويهتف، يا للشيطان، لقد نسينا الكلب. وليس هذا بالأمر الغريب، فقد نسيا فى هذه الأيام نفسيهما بالذات. ولكن بفضل هذا الانكباب الكامل على مهمتيهما، واختلاسهما ساعات من النوم، بالرغم من أن سيبريانو ألجور لم يتوقف قطّ عن الاحتجاج على مارتا، عليكِ أن تستريحى، عليكِ أن تستريحى، بفضل هذا الجهد المتوازى، كانت الثلاثمئة دمية التى خرجت من الفرن قد نُظفت بورق الزجاج والفرشاة، وطليت بالأصباغ وجفت جميعها، وعندما جاء اليوم الذى سيذهب فيه سيبريانو ألجور لإحضار صهره من المركز، كانت الثلاثمائة دمية أخرى قد جفت وتصلبت فى صلصالها الخام، دون عيوب مرئية، فهى أيضاً، بفضل الحر والهواء، تخلصت من الرطوبة وصارت جاهزة للطهو. بدا مشغل الخزف كما لو أنه يستريح من كل ذلك الإرهاق، وأن الصمت قد استلقى لينام. وفى ظل شجرة التوت، كان الأب والابنة ينظران إلى الستمئة دمية المصفوفة على الألواح الخشبية ويبدو لهما أنهما أنجزا عملاً عظيماً. قال سيبريانو ألجور، غداً لن أشتغل فى مشغل الخزف، فليس على مرسيال أن يجد نفسه وحيداً فى العمل فى الفرن، وقالت مارتا، أظن أنه علينا أن نستريح بضعة أيام قبل

www.ibtesamh.com/vb

البدء فى الجزء الثانى من الطلبية، وسألها سيبريانو ألجور، **مـا** رأيك بثلاثة أيام؟ وردّت مارتا، **سـيكون** ذلك أفضل من أى شىء، وعاد سيبريانو ألجور إلى السؤال، **كـيف** تشعرين؟ وردّت مارتا، **مـتعبة**، ولكننى على ما يرام، وقال سيبريانو ألجور، **أما** أنا فأشعر بأننى مثلما لم أكن قط، وقالت مارتا، **لا** بد أنه ذلك الشعور الذى اعتدنا تسميته الرضا عن النفس بعد إنجاز الواجب. وعلى عكس ما يمكن أن يكون قد بدا، لم يكن فى هذه الكلمات أى نوع من السخرية، لم يكن يرشح من هذه الكلمات شىء سوى إنهاك يحلو تسميته غير متنهاهٍ لو لم تكن المبالغة فى الوصف جلية وغير متناسبة. ففى نهاية المطاف لم يكن الجسد هو ما تشعر بأنه متعب جداً، وإنما لأنها تجد نفسها عاجزة، وبلا مخرج، وهى تشهد همَّ أبيها المرير وحزنه الذى لا يمكنه إخفاءه، وتقلب مزاجه، وأساليب حرصه وسلطته المثيرة للشفقة، والتأكيد الحازم والمتسلط للشكوك نفسها، كما لو أنه يظن أنه سيتمكن بهذه الطريقة من انتزاعها من رأسه. وهناك أيضاً تلك المرأة، إساورا، إساورا مادروجا، الجارة ذات الإبريق، والتى لم تستطع أن تجيبها بأى شىء أكثر من إنه على ما يرام على سؤالها الذى دمدمت به خافضة بصرها بينما هى تعدّ النقود، **وأبوكِ**، وقد كان عليها فى ذلك الحين أن تمسك بها من ذراعها، وتصعد معها إلى مشغل الخزف، وتدخل وإياها حيث يشتغل أبوها وتقول، **هـا** هى ذى هنا، ثم تغلق الباب وتتركهما هناك فى الداخل إلى أن تنفعهما الكلمات فى شىء

www.ibtesamh.com/vb

ما، حيث إن الصمت، ويا للصمت من مسكين، فهو ليس سوى هذا بالذات، مجرد صمت، ولا أحد يجهل أن من يبدون مفوهين قد تسببوا، فى أحيان كثيرة، فى تفسيرات خاطئة، ونتائج جدية وكارثية أحياناً. إننا شديدو الاعتدال، شديدو الجبن للمغامرة بالإقدام على عمل كهذا، فكرت مارتا وهى تتأمل أباها الذى بدا أنه قد نام، إننا سجناء إلى حدّ بعيد فى شبكة ما يسمى العرف الاجتماعى، فى شبكة عنكبوت ما هو مناسب وما هو غير مناسب، فإذا ما عُرف أننى أقدمت على عمل كهذا سيقولون لى على الفور إن إلقاء امرأة بين ذراعى رجل، وسيكون هذا هو التعبير، ليس إلا إساءة احترام لشخصية الآخر، والأدهى أنه تهور غير مسئول، فمن يدرى ما الذى يمكن أن يحدث لهما فى المستقبل، فسعادة الأشخاص ليست بالشىء الذى يُفبرك اليوم ونستطيع التأكد من أنه سيستمر فى الغد، فقد نلتقى ذات يوم بشخص منفصل ممن كنا قد جمعناهم معاً ونجازف بالتعرض لأن يقال لنا لقد كنتم السبب. لم تشأ مارتا الاستسلام لخطبة الحس السليم العام هذه، وقالت لنفسها، إنها الحصيلة المنطقية والارتيابية لمعارك الحياة القاسية، ثم أضافت، أضف إلى ذلك أنه لن يحدث كل شىء بالضرورة غداً، هناك أشياء لا تحدث إلى بعد غد، ماذا قلتِ، سأل أبوها بسرعة، لا شىء، أجابته، لقد كنت هادئة وصامتة كيلا أوقظك، لم أكن نائماً، ولكنكَ بدوت لى نائماً، قلتِ إن هناك أشياء تحدث بعد غد، يا للغرابة، أنا قلتَ هذا، سألت مارتا، لم

www.ibtesamh.com/vb

أحلم به، أنا من حلمت به إذاً، يجب أن أكون قد نمت وأفقت فى الحال، فهكذا هى الأحلام، لا رأس لها ولا أقدام، أو أنها برأس وأقدام، ولكن الأقدام تذهب دوماً فى اتجاه والرأس فى اتجاه آخر، وهذا ما يوضح صعوبة تفسير الأحلام. نهض سيبريانو ألجور، لقد اقترب موعد إحضار مرسيل، ولكنه كان يفكر فى أنه ربما يجدر به أن يذهب باكراً بعض الشىء ويمر بقسم المشتريات، وهكذا أُخبرهم بأن الثلاثمائة الأولى قد انتهت ونرتب مسألة التسليم، إنها فكرة جيدة، قالت مارتا. خلع سيبريانو ألجور ملابسه، وارتدى قميصاً نظيفاً، استبدل الحذاء، وخلال أقل من عشر دقائق كان يصعد إلى الشاحنة، إلى اللقاء، قال، إلى اللقاء يا أبى، اذهب بحذر، وعد بمزيد من الحذر، أتخجلين من قول ذلك، أجل، عد بحذر أشد، لأنكما ستكونان اثنين، هذا ما أقوله دائماً، وسأظل أقوله، لا يمكن الجدال معكِ، فأنتِ تجدين جواباً لكل شىء. جاء لقية ليسأل سيده إذا كان بإمكانه الذهاب معه هذه المرة، ولكن سيبريانو ألجور قال له لا، وإن عليه أن يصبر، فالمدن ليست المكان الأفضل للكلاب.

ما كان للرحلة، وهى واحدة أخرى بعد رحلات عديدة، أن يكون لها قصة لولا هاجس قلق صانع الخزف بأن شيئاً سيئاً يوشك أن يحدث. تذكر مصادفة ما كان قد سمعه من ابنته، هناك أشياء فقط بعد غد، بضع كلمات متفرقة، دون سبب أو مغزى ظاهر، لم تعرف هى أو لم تشأ تفسيرها، أشك

www.ibtesamh.com/vb

فى أننى كنتُ نائماً، ولكننى لا أفهم ما الذى دفعها للتلميح إلى أننى كنت أحلم، فكر، وفى الحال، بعد تذكّره الجملة مباشرة، ترك تفكيره يوصل فى ذلك الطريق نفسه وبدأ يترنم فى رأسه بترنيمة متسلطة، هناك أشياء فقط بعد غد، هناك أشياء فقط فى الغد، **هناك** أشياء اليوم، ثم يأخذ بترديد الترنيمة معكوسة، **هناك** أشياء اليوم، هناك أشياء فقط فى الغد، **هناك** أشياء فقط بعد غد، وراح يكررها مرات ومرات حتى انتهت إلى فقدان وقعها ومعناها، معنى غداً وبعد غد وحده ظل فى رأسه، مثل نور إنذار يضىء وينطفئ، اليوم، هذا اليوم، هذا اليوم، **هذا** اليوم، اليوم، اليوم، اليوم. اليوم ماذا، تساءل بعنف، محاولاً مناوأة العصبية السخيفة التى جعلت يديه ترتعشان على المقود، إننى ذاهب إلى المدينة لإحضار مرسيال، وسأذهب إلى قسم المشتريات لأخبرهم بأن الدفعة الأولى من الطلبية جاهزة للتسليم، كل ما أفعله معهود، عادى، منطقى، وليس لدى مسوغ للقلق، وأنا أقود السيارة بحذر، حركة السير سلسة، عمليات السطو فى الطريق العام انتهت، أو على الأقل لم يعد يُسمع شىء عنها، وبهذا لا يمكن حدوث شىء سوى الرتابة المعهودة، الخطوات نفسها، الكلمات نفسها، الحركات نفسها، منضدة كونتوار قسم المشتريات، معاون المدير الباسم أو غير المهذب، أو المدير نفسه ما لم يكن فى اجتماع وتتملكه نزوة اللقاء بى، وبعد ذلك باب الشاحنة الذى يُفتح، ومرسيال الذى يدخل، **مساء** الخير يا أبتاه، **مساء** الخير يا مرسيال، كيف

www.ibtesamh.com/vb

كان عملك هذا الأسبوع؟ ولا أدرى إذا كان يمكن لعشرة أيام أن تُسمى أسبوعاً، ولكننى لا أعرف طريقة أخرى لتسميتها،وسيقول هو، **كـ**العادة، وسأقول أنا، أنهينا المجموعة الأولى من الدمى، وقد حددت موعد تسليم الدفعة الأولى مع قسم المشتريات، **كـ**يف هى مارتا؟ سيسأل هو، **مـ**تعبة، ولكنها على ما يرام، سأجيب أنا، وهذه كلمات نقولها باستمرار أيضاً، ولست أستغرب أننا حين ننتقل من هذا العالم إلى العالم الآخر، سنواصل إيجاد القوة لنرد على من تخطر له الفكرة الحمقاء بسؤالنا كيف حالنا، ميتون، ولكننا على ما يرام، هذا ما سنقوله. ولكى يشغل نفسه عن رفقة الأفكار المشئومة الملحة على مضايقته، جرب سيبريانو ألجور أن يوجه اهتمامه نحو المشهد الطبيعى، وفعل ذلك كوسيلة أخيرة؛ لأنه يعرف جيداً أنه لا وجود لما يمكن أن يطمئنه فى المشهد الكئيب للدفيئات البلاستيكية الممتدة إلى أبعد مما يبلغه البصر، على هذا الجانب وذاك، حتى الأفق، مثلما يمكن تمييز ذلك بصورة أفضل من أعلى المرتفع الصغير الذى تصعده الشاحنة فى هذه اللحظة بالذات. وفكر، **و**يطلقون تسمية الحزام الأخضر على هذا المدى الكئيب، على هذا الميدان الصموت، على هذه الأسراب من كتل الجليد المتسخة التى تقطر عَرقاً على من يعملون داخلها، هذه الدفيئات فى نظر أناس كثيرين هى آلات لصنع الخضراوات، والحقيقة أنه لا وجود لأية صعوبة فى ذلك، إنه أشبه باتباع وصفة، تُخلط المكونات المناسبة، وتضبط درجة

www.ibtesamh.com/vb

الحرارة ودرجة الرطوبة، يُضغط زر وبعد قليل تخرج خلسة. والاستياء لا يمنع سيبريانو ألجور بالطبع من الاعتراف بأنه بفضل هذه الدفيئات يحصل على الخضار فى الطبق على امتداد السنة، ما لا يستطيع تحمله هو أن يُعمّد باسم الحزام الأخضر مكان لا وجود فيه لهذا اللون بالذات، اللهم إلا فى الأعشاب القليلة التى تُترك لتنمو على الحواف الخارجية للدفيئات. وهل سيكون الأمر أكثر بهجة لو كان البلاستيك أخضر اللون، سأله فجأة الخاطر الذى يؤرق الطبقة السفلى من دماغه، هذا الخاطر القلق الذى لا يشعر بالرضا أبداً عما جرى التفكير فيه واتُخذ القرار بشأنه فى الطبقة العليا، ولكن سيبريانو ألجور فضّل ألا يردّ على السؤال الوجيه، وتظاهر بأنه لم يسمع، ربما للهجة الوقحة التى تتخذها الأسئلة الوجيهة آلياً بمجرد توجيهها، مهما حاولت التقنع. لم يُحسن من حالته الحزام الصناعى الذى يشبه أكثر فأكثر منشأة أنبوبية فى توسع مستمر، هيكل أنابيب صممه غاضب ونفذه مُهلوِس، ولكن القليل هو شىء ما، ومن الأسوأ إلى الأقل سوءاً، فقد تعكر تفكيره وتحول قلقه إلى التأفف. لاحظ أن اصطفاف أحياء الأكواخ صار أقرب كثيراً من الطريق العام، مثل قرية نمل تعود إلى الأخدود بعد المطر، فكر وهو يهز كتفيه، لن تتأخر عمليات السطو على الشاحنات من التجدد، وأخيراً، وببذل جهد هائل لينفصل عن الشبح الجالس إلى جانبه، دخل إلى حركة المرور المضطربة فى المدينة. لم يكن موعد خروج مرسيال قد حان بعد،

www.ibtesamh.com/vb

وكان لديه متسع من الوقت للذهاب إلى قسم المشتريات. لم يطلب التحدث إلى المدير، لأنه يعرف جيداً أن المسألة التى جاء من أجلها ليست سوى ذريعة ليستبقوه فى الذهن، مجرد تذكير عابر كيلا ينسوا وجوده، كيلا ينسوا أن هناك فرناً على بُعد حوالى ثلاثين كيلومتراً يشوى صلصالاً بهمة ونشاط، وامرأة تطلى، وأباها يصب القوالب، وعيونهم جميعاً مصوبة إلى المركز، ولا تقولوا لى إنه ليس للأفران عيون، بل لها يا سيدى، ولو لم يكن لها عيون لما عرفت ما الذى تصنعه، إن لها عيوناً، وكل ما هنالك أنها مختلفة عن عيوننا. استقبله معاون المدير الذى التقى به فى المرة السابقة، ذلك المعاون اللطيف والباسم، **ما** الذى جاء بك اليوم، سأله، الثلاثمئة دمية صارت جاهزة، وجئت أسألك متى تريدنى إحضارها، **عندما** تشاء، غداً بالذات، **لا** أدرى إذا كنتُ أستطيع المجىء غداً، فصهرى سيكون فى البيت لأنه يوم عطلته، وهو يستغل الفرصة ليساعدنى فى طهو الثلاثمئة الأخرى، **بعد** غد إذاً، بأسرع ما يمكن، فقد خطرت لى فكرة وأريد تطبيقها بسرعة، بشأن دُمَاى، بالضبط، هل تتذكر أننى حدثتك عن عملية سبر للرأى، أذكر ذلك، أجل يا سيدى، سبر حول حالة المبيعات السابقة والوضع الناشئ عن استخدام المُنتَج، **مرحى**، إنك تتمتع بذاكرة جيدة، **ليست** بالذاكرة السيئة لمن فى مثل عمرى، **هذه** الفكرة طُبقت فى الحقيقة على حالات أخرى وأعطت نتائج معتبرة، وتتلخص فى أن نوزع كمية من الدمى على عدد محدد من كبار

www.ibtesamh.com/vb

المشترين، وفق توزيع اجتماعى وثقافى متنوع، ونستقصى بعد ذلك الرأى الذى تكوّن لديهم حول البضاعة، أقول هذا على سبيل التبسيط، لأن نظام أسئلتنا أشد تعقيداً كما يمكن لك أن تتصور، **ل**يست لدى تجربة يا سيدى، فأنا لم أَستطلع ولم أُستطلع قطّ، **إ**ننى أفكر فى استخدام الثلاثمائة دمية الأولى فى عملية السبر، واختيار خمسين زبوناً، وتقديم مجموعة كاملة من الدمى الست لكل واحد منهم، وبعد أيام قليلة من ذلك معرفة الرأى الذى تشكل لديهم عن المنتَج، **ت**قدمونها مجاناً، سأله سيبريانو ألجور، أتعنى أنكم لن تدفعوا لى، **و**لا بأى حال يا سيدى العزيز، فالاختبار يجرى على نفقتنا، وبالتالى سنكون نحن من نتحمل التكاليف، لا نريد إلحاق الضرر بك. الراحة التى أحس بها سيبريانو ألجور أزاحت، للحظة، القلق الذى انبثق فجأة فى روحه، هذا هو المهم، **م**اذا سيحدث إذا كانت نتيجة استطلاع الرأى معاكسة، إذا ما ردّ معظم الزبائن المستقصين، أو جميعهم، على الأسئلة بجواب وحيد ونهائى: **ه**ذا مُنتَج لا يهمنى. وسمع نفسه يقول، شكرًا، ليس بدافع التهذب فقط، وإنما لأن العدل يفرض علىّ تقديم الشكر، لأننا لا نلتقى فى كل يوم بشخص يطمئننا بالمعلومة الرحيمة بأنه لا يريد إلحاق الضرر بنا. عاد القلق يعضه فى معدته، ولكنه هو نفسه من لم يسمح بخروج السؤال من فمه، سيغادر كمن يحمل فى جيبه رسالة مختومة لا يمكن له فتحها إلا عندما يصير فى أعالى البحر ومصيره محدد،

www.ibtesamh.com/vb

مرسوم، مكتوب فى تلك الرسالة، اليوم، غداً، بعد غد. كان معاون المدير قد سأله، **مـا** جاء بك اليوم؟ ثم قال له بعد ذلك، **غـداً** بالذات، ثم قال له أخيراً، **بـعد** غد إذاً، صحيح أن الكلمات هى هكذا، تذهب وتجىء، وتذهب، وتجىء، وتجىء، وتذهب، ولكن لماذا انتظرتنى هذه الكلمات هنا، لماذا خرجت معى من البيت ولم تتركنى خلال الطريق، ليس غداً، ولا بعد غد، وإنما اليوم، الآن بالذات. وفجأة كره سيبريانو ألجور الرجل الذى أمامه، هذا المعاون اللطيف والحميم، شبه الودود، الذى تمكن فى المرة السابقة من التحدث معه حديث الند للند عملياً، مع الأخذ فى الاعتبار بالطبع فوارق السن والوضع الاجتماعى الواضحة التى لم يبدُ له آنذاك أنها يمكن أن تشكل عائقاً أمام علاقة تستند إلى الاحترام المتبادل. إذا ما كانوا يغرسون سكيناً فى بطنك، فلتكن لديهم على الأقل اللياقة الأخلاقية بأن يكشفوا لك عن وجه يتوافق مع عملية القتل، وجه يرشح حقداً وقسوة، وجه غضب معتوه، أو حتى برودة إنسانية، ولكن حباً بالرب، لا أن يبسموا لك بينما هم يمزقون أحشاءك، ألا يزدروك إلى هذا الحد، ألا يمنحوك آمالاً زائفة، كأن يقولوا لك، **لا** تقلق، بنصف دستة من قُطب الجراحة ستعود مثلما كنت، أو أن يقولوا لك، أتمنى من كل قلبى أن تكون النتيجة إيجابية، ليس هناك ما يفرحنى أكثر من ذلك، صدقنى. هز سيبريانو ألجور رأسه بغموض، بحركة يمكن أن تعنى نعم بقدر ما يمكن لها

www.ibtesamh.com/vb

أن تعنى لا، وربما ليس لها أى معنى، وقال، **عـلىّ** أن أذهب لآخذ صهرى.

خرج من القبو، قام بالالتفاف حول المركز وأوقف الشاحنة أمام باب خدمة الأمن. تأخر مرسيال أكثر مما هو معهود، وبدا عصبياً وهو يدخل إلى الشاحنة، **مـساء** الخير يا أبتاه، قال، فقال سيبريانو ألجور، **مـساء** الخير، كيف كان عملك هذا الأسبوع؟ **كـ**العادة أجاب مرسيال، وقال سيبريانو ألجور، **لـ**قد أنهينا مجموعة الدمى الأولى، وقد حددت موعد التسليم مع قسم المشتريات، **كـيف** هى مارتا؟ **مـتعبة**، ولكنها على ما يرام. لم يعودا إلى الكلام إلا بعد الخروج من المدينة. وعندما صارا عند مستوى الأكواخ قال مرسيال، **أبتاه**، لقد أخبرونى للتو بأننى قد رُقيت، فقد صرتُ حارساً مقيماً فى المركز اعتباراً من اليوم. أدار سيبريانو ألجور رأسه باتجاه صهره، نظر إليه كما لو أنه يراه أول مرة، اليوم، ليس بعد غد، ولا غداً، بل اليوم، لقد كان الهاجس على حق. **الـ**يوم ماذا؟ سأل نفسه، أهو التوعد الذى تتضمنه أسئلة استطلاع الرأى، أم هذا هو التهديد الآن، وقد تحقق أخيراً بعد الوعد به لوقت طويل. صحيح أنه يُرى ـ فى الحياة الواقعية أقل مما فى الكتب التى تروى قصصاً ـ أنه يمكن للمفاجأة المباغتة أن تصيب المرء المفاجأ بالبكم للحظة، ولكن نصف مفاجأة تؤدى إلى الصمت، ربما تظاهراً، وربما لكى تبدو مفاجأة كاملة، لا يتوجب أخذها بالاعتبار فى البدء. إنه اهتمام فى البدء.

www.ibtesamh.com/vb

فنحن نعرف منذ البداية أنه لا يوجد لدى هذا الرجل الذى يقود الشاحنة أى شك فى أن الخبر الرهيب سيأتى ذات يوم، ولكن يمكن لنا أن نتفهم اليوم، وقد وُضع بين نارين، أنه وجد نفسه فجأة بلا قوة على اتخاذ القرار إلى أى منهما يتجه أولاً. وسنكشف منذ الآن، وإن كنا نعرف أننا سنُلحق الضرر بانتظام التوالى الذى يجب أن تخضع له الأحداث، أن سيبريانو ألجور لن يخبر صهره أو ابنته فى هذه الأيام التالية بكلمة واحدة بشأن محادثته المثيرة للقلق مع معاون مدير المشتريات. سينتهى به الأمر إلى التحدث فى الموضوع، أجل، ولكن فيما بعد، عندما يضيع كل شىء. أما الآن فيكتفى بالقول لصهره، **تهانىّ**، أعتقد أنك سعيد الآن، كلمات تافهة وغير مبالية تقريباً لا تتطلب كل ذلك الوقت لقولها، ومرسيال لن يشكره عليها، ولن يؤكد كذلك إذا ما كان سعيداً مثلما يفترض حموه، أو أقل قليلاً، أو أكثر قليلاً، ما يقوله هو جدىّ مثل يد ممدودة، إنه خبر غير طيب بالنسبة إليك. فهم سيبريانو ألجور ما يرمى إليه، فرماه بنظرة جانبية وهو يرسم ابتسامة تبدو سخرية من استسلامه هو نفسه، وقال، **حتى** أفضل الأخبار ليست طيبة فى نظر الجميع، فقال مرسيال، **سترى** كيف أن كل شىء سيُحل على أحسن وجه، **لا** تقلق، فقد قضى الأمر يوم قلتُ لكما إننى سأذهب للإقامة معكما فى المركز، لقد أعطيت كلمتى، قلتها ولا تراجع عنها، الإقامة فى المركز ليست نفياً بأى حال، قال مرسيال، **لا** أعرف كيف سيكون العيش فى

www.ibtesamh.com/vb

المركز، سأعرفه عندما أصير هناك، أما أنت فتعرف ذلك، ولكن فمك لم يتلفظ بأى شرح قط، لم تذكر أية قصة، أو أى وصف يتيح لى أن أفهم، ما يسمى فهماً بالفعل، هذا الذى تؤكده وأنت واثق من نفسك بأنه ليس نفياً بأى حال، ولكنكَ كنت فى المركز أيضاً، مراتٌ قليلة، وبصورة عابرة دوماً، كمشترٍ يعرف ما يريد شراءه، أظن أن أفضل شرح للمركز هو فى القول إنه مدينة ضمن مدينة أخرى، لا أدرى إذا كان هذا هو أفضل توضيح، ولكنه غير كافٍ على أى حال لأن أكوّن فكرة عما فى داخل المركز، يوجد هناك ما هو موجود فى أية مدينة، متاجر، أناس يمرون، يشترون، يتحدثون، يأكلون، يتسلون، يشتغلون، أى أنه بالضبط مثل القرية المتخلفة التى نعيش فيها، إلى هذا الحد أو ذاك، والمسألة فى العمق هى مسألة الحجم، لا يمكن للحقيقة أن تكون بهذه البساطة، أظن أن هناك بعض الحقائق البسيطة، هذا ممكن، لكننى لا أظن أنه يمكن لنا التعرف عليها داخل المركز. ساد الصمت قليلاً، وبعد ذلك قال سيبريانو ألجور، وبما أننا نتحدث عن الحجم، فالمثير للاستغراب هو أننى كلما نظرت إلى المركز من الخارج أشعر بأنه أكبر من المدينة نفسها، هذا يعنى أن المركز موجود ضمن المدينة، ولكنه أكبر من المدينة، أى أنه جزء أكبر من الكل، وربما السبب فى ذلك أنه أكثر ارتفاعاً من المبانى المحيطة به، أكثر ارتفاعاً من أى بناء آخر فى المدينة، ربما لأنه منذ البداية راح يبتلع شوارع وساحات وأحياء بكاملها. لم يُجب مرسيال فى الحال،

www.ibtesamh.com/vb

فقد قدم الحمو للتو توضيحاً شبه بصرى للإحساس المشوش بالضياع الذى يستولى عليه فى كل مرة يرجع فيها إلى المركز بعد يوم الراحة، لاسيما خلال المناوبات الليلية تحت الإضاءة المقتضبة، وهو يجوب الردهات المقفرة، يصعد وينزل فى المصاعد، كما لو أنه يحرس العدم كى يبقى عدماً كما هو. فى داخل كاتدرائية كبرى خاوية، إذا ما رفعنا بصرنا نحو السقوف المقنطرة، نحو أعمال البناء العليا، يتملكنا الإحساس بأن ارتفاعها أكبر من الارتفاع الذى تُرى عليه السماء فى حقل مكشوف. وبعد فترة من الصمت، قال مرسيال، أظن أننى أفهم فكرتك، وتوقف عند هذا الحد، فهو لا يريد أن يغذى فى روح حميه تياراً من الأفكار يمكن له أن يقوده إلى الانغلاق وراء خط دفاع يائس. لكن قلق سيبريانو ألجور كان يمضى فى اتجاه آخر، متى سيتم الانتقال؟ فى أسرع وقت ممكن، فقد رأيت الشقة التى خصصوها لى، إنها أصغر من بيتنا، ولكن ذلك منطقى، فعلى الرغم من اتساع المركز، إلا أن المكان ليس غير نهائى ولا بد من تقنينه، وهل تعتقد أن المكان سيتسع لنا جميعاً، سأله صانع الخزف متمنياً ألا يفهم الصهر من نبرة السخرية الكئيبة أنه تورط فى الكلام، إنه يتسع، اطمئن، فالشقة بالنسبة لأسرة مثلنا أكثر من كافية ولن نضطر إلى النوم جميعنا معاً، أجاب مرسيال. وفكر سيبريانو ألجور، لقد أزعجته، ليتنى لم أسأله. ولم يعودا إلى الكلام حتى وصولهما إلى البيت. تلقت مارتا الخبر دون أن تبدى أية مشاعر. فما هو معروف

www.ibtesamh.com/vb

أنه سيحدث يكون بطريقة ما كما لو أنه قد حدث، فالانتظار يؤدى إلى ما هو أكثر من إبطال المفاجآت، إنه يخدر الانفعالات، فكل ما نتمناه أو نخشاه نكون قد عشناه خلال تمنينا له أو خشيتنا منه. وفى أثناء العشاء، قدم مرسيال معلومة مهمة كان قد نسيها، وقد استاءت مارتا صراحة من هذه المعلومة، **هل** تعنى أنه لا يمكن لنا أن نأخذ أشياءنا معنا؟ **يمكننا** أخذ بعضها، زينات البيت مثلاً، ولكن ليس الأثاث، ولا أوانى المطبخ، ولا الأوانى الزجاجية، ولا أدوات المائدة، ولا الشراشف، ولا الستائر، ولا أغطية الفراش، فالشقة تحتوى كل ما هو ضرورى، **هذا** يعنى أنه لن يكون هناك انتقال، انتقال، من ذاك الذى يسمى انتقالاً، فقال سيبريانو ألجور، **الأشخاص** هم الذين ينتقلون، هذا ما يعنيه الانتقال، **وهل** سنترك هذا البيت بكل ما فيه، قالت مارتا، **سترين** أنه لا مفر من ذلك. فكرت مارتا قليلاً، وكان عليها بعد ذلك أن تتقبل ما لا بد منه، **سآتى** إلى هنا بين حين وآخر لفتح النوافذ وتهوية الغرف، فالبيت المقفل هو مثل نباتات تُنسى سقايتها، يموت، يجف، يذبل. عندما انتهوا من تناول الطعام، وقبل أن تنهض مارتا لرفع الأطباق، قال سيبريانو ألجور، **لقد** كنت أفكر، فتبادلت الابنة والصهر النظرات كما لو أن كلاً منهما ينقل إلى الآخر كلمات إنذار، **لا** أحد يدرى أين يمكن له أن يصل عندما يبدأ التفكير. ولكن الخزاف واصل، الفكرة الأولى هى أن مرسيال سيساعدنى غداً فى العمل فى الفرن، فقالت مارتا، **أطلبُ** الإذن لتذكيرك

www.ibtesamh.com/vb

بأننا اتفقنا على ثلاثة أيام من الراحة، أيام راحتكِ ستبدأ غداً، وأيام راحتكَ أنت، وراحتى لن تتأخر كذلك، عليها أن تنتظر قليلاً وحسب، حسن، هذه هى الفكرة الأولى، وما الثانية، أو الثالثة، سألته مارتا، نقوم فى الصباح بوضع الدمى الجاهزة للطهو فى الفرن، ولكننا لن نشعله، لأنى سأتولى ذلك بنفسى فيما بعد، ثم تساعدانني فى تحميل الدمى الجاهزة فى الشاحنة، وبينما أنقلها أنا إلى المركز وأعود، تظلان هنا مطمئنين، بلا أب ولا حمٍ يتدخل حيث لا يستدعيه أحد، فسأله مرسيال أهذا هو الاتفاق الذى توصلتَ إليه مع قسم المشتريات، تسليم الدمى غداً، لم يكن هذا هو ما فهمته، ظننتُ أنك ستنقلها فيما بعد، عندما نذهب الثلاثة معاً، فرد سيبريانو ألجور، هكذا أفضل، يمكننا كسب الوقت، يمكن كسبه من جانب وفقدانه من جانب آخر، لأن الدمى الأخرى ستتأخر، لن تتأخر كثيراً، فسوف أشعل الفرن فور وصولى إلى البيت بعد عودتنا من المركز، ومن يدرى إذا لم تكن المرة الأخيرة، يا لفكرتكَ هذه، مازال أمامنا صنع ستمئة دمية، قالت مارتا، لستُ واثقاً جداً من ذلك، لماذا، لدينا فى المقام الأول الانتقال، فالمركز ليس شخصاً يمكنه أن ينتظر انتهاء حمى الحارس مرسيال جاتشو من إنجاز طلبية، حتى لو قلنا، على افتراض توافر الوقت، إننى قادر على إنجاز العمل وحدى، وفى المقام الثانى، وفى المقام الثانى ماذا، سأله مرسيال، هناك دوماً فى الحياة شىء ما يأتى بعد ما يظهر فى المقام الأول، أحياناً يكون لدينا

www.ibtesamh.com/vb

شعور بأننا نعرف ما هو، ولكننا نود تجاهله، وفى أحيان أخرى لا نستطيع حتى أن نتخيل ما يمكن أن يكون، ولكننا نعرف أنه موجود، دعك من التكلم كعراف، أرجوك، قالت مارتا، حسن، سيصمت العراف، وسنظل إذاً عند ذاك الذى ذُكر فى المقام الأول، من أنه إذا توجب الانتقال خلال وقت قصير فلن يكون لدينا وقت لحل مشكلة الستمئة دمية المتبقية، ستكون مسألة يمكن بحثها مع المركز، قالت مارتا متوجهة إلى زوجها، فثلاثة أو أربعة أسابيع أخرى لا يمكن أن تعنى شيئاً لهم، تحدث إليهم، وإذا كانوا قد تأخروا كل هذا الوقت فى حسم مسألة ترقيتك، يمكن لهم مساعدتنا الآن فى هذا الأمر، كما أنهم سيساعدون أنفسهم؛ لأنهم سيحصلون بذلك على الطلبية كاملة، فقال مرسيال، لن أتحدث فى هذا، فهو لا يستحق العناء، لدينا عشرة أيام كاملة للانتقال، ولا ساعة واحدة زيادة، إنها الأنظمة، يوم إجازتى القادم يجب أن أقضيه فى الشقة، يمكنكَ أن تأتى لقضاء يوم عطلتك هنا أيضاً، قال سيبريانو ألجور، فى بيتك الريفى، لن يُنظر بعين الرضا أن أُرقى إلى حارس مقيم وأتغيب عن المركز فى أول يوم عطلة لى، عشرة أيام هى وقت قصير، قالت مارتا، ربما تكون وقتاً قصيراً لو كان علينا حمل الأثاث وكل ما شابه ذلك، ولكن الشىء الوحيد الذى علينا نقله هو أجسامنا والثياب التى نرتديها، وهذه أشياء يمكن إدخالها إلى الشقة خلال أقل من ساعة عند الضرورة، فى هذه الحال، ماذا علينا أن نفعل بما

www.ibtesamh.com/vb

تبقى من الطلبية، سألت مارتا، المركز يعرف ذلك، والمركز سيعلن عن ذلك فى الوقت المناسب، قال صانع الخزف. رفعت مارتا بمساعدة زوجها الأطباق عن المائدة، ثم خرجت إلى الباب لتنفض الشرشف، توقفت قليلاً وهى تنظر إلى الخارج، وعندما رجعت قالت، مازالت هناك مسألة بحاجة إلى حل ولا يمكن تأجيلها حتى اللحظة الأخيرة، أى مسألة هى هذه؟ سألها مرسيال، الكلب، أجابته، اسمه لقية، صحح لها سيبريانو ألجور، وواصلت مارتا، بما أننا لسنا ممن هم مستعدون لقتله أو تركه مهجوراً، فلا بد لنا من تأمين مصيره، من أن نعهد به لأحد ما، إنهم فى المركز لا يقبلون الحيوانات، أوضح مرسيال لحميه متعمداً، فأراد سيبريانو ألجور أن يعرف، لا يقبلون ولو سلحفاة بيتية، أو حتى كنارى، أو يمامة على الأقل، فقالت مارتا، يبدو أنكَ فقدت فجأة اهتمامك بالكلب، بل لقية، بالكلب أو بلقية، الأمر سيان، المهم أن نعرف ما الذى سنفعله به، فأنا من جانبى أقول إن لدى فكرة، وأنا أيضاً، قاطعها سيبريانو ألجور، ونهض من فوره ومضى إلى حجرته. عاد للظهور بعد بضع دقائق، فاجتاز المطبخ دون أن يتلفظ بكلمة واحدة وخرج. استدعى الكلب، هيا، تعال كى نقوم بجولة، قال. نزل معه المنحدر، ولدى الوصول إلى الطريق العام انعطف نحو اليسار، فى اتجاه معاكس للقرية، وتوغل فى البرية. لم يبتعد لقية عن كعبى سيده، لا بد أنه كان يتذكر أزمنة تشرده التعيسة عندما كانوا يطردونه بعنف من البساتين ويرفضون إعطاءه ولو

www.ibtesamh.com/vb

جرعة ماء. ومع أنه لم يكن خوافاً بأى حال، ومع أن أشباح الليل لا تخيفه، إلا أنه كان يفضل أن يكون الآن قابعاً فى كوخه، أو أن يكون رابضاً، وهذا أفضل، فى المطبخ عند قدمى أحدهم، ولا يقول أحدهم دون اهتمام، كما لو أنه لا فرق لديه، لأن الاثنين الآخرين يظلان فى متناول بصره وشمّه، ولأنه يستطيع الانتقال من مكانه عندما يرغب دون أن يطرأ أى تبدل على انسجام اللحظة وسعادتها. لم يدم المشوار طويلاً. الحجر الذى جلس عليه سيبريانو ألجور سيحل محل مقعد التأملات، لهذا السبب خرج من البيت، ولو أنه اختار المقعد الحقيقى فإن الابنة ستراه من باب المطبخ ولن تتأخر عن الاقتراب منه لتسأله إن كان على ما يرام، إنها لفتات اهتمام تُسعد دون ريب، ولكن الطبيعة البشرية مصنوعة بطريقة غريبة جداً يمكن معها لأشد حركات القلب صراحة وتلقائية أن تكون غير مناسبة فى بعض الظروف. ما فكر فيه سيبريانو ألجور لا يستحق عناء التحدث عنه؛ لأنه فكر فيه فى مناسبات أخرى وقد وردت من ذلك التفكير معلومات أكثر من كافية. والجديد الذى حدث هنا هو أنه سمح بأن تنزلق على وجهه بضع دمعات غالية كانت منذ زمن طويل محتجزة هناك، وكانت توشك أن تنسكب على الدوام، ولكنها كانت منذورة لهذه اللحظة الحزينة، لهذه الليلة التى بلا قمر، لهذه الوحدة التى لا تستكين. لم يكن هناك من جديد فى اقتراب لقية من سيبريانو ألجور ليلحق دموعه، لأن

www.ibtesamh.com/vb

ذلك حدث بكثرة فى تاريخ الأساطير وفى عجائب الناس الكلبيين، إنها حركة مواساة سامية على أى حال، ومهما بدت لنا مؤثرة، بل ويمكن لها أن تمس أقل القلوب ميلاً إلى إظهار الأحاسيس، يجب ألا تنسينا الحقيقة الفجة بأن مذاق الملح الكامن فيها بوضوح محبب إلى حدّ بعيد لدى عموم الكلاب. ولكن هذا الأمر لا ينفى مع ذلك الأمر الآخر، لأننا لو سألنا لقية عما إذا كان الملح هو سبب لعقه لوجه سيبريانو ألجور، فربما سيجيبنا بأننا لا نستحق الخبز الذى نأكله، وأننا غير قادرين على الرؤية أبعد من أنوفنا. ظل الكلب وصاحبه على تلك الحال أكثر من ساعتين، كل منهما مستغرق فى أفكاره، ودون دموع يذرفها أحدهما ويمسحها الآخر، ومن يدرى إذا ما كانا ينتظران من دوران العالم أن يعيد وضع الأشياء فى نصابها، دون نسيان بعضها الذى لم يتوصل إلى العثور على مكان حتى الآن.

www.ibtesamh.com/vb

فى صباح اليوم التالى، ومثلما كان قد قرر، حمل سيبريانو ألجور الدمى الجاهزة إلى المركز. وكانت الدمى الأخرى قد صارت فى الفرن بانتظار عودته. فقد نهض سيبريانو ألجور باكراً، بينما كانت ابنته وصهره لا يزالان نائمين، وعندما ظهر مرسيال ومارتا أخيراً عند باب المطبخ ناعسين، كان نصف العمل قد أُنجز. تناولوا الفطور معاً متبادلين عبارات تتفق مع المناسبة، أتريد مزيداً من القهوة؟ أعطنى الخبز، هل بقى شىء من المربى؟ وبعد ذلك ساعد مرسيال حماه فيما تبقى من العمل، ثم تولى العمل الحساس بتوضيب الثلاثمئة دمية الجاهزة فى الصناديق التى كانوا يستخدمونها من قبل فى نقل الأوانى الخزفية. وقالت مارتا لأبيها إنها ستذهب مع مرسيال إلى بيت حمويها، لأنه لا بد من إخبارهما بأمر الانتقال القريب، وسنرى كيف سيتلقيان الخبر، ولكنهما لن يظلا هناك على أى حال لتناول الغداء، وأنهت قائلة، من المحتمل أن نكون هنا عند عودتك إلى المركز. وقال سيبريانو ألجور إنه سيأخذ لقية معه، فسألته

www.ibtesamh.com/vb

مارتا إذا كان يفكر فى أحد فى المدينة عندما قال ليلة أمس إن لديه فكرة أيضاً من أجل حلّ مشكلة الكلب، وأجاب هو أن لا، ولكنه موضوع يمكن درسه، فبهذه الطريقة سيكون لقية على مقربة منهم، ويستطيعون رؤيته كلما أرادوا ذلك. وأعربت مارتا عن أنها لم تعرف أن لأبيها أصدقاء مقربين فى المدينة، أشخاصاً محل ثقة يستحقون - وقالت كلمة يستحقون متعمدة - أن يُعهد إليهم بحيوان يعتبرونه فى ذلك البيت شخصاً منهم. وردّ سيبريانو ألجور بأنه لا يتذكر أنه قال يوماً إن له أصدقاء مقربين فى المدينة، وما حمل الكلب معه إلا ليشغل نفسه عن أفكار لا يريد لها أن تشغله. فقالت مارتا إنه إذا كانت لديه مثل هذه الأفكار فعليه أن يشاطر فيها ابنته، فكان ردّ سيبريانو ألجور عليها بأن التحدث إليها عن أفكاره سيكون أشبه بنزول المطر على الماء، لأنها تعرف أفكاره مثله أو أفضل منه، ليس كلمة كلمة بالطبع، مثل تسجيل آله التسجيل، وإنما تعرفها فى العمق والجوهر، عندئذ قالت له إن الحقيقة، برأيها المتواضع، هى عكس ذلك بالضبط، وإنها لا تعرف شيئاً مما هو جوهرى وعميق، وإن الكثير من الكلمات التى تسمعها منه لا تعدو أن تكون ستائر دخانية، وهو أمر من جهة أخرى غير مستغرب لأن الكلمات، فى أحيان كثيرة، لا تنفع إلا فى ذلك، ولكن هناك ما هو أسوأ من ذلك، عندما تصمت الكلمات تماماً وتتحول إلى جدار صمت متين، فلا يعرف المرء ما الذى عليه عمله أمام ذلك الجدار، **لـ**يلة أمس ظللتُ هنا

www.ibtesamh.com/vb

بانتظارك، وبعد ساعة ذهب مرسيال إلى الفراش وأنا أنتظر، وأنتظر، بينما السيد أبى يقوم بنزهة مع الكلب لا أدرى فى أى مكان، هنا فى الحقول، طبعاً فى الحقول، الحقيقة أنه ليس هناك ما هو أكثر بهجة من المشى فى الحقول ليلاً، دون رؤية أين نضع أقدامنا، كان عليك أن تنامى، هذا ما انتهيتُ إليه طبعاً كيلا أتحول إلى تمثال من الملح، كل شىء على ما يرام إذاً، ولا مزيد من الحديث فى الموضوع، ليس كل شىء على ما يرام، لا يا سيدى، لماذا؟ لأنك سلبتنى أعز ما كنتُ أتمنى رؤيته فى تلك اللحظة، وما هو ذلك، رؤيتك تعود، هذا وحسب، رؤيتك تعود، ستفهمينني ذات يوم، أرجو ذلك، ولكن ليس بالكلام، أرجوك، فقد سئمت الكلام. كانت عينا مارتا تلمعان خاليتين من الماء، لا تهتم بى، قالت، يبدو أننا نحن النساء الضعيفات غير قادرات على التصرف بطريقة أخرى عندما نكون حوامل، نعيش كل شىء بطريقة مبالغ فيها. صرخ مرسيال من الفناء بأن الحمولة جاهزة، وأنه يمكنه الانطلاق بها متى شاء. خرج سيبريانو ألجور، صعد إلى الشاحنة ونادى لقية. والكلب الذى لم تخطر لباله إمكانية مثل هذا الحظ، قفز كالبرق إلى جانب صاحبه، وظل هناك جالساً، مبتسماً، بفم مفتوح ولسانه خارج منه، سعيداً بالرحلة التى ستبدأ، وفى هذا الأمر، كما فى أمور أخرى كثيرة، تكون الكائنات البشرية مثل الكلاب، تضع كل آمالها على ما سيأتى عند المنعطف، ثم تقول سنرى بعد ذلك. حين اختفت الشاحنة وراء أول بيوت القرية، سأل مرسيال،

www.ibtesamh.com/vb

هل تجادلتِ معه، إنها المشكلة الدائمة نفسها، إذا لم نتكلم نكون تعساء، وإذا تكلمنا نختلف، لا بد من الصبر، فلا حاجة لحدة بصر استثنائية لإدراك أن أباك يرى نفسه كما لو أنه يعيش فى جزيرة تصبح أصغر مع كل يوم يمر، تفقد قطعة، ثم أخرى، ولاحظى أنه حمل للتو الدمى إلى المركز، وسيعود بعد ذلك ليشعل الفرن، ولكنه يفعل هذه الأشياء كما لو أنه يشك فى كونها ما كانت عليه ذات مرة، كما لو أنه يتمنى أن تظهر له عقبة لا يمكن تجاوزها كى يتمكن من القول أخيراً انتهى الأمر، أظن أنك على حق، لا أدرى إذا كنت على حق، ولكننى أحاول أن أضع نفسى فى مكانه، فخلال أسبوع سيفقد كل ما نراه هنا جزءاً كبيراً من المعنى الذى يمتلكه، سيظل البيت بيتنا، ولكننا لن نعيش فيه، والفرن لن يحتفظ باسمه كفرن إذا لم يكن هناك من يطلقه عليه كل يوم، وشجرة التوت ستواصل إعطاء توتها، ولكنها لن تجد من يأتى لقطافها، وإذا كنت أنا الذى لم أولد ولم أترعرع تحت هذا السقف، لن أجد سهولة فى انفصالى عنه، فلن يكون ذلك سهلاً على أبيكِ، سنأتى إلى هنا بكثرة، أجل، سنأتى إلى البيت الريفى، مثلما سماه هو، فقالت مارتا، وهل يوجد حلّ آخر، تتخلى عن كونك حارساً وتأتى لتعمل فى مشغل الخزف معنا، لتصنع خزفاً لا يرغب فيه أحد، أو دمى لن يرغب فيها أحد لوقت طويل، فى هذه الحال التى تمضى بها الأمور، لا وجود بالنسبة لى أيضاً سوى حل وحيد، أن أكون حارساً مقيماً فى المركز، لقد بلغتَ ما أردت بلوغه،

www.ibtesamh.com/vb

عندما كنتُ أظن أن هذا هو ما أريده، والآن، فى الأوقات الأخيرة تعلمتُ من أبيكِ شيئاً كانت تنقصنى معرفته، ربما لم تنتبهى إلى ذلك، ولكن من واجبى أن أخبركِ أن الرجل الذى تزوجتِ منه هرم أكثر بكثير مما يبدو عليه، لم تقدم لى أى جديد، فقد نلتُ امتياز أن أشهد هرمه، قالت مارتا باسمة. ولكن وجهها اكتسى بالجدية بعد ذلك، الحقيقة أن قلبنا ينقبض حين نفكر فى أنه لا بد لنا من ترك هذا كله، قالت. كانا تحت شجرة التوت، يجلسان معاً، على أحد ألواح التجفيف، ينظران إلى البيت الذى أمامهما، ومشغل الخزف الذى جداره فى الوسط، ولو أدارا رأسيهما قليلاً فسيريان بين الأوراق باب الفرن المفتوح، الصباح جميل، مشمس، ولكنه بارد، ربما سيتبدل الجو. كانا يشعران بأنهما على ما يرام، بالرغم من الحزن، يشعران بأنهما سعيدان تقريباً، تلك الطريقة الكئيبة التى تختارها السعادة، أحياناً، لتتبدى بها، ولكن مرسيال نهض فجأة عن لوح التجفيف الخشبى وهتف، لقد نسيت أبوى، علينا الذهاب للتحدث مع أبوى، أراهن على اثنين مقابل واحد بأنهما سيصران على فكرة أنهما هما من يجب أن يذهبا للعيش فى المركز وليس أبوكِ، الاحتمال الأكبر أنهما لن يتكلما فى هذا الأمر بحضورى، إنها مسألة لباقة، مسألة ذوق سليم، آملُ ذلك، آمل أن تكونى على حق.

لم تكن كذلك. وبينما سيبريانو ألجور عائد من إيصال الدمى إلى المركز، أثناء اجتيازه القرية باتجاه

www.ibtesamh.com/vb

البيت، رأى ابنته وصهره يسيران أمامه. كان الصهر يحيط كتفيها بإحدى ذراعيه ويبدو كأنه يواسيها. أوقف سيبريانو ألجور الشاحنة، اصعدا، قال، لم يأمر لقية بالرجوع إلى المقعد الخلفى؛ لأنه يعرف أنهما يرغبان فى أن يكونا معاً. كانت مارتا تحاول مسح دموعها بينما مرسيال يقول لها، لا تضعفى، أنت تعرفين كيف هما، ولو كنت أعرف أن هذا سيحدث لما جئت بكِ معى، ما الذى جرى؟ سألهما سيبريانو ألجور، مسألة المرة السابقة نفسها، يريدان العيش فى المركز، وأنهما أحق بذلك أكثر من أشخاص آخرين، وأن الوقت قد حان كى يستمتعا بالحياة، ولم يهتما بوجود مارتا، كان مشهداً مؤسفاً حقاً، آسف. ولم يكرر سيبريانو ألجور هذه المرة استعداده للمبادلة معهما، لأن ذلك سيكون أشبه بإحداث ألم جديد فى جرح قديم، واكتفى بالسؤال، وكيف انتهى الجدل؟ قلتُ لهما إن الشقة التى خُصصت لى هى لزوجين مع ابن فقط، وإن أقصى ما يمكن تقبله هو وجود شخص آخر من الأسرة إذا ما استُخدمت لإقامته حجرة صغيرة مخصصة فى الأصل لأن تكون غرفة مهملات، أما شخصان فلا متسع لهما بأى حال، وماذا قالا؟ أرادا أن يعرفا ما الذى سيحدث إذا ما أنجبنا مزيداً من الأبناء، وقد أجبتهما بالحقيقة، بأن المركز فى مثل هذه الحالة ينقلنا إلى شقة أوسع، فسألانى لماذا لا يستطيعون عمل ذلك الآن، ويأخذون فى الاعتبار أن أبوىّ الحارس المقيم يريدان كذلك العيش فى المركز، وماذا قلت أنت؟ قلت لهما إن الطلب لم يقدم فى

www.ibtesamh.com/vb

الوقت المحدد، وإن هناك أنظمة، ومهلاً، وقواعد لا بد من التقيد بها، وربما سيكون من الممكن العودة إلى دراسة المسألة فيما بعد، وهل تمكنت من إقناعهم؟ **لا** أعتقد ذلك، ولكن الفكرة بأنه يمكن لهما الانتقال إلى المركز فى وقت لاحق حسَّنت قليلاً من مزاجهما، حتى المرة القادمة، أجل، والدليل أنهما لم يتوقفا عن القول لى إنهما ليسا المذنبين فى أن المسألة لم تُعالج فى الوقت المناسب، أبواك ليسا مغفلين بأى حال، وخاصة أمى، فهذه الحرب فى العمق هى حربها أكثر منها حرب أبى، وقد كانت عصية على القضم دائماً. كانت مارتا قد توقفت عن البكاء، وأنتِ، كيف تشعرين؟ سألها سيبريانو ألجور، بـالمهانة والعار، فى البدء كانت مهانة اضطرارى حضور جدل يدور ضدى مباشرة، ولكننى لا أستطيع التدخل فيه، وما أشعر به الآن هو العار، أوضحى، سواء شئنا ذلك أم لم نشأ فإن لهما الحق مثلنا، ونحن من نلوى عنق الأمور كيلا يتمكنا من الذهاب إلى المركز، **لا** تقولى نحن، إننى أنا، قاطعها مرسيال، فأنا من لا أريد العيش مع أبوىّ، أما أنتِ وأبوك فلا علاقة لكما بهذا، ولكننا شريكان بالتواطؤ فى ظلمك، أنا أعرف أن موقفى سيبدو مستنكراً إذا ما نُظر إليه من الخارج، ولكننى اتخذته بمشيئتى الحرة والواعية من أجل تجنب شرور أكبر، وإذا كنتُ أنا نفسى غير راغب فى العيش مع أبوىّ، فإن رغبتى أقل فى جعل زوجتى وابنى يعانيان ذلك، صحيح أن الحب يوحد، ولكنه لا يوحد الجميع، بل يمكن أن تكون مسوغات اتحاد البعض بالتحديد هى

www.ibtesamh.com/vb

مسوغات فراق آخرين، وكيف يمكنك أنتَ أن تكون متأكداً من أن مسوغاتنا تميل إلى جانب الاتحاد، سأله سيبريانو ألجور، هناك سبب واحد فقط يشعرنى بالسعادة لكونى لستُ ابنك، فأجابه مرسيال، دعنى أحزر الحل، ليس ذلك صعباً، لأنكَ لو كنت ابنى لما كنت متزوجاً من مارتا، بالضبط، لقد حزرت. ضحكا كلاهما، وقالت مارتا، أتمنى عند هذا الحد أن يكون وليدى قد اتخذ القرار الحكيم بالولادة ابنة انثى، لماذا،؟ سألها مرسيال، لأن هذه الأم المسكينة لن تجد القوة لتتحمل وحدها اعتداد أبيه وجده بنفسيهما. وتكرر الضحك، ولحسن الحظ أن أبوى مرسيال لم يمرا من هناك، لأنهما كانا سيظنان أن آل ألجور يسخرون منهما، ويخدعون ابنهما إلى حدّ جعله يضحك ممن منحاه الحياة. كانوا قد تجاوزوا آخر بيوت القرية. نبح لقية بسعادة حين رأى من أعلى المنحدر سطح مشغل الخزف، وشجرة التوت، والجزء العلوى من أحد جدران الفرن. ويقول العليمون إن السفر مهم جداً لتكوين الروح، ومع ذلك لا حاجة لأن يكون المرء متنور الذهن كى يدرك أن الأرواح، مهما كانت رحالة، لا بد لها من العودة بين حين وآخر إلى البيت، لأنها فيه فقط تتمكن من الحصول على فكرة مرضية إلى حد مقبول عن ذاتها والحفاظ عليها. فقالت مارتا، إننا منهمكون فى الحديث عن عدم الانسجام الأسرى، وعن العار والمذلة، وعن الاعتزاز بالنفس، وعن الرتابة والطموحات البائسة، ولا نفكر فى هذا الحيوان المسكين الذى لا يمكنه أن يتصور أنه

www.ibtesamh.com/vb

بعد عشرة أيام لن يكون معنا. أنا أفكر فى ذلك، قال مرسيال. لم يتكلم سيبريانو ألجور. أفلت يده اليمنى عن المقود، وكما لو أنه يداعب طفلاً، مرّ بها على رأس الكلب. عندما توقفت الشاحنة إلى جانب سقيفة الحطب، كانت مارتا أول من خرج، سأذهب لإعداد الغداء، قالت. ولم ينتظر لقية أن يفتحوا له الباب، بل انسل بين المقعدين الأماميين، وقفز على ساقى مرسيال ثم خرج مندفعاً باتجاه الفرن، بمثانة مروعة تطالب براحة عاجلة. وقال مرسيال، الآن وقد صرنا وحدنا، أخبرنى كيف جرى تسليم البضاعة؟ لا جديد، كالعادة، قدمت وثائق التسليم وأنزلت الصناديق، تم العد، والموظف الذى تعامل معى تفحص الدمى واحدة واحدة ولم يجد شيئاً سيئاً، لم تكن أية واحدة منها مكسورة، ولم يكن هناك أى تقشر فى الطلاء، فقد قمت بعمل جيد عندما علّبتها، ولا شىء غير ذلك؟ لماذا تسألنى، أشعر منذ أمس بأنك تخفى شيئاً ما، لقد أخبرتك بما حدث دون أن أخفى أى شىء، لستُ أتحدث الآن عن تسليم البضاعة، فهذه الفكرة دارت فى رأسى مذ أحضرتنى من المركز، ما الذى تعنيه إذا؟ لا أدرى، إننى أنتظر أن توضح لى، الألغاز المضمرة على سبيل المثال فى محادثة أمس ليلاً، خلال العشاء. ظل سيبريانو ألجور صامتاً، ينقر بأصابعه على إطار مقود السيارة كما لو أنه يقرر أية إجابة سيقدم بناء على إذا ما كانت نقرة الأصابع النهائية فردية أم زوجية. وأخيراً قال، تعال معى. خرج من الشاحنة وتقدم باتجاه الفرن ومرسيال

www.ibtesamh.com/vb

يتبعه. وكان قد وضع يده على أحد مزاليج الإغلاق، ولكنه توقف لحظة وطلب، لـن تقول لمارتا كلمة واحدة مما ستسمعه، أعدك بذلك، ولا كلمة واحدة، لـقد وعدتك. فتح سيبريانو ألجور باب الفرن. أظهر ضوء النهار فجأة الدمى الصغيرة المجتمعة والمرتبة، عمياء بسبب الظلام من قبل، وعمياء بفعل النور الآن. قال سيبريانو ألجور، مـن الممكن، بل من المحتمل جداً، أن هذه الدمى الثلاثمائة لن تخرج من هنا، لـماذا؟ سأله مرسيال، قـسم المشتريات قرر إجراء سبر للسوق لتقويم درجة اهتمام الزبائن، والدمى التى نقلتها اليوم ستُستخدم فى ذلك، سـبر لـلسوق بدمى من الصلصال، سأله مرسيال، هـذا ما أوضحه لى أحد معاونى المدير، ذاك الذى يزعجك، لا، بل معاون آخر، معاون لطيف، باسم، يتكلم معنا كما لو أنه يريد إدخالنا فى قلبه. فكر مرسيال قليلاً وقال، لـم يعد هذا مهماً فى العمق، لا فرق لدينا، فخلال عشرة أيام على كل حال سنكون قد انتقلنا للعيش فى المركز، أتظن أن الأمر غير مهم حقاً، وأنه لا فرق لدينا، سأله الحمُ، انظر، إذا خرجت نتيجة السبر إيجابية فسيكون لدينا وقت لإنهاء الدمى وتسليمها، أما بقية الطلبية، كما هو منطقى، فستُلغى بصورة آلية نتيجة الواقع الحتمى بأن مشغل الخزف سيتوقف عن العمل، وإذا كانت النتيجة سلبية، لدى رغبة فى القول إن ذلك سيكون أفضل، لأنك ستتجنب أنت ومارتا مشقة الاضطرار إلى طهو الدمى وطلائها. أغلق سيبريانو ألجور باب الفرن ببطء وقال، إنك تنسى بعض مظاهر

www.ibtesamh.com/vb

المسألة، وهى مظاهر تافهة الأهمية حقاً، مثل ماذا؟ إنك تنسى الصفعة التى يعنيها رفضهم ثمرة عملك، وتنسى أنه لولا مصادفة توافق هذه الأحداث المشئومة مع الانتقال إلى المركز لكنا فى الوضع نفسه الذى وجدنا أنفسنا فيه عندما توقفوا عن شراء الأوانى الخزفية، وكنا سنظل بلا الأمل السخيف بأنه يمكن لبعض دمى الصلصال المضحكة أن تنقذ حياتنا، هذا ما علينا التعايش معه، وليس مع ما سيكون أو ما كان يمكن أن يكون، يا لفلسفتك العجيبة والمسالمة، اعذرنى إذا كنتُ غير قادر على بلوغ ما هو أكثر من هذا، وأنا لا أستطيع بلوغ ما هو أبعد، ولكننى ولدت برأس يعانى داء عضالاً من القلق مما سيكون أو مما كان يمكن أن يكون، وما الذى جنيته من هذا القلق؟ سأله مرسيال، معك حق، لا شىء، مثلما أحسنتَ صنعاً بتذكيرى بأنه يتوجب التعايش مع ما هو كائن، وليس مع وهم ما كان يمكن أن يكون، لو أنه كان. وفى أثناء ذلك كان لقية قد استراح من حاجته العضوية العاجلة، واستعادت قوائمه رشاقتها بعد انفلاته فى الركض فى محيط المكان، اقترب منهما وهو يهز ذيله، وهذا دليل معهود على السعادة والمودة، مع الأخذ فى الاعتبار هذه المرة اقتراب موعد الغداء، مما يعنى حاجة بدنية ملحة أخرى. داعبه سيبريانو ألجور بلىٍّ أذنه برفق، علينا أن ننتظر إلى أن تستدعينا مارتا يا فتى، فليس من اللائق أن يأكل كلب البيت قبل أصحابه، يجب احترام التراتبية، قال. ثم توجه إلى مرسيال، كما لو أن الفكرة قد خطرت له للتو،

www.ibtesamh.com/vb

سـأشعل الفرن اليوم، قـلتَ إنك ستشعله غداً، عند عـودتك من المـركـز، لـقـد فـكـرتُ فى الأمـر مـلـيـاً، وستكون طريقة لشغل نفسى بينما تستريحان، أو إذا كنتما تفضلان فيمكنكما استغلال الشاحنة والقيام بنزهة، فمن المحتمل أنكما لن ترغبا، بعد الانتقال، فى الخروج من البيت الجديد بسرعة، وأقل من ذلك إلى مثل هذه الأماكن، إذا كنا سنأتى إلى هنا أم لا، ومتى سنفعل ذلك، هى أمور سننظر فيها فيما بعد، وما أريدك أن تقوله لى هو هل تعتقد فعلاً أننى رجل يمكن أن يخرج للنزهة مع مارتا وأتركك وحدك هنا تدس الحطب فى الموقد، يـمكننى عمل ذلك دون مساعدة، يـمكنكَ ذلك طبعاً، ولكننى أنا أيضاً أرغب فى أن أكون جزءاً فعالاً فى هذه المرة الأخيرة التى يُشعل فيها الفرن، إذا ما قُدّر لها أن تكون المرة الأخيرة، سـنبدأ بعد الغداء إذا كان هذا هو ما ترغب فيه، مـوافق، وأرجوك أن تتذكر أننى لا أريد كلمة واحدة حول مسألة السبر، يـمكنك أن تطمئن. توجها إلى البيت والكلب يتبعهما، وكانا على بعد أمتار قليلة عندما ظهرت مارتا أمام باب المطبخ، كـنتُ قادمة لاستدعائكما، قالت، فالغداء جاهز، سـأقوم أولاً بتقديم الطعام للكلب، فقد فتحت الرحلة شهيته، قال الأب، طـعامه موجود هناك، أشارت مارتا. تناول سيبريانو ألجور القِدر وقال، تـعال معى يا لقية، لحسن الحظ أنكَ لستَ شخصاً، لأنك لو كنت شخصاً لبدأت ترتاب بما نعاملك به من عناية ورعاية فى الفترة الأخيرة. كانت قصعة لقية، كالعادة، إلى جانب

www.ibtesamh.com/vb

الكوخ الصغير، وإليها توجه سيبريانو ألجور. سكب محتويات القدر فى القصعة وظل للحظة يتأمل الكلب وهو يأكل. وفى المطبخ، كان مرسيال يقول، سوف نشعل الفرن بعد الغداء، اليوم، سألت مارتا باستغراب، أبوكِ لا يريد ترك العمل إلى الغد، لسنا فى عجلة من أمرنا، لدينا ثلاثة أيام من الراحة، إنه يعرف أسبابه، وكالعادة، أسبابه لا يعرفها أحد سواه. قدّر مرسيال أنه من الأفضل عدم الرد، فالفم عضو يكون محط ثقة أكبر كلما احتفظ بالصمت أكثر. بعد قليل دخل سيبريانو ألجور إلى المطبخ. كان الطعام على المائدة، وكانت مارتا تسكب. وبعد قليل سيقول الأب، سوف نشعل الفرن، وسترد مارتا، عرفتُ ذلك، لقد أخبرنى مرسيال.

بهذه الكلمات أو غيرها جرى التذكر هنا أن الأيام السابقة كلها كانت عشية لليوم الحالى، وأن الأيام الآتية كلها ستكون كذلك. والعودة لأن يكون اليوم عشيّة، ولو لساعة واحدة، هى الرغبة المستحيلة لكل أمس مضى ولكل يوم آخذ بالمضى. لا يمكن لأى يوم أن يكون عشيّة طيلة الوقت الذى حلم به. بالأمس كان سيبريانو ألجور ومرسيال جاتشو يدسان حطباً فى الموقد، ولو أن أحداً مرّ من تلك الأماكن ولم يكن مطلعاً على حقيقة الأحداث، لأمكن له أن يفكر، معتقداً أنه مصيب، إنهما هناك من جديد، وسيقضيان حياتهما فى ذلك. وهما الآن فى الشاحنة الصغيرة التى مازالت تحمل عبارة مشغل خزف

www.ibtesamh.com/vb

مكتوبة على اللوحتين الجانبيتين للهيكل، يتجهان إلى المدينة وإلى المركز، ومعهما مارتا جالسة إلى جانب السائق الذى هو زوجها فى هذه المرة. أما سيبريانو ألجور فيجلس وحيداً فى المقعد الخلفى، ولقية لم يأت معهم، فقد بقى لحراسة البيت. الوقت صباحاً، وباكراً جداً، فالشمس لم تولد بعد، والحزام الأخضر لن يتأخر فى الظهور، وبعد ذلك يأتى الحزام الصناعى، ثم أحياء الأكواخ، وبعدها الأرض المحايدة، وبعد ذلك البنايات قيد البناء عند الحد الفاصل، وبعد ذلك المدينة، الجادة الكبرى، وأخيراً المركز. أى طريق يُتخذ سيؤدى إلى المركز. لن يفتح أى من ركاب الشاحنة فمه طوال الطريق. فأناس مفوهون مثل هؤلاء، يبدو أنه ليس لديهم ما يقولونه فيما بينهم. ويُفهم فى الواقع أنه لا يوجد ما يستحق عناء الكلام، وإضاعة الوقت واستهلاك اللعاب لصياغة أقوال، جمل، كلمات، مقاطع صوتية فى حين أن ما يفكر فيه أحدهم يفكر فيه الآخران أيضاً. فلو قال مرسيال مثلاً، **نحن** ذاهبون إلى المركز لرؤية البيت الذى سنعيش فيه، فسوف تقول مارتا، **يا** للتوافق الغريب، فقد كنت أفكر فى الشىء نفسه، وحتى لو أنكر سيبريانو ألجور وقال، أنا لم أكن أفكر فى ذلك، ما كنتُ أفكر فيه هو أننى لن أدخل، سأظل فى الخارج منتظراً، فإنه يتوجب علينا ألا نعير اهتماماً لقوله، مهما كانت حازمة النبرة التى ترن فى آذاننا، فسيبريانو ألجور فى الرابعة والستين من العمر، وقد تجاوز سن نوبات غضب الطفولة ومازالت أمامه

www.ibtesamh.com/vb

سنوات عديدة ليصل إلى زمن نوبات غضب الشيخوخة. والحقيقة أن ما كان يفكر فيه سيبريانو ألجور هو أنه ليس أمامه مفر من مرافقة ابنته وصهره، وأن يبدى أفضل الملامح الممكنة حيال تعليقات كليهما، وتقديم رأى إذا ما طلبا منه ذلك، وباختصار، مثلما كان يقال فى الروايات القديمة، استنفاد كأس المرارة حتى البراز. وبفضل الوقت المبكر، وجد مرسيال مكاناً لإيقاف الشاحنة على بعد أقل من مئتى متر من المركز، ولكن الأمر سيختلف بعد أن يستقر بهم المقام، فالحراس المقيمون لهم حق الانتفاع بستة أمتار مربعة فى مرآب السيارات الداخلى. لقد وصلنا، قال مرسيال دون حاجة إلى ذلك وهو يشدّ مكبح اليد فى الشاحنة. لم يكن المركز مرئياً من هناك، ولكنه سيظهر أمامهم فور الانعطاف من ناصية الشارع الذى تركوا فيه السيارة. وشاءت المصادفة أن يكون تلك الجهة، النقطة، القسم، الوجه، الجانب الذى يسكن فيه المقيمون. المشهد لا يشكل أى جديد بالنسبة للثلاثة، غير أن هناك فرقاً كبيراً بين النظر لمجرد النظر، والنظر فى الوقت الذى يكون هناك من يقول لنا، نافذتان من تلك النوافذ ستكونان لنا، نافذتان فقط، سألت مارتا، لا يمكننا التذمر، فهناك شقق لها نافذة واحدة فقط، قال مرسيال، وهذا دون الحديث عمن نافذتهم باتجاه الداخل، باتجاه أى داخل، داخل المركز طبعاً، أتعنى أنه توجد شقق تطل نوافذها على داخل المركز نفسه، وما أدراك أن هناك أشخاصاً كثيرين يفضلونها، يرون أن

www.ibtesamh.com/vb

تلك الإطلالة أكثر لطفاً وتنوعاً وتسلية بكثير، بينما المشهد من هذا الجانب يقتصر على سطوح البنايات نفسها والسماء نفسها، من يعيشون فى تلك الشقق لا يرون من المركز على أى حال سوى الطابق الذى يتفق فى الارتفاع مع الطابق الذى يعيشون فيه، أشار سيبريانو ألجور دون اهتمام حقيقى كبير سوى أنه لم يشأ الظهور كمن انسحب علانية من الحديث، مقاس الطوابق التجارية مرتفع، والأمكنة مكشوفة وفسيحة، وما أسمعه أن أولئك الأشخاص لا يملون من المشهد، وخاصة كبار السن منهم، لم ألحظ قط وجود تلك النوافذ، سارعت مارتا إلى القول كى تتجنب تعليق أبيها المتوقع على التسلية التى تناسب المسنين أكثر من غيرهم. إنها مخفية بالطلاء، قال مرسيال. كانوا يمشون على امتداد الواجهة حيث يوجد المدخل المخصص لموظفى الأمن، وكان سيبريانو ألجور يمضى متأخراً خطوتين ممانعتين إلى الوراء، كما لو أن يُقاد بخيط غير مرئى. أشعر بالعصبية، قالت مارتا بصوت خافت كيلا يسمعها أبوها، بعد أن نصير هنا سيكون كل شىء أسهل، إنها مسألة تعوّد، أجابها مرسيال بصوت خافت أيضاً. بعد التقدم قليلاً، وكما هو طبيعى، سألته مارتا، فى أى طابق الشقة، فى الطابق الرابع والثلاثين، كل هذا الارتفاع، يوجد أربعة عشر طابقاً آخر فوقنا، يمكن لعصفور فى قفص معلق على النافذة أن يتخيل أنه طليق، هذه النوافذ لا يمكن فتحها، لماذا، بسبب وجود أجهزة تكييف الهواء، هذا واضح. كانوا قد وصلوا إلى

www.ibtesamh.com/vb

الباب. دخل مرسيال أولاً، وجه تحية الصباح إلى الحراس الذين فى الخدمة، وقال بصورة عابرة، **زوجتى**، حماى، وفتح البوابة المؤدية إلى الداخل، دخلوا فى مصعد، **سنذهب** لإحضار المفتاح، قال مرسيال. خرجوا من المصعد فى الطابق الثانى، اجتازوا ممراً طويلاً وضيقاً، جدرانه رمادية مع أبواب متباعدة على الجانبين. فتح مرسيال أحد الأبواب. **هذا** هو قسمى، قال. ثم وجه تحية الصباح إلى زملائه فى العمل، وقدمهما من جديد، **زوجتى** وحماى، وأضاف بعد ذلك، **سنذهب** لرؤية الشقة. توجه إلى خزانة مكتوب عليها اسمه، فتحها، تناول حزمة مفاتيح وقال لمارتا، **هذه** هى. دخلوا فى مصعد آخر. إن له سرعتين، أوضح مرسيال، سنبدأ بالبطيئة. ضغط الزر المناسب، وبعد ذلك الزر الذى يحمل الرقم عشرين، **سنذهب** أولاً حتى الطابق العشرين كى يتاح لنا الوقت لنرى. كان جانب المصعد المطل على الداخل زجاجياً، وكان المصعد يجتاز الطوابق بتكاسل مستعرضاً الطوابق والأجنحة والمتاجر والأدراج المهيبة والسلالم الميكانيكية، ونقاط اللقاء، والمقاهى، والمطاعم، والشرفات المزودة بمناضد وكراسٍ، وصالات السينما والمسارح والديسكو، وشاشات تلفاز عملاقة، وما لا حصر له من الزينات والألعاب الإلكترونية والبالونات، والنوافير، ومؤثرات مائية أخرى، والردهات والحدائق المعلقة، والملصقات والبيارق، والشاشات الإلكترونية، ودمى المانيكان، ومقصورات قياس الملابس، وواجهة كنيسة، ومدخل

www.ibtesamh.com/vb

إلى الشاطئ، وكازينو، وملعب تنس، وصالة رياضية، وأرجوحة جبل روسى، وحديقة حيوان، وحلبة سيارات كهربائية، وسيكلوراما، وشلال، كل ذلك ينتظر، كل شىء صامت، ومزيد من المتاجر، مزيد من الردهات، مزيد من دمى المانيكان، ومزيد من الحدائق المعلقة، وأشياء ربما لا يعرف أحد أسماءها، أشبه بصعود إلى الفردوس. وما فائدة هذه السرعة، أمن أجل إمتاع البصر، سأل سيبريانو ألجور، لا تُستخدم هذه المصاعد إلا كوسيلة حراسة إضافية، قال مرسيال، فعاد سيبريانو ألجور يسأل، ألا يكفى لهذا الهدف الحراس والكشافات وكاميرات الفيديو وبقية تجهيزات التطفل الأخرى؟ يمر من هنا كل يوم عشرات آلاف الأشخاص، ولا بد من الحفاظ على الأمن، أجابه مرسيال بوجه متوتر وتأنيب معاكس فى صوته، أبتاه، قالت مارتا، دعكَ من الوخز، أرجوك، فقال مرسيال، لا تقلقى، فنحن متفاهمان دوماً، حتى عندما يبدو الأمر غير ذلك. كان المصعد يواصل صعوده ببطء. وكانت إضاءة الطوابق لا تزال مختزلة إلى أدنى الحدود، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص، موظف هناك أو هناك جاء باكراً لضرورة ما أو بدافع السعادة، مازالت هناك ساعة على الأقل كى تُفتح الأبواب للجمهور. المقيمون الذين يعملون فى المركز ليسوا بحاجة إلى الاستعجال، ومن يريدون الخروج لا يجتازون فضاءات المتاجر أو اللهو، بل ينزلون مباشرة من شققهم إلى الكراجات تحت الأرضية. ضغط مرسيال الزر السريع عندما توقف

www.ibtesamh.com/vb

المصعد، وبعد ثوان قليلة كانوا فى الطابق الرابع والثلاثين. وبينما هم يجتازون الممر المؤدى إلى القسم السكنى، أوضح مرسيال أن هناك مصاعد مخصصة لاستخدام المقيمين، وأنهم إذا كانوا قد استخدموا هذا المصعد اليوم، فمن أجل المرور لإحضار المفتاح. ابتداء من هذه اللحظة ستبقى المفاتيح معنا، إنها لنا، قال. وخلافاً لما كانت مارتا وأبوها يظنان أنهما سيجدانه، لم يكن هناك ممر واحد يفصل بين مجموعة الشقق التى تطل على الشارع وتلك التى تطل على الداخل. أجل، كان يوجد ممران، وبينهما مجموعة شقق أخرى، ولكن هذه المجموعة لها ضعف عرض الأخريين، مما يعنى، إذا تحدثنا بإسهاب، أن القسم المأهول من المركز مؤلف من أربعة صفوف متوازية من الشقق، مصفوفة مثل صفائح بطارية أو مثل خلايا نحل، المجموعتان الداخليتان ملتحمتان ظهراً لظهر، والمجموعتان الخارجيتان متصلتان بالجزء المركزى من خلال الممرات. قالت مارتا، هؤلاء الناس لا يرون ضوء النهار وهم فى البيت، وكذلك من يعيشون فى الشقق المطلة على داخل المركز، أجابها مرسيال، ولكن هؤلاء، مثلما قلتَ أنت، يمكنهم التسلى برؤية المشاهد والحركة، أما من هم هنا فهم محبوسون عملياً، لا يمكن أن يكون سهلاً بأى حال العيش فى هذه الشقق، بلا ضوء الشمس، وبتنفس هواء معلب طيلة اليوم، غير أن هناك من يفضلونها ويجدونها أكثر راحة، ولديهم فيها المزيد من وسائل الراحة، فهم جميعهم يملكون على سبيل المثال أجهزة أشعة فوق بنفسجية،

www.ibtesamh.com/vb

ومعدات تبديل الجو، وأجهزة لضبط درجتى الحرارة والرطوبة بدقة صارمة بحيث يظل البيت، فى الليل والنهار، وفى كل فصول السنة، محتفظاً برطوبة وحرارة ثابتة، لحسن الحظ أننا لم نُعط واحدة من هذه الشقق، فلست أدرى إذا كان بإمكانى العيش لوقت طويل فيها، قالت مارتا، على الحراس المقيمين أن يعتبروا أنفسهم محظوظين بحصولهم على شقة عادية، من ذات النوافذ، فقال سيبريانو ألجور، لم يخطر ببالى قط أن كونى حمى حارس مقيم فى المركز هو أفضل حظ وأعظم امتياز ادخرته لى الحياة. كانت الشقق محددة بأرقام كما لو أنها غرف فندق، والفرق الوحيد هو وضع خط مائل بين رقم الطابق ورقم الباب. أدخل مرسيال المفتاح، فتح الباب وتنحى جانباً، يمكنكما الدخول، رجاء، لقد وصلنا البيت، قال بصوت عالٍ متصنعاً حماسة لا يشعر بها. لم يكونوا سعداء ولا مستثارين بحدث جديد. توقفت مارتا عند العتبة، ثم تقدمت ثلاث خطوات غير واثقة، ونظرت فيما حولها. ظل مرسيال والأب فى الخلف. وبعد دقائق من التردد، كما لو أنها متشككة حول ما هو الشىء المناسب الذى عليها عمله، توجهت وحدها إلى أقرب باب إليها، نظرت إلى الداخل وواصلت قُدماً. وكان أول تعرّف لها على البيت على النحو التالى، الانتقال بسرعة من حجرة النوم إلى المطبخ، ومن المطبخ إلى الحمام، ومن حجرة المعيشة التى ستكون غرفة طعام أيضاً إلى الغرفة الصغيرة المخصصة للأب، لا يوجد مكان للوليد، فكرت بذلك

www.ibtesamh.com/vb

وتابعت التفكير فوراً، سيظل معنا مادام صغيراً، وبعد ذلك سنرى، فربما يعطوننا بيتاً آخر. رجعت إلى المدخل، حيث كان مرسيال وسيبريانو ألجور بانتظارها. **هل** انتهيتِ من رؤيته؟ نعم، وكيف بدا لكِ؟ **بالنسبة** لى جيد، **هل** انتبهتِ إلى أن الأثاث جديد، كله جديد، مثلما قلت لكِ، **وأنت** يا أبتاه، ما رأيك، **لا** يمكننى إبداء رأى حول ما لا أعرفه، **هلم** إذاً وسأكون مرشدتك. بدا واضحاً أنها متوترة، عصبية، بعيدة جداً عن حالتها المعهودة وهى تعلن تسمية حجرات البيت وكأنها تعلن عن مديح لها، **هنا** حجرة نوم الزوجين، وهنا المطبخ، وهنا الحمام، وهذه صالة المعيشة التى ستُستخدم أيضاً كغرفة طعام، وهنا الحجرة المريحة والفسيحة التى سينام فيها أبى العزيز ويستمتع بالراحة التى يستحقها، لا يوجد مكان للطفلة عندما تكبر، ولكن ريثما تكبر سنجد حلاً. **ألا** يروقكَ البيت، سأله مرسيال، **إنه** البيت الذى سنحصل عليه، ولن نقدم شيئاً بالجدل حول إذا كان يروقنا كثيراً أو قليلاً أو لا يروقنا، كمثل من ينتزع بتلات زهرة أقحوان. التفت مرسيال إلى حميه طالباً العون دون أن يقول شيئاً، وإنما اكتفى بالنظر إليه، فقال سيبريانو ألجور، **لا** بد من الاعتراف بأن البيت غير سيئ، كأنه جيد، والأثاث من خشب جيد، من الواضح أن الأثاث يجب أن يكون مختلفاً عن أثاثنا، فهم يصنعون الأثاث الآن بهذا الأسلوب، بحدود واضحة، ليس مثل أثاثنا الذى يبدو كما لو أنه مرّ بالفرن، أما ما سوى ذلك فإنه يمكن لأحدنا أن يعتاد

www.ibtesamh.com/vb

على الدوام، فالمرء يعتاد على الدوام. قطبت مارتا ما بين حاجبيها خلال خطبة أبيها، وأظهرت على شفتيها تقطيب ابتسامة وبدأت جولة أخرى فى البيت، وراحت فى هذه المرة تفتح أدراجاً وخزائن وتغلقها، مقومة محتوياتها. وأومأ مرسيال إيماءة شكر إلى حميه، ثم نظر إلى الساعة وأخبرهما، **لقد** اقترب موعد التحاقى بالعمل. وقالت مارتا من الداخل، **لن** أتأخر، سآتى حالاً. هذه هى فوائد الشقق الصغيرة، يطلق أحدنا بكل ما لديه من حذر زفرة كان يكبحها فى داخله، وفى الحال يقول له شخص فى الجهة الأخرى من البيت، **لقد** أطلقتَ زفرة، لا تنكر ذلك. ومازال هناك من يتذمر من الحراس، ومن كاميرات الفيديو، ومن الكشافات وغيرها من الأجهزة. الزيارة إلى البيت أُنجزت، ومن خلال اختلاف المزاج الذى دخلوا به عن الذى خرجوا به، دون أن نحاول كشف أسرار القلوب، بدا أن تلك الزيارة تستحق العناء. نزلوا مباشرة من الطابق الرابع والثلاثين إلى أسفل لأن مارتا والأب لم يُزودا بعد بالوثائق التى تعتبرهم مقيمين، وكان على مرسيال أن يرافقهم حتى المخرج. وما كادوا يخطون بضع خطوات بعد أن أُغلق باب المصعد حتى قال سيبريانو ألجور، **يا** للإحساس الغريب، أشعر كأن الأرض ترتعش تحت قدمى. توقف، أرهف سمعه وأضاف، لدى إحساس بأنى أسمع شيئاً كأنه ضجة آلات حفر، إنها آلات حفر بالفعل، قال مرسيال وهو يسرّع خطواته، إنهم يعملون فى ورديات متواصلة من ست ساعات كل وردية، دون توقف، وهم

www.ibtesamh.com/vb

على عمق أمتار كثيرة تحت الأرض، أهى أعمال بناء؟ قال سيبريانو ألجور، أجل، يقال إنه ستقام مستودعات مبردة جديدة وربما شىء أكثر من ذلك، ربما مزيد من مواقف السيارات، الأعمال هنا لا تنتهى أبداً، فالمركز يكبر كل يوم، حتى عندما لا يُلحظ ذلك، إذا لم يكن من الجوانب، فإنه يكبر إلى أعلى، وإذا لم يكن إلى أعلى، فإلى أسفل، أظن أنه بعد قليل، عندما يبدأ كل شىء بالعمل، لا تعود ضجة آلات الحفر مسموعة، مع انطلاق الموسيقى، والإعلان عن البضائع بمكبرات الصوت، وصخب أحاديث الناس، والسلالم الآلية التى تصعد وتنزل دون توقف، ستكون ضجة الحفارات كما لو أنها غير موجودة. كانوا قد وصلوا إلى الباب. قال مرسيال إنه سيتصل هاتفياً عند حدوث أى جديد، وإنه من المناسب فى أثناء ذلك تهيئة ما هو ضرورى من أجل الانتقال، واختيار ما لا بد منه فقط، فأنتما تعرفان الآن المكان المتوافر لنا، ولا بد أنكما قد لاحظتما أنه لا يوجد متسع زائد. كانوا قد أصبحوا على الرصيف، على وشك الوداع، ولكن مارتا قالت، يبدو فى الواقع كما لو أنه لن يكون ثمة انتقال، فبيت مشغل الفخار مازال لنا، وما يمكننا إحضاره من هناك هو لا شىء تقريباً، ويبدو أن ما يحدث أشبه بخلعنا ثوباً لنرتدى غيره، شىء شبيه بكرنفال أقنعة، أجل، لاحظ الأب، فالأمر هكذا ظاهرياً، وإن يكن خلافاً لما يُعتقد ولما يؤكَّد دون تفكير بأن المسوح يصنع الراهب، فالشخص مكوّن أيضاً من

www.ibtesamh.com/vb

الملابس التى يرتديها، يمكن ألا يُلاحظ ذلك فوراً، ولكنها مسألة منح مزيد من الوقت للوقت فقط. وداعاً، وداعاً، قال مرسيال وهو يودع امرأته بقبلة، لديكما الطريق كله لتتفلسفا، فاستغلا الفرصة. توجهت مارتا وأبوها إلى حيث تركا الشاحنة. وعلى واجهة المركز، فوق رأسيهما، كان هناك إعلان عملاق جديد يقول: **كنا سنبيع كل ما تحتاج إليه لولا أننا نفضل أن تحتاج إلى ما لدينا كى نبيعه لك.**

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

خلال رحلة العودة إلى البيت، أو إلى بيت مشغل الخزف، مثلما قالت مارتا لتميزه عن البيت الآخر، وعلى الرغم من عبارة مرسيال نصف المرحة ونصف الودودة، لم يتكلم الأب والابنة إلا قليلاً، قليلاً جدا، بالرغم من أن أبسط استعراض للاحتمالات الكثيرة الناجمة عن الوضع توحى بأنهما قد فكرا كثيراً. ولكن استباقنا لما فكرا فيه بافتراضات متهورة أو استنتاجات محظوظة، أو ما هو أسوأ من ذلك، بتكهنات طائشة، لن يكون، من حيث المبدأ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار الخفة والوقاحة اللتين تُزدرى بهما فى قصص من هذا النوع أسرار القلوب، لن يكون استباقنا لما فكرا فيه، كما قلنا، بالمهمة المستحيلة، ولكن بما أنه سيكون عليهما عاجلاً أو آجلاً أن يعبرا عن تلك الأفكار بأفعال، أو بكلمات تؤدى إلى أفعال، فقد بدا لنا أنه من الأفضل المضى قدماً والانتظار باطمئنان إلى أن تكون الأفعال والكلمات هى التى تكشف الأفكار. بالنسبة للأمر الأول، لم يكن علينا الانتظار طويلاً، إذ إن الأب والابنة تناولا الغداء

www.ibtesamh.com/vb

بصمت، وهذا يعنى أن أفكاراً جديدة راحت تنضم إلى أفكارهما فى الطريق، وفجأة قررت هى أن تكسر الصمت، **فكرتكَ** بالاستراحة ثلاثة أيام كانت رائعة، وفضلاً عن أنها تستحق الشكر، فإنها كانت مبررة تماماً فى حينها، غير أن ترقية مرسيال قد بدلت الموقف بالكامل، وقد فكرتُ فى أنه ليس لدينا سوى أسبوع واحد لترتيب الانتقال وطلاء الثلاثمائة دمية المشوية التى تنتظر فى الفرن، ونحن مضطرون إلى تسليم هذه الكمية، **أنا** أيضاً تُقلقنى مسألة الدمى، ولكننى توصلت إلى نتيجة مختلفة عما توصلتِ إليه، **لست** أفهم، **لدى** المركز الآن دفعة من ثلاثمائة دمية، وهى كافية فى الوقت الحالى، فدمى الفخار ليست ألعاب كمبيوتر ولا أساور ممغنطة، والناس لن يتدافعوا صارخين أريد رجل اسكيمو لى، أريد أشورياً ملتحياً، أريد ممرضة، **حسن** جداً، أعتقد أن زبائن المركز لن يتشاجروا من أجل الحصول على دمية موظف المندرين الصينى أو البهلول أو المهرج، ولكن هذا لا يعنى أنه علينا ألا ننهى العمل، **لا** يعنى ذلك بالطبع، ولكننى أرى أن الأمر لا يستدعى منا التعجل، **أعود** لتذكيركَ بأن لدينا أسبوعاً واحداً لإنجاز كل شىء، لم أنسَ ذلك، **ماذا** تعنى إذاً، **ما** أعنيه هو ما قلتهِ أنتِ عند الخروج من المركز، ففى العمق يبدو كما لو أنه لنَ يكون ثمة انتقال، فبيت مشغل الخزف، هكذا سميتهِ أنت، موجود هنا، وبما أن البيت موجود، فإن المشغل بكل تأكيد موجود معه، **أنا** أعرف أنكَ محب كبير للألغاز، **لستُ** محباً للألغاز، بل أحب الأمور

www.ibtesamh.com/vb

الواضحة، الأمر سيان، أنتَ لا تحب الألغاز، ولكنكَ ملغز، وسأكون شاكرة لك إذا أوضحت لى إلى أين تود الوصول، أريد الوصول بالضبط إلى حيث نحن فى هذه اللحظة، وحيث سنكون خلال أسبوع آخر وآمل بأسابيع أخرى كثيرة بعد ذلك، **لا** تدفعنى إلى فقدان صبرى، أرجوك، **أنا** الذى أرجوكِ، فالأمر بسيط ببساطة أن اثنين زائد اثنين تساوى أربعة، **أما** فى رأسكَ فإن اثنين زائد اثنين تساوى دائماً خمسة أو ثلاثة أو أى عدد آخر ما عدا الأربعة، **سوف** تندمين، أشك فى ذلك، **تخيلى** أننا لم نطلِ الدمى، وأننا انتقلنا إلى المركز وتركنا الدمى فى الفرن حيث هى الآن، لقد تخيلتُ ذلك، **وأن** العيش فى المركز ليس نفياً، مثلما بيّن مرسيال بوضوح شديد، فالأشخاص الذين يقيمون هناك ليسوا محبوسين، إنهم أحرار فى الخروج عندما يشاءون، وقضاء اليوم كله فى المدينة أو فى الريف والعودة فى الليل. توقف سيبريانو ألجور ونظر بفضول إلى ابنته وهو يعرف أنه سيشهد يقظة إدراكها. وكان هذا هو ما حدث، فقد قالت مارتا باسمة، **إننى** أُخضع نفسى للعقوبة، فاثنان زائد اثنان فى رأسك يمكن لها أن تكون أربعة أيضاً، **لقد** قلتُ لك إن الأمر بسيط، **سنأتى** لإنجاز العمل عندما يكون ذلك ضرورياً وبهذه الطريقة لن نضطر إلى إلغاء طلبية الستمائة دمية المتبقية، المسألة تتلخص فى الاتفاق مع المركز على مُهَل التسليم التى تناسب الطرفين، **بـ**الضبط. صفقت الابنة لأبيها، وشكرها الأب على التصفيق. **بل** يمكن لنا مواصلة التصنيع،

www.ibtesamh.com/vb

قالت مارتا وقد تحمست فجأة لبحر الاحتمالات الإيجابية الذى انفتح أمامها، ولن نضطر إلى إغلاق مشغل الخزف، إذا ما استمر المركز على اهتمامه بالدمى، **بـ**الضبط، **و**من يتحدث عن دمى يمكنه التحدث كذلك عن أفكار أخرى قد تخطر لنا ويقتنعون بها، أو أن نضيف ست دمى أخرى إلى التى لدينا، **و**هو كذلك. وبينما الأب والابنة يتذوقان حلاوة الاحتمالات المستقبلية التى بينت لنا مرة أخرى أن الشيطان ليس وراء الباب على الدوام، سنستغل هذا التوقف القصير لنتفحص التأثير الحقيقى والمغزى الحقيقى لتفكير كل منهما، ولهذين التفكيرين اللذين راحا يعبّران عن نفسيهما أخيراً بعد ذلك الصمت الطويل. ومع ذلك فقد نبهنا من قبل إلى أنه لن يكون بالإمكان التوصل إلى نتيجة، ولو مؤقتة، مثلما هى النتائج كلها، ما لم نبدأ بتقبل مقدمة أولية قد تكون صادمة فى الحقيقة للأرواح السوية وحسنة التكوين، ولكن ذلك لا يجعلها أقل حقيقية، مقدمة أن التفكير المعلن يكون فى أحيان كثيرة قد دُفع إلى الخط الأول، إذا صح هذا التعبير، بتفكير آخر قدَّرَ أن انكشافه غير مناسب. ففى حالة سيبريانو ألجور، ليس من الصعب فهم أن بعض تصرفاته الغريبة يحركها القلق الذى ينتابه بشأن نتيجة السبر، وبالتالى فإنه حين ذكّر ابنته بأنهما قادران، حتى وهما يعيشان فى المركز، على المجىء للعمل فى مشغل الخزف، إنما أراد بذلك ببساطة أن يصرفها عن طلاء الدمى، فقد يحدث أن يأتى غداً أو بعد غد أمر من معاون المدير الباسم، أو

www.ibtesamh.com/vb

من مسئولة الأعلى بإلغاء التسلم، وستشعر هى بالاستياء لتركها العمل فى منتصفه، أو ستشعر إذا ما كانت قد أنهته بأنهم قاموا بعمل لا جدوى منه. ما يفاجئ أكثر هو تصرف مارتا، البهجة المندفعة والمثيرة للقلق بطريقة ما حيال الافتراض المشكوك فيه بأن مشغل الخزف سيحافظ على نشاطه، ما لم نتمكن من إقرار علاقة بين هذا السلوك والتفكير الذى تسبب فيه، وهو تفكير مازال يلاحقها بعناد مذ دخلت إلى الشقة فى المركز وأقسمت بينها وبين نفسها ألا تبوح به لأحد، لا لأبيها، بالرغم من وجوده هنا على مقربة كبيرة منها، ولا لزوجها نفسه، فهذا ما ينقصها، بالرغم من حبها الشديد له. فما مر فى ذهن مارتا وترسخ عند اجتيازها عتبة باب منزلها الجديد، فى ذلك الطابق الرابع والثلاثين الشاهق ذى الأثاث الفاتح والنافذتين الدواريتين اللتين لم تجد الشجاعة للاقتراب منهما، هو أنها لن تتحمل العيش بقية حياتها هناك فى الداخل، دون أى يقين آخر سوى كونها زوجة الحارس المقيم مرسيال جاتشو، ودون أى غد سوى الابنة التى تظن أنها تحملها فى أحشائها. أو الابن. وقد فكرت فى ذلك كله طوال الطريق حتى الوصول إلى بيت مشغل الخزف، وواصلت التفكير بينما هى تعدّ الغداء، وقد ظلت تفكر وهى تدفع الطعام بالشوكة، لانعدام الشهية، من جانب إلى آخر فى الطبق، وواصلت التفكير عندما قالت لأبيها إنه من واجبهما، قبل الانتقال إلى المركز، إنهاء الدمى التى تنتظر فى الفرن. وإنهاء الدمى يعنى طليها

www.ibtesamh.com/vb

بالأصباغ، والطلاء تحديداً هو العمل الذى يناسبها القيام به، فهو يمنحها على الأقل ثلاثة أو أربعة أيام من الجلوس تحت شجرة التوت، بينما لقية رابض إلى جانبها، يضحك بفمه المفتوح ولسانه خارجه. لم تكن تطلب ما هو أكثر من ذلك، كما لو أن تلك هى الرغبة الأخيرة اليائسة التى يمليها محكوم عليه بالموت، وفجأة، وبكلمة بسيطة، فتح لها أبوها باب الحرية، يمكنها المجىء من المركز كلما أرادت، يمكنها فتح باب بيتها بمفتاح بيتها، واللقاء فى الأماكن نفسها بكل ما تركته هنا، والدخول إلى مشغل الخزف لتتأكد من أن الصلصال يتمتع بالرطوبة المناسبة، ثم تجلس بعد ذلك إلى الدولاب، وتُسلم يديها إلى الصلصال البارد، الآن فقط أدركت أنها تحب هذه الأماكن مثلما تحب الشجرة، إذا كانت قادرة على الحب، جذورها التى تغذيها وترفعها فى الفضاء. كان سيبريانو ألجور ينظر إلى ابنته، يقرأ وجهها كما فى صفحات كتاب مفتوح، كان قلبه يؤلمه من الخدعة التى فتنها بها إذا ما كانت نتائج استطلاع الرأى سلبية إلى حدّ ما وجعلت قسم المشتريات فى المركز يتخلى عن الدمى إلى الأبد. نهضت مارتا عن الكرسى، وتقدمت لتقبله وتعانقه، هما الذى سيحدث خلال بضعة أيام، فكر سيبريانو ألجور فى استجابة للمعانقة المحبة، ولكن الكلمات التى تلفظ بها كانت مختلفة، إنها هذه الكلمات المعهودة، مثلما كان يؤمن أجدادنا تقريباً: ما دامت هناك حياة فالأمل موجود. كان يمكن للنبرة المستسلمة التى أفلت بها الكلمات أن تثير شكوك

www.ibtesamh.com/vb

مارتا لو لم تكن مستسلمة لآمالها السعيدة. فلنستمتع إذاً باطمئنان بأيام راحتنا الثلاثة، قال سيبريانو ألجور، فنحن نستحقها حقاً، ولسنا نسرقها من أحد، وبعد ذلك نبدأ بترتيبات الانتقال، كن قدوة واذهب لنوم قيلولة، قالت له مارتا، فقد أمضيت يوم أمس كله فى العمل فى الفرن، واليوم استيقظت باكراً، فالتحمل له حدود حتى لأب مثل أبى، أما بشأن الانتقال فاطمئن، لأنه من اختصاص ربة البيت. انسحب سيبريانو ألجور إلى غرفته، خلع ثيابه بالحركات البطيئة لإنهاك ليس فى الجسد وحده، وانبطح على السرير مطلقاً زفرة عميقة. لم يبق طويلاً على تلك الحال. استوى على الوسادة ونظر فيما حوله كما لو أنها المرة الأولى التى يدخل فيها إلى هذه الحجرة ويحتاج إلى تثبيتها فى ذاكرته لسبب غامض، وكما لو أنها كذلك المرة الأخيرة التى يأتى فيها، ويسعى الآن لأن تنفعه الذاكرة مستقبلاً فى تذكر شىء أكثر من تلك البقعة على الجدار، وذلك الشعاع الضوئى على الأرضية الخشبية، وتلك الصورة لزوجته على الصوان ذى الأدراج. وفى الخارج نبح لقية كما لو أنه سمع شخصاً مجهولاً يصعد الأكمة، ولكنه صمت بعد ذلك، الاحتمال الأكبر أنه يردّ، دون اهتمام خاص، على نباح كلب بعيد، أو أنه أراد ببساطة أن يذكّر بوجوده، لا بد أنه أحس بأن هناك فى الجو شيئاً لا يستطيع فهمه. أغمض سيبريانو ألجور عينيه ليستحضر النوم، ولكن مشيئة العينين

www.ibtesamh.com/vb

كانت مختلفة. ليس هنا ما هو أشد حزناً، ما هو أشد حزناً بصورة بائسة، من عجوز يبكى.

جاء الخبر فى اليوم الرابع. كان الطقس قد تبدل، وصار المطر يهطل بين حين وآخر فى الخارج ليشكل فى برهة بُرك ماء فى الفناء، وينقر على أوراق شجرة التوت المجعدة مثل عشرة آلاف دقة طبل. كانت مارتا تُعد قائمة الأشياء التى يجب أخذها بادئ ذى بدء إلى الشقة، ولكن بوعى متيقظ، فى كل لحظة، للتناقض بين دافعين يناوبان فى أعماقها، أحدهما يدفعها بأشد الحقائق كمالاً، باتجاه أن الانتقال ليس انتقالاً إذا لم يكن ثمة ما يُنقل، وآخر ينصحها ببساطة بترك كل شىء على حاله، **تـ**ذكرى أنه عليك الأخذ فى الاعتبار أنك ستعودين مرات كثيرة لتعملى وتتنفسى هواء الريف. أما سيبريانو ألجور، وبنية تنظيف رأسه من شباك عنكبوت القلق التى تجبره على النظر إلى الساعة عشرات المرات فى اليوم، فقد شغل نفسه فى كنس وتنظيف مشغل الخزف من أقصاه إلى أقصاه، رافضاً مرة أخرى المساعدة التى أرادت مارتا تقديمها إليه، **سـ**أكون أنا من عليه بعد ذلك سماع عتاب مرسيال، قال. وكان لقية قد أُرسل منذ بعض الوقت إلى كوخه الصغير لأنه لوث بصورة مؤسفة أرض المطبخ بالوحل العالق بقوائمه بعد توقف زخة المطر الأولى ومحاولته انتهاز فرصة توقف المطر. لن يكون الماء كثيراً إلى حدّ الدخول إلى كوخه، ولكن بدافع التحسب أدخل سيده أربع قطع آجر تحته محولاً ملجأ

www.ibtesamh.com/vb

كلبياً عادياً ومعاصراً إلى كوخ من أكواخ ما قبل التاريخ. وكان منهمكاً فى هذا الأمر عندما رنّ الهاتف. رفعت مارتا السماعة منذ اللحظة الأولى، وحين سمعت الصوت القائل، **هنا** المركز، ظنت أنه مارسيال، وظنت أنهم سيحولون إليه المكالمة، ولكن الكلمات التالية لم تكن كذلك، **مدير** قسم المشتريات يريد التحدث إلى السيد سيبريانو ألجور. على وجه العموم، يمكن لسكرتيرة أن تعرف الموضوع الذى سيطرحه رئيسها عندما يطلب منها إجراء مكالمة هاتفية، أما عاملة مقسم عادية فلا يمكن لها أن تعرف شيئاً، ولهذا تبدو أصواتهن محايدة، غير مبالية، كمن لم يعد ينتمى إلى هذا العالم، ومع ذلك لا بد لنا من إنصافهن بالتفكير فى أنهن قد يكن ذرفن ذات يوم دموع حزن إذا ما خمّن ما حدث بعد قولهن بصورة آلية، **يمكنك** التكلم. بدأت مارتا بتخيل أن مدير قسم المشتريات يريد التعبير عن معارضته للتأخر فى تسليم الثلاثمائة دمية المتبقية، ومن يدرى إذا كان سيتحدث كذلك عن الستمائة الأخرى التى لم يبدأ العمل بها، وعندما هرعت راكضة إلى مشغل الخزف لتستدعى أباها، بعد أن قالت لعاملة المقسم، **لحظة** واحدة، كانت تفكر فى أن توجه إليه كلمة تأنيب سريعة حول الخطأ المرتكب فى عدم مواصلة العمل لتكون المجموعة الأولى من الدمى جاهزة. ولكن كلمة التأنيب ظلت عالقة بلسانها حين رأت تحوّل وجه أبيها عند سماعها تعلن، **مدير** قسم المشتريات يريد التحدث معكَ. لم يرَ سيبريانو ألجور أنه من المناسب

www.ibtesamh.com/vb

له أن يـركض، ولا بـد من الاعـتـراف له بـالجـدارة الـكافـيـة فـى ثبات خطواته التى قادته حتى مقعد المحكمة التى سيُنطق فيها بالحكم عليه. تناول الهاتف الذى تركته ابنته على المنضدة، إننى أنا، سيبريانو ألجور، وقالت عاملة المقسم، حسن، سأحوّل لك المكالمة، ساد صمت، أزيز خفيف، وتكتكة، ثم دوى من الجانب الآخر صوت مدير قسم المشتريات راعداً، قوياً، مساء الخير يا سيد ألجور، مساء الخير يا سيدى، أظن أنكَ تتصور السبب الذى دفعنى للاتصال بك اليوم، ظننك فى مكانه يا سيدى، تفضل وأخبرنى، توجد أمامى نتائج ومحصلات السبر حول بضاعتك الذى قرر أحد معاونى المدير، بموافقتى، أن يجريه، وما هى هذه النتائج يا سيدى، سأله سيبريانو ألجور، يؤسفنى أن أبلغك أنها لم تكن جيدة بالقدر الذى كنا نتمناه، إذا كان الأمر كذلك فلن يتأسف أحد سواى، أخشى أن مشاركتك فى حياة مركزنا قد بلغت نهايتها، فى كل يوم تبدأ أمور جديدة، ولكنها جميعها تنتهى عاجلاً أو آجلاً، ألا تريد أن أقرأ لك النتائج، بل تهمنى أكثر محصلة السبر، وهذه صرت أعرفها، المركز لن يشترى مزيداً من دمانا. مارتا التى كانت تستمع بجزع متزايد إلى كلمات أبيها، رفعت يدها إلى فمها كأنها تريد كبح صرخة. أومأ لها سيبريانو ألجور طالباً منها الهدوء، وكان فى الوقت نفسه يرد على سؤال مدير قسم المشتريات، أتفهم رغبتك فى ألا تبقى ظلال أى شك فى روحى، وأنا أتفق مع ما قلته للتو حضرتك من أن تقديم المحصلة النهائية دون

www.ibtesamh.com/vb

عرض مسبق للأسباب التى أدت إلى ذلك يمكن أن يُفهم على أنه طريقة غير بارعة فى التغطية على قرار متعسف، وهذا ما لا يمكن أن يكون، بكل تأكيد، من أساليب المركز، لحسن الحظ أنك متفق معى، من الصعب عدم الاتفاق معك يا سيدى، يمكنك إذاً أن تدون ملاحظات حول النتائج، قل ما لديك، مجموعة الزبائن التى وقع عليها الخيار للمشاركة فى السبر تم تحديدها منذ البداية باستبعاد الأشخاص الذين بسبب السن، والوضع الاجتماعى، والتربية والثقافة، وكذلك بسبب عاداتهم الاستهلاكية المعروفة، سيكونون معارضين مسبقين وجازمين لاقتناء سلعة من هذا النوع، ومن الملائم أن تعرف يا سيد ألجور أننا إذا كنا قد اتخذنا هذا القرار، فإنما ذلك من أجل ألا نضر بك منذ البداية، شكراً جزيلاً يا سيدى، سأقدم لك مثالاً، فلو أننا اخترنا خمسين شاباً حديثاً، خمسين فتى وفتاة من زمننا، لكان يمكن لك يا سيد ألجور أن تكون واثقاً من أن أياً منهم لن يرغب فى أن يحمل إلى بيته واحدة من دُماك، وإذا ما أخذوها فإنما يفعلون ذلك لاستخدامها فى شىء مثل وضعها كهدف للرماية، أتفَّهمُ ذلك، لقد اخترنا خمسة وعشرين شخصاً من كل جنس من الجنسين، ومن مهن ومداخيل وسطية، أشخاصاً من حيثيات أسرية متواضعة، مازالوا مرتبطين بالأذواق التقليدية، وابتذال البضاعة لا يؤثر كثيراً على المشهد فى بيوتهم، ومع هذا كله، أجل يا سيد ألجور، مع هذا كله كانت النتائج سيئة، ماذا يمكننى أن أفعل يا سيدى،

www.ibtesamh.com/vb

عشرون من الرجال وعشر نساء أجابوا بأن دمى الصلصال لا تروقهم، وأربع نساء قلن إنه يمكنهن أن يشترين الدمى لو أنها أكبر حجماً، وثلاث يمكنهن أن يشترينها لو أنها أصغر حجماً، ومن الرجال الخمسة المتبقين، قال أربعة إنهم لم يعودوا فى سن اللعب، واحتج آخر من واقع أن ثلاثاً من الدمى تمثل شخصيات أجنبية، والأدهى أنها شخصيات إكزوتيكية، أما بالنسبة للنساء الثمانى المتبقيات، فإن اثنتين منهن قلن إنهن يتحسسن من الصلصال، وأربعاً لديهن ذكريات سيئة مع هذا النوع من الأشياء، واثنتين فقط أجابتا بالإعراب عن شكرهما الكبير للفرصة التى أُتيحت لهما بتزيين منزلهما مجاناً بدمى لطيفة جداً، ولا بد من الإضافة أن الأمر يتعلق بامرأتين متقدمتين فى السن وتعيشان وحيدتين، فقال سيبريانو ألجور، أتمنى معرفة اسمى وعنوانى هاتين السيدتين لأقدم لهما الشكر، متأسف، ولكننى غير مخول بكشف معلومات شخصية عن الأشخاص المستطلعين، إنه شرط صارم فى سبر من هذا النوع، احترام سرية الإجابات، ربما يمكنك أن تخبرنى على أى حال إذا ما كان هؤلاء الأشخاص يعيشون فى المركز، أى أشخاص تعنى، جميع الأشخاص، سأله مدير قسم المشتريات، لا يا سيدى، فقط الشخصان اللذان تلطفا برؤية أن دُمانا لطيفة، قال سيبريانو ألجور، بما أن الأمر يتعلق بمعلومة غير جوهرية بصورة خاصة، فلا أظن أننى أخون السرية التى تحكم استطلاعات الرأى إذا ما قلت لك إن هاتين المرأتين تعيشان خارج المركز، فى

www.ibtesamh.com/vb

المدينة، شكراً جزيلاً لهذه المعلومة يا سيدى، هل أفادتك فى شىء، لا لأسف لا يا سيدى، لماذا كنت تريد معرفة ذلك إذاً، كان يمكن أن تتاح لى الفرصة للقاء بهما وتقديم الشكر لهما شخصياً، أما إذا كانتا تعيشان فى المدينة فالأمر شبه مستحيل، ولو كانتا تعيشان هنا، عندما قلتَ لى فى بداية هذا الحديث إن مشاركتى فى حياة المركز قد بلغت نهايتها، كنتُ على وشك أن أقاطعك، لماذا، لأن حياتى، على عكس ما تظن، وعلى الرغم من أنكم لا تريدون رؤية خزف ودمى هذا الخزاف، ستظل مرتبطة بالمركز، لست أفهم، أرجوك أن توضح، خلال خمسة أو ستة أيام سأبدأ العيش هناك، فصهرى قد رُقى إلى حارس مقيم وسأذهب للعيش مع ابنتى وصهرى، يسعدنى هذا الخبر وأهنئك، أنت رجل محظوظ جداً فى نهاية المطاف، لا يمكنك أن تشكو، فقد كسبتَ كل شىء عندما كنت تظن أنك خسرت كل شىء، لستُ أشكو يا سيدى، هذه هى المناسبة للإعلان أن المركز يكتب سوياً فى سطور مائلة، وإذا أراد يوما أن ينتزع بيد، يهرع بسرعة إلى التعويض باليد الأخرى، إذا لم تخنى الذاكرة، فإن هذا الذى قلته عن السطور المائلة والكتابة السوية يقال عن الرب، أبدى سيبريانو ألجور ملاحظته، فى هذه الأزمنة يكاد يكون الأمر نفسه عملياً، ولستُ أبالغ إذا ما قلت إن المركز، باعتباره موزعاً دقيقاً للخيرات المادية والروحية، ينتهى به الأمر إلى التوالد بذاته من ذاته، بدافع الحاجة المحضة، وهذا شىء، وإن كان يصدم بعض المتزمتين

www.ibtesamh.com/vb

شديدى الحساسية، إلا أنه يشارك فى الطبيعة الإلهية، وهل توزعون هناك الخيرات الروحية أيضاً يا سيدى، أجل، ولا يمكنك تصور أن المنددين بالمركز، وهم فى الحقيقة أقل عدداً فى كل يوم وأقل عنفواناً، مصابون بالعمى المطلق تجاه الجانب الروحى من نشاطنا، بينما الحقيقة أن الحياة تكتسب بفضل هذا النشاط معنى جديداً بالنسبة لملايين وملايين الأشخاص غير السعداء، والمحبطين، والمخذولين، وهذا يعنى، سواء شئت أم لم تشأ، صدقنى، أن ذلك ليس حصيلة المادية الدنيئة، وإنما الروحانية السامية، أجل يا سيدى، يُسعدنى جداً أن أقول لك يا سيد ألجور إننى وجدت فيكَ شخصاً من الممتع، حتى فى الظروف الصعبة مثلما هو هذا الظرف الآن، التحدث إليه فى هذه المسائل الجدية وغيرها من المسائل التى تهمنى كثيراً للبُعد الواسع الذى تضيفه، بطريقة ما، إلى عملى، وآمل أن نتمكن من اللقاء فى مرات أخرى بعد انتقالك الوشيك إلى المركز وأن نواصل تبادل الأفكار، أنا أيضاً يا سيدى، طاب مساؤك، طاب مساؤك. أغلق سيبريانو ألجور الهاتف ونظر إلى ابنته. كانت مارتا تجلس ويداها على حضنها، كما لو أنها احتاجت فجأة إلى حمايةِ أول تكورات بطنها التى مازالت غير ملحوظة تقريباً. تخلوا عن الشراء، سألته، أجل، قاموا بعملية سبر بين الزبائن وخرجت النتيجة سلبية، ولن يشتروا حتى الثلاثمائة دمية التى فى الفرن، لا. نهضت مارتا، مشت حتى باب المطبخ، نظرت إلى المطر الذى لا يتوقف عن الهطول، ومن

www.ibtesamh.com/vb

هناك أدارت رأسها قليلاً وسألت، أليس لديك ما تود قوله لى، بلى، أجابها الأب، تكلم إذاً، كلى آذان مصغية. استند سيبريانو ألجور إلى عارضة الباب، تنفس بعمق، وانطلق بعد ذلك، لم أكن غير مهيأ للخبر، كنت أعرف أن هذا قد يحدث، وقد كان أحد معاونى مدير القسم هو من أخبرنى بأنهم سيُجرون سبراً لتقويم استعداد الزبائن تجاه الدمى، والاحتمال الأكبر أن الفكرة ولدت من المدير نفسه، وأنا ظللتُ مخدوعة خلال هذه الأيام الثلاثة، مخدوعة من قبلك، من قبل أبى، أحلم بمشغل فخار يعمل، وأتخيل أننا نخرج من المركز فى الصباح الباكر، ونأتى إلى هنا ونشمر عن أذرعنا، نشم رائحة الصلصال، وأعمل إلى جانبك، ويكون مرسيال معى فى أيام عطلته، لم أشأ لكِ أن تعانى، إننى أعانى الآن مرتين، نواياك الطيبة لم توفر على شيئاً، أطلب منكِ المعذرة، وأرجوكَ ألا تضيع الوقت فى طلب المعذرة، فأنت تعرف أننى أسامحك دائماً، مهما كان ما تفعله، لو أن القرار كان مختلفاً، ولو قرر المركز شراء الدمى، لما عرفتِ قط بالوضع الحرج الذى تعرضنا له، لم يعد وضعاً حرجاً الآن، إنه واقع، لدينا البيت، ويمكننا المجىء إليه عندما نشاء، أجل، لدينا البيت، بيت يطل على المقبرة، عن أية مقبرة تتحدثين، مشغل الفخار، الفرن، ألواح التجفيف، أكوام الحطب، ما كان ولم يعد كائناً، أية مقبرة أكبر من هذا، سألت مارتا وهى على حافة البكاء. وضع الأب يده فوق كتفها، لا تبكى، أعترفُ أننى أخطأت بعدم إخبارك بما جرى. لم تجب مارتا،

www.ibtesamh.com/vb

ذكّرت نفسها بأنه ليس من حقها تأنيب أبيها، فهى أيضاً قد أخفت عن زوجها سراً لن تخبره به أبداً، كيف ستتمكنين الآن، وقد فقدتِ الأمل، من العيش فى تلك الشقة، كانت تسأل نفسها. كان لقية قد خرج من كوخه، وكانت تسقط عليه قطرات كبيرة من الماء تنزلق عن شجرة التوت، ولكنه لم يحسم أمره. كانت قوائمه متسخة، وفروه يقطر، وكان موقناً من أنه لن يُستقبل بترحاب. ومع ذلك كان الحديث يدور عنه عند باب المطبخ. فعندما رأته يظهر ويقف ناظراً، سألت مارتا، ماذا سنفعل بهذا الكلب. وباطمئنان، كما لو أن الأمر يتعلق بمسالةٍ نوقشت ألف مرة ولم يعد فيها ما يستحق الرجوع إليه، أجابها الأب، سأسأل الجارة إساورا مادروغا إذا كانت تود الاحتفاظ به، لا أدرى إذا كنتُ أسمع جيداً، أرجوك أن تكرر ما قلته، هل قلت إنكَ ستذهب لتسأل الجارة إساورا مادروجا إذا كانت تود الاحتفاظ بلقية، لقد سمعتِ ما قلتُه بالضبط، فهذا هو ما قلته، عند إساورا مادروجا، إذا ما واصلتِ الإلحاح على هذا الأمر، فسوف أرد عليك، عند إساورا مادروغا، وستعودين إلى السؤال، عند إساورا مادروغا، وسنُمضى بقية المساء على هذه الحال، إنها مفاجأة هائلة، لا يمكن للمفاجأة أن تكون بهذه الضخامة، إنها الشخص نفسه الذى كنتِ تفكرين فى ترك الكلب عنده، ليست المفاجأة فى الشخص، المفاجأة فى نظرى هى أنك أنت من خرج بالفكرة، لا وجود لأحد فى القرية، وربما فى العالم بأسره، يمكن ترك لقية عنده، وإلا فضلتُ قتله. كان الحيوان لا يزال

www.ibtesamh.com/vb

ينظر من بعيد آملاً وهو يهز ذيله ببطء. انحنى سيبريانو ألجور وناداه، لقية، تعال إلى هنا. والكلب الذى كان يقطر ماء بدأ يهز نفسه كاملاً، كما لو أنه من غير المسموح له الاقتراب من سيده إلا بوقار وبمظهر لائق، ثم جرى بسرعة للقاء به، وبعد برهة كان رأسه الضخم يستند إلى صدر سيبريانو ألجور بقوة كبيرة يبدو معها أنه يريد الدخول داخل الصدر. عندئذ سألت مارتا أباها، لكى يكون كل شىء على ما يرام، وكيلا يكون لقية وحده بين ذراعيك، قل لى إذا كنت قد أخبرت مرسيال بشأن عملية السبر، أجل، أخبرته، ولكنه لم يقل لى شيئاً، للسبب نفسه الذى جعلنى لا أخبرك أنا بشىء. وبوصول الحوار إلى هذه النقطة، ربما كان ينتظر أن ترد عليه مارتا، الحقيقة أن ذلك يبدو مستحيلاً يا أبى، تخبره هو، وتتركنى أنا فى الغفلة، فردّ فعل الناس عموماً يكون على هذا النحو، لا أحد منهم يروقه البقاء على الهامش، وأن يُنتقص من حقه فى المعلومات والمعرفة، وإن كان يمكن لأحدنا، فى أوقات متباعدة، أن يلتقى باستثناء نادر فى عالم التكرار المزعج هذا، مثلما كان يمكن أن يسميه الحكماء الأورفيون، والفيثاغورثيون، والرواقيون، الأفلاطونيون المحدثون، لو أنهم لم يفضلوا، بإلهام شاعرى، منحه تسمية العود الأبدى الأكثر جمالاً وأشد وقعاً. لم تعترض مارتا، لم تثر فضيحة، بل اكتفت بالقول، كنت سأغضب كثيراً لو لم تكن قد أخبرت مرسيال. انفصل سيبريانو ألجور عن الكلب، وأمره بالرجوع إلى كوخه، وقال، إننى

www.ibtesamh.com/vb

أتصرف بصورة صائبة أحياناً. ظلا يتأملان المطر الذى لا يتوقف عن الهطول، ويسمعان مونولوج شجرة التوت، وعندئذ سألت مارتا، **مما** الذى نستطيع فعله بهذه الدمى التى فى الفرن، وأجاب الأب، **لا** شىء. الكلمة الجازمة القاطعة لم تترك أى شك، لم يتلفظ سيبريانو ألجور، بدلاً منها، بواحدة من تلك العبارات الشائعة التى ترمى إلى الظهور بمظهر النفى الجازم، ولكنها لا تعطى أهمية لحملها فى ذاتها نفيين اثنين، مما يحولها، حسب رأى النحويين المعتمد، إلى نفى قاطع، كما فى هذه العبارة مثلاً، **لا** يمكننا عمل أى شىء، التى تزعج نفسها بأن تنفى نفسها لكى تعنى، باختصار، أنه مازال بالإمكان عمل شىء.

اتصل مرسيال بعد العشاء، **إننى** أكلمكِ من البيت، فاليوم غادرت حجرة نوم عاملى الأمن المشتركة، وسأنام هذه الليلة فى سريرنا، **هكذا** أفضل، وستكون سعيداً بالطبع، **أجل**، ولدى أخبار لكِ، **ونحن** أيضاً لدينا خبر، قالت مارتا، **من** أين نبدأ، بأخبارى أم بأخباركم، سألها، من الأفضل البدء بالخبر السيئ، وترك الخبر الطيب، إذا كان موجوداً، إلى النهاية، أخبارى ليست طيبة ولا سيئة، إنها أخبار وحسب، **سأبدأ** أنا إذاً بما لدينا هنا، لقد اتصلوا بنا بعد ظهر اليوم من المركز ليخبرونا بأنهم لن يشتروا الدمى، فقد أجروا عملية سبر وكانت النتيجة سلبية. سادت لحظة صمت فى الجانب الآخر. انتظرت مارتا. ثم قال مرسيال، **كنت** أعرف بأمر ذلك السبر، عرفتُ أنك

www.ibtesamh.com/vb

كنت تعرف، لقد أخبرنى أبى، كنت أخشى أن تكون نتيجة السبر...، وقد تحقق ما كنتَ تخشاه، هل أنت غاضبة منى لأنى لم أخبرك، لست غاضبة منك ولا منه، فهكذا هى الأمور، لا بد من بذل الجهد لفهمها وتقبلها، ولكن أكثر ما ضايقنى هو أننى فقدت الحلم بأننا، حتى ونحن نعيش فى المركز، نستطيع مواصلة العمل فى مشغل الخزف، لم أفكر قطّ فى مثل هذا الاحتمال، لم تكن فكرة من رأسى، بل خرجت فى محادثة مع أبى، ولكن لم يكن بإمكانه التأكد من أن الدمى ستُقبل، أراد لى ألا أقلق، مثلما أردت أنت، ونتيجة الخدعة أننى عشت سعيدة مثل عصفور ساذج خلال هذه الأيام الثلاثة، أشعر برغبة فى القول إن شيئاً أفضل من لا شىء، وباختصار، لن نبكى على الحليب المسكوب الذى أسال الكثير من الدموع فى العالم، أخبرنى الآن بما لديك من أخبار، لقد منحونى ثلاثة أيام إجازة من أجل الانتقال، بما فيها يوم راحتى العادية، ويأتى هذه المرة يوم الإثنين، وهكذا سأخرج من هنا يوم الجمعة عند الغروب، فى سيارة أجرة، فليس هناك ما يستحق أن يأتى أبوك لأخذى، وسنُعد كل شىء يوم السبت، ويوم الأحد صباحاً نرفع الأشرعة، ها نحتاج إلى حمله معنا صار جاهزاً، قالت مارتا بصوت ساه. وساد صمت آخر. ألستِ سعيدة، سألها مرسيال، إننى، إننى سعيدة، ردت مارتا. ثم كررت، إننى، إننى سعيدة. وفى الخارج نبح الكلب لقية، لا بد أن شبحاً فى الليل قد تحرك.

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

كانت الشاحنة محمّلة، ونوافذ وأبواب مشغل الخزف والبيت مغلقة، ولم يكن قد تبقى، كما قال مرسيال قبل أيام، سوى رفع الأشرعة. وخلافاً لعادته، بملامح متوترة، وقد بدا فجأة أكثر هرماً، نادى سيبريانو ألجور الكلب. وبالرغم من نبرة الكآبة التى يمكن لأذن مرهفة أن تميزها، رفع صوت السيد من حماسة لقية. كان الكلب يمضى حائراً، قلقاً، يركض من جانب إلى آخر، يشم الحقائب والحزم التى يُخرجونها من البيت، ينبح بقوة ليشدّ الانتباه، وها هى هواجسه تصيب، فأمر فريد، خارج المألوف، كان يُهيأ له فى الفترة الأخيرة، وقد جاءت الآن اللحظة التى سيقرر فيها مصيرَ وجودهِ الحظُ، أو القدر، أو المصادفة، أو تقلب الإرادة والخضوع البشرى. كان يقبع إلى جوار الكوخ الصغير منتظراً، ورأسه ممدود فوق قائمتيه الأماميتين. وعندما قال السيد، لقية، تعال. ظن أنه يدعوه للصعود إلى الشاحنة مثلما حدث فى مرات أخرى، إشارة إلى أن شيئاً لم يتغير فى حياته، وأن هذا اليوم سيكون كما الأمس، مثلما هو

www.ibtesamh.com/vb

حلم الكلاب الدائم. استغرب أن يربطوا الحزام بطوق عنقه، فذلك غير معهود حين يسافرون، ولكن الاستغراب تضاعف، وتحول إلى تشوش، عندما مرّت السيدة والسيد الأصغر سناً بيديهما على رأسه، وقد فعلا ذلك فى الوقت نفسه الذى راحا يتمتمان بكلمات غير مفهومة، وكان يتردد فيها اسمه الحالى لقية بصورة مثيرة للقلق، بالرغم من أن ما كانا يقولانه له لم يكن على شىء من السوء، سنأتى لرؤيتك فى أحد هذه الأيام. شدّ الحزام يجعله يدرك أنه عليه اللحاق بالسيد، وعاد الوضع يتضح من جديد، فالشاحنة للسيدين الآخرين، ومع هذا السيد ستكون النزهة مشياً على الأقدام. وحتى فى هذه الحال مازال وجود الحزام يفاجئه، ولكنه مجرد أمر ثانوى بلا أهمية، فعند الوصول إلى الحقول سيفلته السيد كى يركض فى أثر أى كائن حى يظهر أمامه، حتى لو لم يكن سوى سحلية تافهة. الصباح بارد، والسماء غائمة، ولكن دون توعد بهطول مطر. لقد صارا على الطريق العام، وبدلاً من الذهاب يساراً باتجاه الحقول المفتوحة، مثلما كان يأمل، انحرف السيد باتجاه اليمين، وسوف يذهبان بالتالى إلى القرية. ثلاث مرات، خلال الطريق، كان على لقية أن يكبح خطواته بغتة. وكان سيبريانو ألجور يمضى مثلما نمضى جميعنا فى ظروف مشابهة لهذه، عندما نبدأ الجدل بتكاسل مع كائننا الحميم الداخلى إذا كنا نريد أو لا نريد ما صار واضحاً أننا نريده، يبدأ الأمر بجملة ولا ينتهى، يتوقف أحدنا فجأة، يركض كما لو أنه ذاهب

www.ibtesamh.com/vb

لينقذ أباه من المشنقة، يتوقف أحدنا مرة أخرى، حتى إن الأمر ينتهى بأشد الكلاب صبراً وانكباباً إلى التساؤل إذا لم يكن من الأفضل له أن يكون عند سيد أشد تصميماً. ولكنه لا يعرف مع ذلك إلى أى حدّ كان حاسماً تصميم هذا السيد. لقد صار سيبريانو ألجور أمام باب إساورا مادروجا، يمد يده ليطرق الباب، يتردد، يتقدم مرة أخرى، وفى هذه اللحظة ينفتح الباب كما لو أنه كان بانتظاره، ولكن هذا غير صحيح، ذلك أن إساورا مادروجا قد سمعت الجرس وجاءت لترى من هناك. صباح الخير يا سيدة إساورا، قال صانع الخزف، صباح الخير يا سيد ألجور، اعذرى مجيئى لإزعاجك فى بيتك، ولكن لدى أمرًا أريد التحدث فيه مع حضرتك، أن أطلب منك جميلاً كبيراً، تفضل بالدخول، يمكننا التحدث هنا بالذات، لا حاجة إلى الدخول، أرجوك، أدخل، بلا تكلف، هل يمكن للكلب أيضاً أن يدخل، سأل سيبريانو ألجور، فقوائمه متسخة، لقية أشبه بفرد من الأسرة، ونحن صديقان قديمان. أُغلق الباب، وانغلقت ظلال الصالة الصغيرة عليهم، أومأت إساورا مشيرة إلى أريكة، وجلست هى أيضاً. لدى إحساس بأنكِ تعرفين سبب مجيئى، قال صانع الخزف بينما هو يجعل الكلب يربض عند قدميه، هذا محتمل، ربما تكونين قد تبادلتِ بعض الحديث مع ابنتى، حول ماذا، حول لقية، لا، لم نتحدث قط حول لقية بهذا المعنى الذى تشير إليه، أى معنى، هذا الذى قلته عن تبادل حديث، لقد تحدثنا بالطبع عن لقية أكثر من مرة،

www.ibtesamh.com/vb

ولكننا لم نتبادل حديثاً خاصاً به بالذات. أخفض سيبريانو ألجور عينيه، ما جئت أطلبه منك هو أن تستبقى لقية عندك خلال غيابى، هل ستذهب إلى الخارج، سألته إساورا، سأذهب الآن بالذات، ويفترض أننا لا نستطيع أخذ الكلب معنا، فالمركز لا يتقبل وجود حيوانات، سأستبقيه عندى، أعرف أنكِ ستعتنين به كما لو أنه لكِ، سأعتنى به أفضل مما لو كان لى، لأنه لكَ أنت. ودون أن يفكر فيما يفعله، ربما لكى يريح أعصابه، نزع سيبريانو ألجور الحزام من طوق رقبة الكلب. أظن أنه علىّ تقديم اعتذار، لماذا، لأننى لم أكن مهذباً جداً مع حضرتكِ على الدوام، ذاكرتى تتذكر أشياء أخرى، مساء اليوم الذى التقيتُ بكَ فى المقبرة، وما تحدثنا به عن قبضة الإبريق المفلتة، وزيارتك إلى بيتى لتحمل لى إبريقاً جديداً، أجل، ولكننى كنت بعد ذلك قليل اللباقة، فظاً، ولم يكن ذلك مرة واحدة ولا مرتين، لا أهمية للأمر، بل له، الدليل على أنه بلا أهمية هو أننا معاً هنا الآن، ولكننا على وشك ألا نكون كذلك، أجل، إننا على وشك ألا نكون كذلك. لا بد أن غيوماً قاتمة قد غطت السماء، فالعتمة الخفيفة داخل البيت صارت أشد كثافة، وسيكون من الطبيعى أن تنهض إساورا الآن عن مقعدها لتشعل الضوء. ولكنها لم تفعل، ليس بسبب عدم المبالاة أو أى سبب خفى آخر، وإنما ببساطة لأنها لم تنتبه إلى أنها تكاد لا تستطيع تمييز ملامح سيبريانو ألجور الجالس هناك قبالتها بالذات، على مسافة قريبة من ذراعه إذا ما انحنت قليلاً نحو

www.ibtesamh.com/vb

الأمام، أما زال الإبريق فعالاً، يبرد الماء، سألها سيبريانو ألجور، كما فى اليوم الأول، وفى هذه اللحظة انتبهت إلى ازدياد الظلمة فى الحجرة، يجب علىّ أن أُشعلَ النور، قالت لنفسها، ولكنها لم تنهض. لم يُقل لها قط إن أشخاصاً كثيرين فى العالم تبدل مصيرهم جذرياً بهذه الحركة بالغة البساطة المتمثلة بإشعال النور أو إطفائه، سواء أكان مصباحاً قديماً، أو شمعة، أو قنديل بترول، أو مصباحاً من المصابيح الحديثة، صحيح أنها فكرت فى أنه عليها النهوض، فهذا ما تقتضيه العادات، ولكن الجسد يرفض ذلك، لا يتحرك، يرفض تنفيذ أمر الدماغ. كانت تلك هى الظلمة التى يحتاج إليها سيبريانو ألجور كى يتجرأ أخيراً ليصرح، أحبك يا إساورا، وردّت هى بصوت بدا متألماً، وجئت لتقول لى هذا فى يوم مغادرتك، سيبدو بلا جدوى قوله من قبل، مثلما هو بلا جدوى، فى نهاية المطاف، قوله الآن، ومع ذلك قلته لى، لقد كانت الفرصة الأخيرة، ولك أن تأخذى الأمر على أنه وداع، لماذا، لأنه ليس لدى ما أقدمه لكِ، فأنا من جنس آخذ بالانقراض، ليس لى مستقبلَ، وحتى ليس لى حاضر، بل لك حاضر، هذه اللحظة، هذه الغرفة، ابنتك وصهرك اللذان سيأخذانك معهما، وهذا الكلب القابع عند قدميك، ولكن ليس هذه المرأة، لم تسألنى رأيى، ولا أريد أن أسألك، لماذا، أكرر، لأنه ليس لدى ما أقدمه لكِ، إذا كان ما قلته قبل لحظة نابعاً عن إحساس وتفكير، فإن لديك الحب، الحب ليس بيتاً، ولا ثياباً، ولا طعاماً، ولكن الطعام والملابس والبيت،

www.ibtesamh.com/vb

بحد ذاتها، ليست حباً، لا حاجة بنا إلى التلاعب بالكلام، فالرجل لا يطلب من امرأة أن تتزوج منه إذا لم تكن لديه وسائل لكسب عيشه، وهل هذه هى حالتك، سألته إساورا، أنت تعرفين جيداً أنها كذلك، فمشغل الخزف قد أُغلق، وأنا لا أتقن عملاً آخر، ولكنك ستعيش على حساب صهرك، لا يوجد لدى مخرج آخر، يمكنكَ أن تعيش كذلك على ما تكسبه امرأتك، كم من الوقت سيستمر الحب فى هذه الحال، سأل سيبريانو ألجور، لم أشتغل حين كنت متزوجة، وكنت أعيش على ما يكسبه زوجى، لا أحد يرى سوءاً فى ذلك، فقد كانت هذه هى العادة، ولكن ضعى رجلاً فى هذا الوضع وأخبرينى بما سيحدث فيما بعد، هل على الحب إذاً أن يكون مكرهاً على الموت لهذا السبب، سألته إساورا، أيمكن للحب أن ينتهى لسبب بسيط كهذا، لستُ فى وضع يسمح لى بالإجابة، فأنا أفتقد الخبرة. وبتحفظ، نهض لقية، فزيارة المجاملة فى رأيه أخذت تطول كثيراً، وهو يريد الآن العودة إلى كوخه، إلى شجرة التوت، إلى مقعد التأملات. قال سيبريانو ألجور، علىّ أن أذهب، لأنهم ينتظروننى، أهو الوداع، سألته إساورا، سنأتى بين حين وآخر لنرى كيف هو لقية، ولنرى إذا ما كان البيت لا يزال قائماً، إنه ليس وداعاً إلى الأبد. أعاد شبك الحزام بطوق رقبة الكلب وقدمه إلى إساورا، إننى أتركه لكِ، إنه كلب وحسب، وإن كان. لن نعرف أبداً الاعتبارات الأنطولوجية التى كان سيبريانو ألجور يستعد لتُطورها كلمةُ الربط التى تركها معلقة فى

www.ibtesamh.com/vb

الفضاء، لأن يده اليمنى، هذه التى تمسك الحزام، ضاعت أو وجدت نفسها بين يدى إساورا مادروجا، المرأة التى لم يشأ ضمها إلى حاضره والتى تقول له الآن مع ذلك، أحبك يا سيبريانو، أنتَ تعرف أننى أحبك. انزلق الحزام إلى الأرض، وحين أحس لقية أنه طليق، ابتعد ليشم أسفل الجدار، وعندما أدار رأسه بعد قليل أدرك أن الزيارة قد انحرفت عن طريقها، وأن ذلك العناق لم يكن مجرد مجاملة، ولا تلك القبلات، ولا ذلك التنفس المتقطع، ولا تلك الكلمات التى تبدأ الآن أيضاً ولكنها لا تتمكن من الانتهاء، إنما لها أسباب أخرى مختلفة. كان سيبريانو ألجور وإساورا قد نهضا، وكانت هى تبكى من السعادة والأسى، وكان هو يتلعثم، سأعود، سأعود، من المحزن أن الباب الخارجى لا ينفتح على مصراعيه كى يتمكن الجيران من تناقل الكلام عن أن أرملة إستوديوسو والعجوز صاحب مشغل الخزف متحابان حباً حقيقياً ومعلناً فى نهاية المطاف. وبصوت استرد شيئاً من نبرته الطبيعية، كرر سيبريانو ألجور، سأعود، سأعود، لا بد من وجود حلّ لنا، الحلّ الوحيد هو أن تبقى، قالت إساورا، أنتِ تعرفين جيداً أننى لا أستطيع، سنظل هنا فى انتظارك، أنا ولقية. الكلب لم يفهم سبب إمساك المرأة بالحزام المتصل بعنقه، مع أن الثلاثة يتجهون نحو الباب، وهذه إشارة واضحة إلى أنه هو وسيده سيغادران أخيراً، ولا يفهم لماذا لم ينتقل الحزام بعد إلى يد من ثبته برقبته. كان الرعب يتصاعد من أحشائه إلى حنجرته، ولكن أعضاءه

www.ibtesamh.com/vb

ترتعش فى الوقت نفسه من التهيج الناتج عن الخطة التى انتهت غريزته إلى رسمها، التحرر بشَدَّة عنيفة واحدة عندما يُفتح الباب، وبعد ذلك سينتظر ظافراً فى الخارج أن يأتى سيده للقائه. لم يُفتح الباب إلا بعد معانقات أخرى وقبلات أخرى، وكلمات هامسة أخرى، ولكن المرأة كانت تثبته بقوة بينما هى تقول، أنتَ ستبقى، أنت ستبقى، هكذا هى شئون التكلم، فالفعل نفسه الذى عجز عن إبقاء سيبريانو ألجور هو الذى لا يسمح للقية الآن بالهرب. أُغلق الباب، وفصل بين الحيوان وسيده، ولكن هكذا هى أمور الإحساس، فلا يمكن لغم هجران أحدهما، فى هذه اللحظة على الأقل، أن يأمل بالتعاطف أو الاستجابة من سعادة الآخر الممزقة. ولن يكون بعيداً اليوم الذى سنعرف فيه كيف سارت حياة لقية فى بيته الجديد، وما إذا كان تأقلمه مع سيدته الجديدة مريحاً أو مكلفاً، وما إذا كانت المعاملة الطيبة والعاطفة غير المحدودة اللتان أحاطته بهما كافيين لأن يُنسياه حزن هجرانه الجائر. أما من علينا متابعته الآن فهو سيبريانو ألجور، لا شىء سوى متابعته، السير فى أثره، مرافقة خطواته المسرنمة. أما عن تخيل كيف يكون من الممكن أن تجتمع فى شخص واحد مشاعر شديدة التناقض مثل ـ فى الحالة التى ننظر فيها ـ أشد أشكال السعادة عمقاً وأشد أنواع الاستياء وخزاً، من أجل أن نكتشف بعد ذلك أو نبتدع التسمية الوحيدة التى سيتميز بها الشعور الخاص الناجم عن ذلك الدمج، وهذه مهمة جرى السعى إليها مرات كثيرة فى الماضى، وفى كل

www.ibtesamh.com/vb

مرة كان الأمر ينتهى بالاستسلام ـ كما لو أنه أفق يتفكك دون توقف ـ لعدم بلوغ ولو عتبة باب الأشياء التى لا يمكن وصفها والأمل بألا تظل كذلك. فالتعبير البشرى المثرثر لم يعرف بعد، ومن المحتمل أنه لن يعرف أبداً، التعرف، والاعتراف، وتوصيل كل ما هو قابل للاختبار والإحساس به إنسانياً. هناك من يؤكد أن السبب الرئيسى فى هذه الصعوبة الجدية جداً يكمن فى واقع أن الكائنات البشرية مصنوعة بصورة أساسية من طين، والطين، كما تشرح لنا الموسوعات بدقة، هو صخر رسوبى حُتاتىّ، مكون من جزيئات بالغة الدقة بحجم واحد/مئتين وخمسين سيسافو فى الملليمتر. وحتى اليوم، مهما كانت التنويعات التى قدمتها اللغات، لم يتم التوصل إلى تسمية لهذا الشىء.

فى أثناء ذلك، وصل سيبريانو ألجور أخيراً إلى نهاية الشارع، وتحوّل إلى الطريق العام الذى يقسم البلدة فى منتصفها، ليس ماشياً ولا متجرجراً، ليس راكضاً ولا طائراً، كما لو أنه يحلم بأن يتحرر من نفسه ويصطدم طوال الوقت بجسده، وصل إلى أعلى المرتفع؛ حيث كانت الشاحنة تنتظره وفيها صهره وابنته. كانت السماء قد بدت، من قبل، أنها ليست مهيأة لهطول المطر، ومع ذلك، بدأ يتساقط الآن مطر متردد، ربما لم يأت ليستمر طويلاً، ولكنه يزيد من كآبة هؤلاء الأشخاص، الذين تفصلهم لفة عجلة عن أماكنهم المحببة، حتى مرسيال نفسه كان يشعر بأن معدته تعارضه بالقلق. دخل سيبريانو ألجور إلى

www.ibtesamh.com/vb

الشاحنة، جلس إلى جانب السائق، فى المكان الذى تُرك له وقال، هيا بنا. ولن يتفوه بأية كلمة أخرى حتى الوصول إلى المركز، حتى الدخول إلى مصعد الحمولة الذى صعد به مع الحقائب وحزم الأمتعة إلى الطابق الرابع والثلاثين، وحتى فتح باب الشقة، وحتى هتاف مرسيال، ها قد وصلنا، فى هذه اللحظة فقط فتح فمه كى يُصدر بعض الأصوات القليلة المنتظمة، وإن لم يخرج معه شىء من حصاده، فقد اكتفى بأن يكرر، مع إضافة تفخيمية، صحيح، ها قد وصلنا. ومارتا ومرسيال لم يتكلما بدورهما إلا قليلاً خلال الطريق. الكلمات الوحيدة الجديرة بأن تسجل فى هذه القصة، ولو بصورة عرضية محضة، للتنويه بشخصين لم نكد نسمعهما يتكلمان معاً، هى ما قالاه لدى مرور الشاحنة قبالة بيت أبوى مرسيال، هل أخبرتهما بأننا سنذهب اليوم، سألته مارتا، أجل، أول أمس، حين جئت من المركز، بقيت معهما لوقت قصير، وكانت سيارة الأجرة تنتظرنى، ألا تريد التوقف الآن، عادت تسأله، إننى متعب من الجدل، وضَجِر حتى قمة رأسى، حتى وأنت كذلك، ألا تتذكرين كيف تصرفا عندما ذهبنا معاً، أنتِ لا تريدين بالتأكيد أن يتجدد ذلك المشهد، قال مرسيال. هذا محزن، فهما أبواك على كل حال، إنه تعبير مثير للفضول جداً، أى تعبير تعنى، على كل حال، ولكنه يقال هكذا، صحيح، إنها كلمات تبدو للوهلة الأولى ليست أكثر من جملة تزينية لا بد منها بكل المعانى، ولكنها تسبب لنا الخوف حين نبدأ التفكير فيها ونفهم إلى أين تريد الوصول، على

www.ibtesamh.com/vb

كل حال، قالت مارتا، إنها طريقة مواربة أخرى للقول لا مناص، أو ما باليد حيلة، أو لابد مما لا بد منه، أو الاستسلام ببساطة، وهذه هى الكلمة الأقوى، وباختصار، يتوجب علينا على الدوام العيش مع آبائنا، قال مرسيال، وأنهت مارتا، دون نسيان من سيعيش مع الأبوين اللذين سنكونهما. عندئذ نظر مرسيال إلى يمينه وقال، هذا الحديث عن الآباء والأبناء المتخاصمين ليس له أية علاقة بك طبعاً، غير أن سيبريانو ألجور لم يجب، واكتفى بهز رأسه بغموض. ومارتا الجالسة خلف زوجها، كانت ترى أباها جانبياً تقريباً. ما الذى جرى مع إساورا يا ترى، فكرت، لم يكن بالطبع مجرد وصول فقط، وترك لقية عندها والعودة، فالتأخر يعنى أن كلاً منهما قال شيئاً للآخر، لست أدرى ما الذى أنا مستعدة لأن أقدمه مقابل أن أعرف ما الذى يفكر فيه، وجهه يبدو هادئاً، ولكنه فى الوقت نفسه وجه شخص غير واعٍ بالكامل، وجه شخص هرب من خطر ويُفاجأ أنه مازال حياً. وكانت ستعرف أكثر بكثير لو أنها رأت أباها مواجهة، وربما كانت ستقول حينئذ، أعرفُ هذه الدموع التى لا تُذرف وتُستهلك فى العينين، أعرف هذا الألم السعيد، هذا النوع من السعادة المؤلمة، هذه الحالة من الامتلاك وعدم الامتلاك، من الرغبة فى الشىء وعدم القدرة على تحقيقه. ولكن الوقت مازال مبكراً لكى يجيبها سيبريانو ألجور. كانوا قد خرجوا من القرية، وخلفوا وراءهم البيوت الثلاثة المهدمة، وهم يجتازون الآن الجسر القائم فوق نهير مياه قاتمة وكريهة الرائحة.

www.ibtesamh.com/vb

وإلى الأمام، فى منتصف الحقل، حيث تُلمح تلك الأشجار المجتمعة، يقبع كنز آثار مشغل خزف سيبريانو ألجور مختفياً وسط أجمة العُلّيق. يمكن لأى كان أن يقول إن ألف عام قد انقضت منذ أن أفرغ هناك آخر بقايا حضارة قديمة.

عندما نزل مرسيال فى الصباح التالى ليوم عطلته من الطابق الرابع والثلاثين ليبدأ الخدمة كحارس مقيم بكل معنى الكلمة، كانت الشقة مرتبة، نظيفة، والأشياء التى جىء بها من البيت الآخر فى أمكنتها المناسبة، وبانتظار أن يبدأ السكان أيضاً، دون مقاومة، بشغل الأمكنة التى تخصهم. لن يكون ذلك سهلاً، فالشخص يتحرك، يفكر، يسأل، يتشكك، يتحرى، يريد أن يعرف، وإذا كان صحيحاً أنه ينتهى عاجلاً أو آجلاً، مجبراً بعادة الإذعان إلى الخضوع مثل الأشياء، ولا يظنن أحد أن هذا الخضوع يكون نهائياً فى جميع الحالات. المسألة الأولى التى يتوجب على السكان الجدد حلّها، باستثناء مرسيال جاتشو الذى سيستمر فى عمله الروتينى والمعروف بالسهر على أمن الأشخاص والممتلكات المؤسساتية أو المرتبطة آنياً بالمركز، المسألة الأولى، كما قلنا، ستكون العثور على جواب مُرضٍ للسؤال، ماذا سأفعل الآن. مارتا تحمل على كاهلها إدارة البيت، وعندما يحين الموعد سيكون لديها ابن تربيه، وسيكون ذلك أكثر من كافٍ لإبقائها مشغولة خلال ساعات طويلة من النهار وبعض ساعات الليل. ومع ذلك، بما أن الأشخاص، مثلما أشرنا أعلاه، هم ذوات مفكرة فضلاً عن أنهم ذوات فاعلة،

www.ibtesamh.com/vb

فإنه علينا ألا نُفاجأ إذا ما توصلت إلى التساؤل، فى منتصف عمل أخذ منها ساعة من الوقت وسيشغلها لساعتين أخريين، وما الذى سأفعله أنا الآن. ولكن سيبريانو ألجور، على كل حال، هو من يجد نفسه فى مواجهة أسوأ الأوضاع، وضع النظر إلى يديه ومعرفة أنهما لم تعودا تنفعان فى شىء، النظر إلى الساعة ومعرفة أن الساعة التالية ستكون مشابهة لهذه الحالية، والتفكير فى يوم غد ومعرفة أنه سيكون خاوياً مثلما هو اليوم. وسيبريانو ألجور ليس مراهقاً، لا يمكنه قضاء اليوم منبطحاً على سرير لا تكاد تتسع له غرفته الضيقة جداً، والتفكير فى إساورا مادروجا، وتكرار الكلمات التى قالها أحدهما للآخر، وإنعاش - إذا كان بالإمكان إطلاق هذه التسمية الطموحة على عمليات الذاكرة غير المادية - القبلات والمعانقات التى تبادلاها. سيكون هناك أناس يفكرون فى أن أفضل دواء لداء سيبريانو ألجور هو أن ينزل الآن إلى المرآب ويركب الشاحنة ويذهب لزيارة إساورا مادروجا التى لا بد أنها تفكر، هناك بعيداً، بتلهفات مماثلة فى الجسد والروح، وأنه بالنسبة لرجل فى الوضع الذى هو فيه، رجل لم تعد الحياة تحتفظ له بانتصارات صناعية وفنية ذات أهمية من الدرجة الأولى أو الثانية، ومازالت لديه امرأة يحبها وقد اعترفت بأنها تبادله الحب، هو أسمى المباركات والحظوظ. من يقول هذا لا يعرف سيبريانو ألجور. فمثلما كان قد قال لنا إن الرجل لا يطلب من امرأة أن تتزوجه إذا كان لا يملك حتى الوسائل لضمان ما يقيم أوده،

www.ibtesamh.com/vb

وسيقول لنا الآن أيضاً إنه لم يولد ليستغل الظروف المواتية والتصرف كما لو أن له حقاً مزعوماً بالمنافع الناجمة عن ذلك الاستغلال لأنه، فضلاً عن تبريره بالمزايا والخصائص التى تجمله، وجَّه اهتمامه ورغباته كرجل إلى امرأة. وبكلمات أخرى أكثر صراحة ومباشرة، سيبريانو ألجور غير مستعد، ولو كلفه ذاك كل آلام ومرارات الوحدة، لأن يمثل أمام نفسه دور الشخص الذى يزور المعشوقة بصورة دورية ويعود دون أية ذكريات عاطفية سوى أمسية أو ليلة يمضيها فى تهييج البدن وهز المشاعر، مُودِعاً لدى الخروج بقبلة ساهية على وجه فقد مكياجه، ومخلفاً كذلك، فى الحالة الخاصة التى نحن بصددها، مداعبة على رأس كلب والقول له، إلى اللقاء فى المرة القادمة يا لقية. ومع ذلك مازالت لدى سيبريانو ألجور وسيلتان أخريان للهرب من السجن الذى رأى فجأة أن الشقة قد تحولت إليه، كيلا نتحدث عن وسيلة التهدئة البسيطة وقليلة الديمومة المتمثلة فى الاقتراب بين حين وآخر من النافذة والنظر إلى السماء من خلف الزجاج. الوسيلة الأولى هى المدينة، فسيبريانو ألجور الذى عاش طوال الوقت فى القرية التافهة التى لم نكد نتعرف عليها، والذى لم يعرف من المدينة إلا تلك المناطق التى يمر بها فى طريقه، صار بإمكانه الآن تبديد وقته بالتنزه، بالتسكع، بتوفير هواء للريشة، وهذا تعبير مجازى وكاريكاتيرى لا شك فى أنه آت من زمن مضى، عندما كان النبلاء وسادة البلاط يضعون ريشاً على قبعاتهم ويخرجون لشم الهواء بها.

www.ibtesamh.com/vb

وسيجد تحت تصرفه أيضاً حدائق المدينة ومتنزهاتها العامة حيث يجتمع عادة الرجال المتقدمون فى السن مساء، أولئك الرجال ذوو الوجوه والحركات التقليدية التى للمتقاعدين والعاطلين، وهما طريقتان مختلفتان لقول الشىء نفسه. يمكن له أن ينضم إلى أولئك الرجال ويصادقهم، وأن يلعب الورق بحماسة حتى المغيب، إلى أن لا يعود بإمكان عينيه قصيرتى النظر تمييز إذا كان اللعب لا يزال للأوراق الحمراء أم أنه عاد إلى الأوراق السوداء. وسيطلب لعبة الثأر إذا خسر، وسيمنحها إذا كسب، فالقواعد فى الحديقة بسيطة ويمكن تعلمها بسرعة. أما الوسيلة الثانية، ولا حاجة إلى ذكر ذلك، هى المركز نفسه الذى يعيش فيه. إنه يعرفه من قبل، بكل تأكيد، أقل من معرفته المدينة على أى حال، لأنه لم يستطع قط أن يحفظ فى ذاكرته المسارات التى اتخذها فى المرات العديدة التى دخل فيها، بصحبة ابنته على الدوام، لشراء بعض الأشياء. أما الآن، فيمكن القول إن المركز كله صار له، لقد وضعوه له على طبق إيقاع وضوء، ويمكن له أن يتسكع فيه قدر ما يشتهى، وأن يهدى لنفسه الموسيقى السهلة والداعية أحياناً. أجل، عندما جاءوا للتعرف على الشقة، كان بإمكانهم استخدام مصعد فى الجانب المقابل، وخلال الصعود، يمكن لهم فضلاً عن رؤية صالات ومتاجر، وسلالم آلية، ونقاط التقاء، ومقاهٍ ومطاعم جديدة، أن يروا منشآت أخرى لا تقل أهمية وتنوعاً عن تلك الأشياء الأولى، مثلما هى أرجوحة خيول دوارة، أرجوحة دوارة بمركبات

www.ibtesamh.com/vb

فضائية، مركزاً للأطفال، ومركزاً للفتيان، ونفقاً للحب، وجسراً معلقاً، وقطاراً شبحياً، ومركز استشارات تنجيم، ومكتب مراهنات، ومحلاً للرماية، وميدان جولف، ومستشفى فخم، وآخر أقل فخامة، وملعب بولينج، وصالة بيليارد، وخريطة عملاقة، وباباً سرّياً، وباباً آخر عليه إعلان يقول اختبر أحاسيس طبيعية، مطر، رياح، ثلوج على هواك، وسوراً صينياً، وتاج محل، وهرماً مصرياً، ومعبد كرنك، ومجرى مائياً مفتوحاً يعمل أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم، ودير مارفا(*)وبرجاً للكهنة، وخليجاً ضيقاً، وسماء صيف بغيوم بيضاء طافية، وبحيرة، وشجرة نخيل حقيقية، وهيكلاً عظمياً لديناصور، وآخر يبدو حياً، وجبل هيمالايا مع قمة إفرست، ونهر أمازون مع هنود، وطوفاً حجرياً، وحصان طروادة، وكرسياً كهربائياً، وفصيلة إعدام، وملاكاً ينفخ البوق، وقمر اتصالات، ومُذَنَّباً، ومجرة، وقزماً كبيراً، ومارداً صغيراً، وباختصار، قائمة هائلة من الأعاجيب لن تكفى ثمانون سنة من حياة البطالة للتمتع بها، حتى لو أن الشخص قد ولد فى المركز ولم يخرج قط إلى العالم الخارجى.

وباستبعاد تأمل المدينة وسطوحها من وراء نافذتى الشقة بسبب القصور الواضح، وإلغاء إمكانية التردد على المتنزهات والحدائق؛ لأن سيبريانو ألجور لم يصل إلى حالة معنوية يمكن تصنيفها على أنها يأس نهائى

(*) قصرودير مارفا Marfa فى البرتغال انتهى بناؤه فى العام ١٧٣٠ كمحاكاة لقصر وديز الإسكوريال الأسبانى.

www.ibtesamh.com/vb

أو غثيان مطلق، والتخلى عن زيارات التنفيس العاطفى والجسدى المغرية، إنما الإشكالية، لبيت إساورا مادروجا، للأسباب القوية المذكورة آنفاً، لم يبق أمام أبى مارتا، إذا لم يشأ قضاء بقية حياته متثائباً وخبط رأسه، مجازياً، بجدران سجنه الداخلى، سوى الانطلاق فى اكتشاف الجزيرة العجيبة التى نُقل إليها بعد غرق سفينته، وتفحصها بصورة منهجية. وفى الصباح، بعد تناول الفطور، يوجه سيبريانو ألجور إلى ابنته عبارة، إلى اللقاء بتعجل، وكمن هو ذاهب إلى عمله، يصعد أحياناً حتى الطابق الأخير، وينزل فى أحيان أخرى إلى مستوى الأرض، مستخدماً المصاعد وفق حاجته إلى المراقبة، مرة بالسرعة القصوى، ومرة بالسرعة الدنيا، ويتقدم عبر ردهاتٍ وممرات، ويجتاز صالات، ويلتف حول مجمعات فترينات هائلة ومعقدة، ومناضد كونتوار، وصالات عرض، وواجهات مع كل ما هو موجود للأكل والشرب، للبس والانتعال، للشعر والبشرة، للأظفار وللزغب ـ سواء أكان الزغب علوياً أم سفلياً ـ للتعليق بالرقبة، أو التعليق بالآذان، للوضع بالأصابع أو للرنين فى المعاصم، للتركيب أو للفك، للطهو أو للخياطة، للطلى أو نزع الطلاء، للزيادة أو الإنقاص، للتسمين أو التنحيف، للتمديد أو التقليص، للإملاء أو الإفراغ، وذكر هذا كله كأننا لم نذكر شيئاً، لأنه لا يمكن كذلك لثمانين سنة من حياة البطالة أن تكون كافية من أجل قراءة وتحليل الخمسة والخمسين مجلداً، والألف والخمسمئة صفحة فى كل واحد من المجلدات التى تؤلف كتالوج المركز التجارى. مما لا

www.ibtesamh.com/vb

شك فيه أن البضائع المعروضة ليست هى أكثر ما يهم سيبريانو ألجور، كما أن الشراء ليس مسألة من اختصاصه ولا صلاحيته، فهناك من يكسب المال من أجل ذلك، أى الصهر، وهناك بعد ذلك من يتحكم بالمال ويتدبر وينفق، أى ابنته. هو من يمضى ويداه فى جيبيه، متوقفاً هنا وهناك، سائلاً أحد الحراس عن الطريق، وربما مصطدماً به فى بعض الأحيان، ولكن ليس بمرسيال بأى حال، كيلا تظهر ملامح من العلاقة الأسرية بينهما، وخاصة بالاستفادة من أثمن منافع العيش فى المركز وأكثرها إثارة للحسد، ألا وهى الاستمتاع مجاناً أو بأسعار مخفضة، بوسائل الجذب الكثيرة المتوافرة للزبائن. وقد قدمنا عن وسائل الجذب هذه روايتين معتدلتين ومكثفتين، الأولى حول ما يُرى من مصعد هذا الجانب، والثانية حول ما يمكن أن يُرى من مصعد ذاك الجانب، ومع ذلك، وفى سبيل هوس بالموضوعية وصرامة بتقديم المعلومات، علينا أن نتذكر، سواء فى الحالة الأولى أم الثانية، أننا لم نذهب إلى ما هو أبعد من الطابق الرابع والثلاثين. وفوق هذا الطابق، كما نتذكر، يوجد عالم من أربعة عشر طابقاً آخر. ولأن الأمر يتعلق بشخص ذى روح فضولية بصورة معقولة، فلن يكون من الضرورى القول إن أولى خطوات تحرى سيبريانو ألجور ستتوجه إلى الباب السرى الغامض الذى سيظل غامضاً، إذ على الرغم من قرع الجرس اللجوج وبعض الطرقات بالأصابع، لم يظهر أحد من الداخل ليسأله عما يريد. غير أنه كان عليه أن يقدم تفسيرات وتوضيحات كاملة

www.ibtesamh.com/vb

لحارس اجتذبته الضجة أو قادته، وهو الاحتمال الأكبر، صور دراة الفيديو المغلقة فى المركز، جاء ليسأله من يكون وما الذى يفعله فى ذلك المكان. أوضح سيبريانو ألجور أنه يعيش فى الطابق الرابع والثلاثين وأنه أحس، وهو يمر من هناك، باهتمام مبعثه اللوحة المعلقة على الباب، مجرد فضول يا سيدى، مجرد فضول ممن ليس لديه ما يفعله. طلب منه الحارس بطاقة هويته، والبطاقة التى تعتمده كمقيم، وقارن الوجه مع الصورة فى كلتا البطاقتين، تفحص بعدسة مكبرة بصمات الأصابع التى على الوثيقتين، ومن أجل أن ينتهى أخذَ بصمة الإصبع نفسها التى طبعها سيبريانو ألجور، بعد التهيئة اللازمة، على ما يجب أن يكون قارئ الكمبيوتر النقال الذى أخرجه الحارس من جراب يعلقه بكتفه، وهو يقول فى الوقت نفسه، لا تقلق، إنها شكليات، وتقبل منى نصيحة على أى حال، لا ترجع إلى هنا، لأنك تعقد حياتك بذلك، يكفى أن تكون فضولياً مرة واحدة، إضافة إلى أن الأمر لا يستحق الفضول، فلا وجود لشىء سرّى وراء هذا الباب، فى أزمنة أخرى، كان هناك سرّ، أما الآن فلا، إذا كان الأمر كما تقول، لماذا لا يرفعون اللوحة عن الباب، سأله سيبريانو، إنها تنفعنا فى معرفة الأشخاص الفضوليين الذين يعيشون فى المركز. انتظر الحارس ابتعاد سيبريانو ألجور حوالى عشرة أمتار، ثم لحق به إلى أن وجد حارساً زميلاً، وكيلا يتم التعرف عليه، حوّل إليه مهمة المراقبة، ما الذى فعله، سأله الحارس مرسيال جاتشو

www.ibtesamh.com/vb

مدارياً قلقه، كان يقرع الباب السرى، هذا ليس خطيراً، فهو يحدث عدة مرات كل يوم، قال مرسيال وقد اطمأن، أجل، ولكن على الناس أن يتعلموا ألا يكونوا فضوليين، أن يمروا عرضاً ولا يدسوا أنوفهم حيث لم يدعُهم لا أحد، إنها مسألة وقت ومهارة، أو مسألة قوة، قال مرسيال، لم تعد القوة ضرورية، اللهم إلا فى حالات قصوى، وقد كان بإمكانى اعتقاله طبعاً للتحقيق معه، ولكننى وجهت إليه نصيحة مستخدماً الأسلوب النفسى، علىّ أن ألحق به، فقد يفلت منى، قال مرسيال، إذا ما لاحظتَ فيه شيئاً مريباً أخبرنى به كى نضيفه إلى إضبارته ونوقّع عليه كلانا. ذهب الحارس الآخر، أما مرسيال، وبعد أن تابع عن بعد حماه المتسكع حتى طابقين إلى أعلى، توقف عن ملاحقته. كان يسأل نفسه ما إذا كان مناسباً التكلم إليه وتوصيته بتوخى الحذر فى تجواله فى المركز، أو التظاهر بأنه لم يعلم بأمر الحادث الصغير وتمنى ألا يقع آخر أشد خطورة. وكان القرار الذى اتخذه هو هذا الأخير، ولكن عندما أخبره سيبريانو ألجور، أثناء تناول العشاء، بما حدث وهو يضحك، لم يجد بداً من اتخاذ دور الناصح والطلب منه أن يتصرف بطريقة لا تلفت انتباه أحد، سواء الحراس أم غير الحراس، إنها الطريقة الصحيحة الوحيدة فى التصرف لمن يعيشون هنا. عندئذ أخرج سيبريانو ألجور ورقة من جيبه، لقد استنسخت بعض عبارات لوحات الإعلان المعروضة، قال، وأرجو ألا أكون قد لفتُ اهتمام أى جاسوس أو مراقب، وهذا ما أرجوه أنا أيضاً، قال

www.ibtesamh.com/vb

مرسيال باستياء، هل من المريب استنساخ عبارات معروضة ليقرأها الجمهور، سأله سيبريانو ألجور، قراءتها أمر طبيعى، أما استنساخها فلا، وكل ما هو غير طبيعى يثير الريبة بأنه غير طبيعى على الأقل. ومارتا التى كانت معهما، ولم تشارك فى الحديث، طلبت من أبيها، اقرأ العبارات. مسّد سيبريانو ألجور الورقة على المنضدة وبدأ يقرأ، كن جسوراً، واحلم. نظر إلى ابنته وصهره، ولأنه لم يبد عليهما أنهما مستعدان للتعليق، واصل القراءة، عش جرأة الحلم، هذه العبارة تنويع على العبارة الأولى، وتأتى الآن التالية، واحد، اكسب عملياتياً، اثنان، بحار الجنوب فى متناول يدك دون أن تخرج من بيتك، ثلاثة، ليست هذه فرصتك الأخيرة ولكنها الأفضل، أربعة، نفكر طوال الوقت فيك وقد حان الوقت لأن تفكر فينا، خمسة، أحضر أصدقاءك إذا كانوا يشترون، ستة، معنا لن ترغب أبداً فى أن تكون شيئاً آخر، سبعة، أنت أفضل زبائننا، ولكن لا تخبر جيرانك بذلك، هذه العبارة معلقة فى الخارج، على الواجهة، قال مرسيال، وهى الآن فى الداخل، لا بد أنها أعجبت الزبائن، أجاب الحمو، ماذا وجدت أكثر فى مغامرتك الاستطلاعية هذه، سألته مارتا، سوف يغلبك النعاس إذا ما بدأتُ بالكلام، نوّمنى إذاً، أكثر ما أمتعنى هى الأحاسيس الطبيعية، وما هو هذا، عليكِ أن تستخدمى مخيلتك، لا مشكلة فى ذلك، تدخلين قاعة انتظار، تشترين تذكرتك، لم يتقاضوا منى سوى عشرة بالمائة من قيمة التذكرة، فقد حسموا خمساً وأربعين

www.ibtesamh.com/vb

بالمئة لأنى مقيم وحسم آخر مماثل لأن عمرى يزيد على الستين عاماً، يبدو أن تجاوز الستين أمر رائع، قالت مارتا، بالضبط، فكلما ازددت هرماً تكسب أكثر، وعند موتك ستكون ثرياً، وماذا حدث بعد ذلك، سأله مرسيال بنفاد صبر، ألم تدخل هناك قطّ، سأله الحمو مستغرباً، أعرف أن المكان موجود، ولكننى لم أدخله قط، لم يُتح لى الوقت، ليست لديك إذاً أدنى فكرة عما فقدته، إذا لم تخبرنا سأذهب إلى الفراش للنوم، هددت مارتا، حسن، بعد أن تدفعى وبعد أن يقدموا إليك واقياً مطرياً، وقبعة، وجزمة مطاطية، ومظلة، وهذه كلها أشياء ملونة، ويمكنك أيضاً أخذها سوداء، ولكن يتوجب دفع مبلغ إضافى، تنتقلين إلى مقصورة لارتداء الملابس فيأمرك مكبر صوت بانتعال الجزمة، والمعطف المطرى، والقبعة، وبعد ذلك تدخلين فى نوع من الممر حيث يصطف الأشخاص فى صفوف رباعية، ولكن بفاصل كبير فيما بينهم كى يتحركوا براحة، وقد كنا حوالى ثلاثين شخصاً، بعضهم يجربون أول مرة، مثلى، وآخرون بدا لى أنهم يترددون إلى هناك بين حين وآخر، وخمسة على الأقل مجربون تماماً، وقد سمعتُ أحدهم يقول إن هذا مثل مخدر، يجربه المرء ويتعلق به. وماذا بعد ذلك، سألته مارتا، بعد ذلك بدأ المطر، فى البدء بضع قطرات خفيفة، ثم أقوى قليلاً، وجميعنا فتحنا المظلات، وعندئذ أصدر مكبر الصوت الأمر بأن نتقدم، لا يمكن وصف ذلك، لا بد للمرء من أن يكون قد عاشه، بدأ المطر يهطل طوفانيًا، وفجأة هبت ريح، جاءت فى هبة

www.ibtesamh.com/vb

قوية، ثم أخرى، هناك مظلات انقلبت، وقبعات طارت عن الرؤوس، والنساء كن يصرخن كيلا يضحكن، والرجال يضحكون كيلا يصرخوا، والرياح تزداد قوة، إنه إعصار، الأشخاص يقطرون ماء، يسقطون أرضاً، ينهضون، ويعودون للسقوط، والمطر يشكل سيلاً، احتجنا إلى عشر دقائق لاجتياز ما أُقدر أنها عشرون أو ثلاثون متراً، وبعد ذلك، سألته مارتا متثائبة، بعد ذلك رجعنا إلى الخلف وفى الحال بدأ الثلج، فى البدء ندف متفرق يبدو كألياف قطن، كانت تسقط أمامنا كستارة تكاد لا تسمح لنا برؤية زملائنا، وكانت مظلات بعضهم لا تزال مفتوحة دون أن تنفع فى شىء سوى عرقلة الحركة، وأخيراً وصلنا إلى مقصورة استبدال الملابس وكانت هناك شمس ساطعة بديعة، شمس فى مقصورة استبدال الملابس، تشكك مرسيال، لم تكن مقصورة عندئذ وإنما نوع من البرِّيَّة، وكانت تلك هى الأحاسيس الطبيعية، سألته مارتا، أجل، لا وجود فيها لما لا يحدث خارجاً كل يوم، كان هذا هو تعليقى بالضبط عندما كنا نعيد المواد، وكان من الأفضل لى أن أظل صامتاً، لماذا، لأن أحد المجريين نظر إلىّ باستخفاف وقال كم تحزننى، لأنك لن تفهم أبداً. بدأت مارتا رفع المائدة بمساعدة زوجها. غداً أو بعد غد سأذهب إلى الشاطئ، أعلن سيبريانو ألجور، لقد ذهبتُ إلى هناك مرة، قال مرسيال، وكيف هو، من النوع التروبيكالى، الحر شديد والماء فاتر، وماذا عن الرمل، لا يوجد رمل، بل محاكاة للرمل من البلاستيك، ولكنه يبدو حقيقياً من

www.ibtesamh.com/vb

بعيد، ولا وجود لأمواج بالطبع، إنك مخطئ، لديهم آلية لإحداث أمواج كما البحر، ليس صحيحاً، بل هو صحيح، يا للأشياء التى يمكن للبشر اختراعها، أجل، قال مرسيال، وهذا محزن بعض الشىء. نهض سيبريانو ألجور، دار دورتين حول نفسه، طلب من ابنته أن تعطيه كتاباً وعندما كان على وشك الدخول إلى حجرته قال، لقد كنتُ هناك تحت، لم تعد الأرض تهتز، ولا يُسمع ضجيج حفارات، فرد مرسيال، لا بد أنهم أنهوا العمل.

www.ibtesamh.com/vb

كانت مارتا قد اقترحت على زوجها أن يستغلوا أول يوم عطلة قادم له منذ أن جاءوا للعيش فى المركز للذهاب إلى بيت مشغل الخزف من أجل جلب بعض الأشياء التى اشتاقت إليها على حدّ قولها، عند الانتقال يؤخذ عادة كل ما يملكه المرء، ولكن هذه ليست حالتنا، بل أكثر من ذلك، إننى مقتنعة بأننا سنضطر إلى الذهاب مرات أخرى، ولهذا الأمر، فى العمق، بعض الظرافة، يمكننا قضاء الليل فى سريرنا والعودة فى صباح اليوم التالى، مثلما كنتَ تفعل من قبل. وأجاب مرسيال بأنه لا يرى من المناسب خلق وضع ينتهون فيه إلى عدم معرفة أين يعيشون حقاً، أبوكِ يحاول إشعارنا بأنه يستمتع جداً باكتشاف أسرار المركز، ولكننى أعرفه، فوراء ذلك الوجه مازال الرأس يعمل، لم يخبرنى بكلمة واحدة مما جرى فى بيت إساورا، لقد انغلق تماماً، وليست هذه عادته، فبطريقة أو بأخرى، حتى وهو ساخط، ينتهى على الدوام إلى فتح ما فى قلبه لى ولو بأسلوب فظ، وأظن أن ذهابنا إلى البيت قد يساعده، من المنطقى

www.ibtesamh.com/vb

أنه يريد أن يرى كيف هو لقية، وسيتبادل الحديث مرة أخرى معها، لا بأس، إذا كانت هذه هى فكرتك، فسوف نذهب، ولكن تذكرى ما أقوله لك، إما أن نعيش هنا أو نعيش فى مشغل الخزف، فمحاولة العيش فى المكانين كما لو أنهما مكان واحد سيكون كالعيش دون أى مكان، ليت الأمر يكون كذلك بالنسبة لنا، يكون كذلك، كيف، أن نعيش فى اللامكان، جميع الناس بحاجة إلى منزل، ونحن لسنا استثناءً، لقد انتزعوا منا البيت الذى كان لنا، مازال لنا، ولكن ليس مثلما كان فى السابق، بيتنا الآن هو هذا. نظرت مارتا فى ما حولها وقالت، لا أظن أنه سيكون كذلك أبداً. هز مرسيال كتفيه، وفكر فى أن آل ألجور هؤلاء أناس يصعب فهمهم، ولكن حتى وهم كذلك لن يستبدلهم بأى شىء فى الدنيا. هل سنخبر أباكِ، سنخبره فى اللحظة الأخيرة فقط، كيلا يبدأ بالتحرق لهفة ويتسمم دمه.

لم يتوصل سيبريانو ألجور إلى معرفة أن ابنته وصهره قد أعدا مشروعاً له. فيوم عطلة مرسيال جرى إلغاؤه، وحدث الشىء نفسه لزملائه فى الوردية. فبتكتم مطلق، أُطلع الحراس المقيمون، هم وحدهم، لأنهم يُعتبرون جديرين بمزيد من الثقة، على أن أعمال التهيئة لبناء مستودعات التبريد الجديدة قد أخرجت إلى النور فى الطابق صفر ـ خمسة شيئاً يتطلب تقصياً حذراً ومتأنياً، منذ الآن صار الدخول إلى المكان محظوراً، قال قائد الحراس، وخلال بضعة أيام

www.ibtesamh.com/vb

سيبدأ فريق مختلط من الاختصاصيين بالعمل هناك، سيكون بينهم جيولوجيون، وعلماء آثار، وسوسيولوجيون، وانثروبولوجيون، وأطباء، وقانونيون، وتقنيو إعلان، بل قيل لى إنه سيكون ضمن الجماعة فيلسوفان، لا تسألونى لماذا. توقف قليلاً، ومرّ بعينيه على العشرين رجلاً المصطفين أمامه، ثم واصل، **من** الممنوع التكلم مع أى كان حول ما أخبرتكم به أو ما ستتوصلون إلى معرفته مستقبلاً، وعندما أقول مع أى كان فإن أياً كان يعنى الزوجة، الأبناء، الآباء، سرية تامة ومطلقة هى ما أطالبكم بها، مفهوم، **مفهوم** يا سيدى، ردّ الرجال فى جوقة، **حسن**، المدخل إلى المغارة، وقد نسيت أن أخبركم أن المسألة تتعلق بمغارة، المدخل موجود فى الطابق صفر ـ خمسة، وسيُحرس ليلاً ونهاراً، دون انقطاع، فى نوبات من أربع ساعات، وعلى هذه السبورة تستطيعون رؤية ترتيب نوبات الحراسة، الساعة الآن الخامسة مساء، وفى الساعة السادسة سنبدأ. رفع أحد الرجال يده، يريد أن يعرف، إذا كان ذلك ممكناً، متى تم اكتشاف المغارة ومن كان يحرسها منذ ذلك الحين، **سنكون** مسئولين عن الأمن منذ الساعة السادسة، قال، وبالتالى لا يمكن تحميلنا مسئولية أى خطأ يمكن أن يكون قد حدث قبل ذلك، **مدخل** المغارة اكتُشف هذا الصباح بينما كان يجرى قلب التراب يدوياً، فأُوقف العمل فوراً وجرى إخبار الإدارة، ومنذ تلك اللحظة ظل ثلاثة مهندسين من الإدارة فى المكان طوال الوقت، هل يوجد شىء داخل المغارة، أراد حارس آخر

www.ibtesamh.com/vb

أن يعرف، أجل، أجابه القائد، ستتاح لكم الفرصة لرؤية ما هو موجود بأم أعينكم، أهو خطير، وهل من المناسب أن نذهب مسلحين، سأل الحارس نفسه، مما عُرف حتى الآن، لا وجود لأى خطر، ومع ذلك، وعلى سبيل الاحتياط، عليكم عدم اللمس أو الاقتراب كثيراً، فنحن نجهل النتائج التى قد يسفر عنها اللمس، علينا أم على ما هو موجود هناك، تجرأ مرسيال على السؤال، على الجانبين، وهل توجد أكثر من مغارة واحدة، أجل، قال القائد، وصمت وجهه عن أى تعبير. وبعد ذلك، كما لو أنه بذل جهداً ليتغلب على نفسه، واصل قائلاً، والآن، إذا لم تعد لديكم أسئلة تطرحونها، فخذوا فى اعتباركم ما يلى، فى المقام الأول، بالنسبة للتساؤل حول ذهاب الحارس مسلحاً أو غير مسلح، أرى أنه يكفى حمل الهراوة، ليس لأننى أفكر فى أنكم قد تضطرون إلى استخدامها، وإنما لتشعروا بأنكم أشد عزيمة، فالهراوة هى جزء أساسى من الزىّ، ومن دونها يشعر الحارس الذى بالزى الرسمى أنه عارٍ، وفى المقام الثانى، من لا يكون فى نوبة الحراسة عليه أن يرتدى الزى المدنى ويجول بين الطوابق كلها بهدف التنصت إلى الأحاديث التى لها علاقة أو يبدو أن لها شيئاً من العلاقة بالمغارة، فإن حدث ذلك، بالرغم من أن هذا الاحتمال غير قائم عملياً، يجب إخبار خدمة الأمن المركزية فوراً لاتخاذ الاحتياطات اللازمة. توقف القائد عن الكلام قليلاً، ثم انتهى إلى القول، هذا هو كل ما تحتاجون إلى معرفته، وأكرر مرة أخرى، انتبهوا إلى الشعار، السرية

www.ibtesamh.com/vb

المطلقة، فحياتكم المهنية هى التى فى اللعبة. اقترب الحراس من السبورة حيث وُزعت ورديات الحراسة، ورأى مرسيال أن ترتيبه التاسع، وبالتالى سيكون فى الحراسة بين الساعة الثانية فجراً والسادسة من صباح يوم بعد غد. هناك تحت، على عمق ثلاثين أو أربعين متراً، لن يُلحظ الفرق بين النهار والليل، والحقيقة أنه لن يكون هناك سوى ظلمات يقطعها ضوء جاف من الكشافات ومن أضواء الموقع. وبينما المصعد يحمله إلى الطابق الرابع والثلاثين، كان يفكر فيما يمكنه أن يقوله لمارتا دون أن يُخل كثيراً بالتعهد الذى التزم به، بدا له المنع مطلقاً، فمن حق الشخص، بل من واجبه أيضاً أن يثق بأسرته، ومع ذلك، ليست هذه إلا نظريات، ومهما قلّب الأمر لن يجد مفراً من الانصياع للأوامر، فالأوامر هى الأوامر. لم يكن حموه فى البيت، إنه يمضى فى جولاته الاستكشافية كطفل فضولى، فى البحث عن مغزى الأشياء، وبمكر كافٍ للعثور عليها مهما كانت خفية. قال لمارتا أن مواعيد خدمته قد تبدلت مؤقتاً، وأنه سيذهب الآن بملابس مدنية، ولن يكون ذلك بصورة دائمة، وإنما لبضعة أيام فقط. سألته مارتا لماذا وأجابها بأنه غير مخول بقول ذلك، وإنه أمر سرّى، وبرر موقفه، لقد أعطيتُ كلمة شرف، ولم يكن ذلك صحيحاً، فالقائد لم يطلب منه أن يلتزم بكلمة شرف، إنها صيغ زمن آخر وعادات أخرى تخرج معنا بين حين وآخر دون تفكير، مثلما يحدث مع الذاكرة التى لديها مما تعطينا أكثر من القليل الذى نطلبه منها. لم تجب مارتا، وفتحت

www.ibtesamh.com/vb

الخزانة وأخرجت عن المشجب إحدى بدلات زوجها، أظن أن هذه تنفعك، قالت، إنها تنفعنى تماماً، قال مرسيال سعيداً؛ لأنه متفق معها فى مثل هذه النقطة المهمة. فكر فى أنه من الأفضل أن يخبرها بما تبقى، وأن يحلّ المسألة دفعة واحدة، فلو أنه كان محل الزميل الذى سيدخل الحراسة بعد قليل لكان يتصل بمارتا فى هذه اللحظة بالذات، لدى خدمة من الساعة السادسة حتى العاشرة، لا تسألينى شيئاً، إنه سر، هذه العبارة تنفع، ويكفى أن يبدل الساعة واليوم، لدى خدمة بعد غد، منذ الثانية فجراً حتى السادسة صباحاً، لا تسألينى شيئاً، إنه سر. نظرت إليه مارتا مأخوذة، فى هذا الوقت يكون المركز مغلقاً، حسن، لن تكون الخدمة فى المركز تحديداً، ستكون خارجه إذاً، فى الداخل، ولكن ليس فى المركز، لا أفهمك، أفضلُ ألا توجهى إلىّ أسئلة، أنا أقول فقط إننى لا أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك، فى آن واحد، داخل مكان وخارجه، سيكون ذلك فى الحفريات المخصصة لمستودعات التبريد، ولكننى لن أخبرك بأكثر من ذلك، هل وجدوا بترولاً، أم منجم ماس، أم الحجر الذى يشير إلى سرّة العالم، سألته مارتا، لا أعرف ما الذى وجدوه، ومتى ستعرف، عندما تأتى نوبة حراستى، أو عندما تسأل زملاءك الذين ذهبوا قبلك، لقد حظروا علينا الكلام فى الموضوع فيما بيننا، قال مرسيال وهو يحرف بصره لأن كلماته هذه لا تستحق أن تسمى حقيقية، ولكنها قد تكون كذلك بفهم مصلحى لأوامر القائد وتوصياته، فهم يستند إلى

www.ibtesamh.com/vb

الصعوبات البلاغية التى فرضتها المناسبة، **يبدو** أنه سرّ كبير، قالت مارتا، **أجل**، يبدو أنه كذلك، تنازل مرسيال بقول ذلك بينما هو يحاول أن يضبط بقلق مبالغ فيه معصمى القميص ليظهرا بمقاس دقيق من تحت كمى السترة. وقد بدا وهو بملابسه المدنية أكبر سناً مما هو عليه فعلاً. **هل** ستأتى لتناول العشاء؟ سألته مارتا، **ليست** لدى أية أوامر معاكسة، ولكننى سأتصل إذا تعذر على المجىء. خرج قبل أن يخطر لزوجته توجيه أسئلة أخرى، وكان يشعر بالراحة؛ لأنه استطاع الهرب من فضولها اللجوج، ولكنه كان مستاء فى الوقت ذاته لأن التحفظ لم يكن، من جانبه، أسلوب الوفاء الذى يُنصح به، **لقد** كنتُ وفياً، أجل يا سيدى، برر نفسه أمام نفسه، فمنذ البدء نبهتها إلى أن الأمر سرى. وعلى الرغم من الحمية والمسوغ اللذين يساندان تبريره، إلا أن مرسيال لم يتوصل إلى إقناع نفسه. وعندما رجع سيبريانو ألجور إلى البيت بعد ساعة من ذلك، وقبل أن يتمكن من استرداد تماسكه بعد رعب القطار الشبح، سألته مارتا، **هل** رأيت صهرك، **لا**، لم أره، **لو** أنكَ رأيته فربما لن تستطيع التعرف عليه، **لماذا**، **جاء** لاستبدال ملابسه، وهو يقوم بالحراسة الآن بملابس مدنية، **كيف** ذلك، إنها الأوامر التى تلقاها، **الحراسة** بالملابس المدنية ليست حراسة، وإنما تجسس، أصدر الأب حكمه. وأخبرته مارتا بما تعرفه، وهو لا شىء تقريباً، ولكنه كان كافياً لأن يشعر سيبريانو ألجور بتبخر اهتمامه بنهر الأمازون وهنودهِ حيث كان يفكر

www.ibtesamh.com/vb

أن يذهب فى اليوم التالى. هـذا غريب، منذ البدء راودنى هاجس بأن شيئاً يُحضر له هنا، مـا الذى تعنيه بقولك منذ البدء، سألته مارتا، هـذه الأرض التى أحسستُ بها تهتز وضجة آلات الحفر، هل تتذكرين، عندما جئنا لرؤية الشقة، سنكون فى ورطة إذا ما تملكتنا الهواجس فى كل مرة نسمع فيها آلة حفر تعمل، مثل ضجة ماكينة الخياطة تلك التى كنا نظن أننا نسمعها فى جدار المطبخ، وكانت أمى تقول إنها إشارة إلى عذاب أبدى لخيَّاطة، يا للمسكينة، لاقترافها خطيئة العمل يوم الأحد، ولكن يبدو أننى أصبت تماماً هذه المرة، يـبدو ذلك، قالت مارتا مكررة كلمات قالها زوجها، وقال سيبريانو آلجور، فـلنر ما الذى سيخبرنا به عندما يأتى. لم يعرفا المزيد. فقد اقتصر مرسيال على الإجابات التى كان قد قدمها، كررها مرة بعد أخرى، وقرر أخيراً وضع نقطة نهاية للمسألة، سـأكون أول من يعترف، إذا ما ألححتم، بأن الأمر هو ترهة، ولكنه الأمر الذى تلقيته، ولا أريد مزيداً من الكلام فى الموضوع، أخبرنا على الأقل لماذا تحولت فجأة إلى القيام بالدورية بالملابس المدنية، طلب الحمو منه، نـحن لا نقوم بدوريات، بل نسهر على أمن المركز، ولا شىء غير ذلك، حـسن جداً، فليكن، لـيس لدى ما أضيفه، وأرجوكَ أن تكف عن الإلحاح، قاطعه مرسيال غاضباً. نظر إلى امرأته كما لو أنه يسألها عن سبب صمتها، ولماذا لا تدافع عنه، فقالت هى، مـرسيال على حق يا أبت، فلا تلح، ثم توجهت إلى زوجها وقالت بينما هى تقبّله من جبهته،

www.ibtesamh.com/vb

المعذرة، فنحن آل ألجور أفظاظ بعض الشيء. شاهدوا بعد العشاء برنامجاً تليفزيونياً تبثه قناة المركز الداخلية، وتقتصر مشاهدته على المقيمين، وبعد ذلك انسحبوا إلى غرفتى نومهم. وأعادت مارتا الاعتذار فى الغرفة مطفأة الأنوار، فقبّلها مرسيال، وإذا كان لم يتابع بقبلة ثانية وثالثة فلأنه أدرك فى الوقت المناسب أنه، بالسير فى هذا الطريق، سينتهى إلى إخبارها بكل شيء. أما سيبريانو ألجور الذى كان يجلس فى سريره، والنور مضاء، فظل يفكر ويعيد التفكير لينتهى إلى أنه عليه أن يكتشف ما يجرى فى أعماق المركز، وأنه إذا كان هناك باب سرى آخر، فلا يمكن لهم فى هذه المرة على الأقل أن يقولوا له إنه لا وجود لشيء فى الجانب الآخر. معاودة ملاحقة مرسيال لا تستحق العناء، فضلاً عن أنهما يظلمان بذلك الشاب المسكين، فإذا كان قد تلقى أوامر وقام بتنفيذها، يتوجب تهنئته على ذلك وليس إخضاعه لأساليب الابتزاز العاطفى المختلفة التى يبرع الأقارب بها، إننى حموكَ، وأنت صهرى، أخبرنى بكل شيء، وفكّرَ، مارتا محقة، فنحن آل ألجور شديدو الفظاظة. سيتخلى عن الذهاب غداً إلى نهر الأمازون والهنود وسيعكف على ذرع المركز من أقصاه إلى أقصاه مصغياً إلى أحاديث الناس. فأى سرّ، من حيث الجوهر، هو أشبه إلى هذا الحد أو ذاك بالرقم السرى لصندوق خزنة، فمع أننا لا نعرفه إلا أننا نعرف أنه مكوّن من ستة أعداد، ومن المحتمل أن يتكرر واحد منها أو أكثر، ومهما كانت الاحتمالات

www.ibtesamh.com/vb

كثيرة ومتنوعة إلا أنها ليست لانهائية. والمسألة، كما فى كل شئون الحياة، هى مسألة وقت وصبر، فكلمة من هنا، وكلمة أخرى من هناك، وشىء مضمر، وتبادل نظرات، وصمت مفاجئ، هى شروخ صغيرة متفرقة تأخذ بفتح ثغرة فى الجدار، فن التقصى هو فى معرفة التقرب منها، فى إلغاء الفواصل التى بينها، وستأتى على الدوام لحظة نتساءل فيها عما إذا لم يكن حلم الأسرار وطموحها وأملها السرى هو، فى نهاية المطاف، احتمال ألا تبقى كذلك، ولو بصورة غامضة ونائية. خلع سيبريانو ألجور ثيابه، وأطفأ النور، وظن أنه سيقضى الليل مؤرقاً، ولكنه استغرق بعد خمس دقائق فى نوم عميق وخال من الأحلام، حتى أنه ما كان لإساورا نفسها أن تتمكن من التقصى عن البوابة الأخيرة التى أغلقها فى أعماقه.

عندما خرج سيبريانو ألجور من حجرة النوم متأخراً عن موعده المعهود، كان الصهر قد ذهب إلى العمل. حيا ابنته تحية الصباح وهو لا يزال ناعساً، وجلس ليتناول الفطور، وفى هذه اللحظة رنّ الهاتف. ذهبت مارتا لترد ورجعت بسرعة، **مكالمة لكَ**. طفر قلب سيبريانو ألجور، **لى**، من الذى يمكن له أن يتصل بى، سأل وهو متأكد تماماً من أن ابنته ستجيبه، إنها إساورا، ولكن ما قالته كان، إنها مكالمة من قسم المشتريات، من أحد معاونى المدير. وفى حيرة بين خيبة أمله من أن المكالمة ليست آتية ممن يرغب فيها، وراحته لأنه لن يكون مضطراً إلى تقديم

www.ibtesamh.com/vb

تفسير لابنته عن سبب هذه الحميمية مع الجارة، وإن كان علينا ألا ننسى أنه يمكنه القول ببساطة إن الأمر يتعلق بلقية، حزنه للفراق مثلاً. توجه سيبريانو ألجور إلى الهاتف، وعرّف بنفسه وبعد قليل كان يرد عليه من الجانب الآخر للخط معاون المدير اللطيف، **لـ**قد كانت مفاجأة لى معرفة أنك قد جئت للعيش فى المركز، مثلما ترى، ليس الشيطان وراء الباب دوماً، هذا قول قديم ولكنه أكثر صحة بكثير مما نتصور، **هـ**ذا هو الواقع، قال سيبريانو ألجور، **سـ**بب هذه المكالمة هو الطلب إليك أن تمر عندنا بعد ظهر اليوم لتقبض ثمن الدمى، أية دمى؟ الثلاثمائة دمية التى سلّمتها إلينا من أجل عملية السبر، ولكن تلك الدمى لم تُبع، وبالتالى لا وجود لما يمكن أن أقبضه، **سـ**يدى العزيز، قال معاون المدير بتذلل غير متوقع فى صوته، اسمح لنا أن نكون نحن القضاة فى هذه المسألة، ولك أن تعرف أنه على الرغم من أن دفع مبلغ يمثل خسارة تزيد على المئة بالمئة، مثلما هو الأمر فى هذه الحالة، إلا أن المركز يصفى حساباته دوماً، إنها مسألة أخلاق، وبما أنك صرت تعيش معنا الآن، فسوف تبدأ فهم ذلك بصورة أفضل، إننى متفق معك، ولكننى لا أفهم لماذا ترتفع الخسارة إلى ما يزيد على مئة بالمئة، **عـ**دم التفكير فى هذه الأمور هو الذى يؤدى بالاقتصاديات الأسرية إلى الدمار، من المؤسف أننى لم أعرف ذلك من قبل، **سـ**جل عندك، أولاً سوف ندفع ثمن الدمى كاملاً حسب الفواتير المحررة، دون إنقاص سنتيم واحد، **حـ**تى هنا أستطيع الفهم، ثانيًا

www.ibtesamh.com/vb

سيكون علينا، بكل تأكيد، أن ندفع تكاليف عملية السبر، هذا يعنى المواد المستخدمة، والأشخاص الذين حللوا المعطيات، والوقت المستخدم فى العملية، ولو فكرتَ فى أن تلك المواد وأولئك الأشخاص وذلك الوقت وكل ما استُخدم فى السبر كان يمكن أن يُستخدم فى مهمات ذات مردود، لما احتجت إلى ذكاء كبير للتوصل إلى نتيجة أن فى الأمر خسارة تفوق المئة بالمئة، مع الأخذ فى الاعتبار ما لم يُبع وما أُنفق للتوصل إلى أنه يتوجب علينا عدم بيعه، **يؤسفنى** أننى تسببت بكل هذه الأضرار للمركز، إنها رهانات المهنة، أحياناً تخسر، وأحياناً تكسب، والقضية لم تكن خطرة على أى حال، إنها مجرد صفقة صغيرة، فقال سيبريانو ألجور، **يمكن** لى أن أستحضر هواجسى الأخلاقية أيضاً لأرفض قبض المال عن عمل امتنع الناس عن شرائه، ولكن من المناسب لى قبض هذه النقود، **هذا** مسوغ جيد، بل هو أفضل المسوغات، **سأمر** عليكم بعد الظهر، **لا** حاجة بك إلى السؤال عنى، اذهب مباشرة إلى الصندوق، هذه هى العملية التجارية الأخيرة التى نجريها مع مؤسستك المنقرضة، ونريد أن تحتفظ عنا بأفضل الذكريات، **شكراً** جزيلاً، واستمتع الآن بما تبقى من حياتك، فأنت فى المكان المثالى لذلك، **هذا** ما بدا لى أيضاً يا سيدى، انتهز ضربة الحظ هذه، إننى أفعل ذلك. أغلق سيبريانو ألجور الهاتف، **سيدفعون** لنا ثمن الدمى، قال، لم نخسر كل شىء. أومأت مارتا بإشارة من رأسها يمكن لها أن تعنى أى شىء، الموافقة، عدم

www.ibtesamh.com/vb

الموافقة، اللامبالاة، وانسحبت إلى المطبخ. ألا تشعرين بأنك على ما يرام، سألها أبوها وهو يطل من الباب، قليل من التعب فقط، لا بد أنه الحبل، أراكِ خامدة الهمة، عليكِ أن تسلى نفسك، القيام بجولة خارجاً، مثلك، أجل مثلى، هل يروقكَ كثيراً كل ما هو فى الخارج، سألته مارتا وأضافت، فكر مرتين قبل أن تجيب على سؤالى، يكفى أن أفكر مرة واحدة، لا يروقنى أى شىء، إننى أتظاهر وحسب، تتظاهر أمام نفسك بالطبع، لقد صرتِ كبيرة بما يكفى لتعرفى أنه لا وجود لطريقة أخرى، حتى لو بدا غير ذلك، فنحن لا نتظاهر أمام الآخرين، بل نتظاهر أمام أنفسنا، يسعدنى سماع ذلك من فمك، لماذا؟ لأنكَ تؤكد ما كنت أفكر فيه عنك فى مسألة إساورا مادروجا، لقد تبدل الوضع، وهذا يزيد من سعادتى، سأتكلم عندما تحين الفرصة، فأنا الآن مثل مرسيال، فم مطبق.

حملة سيبريانو ألجور التنصتية لم تعط أية نتيجة، وبعد ذلك، أثناء تناول الغداء، وبنوع من الاتفاق المضمر، لم يحاول أى من الثلاثة مقاربة مسألة الحفريات الحساسة وما عُثر عليه هناك. خرج الحمو والصهر فى آن واحد، وذهب مرسيال ليعاود عمله فى التنصت والتجسس، ربما دون نتيجة، مثلما كان الأمر لكليهما فى الفترة الصباحية، وذهب سيبريانو ألجور ليسأل، أول مرة، كيف يمكنه الوصول إلى قسم المشتريات من داخل المركز. لاحظ أن علامته الفارقة

www.ibtesamh.com/vb

كمقيم، وكذلك الصورة وخاتم الإصبع الإبهام، تمنحه بعض التسهيلات فى التحرك، عندما أشار له الحارس الذى سأله إلى الطريق كما لو أنه أسهل أمر فى العالم، اذهب عبر هذا الممر، فى خط مستقيم، وحين تصل إلى نهايته تابع الإشارات، ولن تضل الطريق. كان فى الطابق الأرضى، وكان عليه فى مكان من طريقه أن ينزل إلى القبو، حيث كان يأتى، فى أزمنة أكثر سعادة ـ وهذا حكم لا يشاركه فيه معاون المدير اللطيف بكل تأكيد ـ ليُسلّم بضاعته من الأطباق والفناجين الخزفية. سهمُ دلالة وسلّم آلى أشارا إليه من أين عليه الذهاب. إننى أنزل، فكر، إننى أنزل، إننى أنزل، كرر، ثم فكر بعد ذلك، يـا للحماقة، إننى أنزل بالطبع، فهذا ما تُستخدم فيه السلالم عندما لا تُستخدم فى الصعود، فمن يكونون فى مصعد، حين لا ينزلون، يصعدون، ومن لا يصعدون، ينزلون. بدا أنه توصل إلى نتيجة لا جدال فيها، من تلك التى لا يوجد لها أية إجابة منطقية محتملة. وبصورة مفاجئة، كما فى وميض البرق وسرعته، مرَّ فى ذهنه تفكير آخر، النزول، النزول إلى هناك. أجل، النزول إلى هناك. القرار الذى توصل سيبريانو ألجور إلى اتخاذه للتو هو أنه سيحاول هذه الليلة النزول إلى حيث يقوم مرسيال بحراسته، ما بين الساعة الثانية فجراً والسادسة صباحاً، وهذا أمر يجب ألا ننساه. ولكن الحس السليم والحذر اللذين لهما فى هذه الأحوال على الدوام كلمة يقولانها، كانا يسألانه كيف

www.ibtesamh.com/vb

يتصور أنه سيصل، دون معرفته الدروب، إلى مكان بمثل ذلك الخفاء، وأجاب هو بأن توليفات الأرقام السرية وتركيب أجزاء المصادفات، على الرغم من أنها كثيرة جداً بالفعل، إلا أنها ليست بلا نهاية، ومن الأفضل لنا أن نجازف بالصعود إلى شجرة التين فى محاولة للوصول إلى الثمرة بدل الاستلقاء فى ظل الشجرة وانتظار أن تسقط ثمرة التين فى فمنا. سيبريانو ألجور الذى مَثُل فى صندوق قسم المشتريات بعد أن ضلّ الطريق مرتين، بالرغم من مساعدة الأسهم ولوحات الدلالة، لم يكن هو نفسه ذاك الذى اعتدنا على معرفته. وإذا كانت يداه قد ارتعشتا كثيراً فليس السبب هو استثارة بائسة لكونه يقبض مقابل عمله نقوداً لم تكن فى حسبانه، وإنما لأن أوامر العقل المشغول الآن بأمور أكثر أهمية وتوجيهاته تصل متفرقة، مشوشة، مناقضة للنهايات الخاصة بكل منها. عندما رجع إلى المنطقة التجارية فى المركز بدا أكثر اطمئناناً بقليل، فقد انتقل الهياج إلى الجانب الداخلى. لقد تخلص من القلق بيديه، وصار الدماغ يحوك بصورة متوالية حيلاً، مراوغات، استراتيجيات، مكايد، دهاءات، والوصول إلى حد إمكانية اللجوء إلى التحريك عن بُعد من أجل نقل هذا الجسد نافد الصبر الذى يتكلف مشقة فى التحكم به، فى لحظة واحدة، من الطابق الرابع والثلاثين إلى منطقة الحفريات الغامضة. ومع أن ساعات طويلة من الانتظار مازالت أمامه، إلا أن سيبريانو ألجور قرر العودة إلى البيت. أراد أن يعطى

www.ibtesamh.com/vb

ابنته النقود التى تلقاها، ولكنها قالت له، احتفظ بها لك، فأنا لست بحاجة إليها، ثم سألته، أتريد قهوة، أجل، هذه فكرة جيدة. صُنعت القهوة، وسُكبت فى فنجان، وشُربت، وكان كل شىء يشير إلى أنه لن يكون كلام بينهما الآن، ويبدو، كما فكر سيبريانو ألجور أحياناً، مع أننا لم نسجل تلك الأفكار فى حينها، يبدو أن هذا البيت، هذا الذى يعيشون فيه الآن، يتمتع بالموهبة الخبيثة فى إسكات الناس. وبالرغم من ذلك، فإن دماغ سيبريانو ألجور الذى اضطر إلى التخلى عن وسيلة التحريك عن بعد، لقصور فى المهارة الكافية، يحتاج بالضرورة إلى معلومة محددة ستتحول من دونها خطة غارته الليلية إلى مجرد هباء. ولهذا وجه السؤال بينما هو يتظاهر بالشرود ويحرك بالملعقة بقايا القهوة المتبقية فى الفنجان، أتعرفين على أى عمق توجد الحفريات، لماذا تريد معرفة ذلك، مجرد فضول، لا شىء أكثر، لم يتكلم مرسيال عن هذا الأمر. أخفى سيبريانو ألجور ضيقه بأفضل ما استطاع وقال إنه سيذهب لينام قيلولة. أمضى فترة بعد الظهر كلها فى حجرته، ولم يخرج إلا عندما استدعته ابنته لتناول العشاء، وكان مرسيال قد جلس إلى المائدة. ومثلما حدث عند الغداء، لم يَدُر أى حديث عن الحفريات إلا عند الانتهاء من تناول العشاء، وكان ذلك حين اقترحت مارتا على زوجها، عليك أن تنام حتى موعد النزول، لأنك ستمضى الليل مستيقظاً، فأجابها الزوج، مازال الوقت مبكراً جداً، ولا أشعر بالنعاس، عندئذ انتهز سيبريانو ألجور

www.ibtesamh.com/vb

فرصة التراخى غير المتوقع، وكرر سؤاله، على أى عمق توجد هذه الحفريات؟ لماذا تريد معرفة ذلك؟ لتكوين فكرة، مجرد فضول. تردد مرسيال قبل أن يجيب، وحين بدا له أن المعلومة لا تشكل جزءاً من مجموعة المعلومات السرية الصارمة، قال أخيراً، يُدخل إليها عبر الطابق صفر - خمسة، ظننتُ أن آلات الحفر كانت تعمل على عمق أكبر بكثير، فقال مرسيال، إنها على عمق خمسة عشر أو عشرين متراً تحت الأرض، معك حق، إنه عمق جيد. ولم يعد إلى الكلام فى الموضوع. ولم يُبد مرسيال بدوره ما يشير إلى أنه تضايق من ذلك الحديث المقتضب، بل على العكس، يمكن القول إنه شعر بشىء من السعادة لأنه استطاع التحدث قليلاً - دون الدخول فى شئون خطرة وسرية - فى مسألة يمكن أن يُلحظ بسهولة أنها تُقلقه. ومرسيال ليس هيّاباً أكثر مما هم الناس العاديون، ولكن لا تُسعده فكرة قضاء أربع ساعات محشوراً فى حفرة، بصمت مطلق، وهو يعرف ما وراءه. فنحن لم نُدَرَّب على حالات مثل هذه، قال له أحد زملائه، عسى أن يحضر الاختصاصيون الذين تحدث القائد عنهم فى أسرع وقت كى نُسحب من تلك الخدمة، هل شعرتَ بالخوف، سأله مرسيال، خوف بما تعنيه كلمة خوف، ربما لم أشعر به، ولكننى أُنبهك إلى أنك ستشعر، فى كل لحظة، كما لو أن أحداً خلفك سيضع يده على كتفك، ليس هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث، الأمر يعتمد على نوع اليد، وإذا أردت أن أكلمك بكل صراحة، إنها أربع ساعات

www.ibtesamh.com/vb

من الصراع مع رغبة مجنونة فى الهرب، فى الفرار، فى الاختفاء من هناك، يقال إن الرجل الذى يتلقى تحذيراً يساوى رجلين، وهكذا صرت أعرف ما الذى ينتظرنى، لم تعرف ذلك، إنك تتخيله فقط، وتتخيله بصورة سيئة، صحح له زميله. الساعة الآن هى الواحدة والنصف، ومرسيال يودع مارتا بقبلة، وتطلب هى منه، لا تتأخر بعد انتهاء مناوبتك، سأجىء راكضاً، وغداً سأخبركِ بكل شىء، أعدكِ بذلك. رافقته مارتا حتى الباب، تبادلا قبلة أخرى ثم عادت إلى الداخل، فرتبت أولاً بعض الأشياء، واستلقت بعد ذلك لتنام. لم تكن تشعر بالنعاس. وكانت تقول لنفسها إنه لا يوجد سبب للقلق، وإن حراساً آخرين قد قاموا بالحراسة ولم يحدث أى شىء، وكم من المرات تحدث أسرار رهيبة من أجلِ إزاحة قشة صغيرة، كما لو أنها أفاع حقيقية بسبعة رءوس، وعندما تُرى عن قرب لا تكون سوى هباء، دخان، وهم، مشيئة فى اختلاق ما هو غير معقول. كانت الدقائق تمضى، والنعاس يبتعد أكثر، وانتهى الأمر بمارتا إلى القول لنفسها إنه من الأفضل لها أن تشعل النور وتقرأ فى كتاب، وبدا لها فى تلك اللحظة أنها تسمع انفتاح باب حجرة أبيها. ولأنه ليس من عادة أبيها النهوض ليلاً، فقد أرهفت سمعها، ربما يكون ذاهباً إلى الحمام، غير أن الخطوات بدأت تتقدم شيئاً فشيئاً بحذر، ولكنها مسموعة، فى ردهة المدخل الصغيرة. وفكرت، ربما يكون ذاهباً إلى المطبخ ليشرب ماء. طقطقة قفل

www.ibtesamh.com/vb

الباب الخارجى التى لا التباس فيها جعلتها تنهض بتعجل. ألقت على نفسها الروب بأقصى سرعة وخرجت. كانت يد الأب على قبضة الباب. إلى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت، سألته مارتا، هنا، قال سيبريانو ألجور، لك الحق فى الذهاب حيث تشاء، فأنت راشد ومُلَقَّح، ولكنك لا تستطيع الذهاب دون أن تقول كلمة واحدة، كما لو أنه لا وجود لأحد فى البيت، لا تجعلينى أضيع الوقت، لماذا، ألأنكَ تخشى الوصول بعد الساعة السادسة، سألته مارتا، مادمتِ تعرفين إلى أين أريد الذهاب، فلستِ بحاجة إلى مزيد من التوضيح، فكر على الأقل فى أنك قد تسبب مشاكل لصهرك، أنتِ نفسك قلت إننى راشد ومُلقح، ولا يمكن بالتالى لمرسيال أن يكون مسئولاً عن تصرفاتى، ربما يكون لأرباب عمله رأى آخر، لن يرانى أحد، وإذا ما اعترض أحدهم سبيلى فسوف أقول إننى مصاب بداء السير وأنا نائم، ظرافتك ليست مقبولة فى هذه اللحظة، سأتكلم بجد إذاً، آمل أن تفعل ذلك، ثمة شىء يحدث تحت وأحتاج إلى معرفته، مهما كان ما هو هناك فلن يظل سراً مدى الحياة، وقد قال لى مرسيال إنه سيخبرنا بكل شىء عند عودته من ورديته، هذا جيد، ولكن الوصف لا يكفينى، أريد أن أرى بأم عينى، فى هذه الحالة اذهب، اذهب ولا تعذبنى أكثر، قالت مارتا وقد بدأت تبكى. اقترب أبوها منها، أحاط كتفيها بذراعه، احتضنها، أرجوكِ، لا تبكى، قال، السيئ فى هذا كله هو أننا لم نعد نحن أنفسنا منذ انتقلنا إلى هنا.

www.ibtesamh.com/vb

قبّلها، ثم خرج مغلقاً الباب بحذر. ذهبت مارتا بحثاً عن بطانية وكتاب، جلست على أريكة فى الصالة، وغطت ركبتيها. ولم تكن تدرى كم من الوقت سيستغرقه الانتظار.

ما كان يمكن لخطة سيبريانو ألجور أن تكون أكثر بساطة. كانت تتلخص فى النزول فى مصعد الشحن حتى الطابق صفر ـ خمسة وأن يسلم نفسه اعتباراً من هناك للمصادفة. فبأسلحة أقل بكثير جرى كسب معارك، فكَّرَ، وبأسلحة أكثر بكثير جرت خسارتها، أضاف بهوس إلى عدم التحيز. كان قد فكر فى أنه من المحتمل أن تكون مصاعد الشحن، باعتبارها مخصصة لنقل البضائع حصراً، غير مزودة بكاميرات فيديو، أو أن الكاميرات لا تُرى على الأقل، وإذا كانت هناك واحدة منها، من الصغيرة جداً والمموهة، فإن الاحتمال المؤكد هو أن يكون اهتمام المراقبين فى مركز المراقبة مسلطاً على المداخل الخارجية وعلى الطوابق التجارية والملاهى. أما إذا كان مخطئاً فلن يتأخر فى معرفة ذلك. ففى المقام الأول، وبافتراض أن طوابق البيوت السكنية التى فوق الأرض تشكل كتلة واحدة مع الطوابق العشرة التى تحت الأرض، فإن ما يناسبه هو استخدام أقرب مصعد بضائع إلى الواجهة الداخلية كيلا يضطر إلى إضاعة الوقت فى البحث عن طريق بين مئات حاويات البضائع من كل الأنواع والأحجام التى سيتصور أنها محفوظة فى الأقبية، وخاصة فى الطابق صفر ـ خمسة الذى هو موضع

www.ibtesamh.com/vb

اهتمامه. لم يفاجأ كثيراً عندما وجد نفسه فى حيز فسيح، مفتوح، خالٍ من البضائع، ولا شك فى أنه مخصص لتسهيل الدخول على موقع الحفر. كان قسم من الحائط الرئيسى، بين عمودين، قد حطم وأزيل، من هناك يتم الدخول. نظر سيبريانو ألجور إلى الساعة، كانت الثانية وخمساً وأربعين دقيقة، وعلى الرغم خفوت الإنارة الدائمة فى القبو، إلا أنها لم تكن تسمح بتمييز إذا ما كان هناك ضوء فى داخل الحفريات يخفف من سواد المدخل الذى سيبتلعه. كان علىّ أن أحضر معى مصباحاً يدوياً، فكر. عندئذ تذكر أنه قرأ ذات يوم أن أفضل طريقة للدخول إلى مكان مظلم، إذا أراد أن يرى ما فى الداخل فوراً، هو إغماض العينين قبل الدخول وفتحهما بعد ذلك. أجل، فكر، هذا ما علىّ عمله، أُغمض عينى وأهوى هناك إلى أسفل، حتى مركز الأرض. لم يهوِ. فعلى مستوى الأرض تقريباً، إلى يساره، كان هناك ضوء خافت سرعان ما تحدد، بعد خطوات، على أنه صف مصابيح على امتداد المكان. وكانت المصابيح تضىء مسطحاً ترابياً مائلاً تحول فى نهايته إلى مصطبة يخرج منها مسطح منحدر آخر. بدا الصمت كثيفاً وزخماً إلى حدّ أنه كان بإمكان سيبريانو ألجور معه أن يسمع دقات قلبه. وفكر، فلنذهب إلى هناك، لا بد أن مرسيال سيمر بأعظم رعب فى حياته. بدأ بنزول المسطح المائل، ووصل إلى المصطبة، ثم نزل على المسطح المائل التالى، ومصطبة أخرى، وهناك توقف. كان أمامه مصباحان كشافان أحدهما موضوع فى

www.ibtesamh.com/vb

هذا الجانب والآخر فى الجانب المقابل، بحيث لا ينفذ الضوء بقوة إلى الداخل، ويظهر الشكل الطولى لمغارة. وفى مصطبة ترابية إلى اليمين توجد حفرتان صغيرتان. كان مرسيال يجلس على كرسى صغير بلا مسند للظهر، وإلى جانبه منضدة عليها مصباح يدوى. ولم يكن قد رأى حماه بعد. خرج سيبريانو من شبه ظلمة المصطبة الأخيرة وقال بصوت عالٍ، **لا** تخف، إننى أنا. نهض مرسيال بتسرع، أراد أن يتكلم لكن حنجرته لم تسمح بمرور الكلام، وهذا أقل ما يسببه الوضع، وليرمه بأول حجر من يظن أنه كان سيقول بكل ما فى العالم من طمأنينة، **مرحباً**، أنت هنا. وعندما صار حموه أمامه فقط، تمكن مرسيال، وإن كان بمشقة، من القول، **مـا** الذى تفعله هنا؟ كيف خطرت لك فكرة المجىء الحمقاء، ومع ذلك، وخلافاً لما يقتضيه المنطق، لم يكن هناك استياء فى صوته، وما كان يُلحظ، إلى جانب الطمأنينة الطبيعية لمن لم يعد يشعر أخيراً بأنه مهدد بظهور مشئوم، هو نوع من السعادة الخجولة، شىء أشبه بإحساس بالامتنان ربما ينتهى إلى الاعتراف به ذات يوم. **مـا** الذى تفعله هنا، كرر، **لقد** جئتُ لأرى، قال سيبريانو ألجور، **ولم** يخطر لك التفكير فى المشاكل التى ستحل بى إذا ما شاع الأمر، لم تفكر فى أن ذلك قد يكلفنى وظيفتى، **ستقول** إن حماك مجنون ماكر، وغير مسئول عن أفعاله، ويجب إدخاله مصحة أمراض عقلية، وتثبيته بقميص مجانين، **ولا** شك فى أننى سأكسب الكثير بهذه التفسيرات. التفت سيبريانو ألجور نحو الفجوة

www.ibtesamh.com/vb

وسأل، **هل** رأيت ما هو موجود هناك فى الداخل، **لقد** رأيته، أجاب مرسيال، **وما** هو، **تأكد** بنفسك، إليك المصباح اليدوى إذا شئت، **ألا** تأتى معى، **لا**، أنا ذهبت وحدى أيضاً، **هل** يوجد طريق محدد، مسار ما، **لا**، عليك أن تمضى إلى اليسار دائماً وألا تترك ملامسة الجدار، وفى العمق ستجد ما تبحث عنه. أضاء سيبريانو ألجور المصباح اليدوى ودخل. **لقد** نسيت أن أغمض عينى، فكر. كان ضوء المصباحين غير المباشر لا يزال يسمح برؤية ثلاثة أو أربعة أمتار من الأرض، وما تبقى كان أسود مثل جوف الجسم. كان هناك منحدر قليل الانحدار، ولكنه غير منتظم. بدأ سيبريانو ألجور النزول بحذر وهو يلمس الجدار بيده اليسرى. وعلى مسافة معينة، بدا له أن هناك إلى يمينه شيئاً يمكن له أن يكون مصطبة وجداراً. قال لنفسه إنه سيتفحص ما هو ذلك عند عودته، ربما هو بناء لمنع انهيال التراب، وواصل النزول. راوده إحساس بأنه قد مشى كثيراً، ربما حوالى ثلاثين أو أربعين متراً. نظر إلى الوراء، نحو مدخل المغارة. كان المدخل الذى يقطعه ضوء المصباحين يبدو بعيداً حقاً، **لم** أمش كل تلك المسافة، وما يحدث هو أننى مشوش. كان يدرك أن الخوف قد بدأ يحك أعصابه بمراوغة، وهو الذى كان يتصور نفسه جسوراً جداً ومتفوقاً فى الشجاعة على مرسيال، والآن يوشك أن يدير ظهره ويركض صاعداً المنحدر بتعثر. استند إلى الصخر، تنفس بعمق، **لن** أهرب حتى لو اضطررت إلى الموت هنا، قال ذلك وبدأ المشى. وفجأة، ظهر

www.ibtesamh.com/vb

الجدار أمامه كما لو أنه قد التف حول نفسه فى زاوية قائمة. كان قد وصل إلى أقصى المغارة. أخفض بؤرة ضوء المصباح اليدوى ليتأكد من ثبات الأرض، خطا خطوتين وكان فى منتصف الخطوة الثالثة عندما اصطدمت ركبته اليمنى بشىء صلب جعله يطلق أنّة. ومع الصدمة اهتز الضوء، وبرز أمام عينيه، لبرهة، ما بدا أنه مقعد حجرى، وبعد ذلك، فى اللحظة التالية، رأى هيئات مصطفة غير واضحة المعالم ظهرت واختفت. هزت رعشة عنيفة أعضاء سيبريانو ألجور، تراخت شجاعته مثل حبل بدأت خيوطه الأخيرة تنقطع، ولكنه سمع فى داخله صرخة تأمره، **قـذكر**، حتى لو اضطررت إلى الموت. كنس ضوء المصباح اليدوى المرتعش المقعد الحجرى ببطء، ولامس بصورة باهتة بعض الأقمشة القاتمة، صعد الضوء، وما بدا هناك هو جسد بشرى جالس. وإلى جانبه، مغطاة بالأقمشة القاتمة نفسها، كانت خمسة أجساد مماثلة أخرى تجلس، جميعها منتصبة الجذع كما لو أن وتداً حديدياً قد أدخل من جمجمة كل منها وثبتها فى جلوسها على المقعد الحجرى. كان جدار صدر المغارة الأملس على بعد عشرة أشبار من محاجر العيون الغائرة، حيث كرات العيون قد اختُزلت إلى حبة من غبار. **هـا** هذا، دمدم سيبريانو ألجور، أى كابوس هذا، من هم هؤلاء الأشخاص. اقترب أكثر، ومرّ ببطء بالمصباح اليدوى على الرءوس القاتمة والمتيبسة، هذا رجل، وهذه امرأة، وهذا رجل آخر، وامرأة أخرى، ثم آخر، وامرأة أخرى، ثلاثة رجال وثلاث نساء، رأى

www.ibtesamh.com/vb

بقايا أربطة يبدو أنها استُخدمت لتثبيت أعناقهم ومنعها من الحركة، أخفض بعد ذلك بؤرة ضوء المصباح، وكانت أربطة أخرى تتدلى من أرجلهم. عندئذ، ببطء، ببطء شديد، مثل نور غير متعجل فى الظهور، وإن كان يصل ليكشف حقيقة الأشياء حتى فى أشد مخابئها ظلمة وخفاء، رأى سيبريانو ألجور نفسه يدخل مرة أخرى إلى فرن مشغل الخزف، ورأى المقعد الحجرى الذى تركه عمال البناء مهجوراً وجلس عليه، وسمع مرة صوت مرسيال، بكلمات مختلفة الآن، تناديه وتعيد مناداته، بقلق، ومن بعيد، أبتاه، هل تسمعنى، أجبنى، وكان الصوت يدوى متردداً داخل المغارة، والأصداء تتحول من جدار إلى آخر، تتعاظم، وما لم يصمت مرسيال لحظة فلن يكون بإمكاننا سماع صوت سيبريانو ألجور يقول، نائياً، كما لو أنه صدى أيضاً، إننى على ما يرام، لا تقلق، لن أتأخر. كان الخوف قد تلاشى. وداعب ضوء المصباح اليدوى مرة أخرى الوجوه التعيسة، والأيدى المعروقة التى هى مجرد جلد وعظم يتقاطع على الأرجل، بل إنه قاد كذلك يد سيبريانو ألجور عندما امتدت بخشوع يمكن القول إنه دينى لو لم يكن إنسانيا ببساطة، ولامست جبهة المرأة الأولى المتيبسة. لم يعد ثمة ما يستبقيه هناك، لقد فهم سيبريانو ألجور. وحيث إن طريق الجلجلة الدائرى يجد أمامه جلجلة على الدوام، فإن الصعود كان بطيئاً ومؤلماً. نزل مرسيال للقائه، ومدّ يده لمساعدته، ولدى الخروج من الظلمة إلى النور ظهرا متعانقين دون أن يدريا منذ متى. كان سيبريانو

www.ibtesamh.com/vb

ألجور مستنفد القوى، فانهار على الكرسى الصغير، وأحنى رأسه على المنضدة، ودون ضجة، ودون أن يكاد يلمح إلا اهتزاز كتفيه، انخرط فى البكاء. **لا** تتوقف يا أبتاه، أنا أيضاً بكيت، قال مرسيال. بعد قليل، وكان سيبريانو ألجور قد سيطر إلى هذا الحدّ أو ذاك على مشاعره، نظر إلى صهره بصمت كما لو أنه لا يجد فى تلك اللحظة طريقة أفضل من تلك ليقول له إنه يقدره كثيراً، ثم سأله، **أتعرف** ما هو كل ذلك، **نـعم**، فقد قرأت شيئاً منذ زمن، أجاب مرسيال، **وأنت** تعرف أيضاً أن ما هو هناك، بالرغم مما هو عليه، ليس فيه شىء من الواقع، لا يمكن له أن يكون حقيقياً، **أعرف**، **ومع** ذلك، أنا لمست بيدى هذه جبهة إحدى أولئك النساء، لم تكن وهماً، لم يكن حلماً، وإذا ما رجعت الآن فسوف أجد الرجال الثلاثة أنفسهم والنساء الثلاث أنفسهن، وحبال التقييد نفسها، والمقعد الحجرى نفسه، والجدار الذى أمامهم نفسه. إذا لم يكونوا هم أولئك، لأن أولئك لم يوجدوا قط، فمن هم هؤلاء، سأله مرسيال، **لا** أدرى، ولكننى بعد أن رأيتهم أفكر فى أنه ربما يكون ما لا وجود له حقاً هو ما نسميه اللاوجود. نهض سيبريانو ألجور ببطء، كانت ساقاه لا تزالان ترتجفان، ولكن قوى جسده عموماً كانت قد عادت إليه. قال، **حين** كنت أنزل راودنى إحساس بأننى رأيت شيئاً يمكن أن يكون جداراً ومصطبة، إذا استطعت أن تبدل اتجاه أحد هذين المصباحين الكشافين، ولم يحتج إلى إكمال الجملة، فقد كان مرسيال قد بدأ بتدوير عجلة، وتحريك عتلة،

www.ibtesamh.com/vb

وامتد الضوء بعد ذلك على الأرض باتجاه الداخل حتى اصطدم بقاعدة سور يقطع المغارة من جانب إلى آخر، ولكن دون أن يصل إلى الجدارين. لم تكن هناك أية مصطبة، وإنما ممر على امتداد الجدار. **هناك** شيء ناقص، دمدم سيبريانو ألجور. تقدم بضع خطوات وتوقف فجأة، إنه هنا، قال. وعلى الأرض بدت بقعة سوداء كبيرة، كانت الأرض محروقة في ذلك المكان، كما لو أن موقداً كان يشتعل لزمن طويل. **لم** يعد هناك ما يستحق مواصلة التساؤل عما إذا كانوا قد وُجدوا أم لم يوجدوا، قال سيبريانو الغور، فالأدلة موجودة هنا، وكل شخص سيستخلص النتائج التي يراها صحيحة، وأنا استخلصتُ نتائجي. عاد المصباح الكشاف إلى مكانه، وعادت الظلمة كذلك، ثم سأل سيبريانو ألجور، **هل** تريدني أن أبقى هنا لمرافقتك، **لا**، شكراً، قال مرسيال، عدّ إلى البيت، لا بد أن مارتا مغمومة وتفكر في الأسوأ، إلى اللقاء إذاً، إلى اللقاء يا أبتاه، وتوقف قليلاً ثم أضاف بابتسامة نصف مكرهة، مثل مراهق يتكتم في الوقت نفسه الذي يستسلم فيه، شكراً لأنك جئت.

نظر سيبريانو ألجور إلى الساعة عندما وصل إلى الطابق صفر ـ خمسة. كانت الرابعة والنصف. حمله مصعد الشحن إلى الطابق الرابع والثلاثين. لم يره أحد. فتحت له مارتا الباب بصمت، وبالحذر نفسه أعادت إغلاقه، **كيف** هو مرسيال؟ سألت، إنه على ما يرام، لا تقلقي، فلديك رجل عظيم، هذا ما أقوله

www.ibtesamh.com/vb

لك أنا، مـاذا يوجد تحت؟ دعينى أجلس أولاً، أشعر كما لو أننى ضُربت بشدة، فهذه الجهود ليست لمن هو فى مثل سنى، مـاذا يوجد تحت،؟ عادت مارتا لسؤاله بعد أن جلس، يـوجد تحت ستة أشخاص ميتين، ثلاثة رجـال وثلاث نسـاء. لا يـفـاجـئـنى ذلك، فـهـذا هـو بالضبط ما فكرتُ فيه، إن الأمر يتعلق ببقايا بشرية، وهـذا يحدث بكثرة فى الحـفريات، ومـا لا أفهمه هو سبب كل هـذا الغـموض، وكل هـذه الأسـرار، وكل هـذه الحـراسـة، فـالـعظـام لن تـهـرب، ولا أظن أن سـرقـتـهـا تسـتـحق الجهـد، لـو أنكِ نـزلت معى لـكنتِ فـهـمت، مـازال أمـامكِ متسع من الـوقت لـلـذهـاب إلى هـنـاك، دعكَ من هـذه الأفـكـار، لـيس من الـسـهل تـرك هـذه الأفكار بعد أن رأيت ما رأيته، مـا الذى رأيته؟ من هم أولـئك الأشـخـاص، أولـئك الأشـخـاص هم نـحن، قـال سيبريانو ألجور، مـا الذى تعنيه، أعنى أننا نحن، أنا، أنت، مرسيال، المركز كله، وربما العالم بأسره، أرجو أن تـوضح، ركـزى انـتـبـاهكِ، واسـمـعى. احـتـاجت روايـة الـقـصـة نصف سـاعـة. استمعت إليها مـارتا دون أى مقـاطعة. وأخيراً قالت، أجل، أظن أنك على حق، إننا نحن. لم يقولا المزيد إلى أن جـاء مرسـيـال. وعـنـدمـا دخل، عـانقته مارتا بقوة، مـاذا سنفعل؟ سـألته، ولكن مرسيال لم يجد الوقت للرد. إذ كان سيبريانو ألجور يقول بصوت حاسم، أنتما ستقرران بشأن حياتكما، أما أنا فسأذهب.

www.ibtesamh.com/vb

هـاهى أشياؤكَ، قالت مارتا، إنها غير كثيرة، تتسع لها أصغر حقيبة وتزيد، يبدو أنكَ حدست مسبقاً أنك لن تبقى إلا ثلاثة أسابيع، فقال سيبريانو ألجور، تأتى لحظة فى الحياة يكفينا فيها أن نحمل جسدنا وحده على كاهلنا، إنها جملة جميلة، أجل يا سيدى، ولكن الأفضل منها أن تخبرنى على ماذا ستعيش، انظرى إلى الزنابق البرية، فهى لا تحوك ولا تنسج، إنها جملة جميلة أيضاً، ولهذا لم تتوصل تلك الزنابق إلا أن تكون زنابق برية، إنكِ ارتيابية هائجة، كلبية مقرفة، أبتاه، أرجوك، أنا أتكلم بجد، اعذرينى، أفهم أن الأمر كان صدمة لكَ، مثلما كان بالنسبة لى أيضاً، بالرغم من أننى لم أذهب إلى هناك، أفهم أن أولئك الرجال والنساء هم أكثر بكثير من مجرد كونهم أناساً ميتين، لا تواصلى، فلأنهم أكثر بكثير من مجرد كونهم أناساً ميتين لا أؤيد مواصلة العيش هنا، وماذا عنا، ماذا عنى، سألته مارتا، قررا بشأن حياتكما، أما أنا فقد قررت، لن أظل طوال ما تبقى من أيام حياتى مقيداً إلى مقعد حجرى وناظراً إلى جدار،

www.ibtesamh.com/vb

وكيف ستعيش؟ لدى النقود التى دفعوها لى مقابل الدمى، ستكفى لشهر أو شهرين وبعد ذلك سنرى، لستُ أعنى النقود، فبطريقة أو بأخرى لن ينقصك ما هو ضرورى للطعام والكساء، ما أعنيه هو أنك ستضطر إلى العيش وحيداً، لدى لقية، وستأتيان لزيارتى بين حين وآخر، أبتاه، ماذا، هناك إساورا، ما علاقة إساورا بهذا، قلتَ لى إن الوضع بينكما قد تبدل، لا أدرى كيف ولا لماذا، ولكنكَ قلت لى ذلك، هذا صحيح، بما أن الأمر كذلك، ماذا تعنين؟ أعنى يمكنكما العيش معاً. لم يجب سيبريانو ألجور. حمل الحقيبة وقال، إننى ذاهب. عانقته الابنة، سنذهب لزيارتك فى أول يوم عطلة لمرسيال، وفى أثناء ذلك أطلعنا على أخبارك، عندما تصل اتصل هاتفياً لتخبرنا كيف هو البيت ولقية، لا تنسَ لقية. وبينما إحدى قدميه خارج الباب، قال سيبريانو ألجور، قبّلى مرسيال عنى، ولكنكَ قبلته، فقد ودعتَه، أجل، ولكن أعطيه قبلة أخرى. عندما وصل إلى آخر الممر، أدار رأسه. كانت الابنة فى الطرف الآخر، بين الأبواب، تلوح له مودعة بإحدى يديها بينما هى تغطى فمها باليد الأخرى كيلا تنفجر فى البكاء. إلى اللقاء قريباً، قال، ولكنها لم تسمعه. حمله مصعد الشحن إلى المرآب، لا بد له الآن من معرفة أين ترك الشاحنة متوقفة، وما إذا كان محركها سيدور بعد ثلاثة أسابيع من التوقف، فالبطاريات تلعب ألعاباً خبيثة أحياناً، وفكر بقلق، هذا ما كان ينقصنى. لم يحدث ما كان يخشاه، فقد قامت الشاحنة بواجبها. صحيح أن

www.ibtesamh.com/vb

الكونتكت لم يعمل فى المرة الأولى ولا فى الثانية، ولكن المحرك دار فى المرة الثالثة بضجة جديرة بمحرك آخر. وبعد دقائق من ذلك كان سيبريانو ألجور قد صار فى الجادة العريضة، لن نقول إن الطريق كان مفتوحاً أمامه، ولكن كان يمكن له أن يكون أسوأ بكثير، وعلى الرغم من البطء، كانت حركة المرور بالذات هى التى تقوده. ليس غريباً أن تكون حركة المرور كثيفة، السيارات تقدس يوم الأحد، ويكاد يكون من المستحيل على صاحب سيارة أن يقاوم ما يسمى الضغط النفسى، والسيارة يكفيها أن تكون هناك، لا تحتاج إلى الكلام. وأخيراً خلف المدينة وراءه، وأحياء الضواحى راحت تمر، وبعد قليل ستظهر الأكواخ، أتكون قد وصلت خلال ثلاثة أسابيع إلى الطريق العام، لا، مازال أمامها حوالى ثلاثين متراً، وبعد ذلك جاء الحزام الصناعى، وكان العمل فيه متوقفاً بالكامل تقريباً، فمصانع قليلة فقط على ما يبدو هى التى تجعل العمل المتواصل ديانتها، والآن الحزام الأخضر، الدفيئات الشهباء، الرمادية، الشاحبة، أيكون هذا هو السبب فى فقدان العبارات ألوانها، ولن يطول الوقت حتى تصير بيضاء من الخارج مثلما هى تصير الآن من الداخل ويكون لها مذاق أى شىء لا طعم له. سننعطف الآن إلى اليسار، هناك حيث تبدو تلك الأشجار، أجل، تلك المجتمعة كما لو أنها باقة، يوجد مكمن أثرى مهم لم يُكتشف بعد، وأنا أعرف ذلك من مصدر موثوق، والحظ لا

www.ibtesamh.com/vb

يحالفنا فى كل يوم لتلقى معلومات من هذا النوع من فم الصانع نفسه. تساءل سيبريانو ألجور كيف أمكن له أن يسمح بإبقائه محبوساً طيلة ثلاثة أسابيع دون أن يرى الشمس والنجوم لو لم يكن، مقيد العنق، فى طابق رابع وثلاثين بنافذتين لا يمكن فتحهما، بينما لديه هنا هذا النهر، صحيح أنه كريه الرائحة وشحيح الماء، وهذا الجسر، وصحيح أنه قديم ومهمل، وهذه الأنقاض التى كانت بيوتاً لأناس، والقرية التى ولد وترعرع وعمل فيها، مع الطريق العام الذى يقطعها والساحة فى أحد أطرافها، وهذان الشخصان اللذان يمضيان هناك، ذلك الرجل وتلك امرأة، إنهما أبوا مرسيال، ونحن لم نرهما حتى الآن على الرغم من الوقت الذى استمرته هذه القصة، ولا يمكن لأحد من هذه المسافة أن يقول إن لهما سوء الطبع الذى يُنسب إليهما وقدما عنه أدلة كافية، إنه خطر المظاهر، وعندما تخدعنا تكون الخدعة على الدوام نحو الأسوأ. أخرج سيبريانو ذراعه من نافذة الشاحنة وحياهما كما لو أنهما صديقان قديمان، وكان من الأفضل ألا يفعل ذلك، فالاحتمال الأكبر أنهما سيظنان الآن أنه سخر منهما، وهذا ليس صحيح، ولم تكن هذه هى نيته، فما يحدث هو أن سيبريانو ألجور سعيد، فخلال ثلاث دقائق سيرى إساورا وسيكون لقية بين ذراعيه، ما لم يكن الحدث معكوساً تماماً، أى ستكون إساورا بين ذراعيه بينما لقية يتقافز منتظراً أن يولياه الاهتمام. تجاوز الساحة، وفجأة، دون إنذار،

www.ibtesamh.com/vb

انقبض قلب سيبريانو ألجور، فهو يعرف عن الحياة، كلاهما يعرف، أنه لا يمكن لأى حلاوة اليوم أن تقلل من مرارة الغد، وأن ماء هذا الينبوع لا يمكنه منع العطش من قتلك فى تلك الصحراء. إننى بلا عمل، إننى بلا عمل، دمدم، وهذا هو الجواب الذى كان عليه أن يقدمه، دون مزيد من اللف والدوران والتهرب، حين سألته مارتا على ماذا سيعيش، إننى بلا عمل. فى هذا المدخل نفسه، فى هذا المكان بالذات، كما فى اليوم الذى رجع فيه من المركز بخبر أنهم لن يشتروا منه مزيداً من الخزف، خفف سيبريانو ألجور من سرعة الشاحنة. لم يكن يريد الوصول، وأراد أن يكون قد وصل، وبين هذا الأمر وذاك ها هو منعطف الشارع الذى تسكن فيه إساورا مادروغا، البيت هو ذاك، وفجأة صارت الشاحنة أكثر سرعة، وفجأة انضغطت المكابح، وفجأة قفز منها سيبريانو ألجور، وفجأة صعد الدرجات، وفجأة رن الجرس. طرق الباب مرة، مرتين، ثلاث مرات. لم يظهر أحد ليفتح الباب، ولم يُعط أحدٌ أية إشارة من الداخل، لم تأت إساورا، ولم ينبح لقية، والصحراء التى كانت للغد قرّبت موعدها إلى اليوم. ويجب أن يكون كلاهما هنا، فاليوم هو الأحد، ولا يوجد عمل، فكر. رجع إلى الشاحنة مشوشاً، قاطع ذراعية على المقود، الأمر الطبيعى هو أن يسأل الجيران، ولكنه لم يرغب فى يوم من الأيام بالكشف عن حياته، والحقيقة أننا عندما نسأل عن شخص ما فإننا نخبر عن أنفسنا

www.ibtesamh.com/vb

أكثر بكثير مما يمكن تصوره، وما ينقذنا هو أن أسماع معظم من نسألهم ليست مهيأة لفهم ما يختفى وراء كلمات بالغة البراءة مثل هذه، **هل** رأيت مصادفة إساورا مادروغا. وبعد دقيقتين سيعترف بأنه، إذا ما فكر جيداً، سيكون من المثير للشبهة توقفه منتظراً أمام البيت بقدر ما هو مثير للشبهة ذهابه، بحركات طبيعية زائفة، لسؤال أول جار عما إذا كان قد رأى، مصادفة، خروج إساورا. سأذهب للبحث، فكر، فقد أجدهما. لم توصله الجولة فى القرية إلى أى نتيجة، بدا وكأن إساورا ولقية قد مُسحا عن وجه الأرض. قرر سيبريانو ألجور الذهاب إلى بيته، وسيعود للبحث عنهما فى المساء، وفكر، لا بد أنهما خرجا إلى مكان ما. زغرد محرك السيارة زغرودة العودة إلى المنزل، وصار بإمكان السائق أن يرى أعلى أغصان شجرة التوت، وفجأة، مثل برق أسود، جاء لقية من أعلى، كان ينبح ويركض مندفعاً من أعلى الأكمة كما لو أنه أصيب بمس من الجنون، كان قلب سيبريانو ألجور على بُعد نبضة من الإغماء، ليس بسبب الحيوان، فهذا الحب مهما كان كبيراً لا يصل إلى ذلك الحد، وإنما لأنه فكر فى أن الحيوان ليس وحده، وإذا لم يكن وحيداً، فإن هناك شخصاً واحداً فى العالم يمكن أن يكون معه. فتح باب الشاحنة، وبقفزة واحدة نط الكلب إلى ذراعيه، فكان الكلب أخيراً هو صاحب المعانقة الأولى، وراح يلحس وجهه ويحول دون رؤيته الطريق، هذا الطريق الذى تظهر فيه إساورا مادروغا

www.ibtesamh.com/vb

ذاهلة، فليتوقف الآن كل شيء، رجاء، لا يتكلمن، ولا يتحركن أحد، ولا يتدخلن أحد، هذا هو المشهد المؤثر بامتياز، السيارة التى تتقدم صاعدة الأكمة، المرأة التى فى الأعلى تتقدم خطوتين وفجأة لا تستطيع المشى أكثر، انظروا إلى يديها المضمومتين إلى الصدر، إلى سيبريانو ألجور الذى يخرج من الشاحنة كما لو أنه يدخل فى حلم، إلى لقية الذى يمضى خلفه ويتشابك بساقيه، ومع ذلك لا يحدث شيء سيئ، فهذا ما كان ينقص، أن يسقط أحد الشخوص الرئيسية الثلاثة بصورة ضد سكونية فى لحظة ذروة الحدث، هذا العناق وهذه القبلة، هذه القبلات وهذه المعانقات، كم من المرات نحتاج لأن نذكّركم بأن الحب نفسه الذى ينهش هو الذى يتوسل الآن أن ينهشوه، وقد كان الأمر كذلك على الدوام، على الدوام، ولكن هناك مناسبات ننتبه فيها أكثر. وفى وقفة بين قبلتين سأل سيبريانو ألجور، **كيف** حدث أن جئت إلى هنا؟ لكن إساورا لم تجب فى الحال، كانت هناك قبلات أخرى يتوجب إعطاؤها وأخذها، قبلات مستعجلة مثل الأولى منها، وأخيراً وجدت النَفَس الكافى لأن تقول، **لقد** هرب لقية فى اليوم التالى لذهابك، فتح ثقباً فى سور الحديقة وجاء إلى هنا، ولم أجد طريقة لإجباره على الرجوع، كان مصمماً على انتظارك حتى لا أدرى متى، وكانت الوسيلة الوحيدة هى تركه، وإحضار الطعام والماء إليه، ومرافقته قليلاً، مع أننى أظن أنه لم يكن بحاجة لمرافقة. بحث سيبريانو ألجور فى جيوبه عن مفتاح البيت بينما هو يفكر ويتخيل، **سوف** ندخل

www.ibtesamh.com/vb

كلانا، سوف ندخل معاً، وصارِ المفتاح فى يده أخيراً عندما رأى أن الباب مفتوح، فهكذا يجب أن تكون الأبواب لمن يصل آتياً من بعيد، لم يكن بحاجة لأن يسأل عن السبب، فقد قالته إساورا بهدوء، **مارتا** تركت معى مفتاحاً كى أحضر بين وقت وآخر لتهوية البيت، لتنظيفه من الغبار، وهكذا، ومع مسألة لقية، صرت أحضر كل يوم، قبل ذهابى للعمل فى المتجر صباحاً، وفى نهاية المساء، بعد انتهاء العمل. أعطت انطباعاً بأن لديها شيئاً آخر تضيفه، لكن شفتيها انطبقتا بحزم كما لو أنهما تريدان منع الكلمات من المرور، لن تخرجى أيتها الكلمات من هنا، كانت الشفتان تأمران، ولكن الكلمات اجتمعت، ضمت قواها، وأقصى ما توصل إليه الحياء هو أن إساورا أخفضت رأسها واختزلت صوتها إلى همهمة، **فى** إحدى الليالى ظللت هنا ونمت فى فراشك، قالت. نحن ندرك أن هذا الرجل صانع فخار، وهو بالتالى عامل يدوى، بلا رهافة تكوين ثقافى وفنى باستثناء ما ضرورى لممارسة مهنته، وفى سن تجاوزت سن النضج، وقد تربى فى زمن كان الصواب فيه أن يكبح الأشخاص، كل واحد فى ذاته وجميعهم فى جميع الناس، التعبير عن مشاعر الجسد ولهفته، وإذا كان صحيحاً أنه لا يمكن أن يكونوا كثيرين من هم قادرون فى وسطه الاجتماعى والثقافى على لىّ ذراعه فى شئون الحساسية والذكاء، إلا أن سماعه من فم امرأة لم ينم معها بحميمية قط، أنها نامت فى فراشه، مهما كان الاندفاع الذى يمضى به نحو البيت الذى

www.ibtesamh.com/vb

جرت فيه الواقعة، فلا بد له من أن يوقف خطاه، وينظر بذهول إلى المخلوقة المتجاسرة، فالرجال، ويجب علينا أن نعترف بذلك دفعة واحدة، لن يتوصلوا أبداً إلى فهم النساء، ولحسن الحظ أن هذا الرجل استطاع، دون أن يدرى كيف، أن يكتشف وسط اضطرابه الكلمات المضبوطة تماماً التى تتطلبها المناسبة، ولن تنامى بعد اليوم فى سرير آخر. والحقيقة أن هذه الجملة يجب أن تكون على هذا النحو، وكانت ستفقد كل تأثير لو أنه قال، على سبيل المثال، كمن يضع توقيعه على اتفاق تعايش، **حسن**، بما أنك نمتِ فى فراشى، سأذهب أنا لأنام فى فراشك. كان سيبريانو ألجور وإساورا قد تعانقا مجدداً بعد ما قاله، وليس صعباً تصور الحماسة التى فعلا بها ذلك، غير أن أمراً مفاجئاً حدث، ويبدو أن المشاعر العاطفية لا تشارك فيه، **فنسيتُ** إخراج الحقيبة من السيارة، كان هذا ما قاله. ودون أن ينتبه بعد إلى نتائج التصرف المفاجئ، ومع لقية الذى يتقافز وراءه، فتح باب الشاحنة الصغيرة وأخرج الحقيبة. وقد جاءه أول حدس لما سيحدث عندما دخل إلى المطبخ، والثانى عندما دخل إلى غرفة النوم، وإن كان لم يصل إلى اليقين المؤكد إلا عندما سألته إساورا بصوت بذلت جهدها كيلا يرتعش، **هل** جئت لتبقى هنا. كانت الحقيبة على الأرض بانتظار أن يفتحها أحد، وهذه العملية، بالرغم من أنها ضرورية، إلا أنها تستطيع الانتظار إلى ما بعد. أغلق سيبريانو ألجور الباب. وهناك لحظات كهذه فى الحياة، من

www.ibtesamh.com/vb

أجل أن تنفتح فيها السماء لا بد من إغلاق باب. بعد نصف ساعة من ذلك، وقد صار بسلام، مثل شاطئ تراجع المدّ عنه، روى لها سيبريانو ألجور ما جرى فى المركز، واكتشاف المغارة، وفرض السرية، والحراسة، والنزول إلى موقع الحفريات، والظلمة فى الداخل، والخوف، والموتى المقيدين إلى المقعد الحجرى، ورماد الموقد. فى البدء، عندما رأت صعود الشاحنة على الأكمة، فكرت إساورا أن سيبريانو ألجور قد رجع لأنه لم يستطع تحمل الفراق والغياب، وقد أرضت هذه الفكرة، كما يمكن الافتراض، لهفة قلبها كعاشقة، أما الآن، بينما رأسها يستريح على تجويف كتفه، وتشعر بيده على خصرها، بدا لها أن السببين مناسبان بالتساوى، أضف إلى ذلك، إذا ما تكلفنا مشقة ملاحظة أن هناك وجهاً واحداً على الأقل، وجه عدم الاحتمالية، يتلامس فيه هذا السبب وذاك ويشتركان، فيتلاشى آلياً أى مسوغ جدى للتأكيد بأن السببين متناقضان فيما بينهما. وإساورا مادروجا غير الضليعة بصورة خاصة فى التاريخ القديم والاختلاقات الميثولوجية، ولكنها لم تحتج إلا إلى كلمتين بسيطتين كى تفهم ما هو جوهرى فى المسألة. ومع أننا نعرف الكلمتين، إلا أننا لن نخسر شيئاً فى كتابتهما مرة أخرى، إننا نحن.

وفى المساء، مثلما كان مقرراً، اتصل سيبريانو ألجور هاتفياً بمارتا كى يقول لها إنه وصل بخير، وإن البيت كان كما لو أنه تُرك بالأمس، وإن لقية، لولا

www.ibtesamh.com/vb

قليل، كان سيصاب بالجنون من السعادة، وإنه يرسل إليها قبلة من إساورا. مـن أين تتكلم؟ سألته مارتا، مـن البيت طبعاً؟ وإساورا، إساورا موجودة هنا إلى جانبى، أتريدين التكلم معها، أجل، ولكن أخبرنى أولاً بما يحدث، مـا الذى تشيرين إليه؟ إلى هذا بالضبط، إلى أن إساورا موجودة عندك، هـل يضايقك ذلك؟ دعك من السخافات واترك الطاحونة تدور، أجبنى، إساورا ستبقى معى، وأنت مع من سـتبقى، سنبقى أحدنا مع الآخر، إذا كان هذا ما تودين سماعه. ساد صمت فى الجانب الآخر. وبعد ذلك قالت مارتا، لـقد منحتنى سعادة عظيمة، نـبرة الصوت لا تدعو إلى التصديق، لا علاقة لنبرة الصوت بهذه الكلمات وإنما بالأخرى، أية أخرى، يـوم غد، المستقبل، لـدينا متسع من الوقت للتفكير فى المستقبل، لا تتصنع، ولا تغمض عينيك عن الواقع، فأنت تعرف جيداً أن الحاضر قد انتهى بالنسبة لنا، أنتم فى حالة جيدة، ونحن سنرتب أمورنا، لا أنا فى حالة جيدة ولا مرسيال فى حالة جيدة، لـماذا؟ إذا كان لا وجود لمستقبل هناك، فلن يكون له وجود هنا أيضاً، أوضحى بصورة أفضل، أرجوكِ، لـدى ابن ينمو فى أحشائى، فإذا رغب فى أحد الأيام، عندما يصير سيد أفعاله، أن يعيش فى مكان مثل هذا، فسيكون قد فعل ما دعته إليه إرادته، أما ولادته هنا فلا، كـان عليكِ أن تفكرى فى ذلك من قبل، لا وجود لتأخر فى الوقت من أجل إصلاح خطأ، حتى عندما لا يكون بالإمكان معالجة النتائج، وفى حالتنا مازال بالإمكان معالجتها،

www.ibtesamh.com/vb

كيف؟ يتوجب علينا أولاً أن نتحدث كثيراً، أنا ومرسيال، وبعد ذلك سنرى، فكرى جيداً ولا تتسرعى، يمكن للخطأ كذلك يا أبتاه أن يكون نتيجة التفكير جيداً، أضف إلى ذلك أنه غير مكتوب، حسب علمى، فى أى مكان أن التسرع يستدعى بالضرورة الوصول إلى نتائج سيئة، آمل ألا تخطئى أبداً، لستُ طموحة إلى هذا الحد، ما أريده هو ألا أخطئ هذه المرة، والآن، إذا كنت لا تتضايق، فلنضع نقطة النهاية لحوار الأب والابنة، واستدعِ إساورا فلدى الكثير للتحدث فيه معها. أعطاها سيبريانو ألجور الهاتف وخرج إلى الفناء. ها هو مشغل الفخار حيث مازالت بقيةٌ متوحدة من الصلصال آخذة بالتيبس، وهناك الفرن الذى توجد فيه ثلاثمئة دمية يسأل بعضها بعضاً من أجل أية شياطين صنعوها، وهناك الحطب الذى ينتظر دون جدوى أن يُلقى به إلى النار. ومارتا تقول، إذا لم يكن لنا مستقبل هناك، فلن يكون لنا هنا أيضاً. لقد عرف سيبريانو ألجور السعادة اليوم، السماء المفتوحة لحب أُنجز معلناً، والآن ها هى من جديد غيوم العاصفة، ظلال الشك والخوف الخبيثة، يكفى رؤية ما دفعه له المركز مقابل الدمى، فحتى لو شدوا الحزام حتى آخر ثقب فيه، لن يكفيهم ذلك المبلغ لأكثر من شهرين، والفرق بين ما تكسبه البائعة إساورا مادروجا فى المتجر والصفر لا بد أن يكون عملياً صفراً آخر. وبعد ذلك، تساءل ناظراً إلى شجرة التوت، وأجابت شجرة التوت، بعد ذلك يا صديقى العجوز، المستقبل كالعادة.

www.ibtesamh.com/vb

بعد مرور أربعة أيام عاودت مارتا الاتصال، سنأتى إليكم غداً مساء. أجرى سيبريانو ألجور حساباً سريعاً، ولكن عطلة مرسيال ليست الآن، لا، ليست الآن، ماذا حدث؟ وفر الأسئلة إلى أن نأتى، أتريدين أن أجىء لإحضاركما، ليس هناك ما يستحق المشقة، سنأتى بسيارة أجرة. قال سيبريانو ألجور لإساورا إن الزيارة تبدو له مستغربة، وأضاف، اللهم إلا إذا كان توزيع أيام العطل قد تبدل بفعل خلل بيروقراطى تسبب به اكتشاف المغارة، ولكن الطبيعى فى مثل هذه الحالة أن تخبرنى بذلك دون أن تطلب توفير الأسئلة إلى أن يصبحوا هنا، يوم واحد يمر بسرعة، قالت إساورا، وغداً سنعرف. وأخيراً لم يمر اليوم بالسرعة التى تنبأت بها إساورا. فأربع وعشرون ساعة من التفكير هى وقت طويل جداً، يقال أربع وعشرون ساعة لأن الحلم ليس كل شىء، فليلاً، ربما، توجد أفكار أخرى فى رءوسنا تسدل ستارة وتواصل التفكير دون أن يدرى أحد. لم ينس سيبريانو ألجور كلمات مارتا الحاسمة عن الابن الذى سيولد، أما ولادته هنا فلا، جملة واضحة بالمطلق، بلا لف ولا دوران، وليس واحدة من توليفات الأصوات الحلقية المنظمة إلى هذا الحد أو ذاك، والتى تبدو حين تؤكد، أنها تتشكك بنفسها بالذات. والمحصلة بالتالى، وفق منطق سليم، لا يمكن أن تكون إلا واحدة، مارتا ومرسيال سيغادران المركز. إذا فعلا ذلك سيكون تهوراً، يقول سيبريانو ألجور، على ماذا سيعيشان بعد ذلك، هذا السؤال نفسه يمكن أن يوجه إلينا، قالت

www.ibtesamh.com/vb

إساورا، ولا ترانى قلقة بسبب ذلك، **لأنك** تؤمنين بالعناية الإلهية التى تسهر على البائسين، **لا**، إننى أؤمن بأنه توجد فرص فى الحياة يتوجب علينا فيها الانقياد لتيار ما يحدث، كما لو أننا نفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة، ولكننا نكتشف فجأة أن النهر قد تحول لمصلحتنا، ولا ينتبه إلى ذلك أحد سوانا، وقد يظن من ينظر إلينا أننا مشرفون على الغرق، فى حين أن مركبنا يكون أكثر ثباتاً من أى وقت آخر، عسى أن يكون الوضع الذى نحن فيه واحدة من هذه الحالات. لن يتأخرا طويلاً فى معرفة ذلك. خرجت مارتا ومارسيال من سيارة الأجرة، أنزلا من حقيبة الأمتعة بعض الحزم، أقل مما حملاه من قبل إلى المركز، وعبّر لقية عن تأثره بالركض منتشياً فى دورتين حول شجرة التوت، وعندما نزلت السيارة المنحدر لترجع إلى المدينة، قال مرسيال، **لم** نعد موظفين فى المركز، قدمتُ استقالتى كحارس. لم يجد سيبريانو ألجور وإساورا أنه من المناسب أن يبديا المفاجأة، لأنها ستبدو فوق ذلك زائفة، ولكنهما كانا مجبرين على توجيه سؤال، احد تلك الأسئلة غير المجدية التى يبدو أنه لا يمكننا العيش من دونها، **أأنت** متأكد من أن هذا هو الأفضل لكما؟ وأجاب مرسيال، **لا** أدرى إذا كان الأفضل أو الأسوأ، فعلتُ ما كان يتوجب فعله ولم أكن وحدى، فقد استقال زميلان آخران، أحدهما خارجى والآخر مقيم، وماذا عن المركز، ماذا كان ردّ فعلهم، **من** لا ينضبط لا ينفع، وأنا كنتُ قد تخليت عن كونى منضبطاً، هاتان الجملتان الأخيرتان قيلتا بعد العشاء،

www.ibtesamh.com/vb

ومتى شعرت أنك لم تعد منضبطاً، سأله سيبريانو ألجور، كانت المغارة هى القطرة الأخيرة، وقد كانت كذلك بالنسبة إليك أيضاً، وبالنسبة لزميليك أيضاً، أجل، بالنسبة إليهما كذلك. كانت إساورا قد نهضت واقفة وبدأت برفع المائدة، ولكن مارتا قالت لها، دعى هذا الآن، سنرفع كل شىء معاً، وعلينا أن نقرر الآن ما يتوجب علينا عمله، فقال سيبريانو ألجور، إساورا ترى أنه علينا أن نُسلم أنفسنا لتيار الأحداث، وعلى الدوام تأتى لحظة نشعر فيها أن النهر صار لمصلحتنا، أنا لم أقل على الدوام، صححت إساورا، بل إن هناك مناسبات، ولكن لا تولوا أهمية لما قلته، إنه مجرد تخيل مرَّ فى ذهنى، أنا أراه نافعاً، أيدت مارتا الفكرة، فهو يشبه كثيراً على الأقل ما راح يحدث لنا، ماذا سنفعل إذا؟ سأل الأب، أنا ومرسيال سنذهب للبحث عن حياتنا بعيداً عن هنا، لقد قررنا ذلك، المركز انتهى بالنسبة لنا، ومشغل الفخار انتهى، وقد تحولا بين لحظة وأخرى إلى غرباء فى هذا العالم، ونحن، سألها سيبريانو ألجور، لا تنتظرا أن أكون أنا من تنصحكما بما عليكما عمله، أأكون مصيباً فى فهمى إذا فهمتُ أنك تطلبين أن ننفصل بعضنا عن بعض، بل تسىء الفهم، فما أقوله هو أن مسوغات أحدهم قد لا تكون مسوغات الجميع، أيمكن لى أن أقدم رأياً، أن أقترح فكرة، سألت إساورا، لا أدرى فى الحقيقة إذا كان لى الحق فى ذلك، فأنا فى الأسرة منذ وقت لا يصل حتى إلى اثنى عشر يوماً، بل إننى أشعر بأنى مازلت تحت الاختبار، كما لو أننى قد

www.ibtesamh.com/vb

دخلت من الباب الخلفى، لقد كنتِ هنا منذ شهور، منذ ذلك الإبريق المشهور، قالت مارتا، أما كلماتك الأخرى التى قلتِها فسيجيبك عليها أبى، فقال سيبريانو ألجور، باستثناء أن لديها رأياً تريد تقديمه، وفكرة تقترحها، لم أسمع شيئاً آخر، ولهذا فإن أى تقدير منى فى هذه اللحظة سيكون خارج المناقشة، ما هى فكرتك؟ سألتها مارتا، إنها مرتبطة بذلك التخيل عن التيار الذى يحملنا، قالت إساورا، أوضحى، إنه أبسط أمر فى الدنيا، لقد عرفتُ ما هى الفكرة، قاطعها سيبريانو ألجور، ما هى، سألته إساورا، أن نذهب نحن أيضاً، بالضبط. تنفست مارتا بعمق، من أجل التوصل إلى أفكار مفيدة، لا وجود لما هو أفضل من أن تكون امرأة، من المناسب ألا نتسرع، قال سيبريانو ألجور، ماذا تعنى؟ سألته إساورا، أنت لديك بيتك، لديك عملك، وماذا؟ ترك ذلك كله، إدارة الظهر لكل شىء، لقد تركتُ كل شىء من قبل، أدرت ظهرى لكل شىء من قبل حين شددت ذلك الإبريق إلى صدرى، وكان من الضرورى أن تكون رجلاً كيلا تفهم أننى كنت أشدك أنت، وقد ضاعت الكلمات الأخيرة تقريباً فى انفجار مفاجئ بالبكاء والدموع. مدّ سيبريانو ألجور يده بخجل ولمس ذراعها، ولم تستطع هى الحيلولة دون مضاعفة بكائها، أو أنها كانت بحاجة لأن يحدث ذلك، ففى بعض الأحيان لا تكون الدموع التى نذرفها كافية، فنتوسل إليها راجين أن تتواصل.

www.ibtesamh.com/vb

التحضيرات للرحلة شغلت اليوم التالى كله. أولاً من أحد البيتين، وبعد ذلك من البيت الثانى، اختارت مارتا وإساورا ما قدرتا أنه ضرورى لرحلة ليس لها وجهة معروفة ولا يُعرف كيف ولا أين ستنتهى. وتولى الرجلان تحميل الأمتعة فى الشاحنة، بمساعدة من نباح لقية المشجع، فهو لا يرى ما يثير القلق فيما يبدو بوضوح كامل أنه انتقال جديد، لأنه ما كان يمكن أن تدخل حتى فى رأسه ككلب فكرة إنهم ينوون هجره مرة أخرى. طلع صباح يوم الرحيل بسماء رمادية، كان المطر قد هطل ليلاً، وكانت تُرى فى الفناء، هنا وهناك، برك ماء صغيرة، وكانت شجرة التوت المتجذرة فى الأرض إلى الأبد لا تزال تقطر ماء.

أنذهب، سأل مرسيال، فلنذهب، قالت مارتا. صعدوا إلى الشاحنة، الرجلان فى المقعد الأمامى، والمرأتان فى الخلف، ولقية بينهما، وعندما كان مرسيال على وشك التحرك بالسيارة قال له سيبريانو ألجور فجأة، انتظر. خرج من الشاحنة واتجهت خطواته نحو الفرن، إلى أين هو ذاهب؟ سألت مارتا، ما الذى سيفعله، دمدمت إساورا. فُتح باب الفرن، ودخل إليه سيبريانو ألجور. وبعد قليل خرج، كان بالقميص، ويستخدم السترة فى حمل شىء ثقيل، عدد من الدمى، لا يمكن أن يكون شيئاً آخر، يريد أخذها معه كتذكار، قال مرسيال، ولكنه كان مخطئاً، فقد اقترب سيبريانو ألجور من باب البيت وبدأ يصف الدمى على الأرض، واقفة، ثابتة على الأرض المبللة، وعندما صفها كلها عاد إلى الفرن، وفى هذا الوقت كان

www.ibtesamh.com/vb

الركاب الآخرون قد نزلوا من الشاحنة، لم يوجه أى منهم أسئلة، بل دخلوا واحداً فواحداً إلى الفرن كذلك وراحوا يُخرجون الدمى إلى الهواء الطلق، هرعت إساورا إلى الشاحنة لتبحث عن سلة، عن كيس، عن أى شىء، وأخذت الدمى تشغل شيئاً فشيئاً الحيز الذى أمام البيت، وعندئذ دخل سيبريانو ألجور إلى مشغل الفخار وأخرج بحذر عن الرفوف الدمى المعطوبة التى جمعها، وضمها إلى أخواتها السليمة، ستتحول تحت المطر إلى طين، ثم إلى تراب عندما تجففها الشمس، ولكن هذا هو قدرنا جميعاً، والآن لم تعد الدمى تقوم بالحراسة أمام البيت وحده، وإنما تدافع كذلك عن مدخل مشغل الفخار، وفى النهاية سيكون هناك أكثر من ثلاثمئة دمية تنظر مواجهة: مهرجون، بهاليل، رجال اسكيمو، موظفو مندرين صينيون، ممرضات، أشوريون ملتحون، وحتى الآن لم يقلب لقية أى دمية منها، لقية كلب واعٍ، حساس، بشرى تقريباً، لا يحتاج لأن يُشرح له ما الذى يحدث هنا. أغلق سيبريانو ألجور باب الفرن وقال، الآن يمكننا الذهاب. قامت الشاحنة بالمناورة ونزلت المنحدر. وبالوصول إلى الطريق العام انحرفت إلى اليسار. كانت مارتا تبكى بعينين جافتين، وإساورا تحتضنها، بينما لقية يحك جسده بحافة المقعد لأنه لا يعرف لمن يهرع. بعد قطع عدة كيلومترات قال مرسيال، سأكتب إلى أبوى عندما نتوقف للغداء. وبعد ذلك توجه إلى إساورا وصهره، لقد علقوا إعلاناً، احد تلك الإعلانات الضخمة، على واجهة

www.ibtesamh.com/vb

المركز، وأراهن أنكما لن تخمنا ما يقوله، فأجاباه كلاهما، **ليست لدينا أية فكرة**، وعندئذ قال مرسيال كأنه يرتل، **قريباً جداً، يُفتتح للجمهور كهف أفلاطون، وسيلة جذب حصرية، وحيدة فى العالم، اشتر تذكرة دخولك.**

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «إنتر».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية نجوى شعبان، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

www.ibtesamh.com/vb

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ إيتالوكالڤينو. رواية (عدد خاص) جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء / للكاتب التركى أورهان باموق ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط/ للكاتب المصرى إبراهيم عبدالمجيد ـ أدب رحلات - «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة / للكاتب المصرى محمد كامل حسين ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء / للكاتب الجنوب أفريقى ج . م . كوتسى ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب / للكاتبة الجنوب إفريقية مارى واطسون ـ متتالية قصصية / «جائزة كين» .

١٧ ـ شوشا / للكاتب البولندى اسحق باشيفيس سنجر/ رواية / «جائزة نوبل».

١٨ - شارع ميجل/ للكاتب من ترينداد/ ف. س. نايبول. رواية/ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

www.ibtesamh.com/vb

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ «جائزة بن مالامود».

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ «جائزة الجونكور».

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. «جائزة نوبل».

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. «جائزة چورج بوشنر الكبرى».

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. «جائزة بيرييارووبيا».

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. «جائزة البوليتزر».

www.ibtesamh.com/vb

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. «جائزة نوبل للآداب».

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. «جائزة البوكر».

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. «الجائزة الوطنية للآداب».

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. «جائزة الأورانج».

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كوتسى.. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة نادال».

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. «جائزة الفيمينا».

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. «جائزة بلانيتا».

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. «جائزة البوكر».

www.ibtesamh.com/vb

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية دوريس ليسنج.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. رواية.. «جائزة نوبل».

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية انجريد توبوا.. رواية.. «جائزة الرواية الأولى فى فرنسا».

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى. «جائزة نوبل» ٢٠٠٣.

٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو.. «جائزة نوبل» ١٩٩٨.

٣ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية.. دوريس ليسنج.. «جائزة نوبل» ٢٠٠٧.

www.ibtesamh.com/vb

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesamh.com/vb

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يوليو 2015 **

www.ibtesamh.com

www.ibtesamh.com/vb

** معرفتي **
www.ibtesamh.com/vb

الرواية

يحيلنا "ساراماجو" منذ أفتتاحية الرواية إلى أسطورة كهف أفلاطون فى "الجمهورية": (يالغرابة المشهد الذى تصفه ويالهم من سجناء مستغربين. إنهم مثلنا) فامثولة "أفلاطون" حول طبيعة الإنسان هى "تصور أن هناك كهف تحت الأرض.. له مدخل طويل يمر منه النور، وفى الكهف أناس سجنوا فيه منذ طفولتهم، أرجلهم وأعناقهم مقيدة تضطرهم إلى البقاء ثابتين، لا ينظرون إلا أمامهم لأن القيود تمنعهم من الإلتفات، ووراءهم وفى موضع أعلى من موضعهم ضوء نار مشتعلة بعيداً عنهم، وبين النار والمقيدين توجد دكة مرتفعة، وعلى إمتداد الدكة أقيم جدار منخفض مثل الحاجز الذى يفصل بين جمهور المشاهدين المقيدين والمشعوذين الذين يعرضون ألعابهم المدهشة".

وأمثولة "ساراماجو" تتمثل فى أن الإنسان المعاصر يعيش الوضع نفسه الذى يعيش فيه شخوص أفلاطون المقيدون.. إنه يقضى وقته محبوساً فى غرف ضيقة، يتأمل صوراً على شاشات التليفزيون أو الكمبيوتر، بعيداً عن الإتصال المباشر بالطبيعة أو بأمثاله من البشر ولهذا وحيال إمكانية هجرة مشغل الخزف والإنتقال للعيش فى المركز التجارى الذى يمثل الحداثة، تختار أسرة "اليجور" التى تدور حولها أحداث الرواية.. التخلى عن كل شئ والخروج فى رحلة بلا وجهة معروفة ودون معرفة كيف أو أين ستنتهى.

الروائى: جوزيه ساراماجو كاتب برتغالى.
الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب ١٩٩٨.

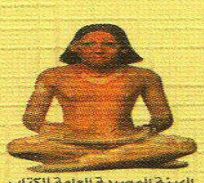

ISBN# 9789774209079

الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb